

إظهار العصر لأسرار أهل العصر

تاريخ البقاعي

القسم الثالث

محرم ٨٦٣ هـ - ذي الحجة ٨٦٥ هـ

تأليف

إبراهيم بن عمر البقاعي

٨٠٩ - ٨٨٥ هـ = ١٤٠٦ - ١٤٨٠ م

دراسة وتحقيق

الدكتور محمد سالم بن شديد العوفي

الأستاذ المشارك

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - بالرياض

بسم الله الرحمن الرحيم

إظهار العصر لأسرار أهل العصر

تاريخ البقاعي

الطبعة الأولى
١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م

وفي يوم الخميس ثاني محرم سنة ثلاثٍ وستين وثمانمائة ، خُلع على الزَّيْن الإسْتَدار بالوظيفة التي يُسمى صاحِبُها ملك الأمراء [1] ، وهي الحكم على جميع حكام ريف مصر ، من الكُشَّاف وأمراء العَرَب وغيرهم ، وعلى تاج [2] الدين بن المقْسي بكتابَة المماليك .

وفي هذا الحد ، وصل الَّذين كانوا في الجُون ، لقطع الأخشاب ، وأخبروا بما كانوا كَتَبوا به من إتيان مراكب من العدوّ إليهم ، وأنّهم انتصروا عليهم ، وقتلوا منهم كثيرًا ، وقُتل من المسلمين دون العَشرة .

وفي هذه الحدود مِن هذا العام ، والَّذي قبله كثرت آثار شهود الزّور ، فأظهر شخصٌ يُقال له عبد القادر بن مصطفى في السَّنَةِ التي قبل هذه على شخص حَلَبِي كان بينه وبين أبيه معاملة ، مسطورًا بأربعمائة دينار ، وكان الشَّرَف الأنصاري ، صِهْر ابن مصطفى ، وكان الدويدار الكبير يونُس صديق الأنصاري ، فطلب هذا الحلبيُّ إليه وألْزَمه بالمال وقبضه ؛ فأطمعه ذلك في غيره ، فأخرج مسطورًا آخر على شخص من أكابر التجار في مصر ، بل هو أكْبرهم وأقدمهم ، يُقال له محب ، وهو من بلاد الشَّرقِ بثلاثة آلاف وخمسمائة دينار ، بخطٍ يشبه خطَّ محب الدين العبادِي ، وهو توريقة [3] وفيه رسمُ شهادَته ، ورسم شهادة أبي الخير الزِّفتاوي ، والاثنان ميّتان ، فأريد إثبات ذلك على الخط ، وكان عند

(١) راجع « هامش ٢ » من (ص ١٠٥) من القسم الثاني .

(٢) خبر الخَلْع في : « النجوم الزاهرة » (١٦/ ١٢٧) ، وفيه أن ذلك كان يوم الثلاثاء سابع المحرم ، راجع الخبر أيضًا في « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٦٠) .

(٣) توريقه : جاء في « العصر المماليكي » (٤٦٢) : « ورَقة ، جمعها أوراق ، أُستعملت في عصر المماليك بمعنى الصَّكُّ الذي يكتبه المدِيْنُ للدائن » .

قاضي المالكية ، الحسام بن حُريز ، توقّف في الأمور وتحرّز ؛ فتوقّف في ذلك لعادته ولِعِظَم المال الذي في هذا المسطور ، وسمع محب ، فطار عقله من ذلك ، ودار على الناس فألقى في قلوب الناس قاطِبةً أن ذلك زور [١٩٨] بقرائن ، منها أن مصطفى أبا عبد القادر مات مِن مدّة طويلة وضيّع ابنه تركته ، وأملق [١] حتى باع قليله وكثيره ، وباع كُتبًا نفيسة كان تغالى فيها وحصَّلها في مدد طويلة بأبخس ثمن ، ولم يُذكر هذا المسطور حتى مات شاهداه كلاهما ، ومنها أنَّ محبّاً في غاية المِلْأةِ [٢] لم يشهر أنه استدان قط ، ولا حاله حال من يستدين ، ومنها أن أباه كان في خدمة المحب يسترزق من فضله ، وكان دلاّلاً مَرَّة ، وسمسارًا أخرى ، كل ذلك وهو من أتباع محب ، ومنها أنه لما استقل بنفسه لم يُعرف أنَّ جميع متجره وصل إلى هذا المقدار الذي هو مسطور واحد ، ومنها أنه كتب وصيّةً ذكر فيها قليله وكثيره حتى ذكر أمورًا تافهة ، حتى قيل إنه ذكر فيها غِرْبالاً ، ولم يذكر هذا المسطور بعبارة ولا إشارة ، ومنها أنّه كان في غاية الخِسَّةِ والذِّكْر لما يغيب من ماله ، فكان إذا مطله شخصٌ ولو بشيء يسير ، صار يذكره في غالب أحيانه ، ويقول : حرمني مالي ، ولم يذكر هذا قط ، ومنها أن الشاهدَين اللذين ادَّعى أن الوثيقة بخطِّهما كان لهما رفيق في دكانهما يُقال له : شمس الدين الشباسي وهو أعرفهم ، ويليه في المعرفة أبو الخير ، فكانوا إذا كتبوا شيئًا فإن كان الشباسي حاضرًا كان هو المورق ورفقته يرسمون شهادَتهم فقط ، وإن لم يحضر وحضر أبو الخير كان هو المورق ، وكان العبادي راسماً شهادته فقط ، فإنّه كان ضعيف الخطّ والمعرفة بالصَّنعة ، فجاء هذا المسطور على خلاف العادة

---

(١) أمْلَق : أي افتقر ، وأصله من الملْق وهو التليين ؛ لأن الفقر والحاجة تذلُّ الإنسان وتليّنه .
« لسان العرب » (١٢/ ٢٢٥) ، و « القاموس المحيط » (٣/ ٢٩٣) ، و « محيط المحيط » (٨٦٢)

(٢) المِلأة : أي الامتلاء .
« المعجم الوسيط » (٢/ ٨٨٢) .

بخط العباديّ وليس للزفتاوي فيه إلا رسم الشهادة ، ومنها أنَّ للزفتاوي في رسمه لاسمه عادتين : قديمة وحديثة ، فالقديمة كتابة الزفتاوي بواو والحديثة الزفتاي بلا واو ، وهذه من الحديثة وهي بواو ، هذا ما يتعلق بالأمور الخارجية ، وأما ما يتعلق بقوة الخط وضَعْفِه ، فقيل : أنه كان فيه أيضًا ما يدل على زوره .

ولما اشتدّ توقف المالكي ، قام الشرف الأنصاري في مساعدة صِهْره ، ودار على الأكابر ، السلطان ومن له عنده كلمة ، فقيل فرَّق في الوعد برشوتهم ثلاثة آلاف دينار ، فقويت شوكتهم ، ثم اجتمع محبّ بمن أوصل أمره إلى السلطان ، وعطف خاطِره عليه ، فعُقد له مجلسٌ بقضاة المالكية ، وكُتب على مسطور ابن مصطفى ما أفسده ، ونُقل عن ابن مصطفى ، أنّ عنده مساطر من ضْرَبه بأزيد من عشرة آلاف دينار .

ولما مات ناظرُ الخاص[1] وَولِيَ الأنصاري نظر الجيش ؛ قويت شوكة ابن مصطفى فأعيد الكلامُ ، وأخذ الأنصاري ألواح العبادي إلى يونُس الدويدار ، فشهد أن المسطور بخط أخيه ، وأثنى على أخيه كعادته ثناءً جعله فَرْدَ زمانه في الدِّيانة والصِّيانة والورع ، مع أنّي أنا رأيت أخاه يبول في الطريق مع قرْب بيته ، وشهد العبادي عند شخصٍ من أمراء الأشرفية اسمه قيت باي ، وكانت له شوكة بمصاهرة عَلي بن خصبك ، صهر السلطان ، واستنهض لابن مصطفى فنهض ، فعقد لهم مجلس بقضاة القضاة عند الدويدار الكبير يونُس ، فحضر القضاةُ إلاَّ الحنفي أنف من حضوره في مجلس غير السلطان ، فوقع الكلام في القضية ، فأظهر المالكي الرِّيَب التي قامت عنده ، وتبرأ من الحكم فيها بشيء، فأسمع قيت باي ماساءه ، فحلم عنه، ثم طلبوا من محب مصالحته فأبى ،

(١) وهو : الجمالي يوسف بن كاتب جكم .

فنوزِل إلى ثلاثمائة دينار فأبى ، وكان ابن مصطفى مائلاً إلى الصلح ، فظهر لقيت باي بطْلان مستنده بذلك ، ثم انفصل المجلس ، فأُلْقَى الله في قلبه الرُّعب فتبارى مع محب ، وكتب بأنه لا يستحق عليه شيئًا ، وبَطَلَ في ذلك القال والقيل والحمد لله .

ثم ظهر مسطورٌ على القاضي بهاء الدين محمد بن القاضي نجم الدِّين عمر بن حِجِّي الحُسباني الشافعي بأنّه وضع يَدَه على تركة عتيقة بعض الأكابر ، وَقُوِّمت أمتعة تلك التّركة بما يُقارب ستة آلاف دينار ، والدَّعي بذلك شخصٌ بريدي ، يُقال له ابن سُودُون ، ونُسب الحكمُ في ذلك المسطور إلى البرهان بن قاضي عجلون الزّرعي الشافعي ، أحد نوّاب الشافعية بدمشق ، ونفذ على العز المحلِّي أحد نواب الشافعية بالقاهرة ، بعد أن عُرض على قاضي الشافعية العَلَم البُلْقيني ، فلما ظهر على المسطور سَيّدي يحيى [1] بن القاضي بهاء الدين بن حجي وأقاربه ارتاعوا ، ثم فتَّشوا أوراقهم ، ليجدوا ما يدفع هذا المسطور فلم يَجِدوا فكان ابن سُودُون المُظَهر لهذا المسطور المدّعى به يَسْتَبْطِنهم ويبرق ويرعـد ، فاطلَّعوا على أنّ تهديده لا حقيقة له ، فتأمَّلوا المسطور ، وأرَوْه لبعض من يلابس أحوالهم من حذَّاق الشهود ، فظهر له أنَّ خط العلائم التي فيه للقاضي ورسوم الشهادات ليست خطّ من يكتب لنفسه ، بل خط من يُحاكِي خطّ غيره ، ثـم أحـضروا أحكامًا عندهـم لابـن قاضي

---

(١) هو : يحى بن محمد بن عمر أو بن أحمد بن حجي بن موسى بن أحمد بن سعد .. النجم أبو زكريا بن البهاء بن النجم ، الحسباني الأصل الدمشقي ثم القاهري الشامعي ، المعروف بابن حجي ، وُلد يوم الجمعة ٧ شوال سنة ٨٣٨ هـ بدمشق ، وقدم القاهرة بعد سن التمييز ، وقرأ على أشهر علمائها في فنون مختلفة ، استقر بعد والده فيما كان باسمه من التداريس والأنظار وغيرها ، كالشامعية البرانية ، والناصرية البرانية والجوانية ، والرواحية والأسدية ، كما ولي نظر الجيش بالقاهرة ، مات في يوم الثلاثاء ١٤ ربيع الأول سنة ٨٨٨ هـ .

له ترجمة في : « الضوء اللامع » (١٠/ ٢٥٢ رقم ١٠٣٠) ، و « بدائع الزهور » (طبعة بولاق) (٢/ ٢١٨) .

عجلون ، فازدادوا معرفة بذلك ، ثم تأمّلوا نفس المسطور وما فيه من الفصول ، فوجدوا فيها تناقضًا ؛ فقوي ظنهم ، فتوعّدوا [١٩٩] ابن سُودون فخارت قُوَاهُ ، فأحضروا القاضي عز الدين المحلي المنفذ فلم يعجبهم كلامه ، واستند على بعض الشهود ، فأحضر ذلك الشاهد فكذّبه ، ففحصوا عن شهود الأصل ، فعثروا على بعضهم ، فإذا هو رفيق ابن خطيب قَرَتِيًا ، الذي تقدم أن السلطان قطع يده ، فاعترف لهم بالزّور ، بعد أمورٍ يطول شرحها ، ثم أحضر الشّاهد الثاني ، فاعترف أيضًا ، وفحصوا فإذا المرتِّب لهم في ذلك شخصٌ يُقال له : بدر الدِّين محمد [١] بن الإمام بدر الدين حَسَن البنبي الشافعي ، وكان هذا مشهورًا بالزّور [٢] ، وكان أحدَ أتباع القاضي كمال الدين البارزي جد سيدي يحيى بن حجّي لأمه ، وغرْس نعمته ، والمورق لبعضه شخص ، يُقال له : محب الدين محمد بن عصفور المُكْتِب فأوصلوا الأمر بالسلطان ، فضرب المدَّعِي ، والقاضي ، والشهود ، والمورق ، وأُخذت المستندات منهم ، وكُتب عليها بالإبطال ، وحصل للقاضي الشافعي بذلك خِزي ، تعدّى إلى زوجته وابنها الزين أبي بكر بن مُزهر ، وأغلظ لهم السلطان وابنه وزوجته ، ولكن القاضي الشافعي لتكرُّر تجرِّيه على مثل ذلك من الفساد قَوِيَ وَجْهُهُ ، وغلظ طبعه عن أن يستحي لمثل ذلك والله الموفق .

وفي يوم السبت رابع محرَّم سنة ثلاث وستين هذه ، قَدِم بشير الحاج ، وجاء كتاب محقق زمانه الشيخ أبي الفضل المغربي يخبر : أنَّ الناس

---

(١) هو : محمد بن حسن بن إسماعيل ، البدر بن البدر البنبي القاهري الشافعي ، وُلد في ذي الحجة سنة ٨٠١ هـ ، سمع على عدد من علماء عصره ، وتكسب بالشهادة ، واشتهر بالتجوز في شهادة الزور ، مات سنة ٨٦٥ هـ .

له ترجمة في « الضوء اللامع » (٧/ ٢١٩ رقم ٥٤٤) .

(٢) يقول عنه (السخاوي) في « الضوء اللامع » (٧/ ٢٢٠) : « .. واستمر مشهور الأمر بالوقائع الشنيعة ، حتى آل أمره إلى المشي في تزوير تركة البهاء بن حجي ... وقبل ذلك رام التزوير على وكيل بيت المال الشرف الأنصاري .. » .

اختلفوا في أوّل ذي الحجَّة ، فحصل اضطرابٌ في الوَقْفَة لذلك ، وكذا جاء في كتب غيره ، ونص كتاب الشيخ : « وأمَّا أمر الوقفه فإن أهل مكة وأهل جُدَّة ، وأهل اليمن ، والعُقَيليين من أهل العراق ، نظروا واجتهدوا ، فلم يروا ليلة الاثنين شيئًا أصلاً ، ولم تكن بالسماء عِلَّة ، ولما قَدِم أهلُ الشام ، شهد قاضي الرَّكب ، زين الدِّين عبد الرَّحمن بن قاضي عجلون ، أخو نجم الدِّين ، أنه رآه ليلة الاثنين ، وشهد معه لفيفٌ من أهل الشام نحو من أربعة ، وحكوا أنَّ نفرًا من أهل حلب نحو من ثلاثة رأوه ليلة الاثنين ، فتوقف القاضي في ذلك ، وأفتى جماعةٌ من الحنفية ، أن هذا العدد اليسير لا يكفي عندهم مع نظر خلق كثير في الصَّحْو ، وشكّ الشافعية في اختلاف المطلَع واتحاده ، فلم يجزموا بشيء ، فصعد الناس يوم الثلاثاء إلى عرفات ، ووقف غالبُ الناس ، ورأيت أميرَ الحجِّ واقفًا عند الصخرات على فرس ، وناموا بعرفات ، وفى ضحى الأربعاء كتبت هذه العجالة ؛ لاستعجال حامِلها على أخذ الكتب ، وعزم الحاج كله على الوقوف من الزوال إلى الليل ، وقصدوا بذلك الاحتياط ، والسَّلام » .

وفي يوم السبت هذا ، ماتت المسنده الخيِّرة جويريه [1] بنت شيخ الإسلام زين الدين عبد الرحيم بن الحسين العراقي رحمهم الله ، وصلّى عليها في جامع الحاكم ، قاضي الشافعية ، العَلَم صالح البُلقيني ، وحضر ذلك جمعٌ جمّ ، من القضاة ، والفقهاء ، وسائر أهل الخير ، منهم : قاضي الحنفية ، السَّعد الدَّيري ، وقاضي الحنابلة العز أحمد بن

---

(١) هي : جويرية ابنة عبد الرحيم بن الحسين بن عبد الرحيم ، أم الكرام ، ابنة الحافظ الزين أبي الفضل العراقي الأصل القاهري الشافعي ، قيل : أنها ولدت قبل سنة ٧٨٨ هـ وقيل : أواخر سنة ٧٩٢ هـ ، وكانت خيِّرة صالحة محبة في الحديث ، سمع منها عدد من الأئمة .

لها ترجمة في : « عنوان الزمان » (مخطوط) (١٩٠) ، و « الضوء اللامع » (١١/ ١٨ رقم ٩٦) .

إبراهيم بن نصر الله العسقلاني ، والشريف [1] بدر الدِّين حسن النسابة، ودُفنت بالصَّحراء .

وفي بكرة يوم الأحد [2] خامس الشهر زُلْزِلَت الأرضُ ، فانتفضت البيوت ، حتى كانت الجدران ، كأنها أغصان شجرة ، ضربها الهواء ، فذهبت وجاءت غير مرَّة ، أظنها ثلاثًا ، وأخبرني بعض أصحابي أنها خمس ، وكانت في القاهرة خفيفة ، وكانت في بعض الأماكن أشدّ من بعض .ثم ورد الخبرُ بأن بلاد الخليل زُلزلت في ذلك الوقت ؛ فوقع بعض مئذنة سيدي على البكاء ، ووقع أكثر بيوت قرية نصارى ، بالقرب من هناك .

وأنها كانت في بلاد القدس كذلك على وجهٍ مهول ، حتى اختلّ كثيرٌ من الأبنية المحكمة ، ووقعت بعضُ البيوت ، بحيث قُتِل في بعض القُرى ثلاثة أنفس بالهدم ، ومن أعجب ما سُمع [في هـذا [3]] مـا حدثني

(١) هو : حسن بن محمد بن أيوب بن محمد بن حسين .. البدر أو الحسام بن ناصر الدين ابن نجم الدين القاهري الشافعي ، المعروف بالشريف النسَّابة ، وُلد في أواخر سنة ٧٦٧ هـ ، بالقاهرة ، ونشأ بها ، وأخذ عن أبرز علمائها في الحديث ، والفقه ، والنحو ، وصنف في الفقه تصانيف منها : «شرح تنقيح اللباب للعراقي » ، و « نزهة القصَّاد في شرح كفاية العقاد لابن العماد » ، و « شرح الإبريز فيما يُقدَّم على مؤن التجهيز » ، مات في مستهل صفر سنة ٨٦٦ هـ .

له ترجمة في : « عنوان الزمان » (مخطوط) (١٩٤ ـ ١٩٥) ، و « الضوء اللامع » (٣/ ١٢١ رقم ٤٧٢) ، و « نظم العقيان » (١٠٤ رقم ٦٧)

(٢) في « حوادث الدهور » (٣١٩) في يوم الخميس تاسعه ، راجع الخبر أيضًا في « بدائع الزهور (صفحات لم تنشر) (٦٠) .

(٣) ما بين الحاصرتين غير واضح الرسم في الأصل ، والتصحيح من مفهوم السياق .

الفاضل شهاب [1] الدين بن عُبَيَّة القدسي ، أنَّه كان ذاهبًا إلى المدرسة الصَّلاحية بكرة الأحد المذكور ، فلما صاروا عند بيت الشيخ تقي الدِّين القرقشندي ارتجت الأرض والجدران رَجَّةً شديدة ، بحيث سمعوا قعقعة النحاس من بيت القرقشندي ، قال : تَعجَّبنا من ذلك ، وتساءلنا عنه ، ثم إذا هي قد رجَّت رجة أكبر من الأولى ، وإذا الجدران تضطرب ، قال : وشاهدت خمسة أحجار من جدار القرقشندي مع إحكامه قد برزت من الجدار ، فكانت على هيئة القُبَّة ، وسقط منها حصاة صغيرة ، ثم رجعت إلى مكانها فالتأمت كما كانت سواء لم يُفقد منها شيء ، ولا اللزاق الذي بينها ، قال : فأيقنت أن بيتنا لم يبق به [جدار] ؛ لكونه رثّ القوى ، فرجعت إليه ، فوجدته سالمًا لم يسقط منه حجرٌ واحدٌ . قال : وَحَدَّث النَّصارى عن القبة التي لهم إلى جانب القمامة غربًا أنها انشقت كلها إلى أن رأوا النور منها ، ثم التأمت كما كانت ، ولما سمعوا أنّ بعض أبنية المسلمين انهدم حتى المآذن شمتوا ، وقالوا : هذا من سوء نيَّاتهم ، فلما كان الليل سقطت تلك القبة التي أطغتهم .

ثم أخبرت عن الرَّملة ، أنها كانت بها شديدة ، وأن بعض مآذنها سقط بعضه ، وبعضها انشق ، وأنها كانت بدمشق في ذلك الوقت ، لكن كانت خفيفة ، وأنّ الكرك زُلزلت في ذلك اليوم أيضًا ، فوقع بعض السور ، ومات به ناسٌ ، منهم ابنان لنائب البلاد ، وعياله لم يَسْلَم منهم إلاّ زوجته ، والله المسؤول في إصلاح الحال ، بتوفيق الحكام آمين .

ثم استفتى نصارى القدس في إعادة القُبَّة التي إلى جانب قمامة ، فنُقِلَ أن السَّعْد بن الدَّيْري أفتاهم بإعادتها ، وأخذوا مرسومًا على حكم

---

(١) هو : أحمد بن محمد بن محمد بن عُبَيَّة الشهابي الحلبي الأصل المقدسي المولد الشافعي نزيل دمشق ، المعروف بابن عُبَيَّة ، له نظم جيد وخط حسن وخبرة بالوعظ ورياضة ، ولي قضاء القدس وقتًا ثم أُمتحن وأُهين وأقام في الشام يسترزق من الوعظ .

ترجم له (السخاوي) في « الضوء اللامع » (٢/ ١٨٥ رقم ٥١٢) ولم يذكر تاريخ مولده أو وفاته

الفتـوى ، فقام في ذلك جماعةٌ من أهل الخير بالقدس ؛ لكونها لا يمكن إعادتها إلاّ بآلة جديدة ، فبطل ذلك ، وجهز مرسوم بأنهم لا يفعلون إلاّ ما يقع الإتِّفاق عليه ، فلم يؤذن لهم في إعادتها .

[٢٠٠] وفي هذا الشهر ، كثر قدوم الناس إلى القاهرة من المباشرين والقضاة والنواب وقصَّادهم ، ما بين ساعٍ في تجديد ، وساعٍ في تثبيت ، فأوّل قادمٍ زين الدين ، ناظر جيش غزَّة ؛ لأنه كان مختصًا بالجمال ناظر الخاص ، وكان له حُسَّادٌ كثر ، فخاف عواقبهم ، فنزل عند خزندار الأمير الكبير الشهابي أحمد ولد السلطان ، وجعل الأمير الكبير واسطته ، وأرضى السلطان ، فمن دُونه ؛ فخلع عليه ، وثبت له ما معه . وجاء حاجب غزَّة ابن الملطي عقبه ، فشُكي عليه بأنه أخرب البلاد ، وأكل الأموال ، وإن حوسِب ظهر في جهته مائةُ ألف دينار للسلطان ، فلم يُقبل فيه شيء من كلامه ، بل وعُزل الحاجب بسبب ذلك ، ثم جاء قصّاد بعض النواب ، فجدد العهد بالخدمة بالمال ، وذهب وجاء ابن أيوب [١] التركماني ، نائب القدس والخليل ، فغضب عليه السلطان ؛ لغضب ولده ؛ لأنه كان أخْرَب بلدة بيت نوبا [٢] مع ما أخربه من غيرهـا ، ومع السيرة الشنيعة التي لا تُحكى ، وإخراب البلاد ، وإهلاك العِباد ، فحبسه في [٣] البُرْج ، ثم ضربه في أواخر هذا الشهر ضربًا كثيرًا ، يقال أنه نحو ألف عصى ، وصار الأمير بُرْدُبَك الدويدار ، وهـو يُضْرب

نائب القدس

---

(١) لعله : حسن بن محمد بن أيوب الكردي ، ذكر (ابن إياس) في « بدائع الزهور » (طبعة بولاق) (٢/ ١٨١) أنه مات في ذي الحجة سنة ٨٨٢ هـ وقد شاخ وناف على ٨٠ سنة ، وكان رئيسًا حشمًا لا بأس به .

(٢) بيت نوبا : جاء في « معجم البلدان » (١/ ٥٢٣) أنها بليدة من نواحي فلسطين .

(٣) كان ذلك في ٢٥ محرم .

« حوادث الدهور » (٣١٩) .

يقول له : لِـمَ أخربت بلاد السلطان ، ثم أخربت بلد الخليل ، ثم أفسدت الطرق ، ثم أسأت السيرة إلى الخلق ، ونحو هذا الكلام يُرضي بهذا السلطان ، ثم بلغني أنه في غاية المساعدة له في الرجوع إلى القدس على عادته ، فإن كان كذلك فلا أعانه الله ؛ لأنه لا دِين ، ولا مروءة ، ولا شجاعة ، ثم اشتدَّ غضب السلطان عليه ، فجعل في رجله قَيْدًا ، وطلب منه ثمانية آلاف دينار ، وولى شخصًا [1] من مماليك طُوغان العثماني نيابة القدس . وسعى شخصٌ من أقارب الباعوني ، يُقال له محبّ الدين محمد بن عبد الرَّحيم في قضاء الشافعية بطرابلس عَنْ [2] ... الدين بن الهكاري ، فأجيب ، وولى ثامن عشر الشهر [3] ، وهو لا علْم ولا دِين ، ثم قدم ابنُ عمِّه جلال الدين بن عبد القادر ؛ يسعى على ابن عمِّه ، وخاله جمال الدين الباعوني في قضاء دمشق ، ويُزنّه [4] بإمور قاتله الله على اختلاقها ، ولا بَلَّغه مرادًا ؛ فإنا ما سمعنا بقاضٍ في هذا أعفّ ، ولا أحسن سياسة وأجمل طريقة من الجمال ، فوعد بستَّة آلاف دينار ، فوفَّق الله السلطان وألهمه رُشده ؛ بأنهم لما ذكروا له ذلك ، قال : من ذكر لي الجمال الباعوني بسوءٍ نكلتُ به . وقدم مسند [5] أخو القطب الخيضَرِ

---

(١) جاء في « النجوم الزاهرة » (١٦/ ١٢٧) أنه إياس البجاسي ، حيث استقر في نيابة القدس في ٤ صفر بعد عزل البدر حسن بن أيوب .

راجع أيضًا « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٦١) .

(٢) بياض في الأصل بمقدار كلمة ، لم نجد ما يصححه في المصادر الأخرى .

(٣) في « حوادث الدهور » (٣٢٠) أن استقراره في قضاء طرابلس كان في ٢٦ محرم .

راجع خبر توليته أيضًا في « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٦١) ، وقد ذكر أن ذلك كان في شهر صفر .

(٤) يُزنّه : يتهمه .

« لسان العرب » (١٧/ ٦١) ، و « القاموس المحيط » (٤/ ٢٣٤) .

(٥) هو : « مسند بن محمد بن عبد الله ، أخو القطب الخيضري لأبيه ، كان على طريقة أسلافه في=

ورسوله ، فسعى بواسطة الأمير يَزْبُك صِهر الظاهر في إعادة كتابة السر إلى أخيه ، فأُجيب ، وأخذ خِلعة أخيه ، ليذهب بها ، فزاد العلاءُ بن مُفْلِح في الذهب فأُجيب ، وأُخذت الخِلعة من قاصد الخيضري وثُبِّت أمرُ ابن مُفْلِح (١) .

وصار الناسُ يتهافتون بعد ذلك الزمان تهافت الذّباب ، وكلّ واحدٍ من الأكابر يُعارض الآخر ، نسأل الله إصلاح الحال آمين .

وقدم ركبُ الحج على عادته في الحادي والعشرين ، والثاني والعشرين من محرَّم ، وأثنوا على أميرهم حاجب الحجاب بَرْسْباي البجاسي ، بأنه أحسن سياستهم ، وأصلح بين عرب ينبع ، وجمع بين والي تلك البلاد ، الشريف (٢) دراج بن مَعْزي ، وقريبه هجّان ، لكن أطلق السلطانُ عسَّاف بن هجان من السجن بواسطة جانبك ، ناظر جُدَّة ، فقال الحاجب ، كان الصواب تأخيره إلى أن يتقرَّر الصُّلْحُ ، وذمّ الحجاج الأجلاب الذين كانوا مع أمير الأوّل ، وهو مقدّم المماليك ، بأنهم نهبوا في مكَّة وأفسدوا ، وكانوا يلاقون التجار إلى طريق جُدَّة ، فيأخذون بضائعهم ، تارة ببعض القيمة ، وتارة بغير شيء .

= لباس العرب ، وحصَّل شيئًا كثيرًا في أيام أخيه وكان قائمًا بقضاء مآربه في القاهرة وغيرها » ، مات سنة ٨٩٤ هـ بدمشق .

له ترجمة في « الضوء اللامع » (١٠/ ١٥٩ رقم ٦٤٢) .

(١) في « النجوم الزاهرة » (١٦/ ١٢٧) أن ذلك كان يوم الخميس ثاني المحرم .

(٢) ترجم له (السخاوي) في « الضوء اللامع » (٣/ ٢١٧ رقم ٨١٤) وقال : « دارج بن مَعْزي الحسني أمير الينبوع ، استقر فيه في أواخر سنة ٨٧ [٨ هـ] عقب سبع ... ورأيته إذ ذاك في سنة ٩٨ [٨هـ] » .

كما أشار له (ابن إياس) في « بدائع الزهور » (طبعة بولاق) (٢/ ٣٣٨) في أحداث جمادى الأولى من سنة ٩٠٣ هـ ، وذكر أنه في هذا الشهر قُرِّر يحيى بن سبع في إمرية الينبع عِوضًا عن دراج بحكم صرفه عنها .

وفي هذا الحد ، مات شيخ الطائفة الرفاعية ، الشيخ إبراهيم بن الشيخ محيي الدين فولّى مكانه أحمد بن الشيخ إبراهيم المعروف براجح بن عبد الرحيم وسنه نحو عشر سنين ، فسعى عليه نجمُ الدين بن التكريتي بمساعدة الدُّويدار ، فعقد لهم مجلسٌ بالقضاة ، فاستقر الشيخ أحمد .

وفي يوم الخميس ، سلخ محرَّم السنة ، أُلْبِس الحسام بن حُرَيْز خِلعة باستمراره في قضاء المالكية بالقاهرة ، وذلك أنه كان أرْجَف به حسَّادُه ، وقالوا : إنه ما كان يحميه إلاَّ ناظر الخاص ، وقد مات ، فبلغ ذلك السلطان ، وكان مشكور الطريقة في القضاء ، فأثنى عليه وألبسه إيَّاها ، وطيَّب خاطِره [1] .

وفي الاثنين رابع صفر من السنة وُلِي علي بن امرأة الفَيْسي (بفتح الفاء ثـم تحتانية ساكنة وسين مهملة قبل ياء النَّسَب) حِسْبة القاهرة ومصر عن [بدر [2]] الدين بن البوشي وبرز النداء عنه أنه لا يؤخذ من أحدٍ شيء لا مجامعة ولا مشاهرة ولا غير ذلك ، حقَّق الله ذلك [3] .

وفي هذا الشهر ، وصلت زوجة الشرف موسى ابن خالة ناظر الخاص إلى القاهرة ، وتظلَّمت من المخْلَع ابن الأقساسي ، وكان معروفًا بسوء السيرة ، وفتح السريرة ، فرسم السلطانُ أن يؤتى به في زنجير ، عجَّل الله ذلك .

وفي أوائل هذا الشهر رجم شخصٌ من العبيد صبيًا ، فقتله ، فطلعوا به إلى السلطان ، فأمر بقتله .

---

(١) الخبر في « حوادث الدهور » (٣٢٠) .

(٢) بياض في الأصل ، والتصحيح من « النجوم الزاهرة » (١٦/ ١٢٧) .

(٣) الخبر في « النجوم الزاهرة » (١٦/ ١٢٧) ، و « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٦١) .

[٢٠١] وفي يوم السبت سادس عشر صفر هذا وسّط السلطان عند بركة الكلاب أربعة أنفس ، منهم عَبدان ، وضرب واحدًا من المماليك ضربًا عظيمًا ، ونفاه إلى بلاد الكرك ، وضرب خفير شُبْرَا ضربًا عظيمًا ؛ وذلك أن الوالي أحضرهم وأخبر أنهم كانوا يقطعون الطرقات ، ويتلصَّصون بالليل ، وأخبر الخفير أنَّ لهم رِفاقًا كثيرًا ، فأُخبر ليدل عليهم ، وأُخبرت من غير طريق أنَّ السلطان عنَّف ذلك المملوك ، وقال له : أما كنت تجد رغيف خبز عند أحدٍ من أصحابك تُغنيك عن مثل هذا . فقال له الوالي : ياMولانا ، إنه من مماليك السلطان ، راتبه ألفان في كل شهر . فاشتدَّ غضبُ السلطان إلى أن قام عن مُدَوَّرته ، ووقف في شباك الدَّهِيْشَة ، وأمر بتجريده وضربه ، وصار يقول : شُدَّ يَدَكَ إلى أن برح به ، ثم أمر بنفيه ، وشرع يستعجل الوالي ، فقال : حتى يُكتب مرسوم بذلك ، ويأخذه الذين برسمهم عليه ، فقال لكاتب السر : اكتب المرسوم الساعة ، فكتبه ، ووضعه في زنجير ونفاه وفقّه الله .

وفي يوم السبت ثالث عشري الشهر ، قَدِم ابن المِخْلَع ، الذي قال أبوه : أنه يستخلص من تعلق موسى ناظر جيش طرابلس ثلاثمائة ألف دينار ، فشتمه السلطانُ ، وشتم أباه ، وقال : مُدُّو هذا المرافع ، فوُضِع إلى الأرض وضُرب والسلطانُ يهدِّده ، ويَعيبه ، ويعيب أباه بالمرافعة ، ويُذَمِّر (١) ضاربيه إلى أن انقطع صوته وأُغمي عليه ، فقال يونُس الدويدار : يامولانا ، هذا ليس له ذنب ، إنما الذَّنب لأبيه ، فاقامَه ، ورسم أن يُشيِّع لأبيه من يُحضره سريعًا ، فسُرَّ بذلك كلُّ من في قلبه رحمة وشفقة على عباد الله ، وخاف كلُّ مُفْسِدٍ ، فالله المسؤول أن يوفقه .

وفي أواخر هذا الشهر قدم البدر بن المحلِّي قاضي إسكندرية بهدايا

---

(١) يُذَمِّر : يحض ويشجع .
« المعجم الوسيط » (١/ ٣١٥) .

كثيرة إلى السلطان وابنه ، فأعاد المرافعة على يونُس الذي كان من جهة ناظر الخاص في إسكندرية ، بأنه يُثْبت في جهته عشرين ألف دينار ، فأُعيد عليه التَّرسيم بعد أن كان أدَّى إلى السلطان أربعة آلاف دينار ، وأُطلق ، والله المسؤول أن يسلك به سبيل المخلع قريبًا .

وفي هذا الحد ، بلغ الخبرُ عن الأمراء الذين بالبحيرة أنه حصل بينهم ، وبين عرب لبيد العصاة وَقْعَةٌ ، هُزم فيها العرب ، وقُتل منهم جماعةٌ ، وأُخذ كثيرٌ من أموالهم .

موت البلاطنسي

وفي يوم الثلاثاء سادس عشري صفر هذا ، مات الإمام العلامة القدوة شمس الدين محمد [1] بن عبد الله البلاطُنُسي الشافعي ، شيخ الشاميين بلا منازعة ، عن نحو سبعين سنة بدمشق ، عن علة طويلة ، وكانت له يدٌ في كثير من العلوم ، وكان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، حتى اشتهر بذلك ، فاشتد أمره ، وعظم انقياد الشاميين له ، وبعُدَ بينهم صيتُه حتى كان آخر ذلك أنه قام على ابن الفتح [الذي [2]] كان من جهة أبي الخير النحاس ، واشتد بينهما الأمرُ ؛ بحيث اقتضى سفره إلى القاهرة بسببه ، فوجد أبا الخير قد انحط أمره بإحراق الأجلاب بيته ، مع بُغض جميع الناس له ، فاجتمع البلاطُنُسي بالسلطان الظاهر جَقْمَق ، وجميع الجند وغيرهم ، مؤيدون لكلامه ، مساعدون له ، فنصره الله بذلك وازداد أبو الخير بذلك ضِعَة ورُدّ أبو الفتح إلى دمشق ، فضُربت عُنُقه ؛ فضخم أمر البلاطُنُسي ، وظُنَّ أنه قام بأعباء ذلك وحده فطار له بذلك صِيْتٌ قلَّ أن اتَّفق مثله لأحد ، فصار يتجاوز بعض التجاوز ، ويقف مع الحظ كثيرًا ، ويخلط الأمر بالمعروف بالعنف ، ويتمسك بأوّل ما يُوْحِى

---

(١) راجع « هامش ٣ » من (ص ٦٩) من القسم الثاني .

(٢) ما بين الحاصرتين غير واضح الرسم في الأصل ، والتصحيح من مفهوم السياق .

إليه ، فمقته غالبُ الناس ، وكانوا لا يتجاسرون على مجاهرته ، إلى أن جاء قانباي الحمزاوي إلى دمشق نائبًا ، فصار يعاكسه ، وقَلّ أنصاره ؛ لما جرَّبوا منه ، فصار أمره يضعف إلى أن حمله ضيق الحظيرة من ذلك على أن حَجّ سنة إحدى وستين ، ثم رجع فمرض واستمر مريضًا إلى أن مات في التاريخ المذكور .

وفي يوم موته ، مات يَشْبُك الصُّوفي الآتي على ما بلغنا ، ولم تَطُلْ مدّةُ الحمزاوي بعدهما كما سيأتي .

موت ابن السلطان

وفي يوم الأحد ثاني شهر ربيع الأول مات أمير علي أبو محمد أحد ذرِّية السُّلطان حسن [١] ، وكان عَيْنهم والناظر على أوقافه ، وهو أبو محمد الذي كان الظاهر جَقْمَق يُقدِّمه ويأنس به في خلواته .

موت يشبك الصوفي

وفي خامس الشهر ورد الخبرُ بموت يَشْبُك [٢] الصوفي المؤيدي أتابك العسكر بدمشق وقدم سيفه ، فأُعطيت رُتبته وإقطاعه لعَلاّن [٣] أحد أكابر أمرائها وأُعطِي إقطاع عَلاّن لشادِبَك دُوْيَدار السلطان الذي كـان دويدار جُلُبَّان ، وأُعطى إقطاع شادبك لقراجا خَزنـدار الظاهـر

(١) هو : السلطان حسن بن محمد بن قلاوون ، من أولاد الناصر محمد بن قلاوون ، تسلطن يوم الثلاثاء ١٤ رمضان سنة ٧٤٨ هـ ، ولُقّب عندما أُجلس على تخت الملك بالملك الناصر سيف الدين قُماري ، فقال للنائب أرُقطاي : يا أبت ما اسمي قُماري ، إنما اسمي حسن » فصاحت الجاووشية باسمه وشهرته ، استمر في السلطنة إلى أن خُلع في جمادى الآخرة ، أو رجب سنة ٧٥٢ هـ .

« النجوم الزاهرة » (١٠/ ١٨٧ ، ٢٥٤) ، و « سمط النجوم العوالي » (٤/ ٢٧ _ ٢٨) .

(٢) راجع « هامش ٢ » من (ص ٢١٠) من القسم الأول .

(٣) هو : علاّن المؤيدي ، ويقال له : عَلاّن شِلّق أو (جِلّق) ، كان من عتقاء المؤيد ، وصار في أيامه من آخورية الأجناد ، وخرج بعده إلى البلاد الشامية وتنقل في عدة وظائف ، إلى أن صار في أيام الأشرف إينال أتابكًا لدمشق ، ومات بها في آخر يوم الأربعاء ٩ صفر سنة ٨٦٤ هـ .

له ترجمة في : « النجوم الزاهرة » (١٦/ ٢١١) ، و « الضوء اللامع » (٥/ ١٥٠ رقم ٥٢٢) وقد جاء فيه أنه توفي سنة ٨٩٤ هـ ، وهو خطأ طباعي ، و « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٦٩) .

الذي كان منفيًا في القدس ، ورسم بأن يأكله طرخانًا أي من غير خدمة ولا ركوب [1].

وفي يوم الخميس سادس الشهر ، قَدِم القاضي نور الدين البرقي من طرابلس ، فاجتمع بالمقام الشهابي ، ولد المقام الشريف ، ودار على الأمراء ، ثم طلع يوم السبت فاجتمع بالسلطان وأورد ما معه من الحساب ، وكان الشيخ أمين الدين الأقْصَرَائي ، قد اتقن مصالحه ؛ لأن بينهما صُحبة أكيدة فقُبل وانتظم أمره .

وكان الشرف الأنصاري متهمًا ببنت شَرِبَاش زوجة الظاهر جَقْمَق ، كما كان مُتهمًا ببنت طَطَر زوجة الأشرف بَرْسْباي ، وكان لا يجسر على التظاهر بزواج واحدة منهما ، فلما وُلِّي نظر الجيش ، أظهر زواج بنت شَرِبَاش ، وكان أراد أن يبني بها ليلة الجمعة رابع عشر شهر ربيع الأوّل من سنة ثلاث وستين هذه ، فقصده بعضُ الأجلاب لذلك فضربوه ضربًا كثيرًا ، مقصودًا به القتل ، ورموا عمامته ، وصار بعض من يُحْسن إليهم منهم يَلْقى عنه الضَّرْب ، ولولا ذلك لمات ، ثم إنه أحسن إلى الذين ضربوه ، فَكَفُّو عنه ولم تدخل عليه حتى طلَّق نساءه واعتزل سراريه، وله منهم أولاد ، فلم يُعْجب ذلك أحدًا .

[٢٠٢] وَعُمل مولد السلطان آخر يوم الأحد سادس عشر شهر ربيع الأوّل هذا ، وكان شَرُّ الأجلاب قد كَثُر ، وصاروا ينهبون الناس ليلاً ونهارًا ، فقلَّت حُرْمة السلطان ، وطمع العرب ، واجترأوا فقطعوا الطرقات ، واقتتلوا فيما بينهم ، واجتمع سعد ووائل على بني حرام بالشرقية ، فقُتل بينهم ناسٌ كثيرٌ واشتعلت البلاد نارًا ؛ فتوجه إليهم الأمير بُرْدْبَك الدويدار الثاني ، والأمير حاجب الحجاب برسباي

---

(١) الخبر في : « النجوم الزاهرة » (١٦/ ١٢٧ـ ١٢٨) .

البجاسي ، ومعهم جمعٌ من الأجلاب يوم الأحد ثالث عشري شهر ربيع الأوّل هذا ، أعزَّ الله بهم الدين ، وأذل بهم المجرمين ، واستمر أذى الأجلاب يتزايد ؛ فأغلق الناس بعض الأسواق يوم الأربعاء سادس عشري الشهر ، وقصدوا قاضي القضاة الحنفي ، فقال لهم : إنه لابد من اجتماع القضاة في مثل ذلك ، وإلا لم يُفِد الكلام .

وفي يوم الأربعاء هذا قَدِم الأمراء الذين كانوا في البحيرة مرابطين عرب لبيد ، وهم قانم التاجر ، وشرباش كُرْد ، وبارير وغيرهم .

موت أبي الجود

وفي يوم الاثنين رابع عشري الشهر ، مات الإمام العالم الصالح الشيخ أبو الجود داود البنبي المالكي [1] ، بمنزله بالقرب من رَحْبه العيد بالقاهرة عن نَيِّفٍ وسبعين سنة ، وكان رأسًا في علم الفرائض ، وحضره جمعٌ كبير من الفقهاء ، وأهل الخير ، وصلى عليه قاضي الشافعية العَلَم صالح البُلقيني ، بباب النصر ، وعظُم الثناء عليه ، والتأسف رحمه الله .

وكنت يوم الجمعة حادي عشر الشهر ، لما عملت الميعاد في الجامع الظاهري بالحسينية في قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا للهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَمِ نَصِيبًا [2] ﴾ ، وكان ختامه ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّلِمِينَ [3] ﴾ ،وكانت عادتي أن أختم الميعاد بما تيسّر من الدعاء ففاض على لساني من الدعاء على الظلمة ، ما لم يكن خطر لي قبل ذلك الحين ، وطال الأمر فيه ، وعلتني سكينةٌ ووقارٌ مع أنِّي كنت كأنِّي منذر جيش ، علا صوتي ، واشتد غضبي ، واستحضرت أذى الأجلاب للناس ، واستحسان الأكابر ، السلطان فمن دونه عليهم ، فعظمت

---

(١) راجع « هامش ٣ » من (ص ١٩٢) من القسم الأول .

(٢) الأنعام / ١٣٦ .

(٣) الأنعام / ١٤٤ .

الرَّغبة ، وصدق التوجهُ ، وضج الناس بالتأمين ، فكانت ساعة مشهودة ، وكان من جملة ذلك أن قلت : « اللهم ، إنّه قد زاد الأمرُ وطغى واشتدَّ الخطبُ وبغى ، اللهم ، وإنهم لا يعجزونك ، قد أهلكت قوم نوح ، وكانوا أقوى أمْرًا ، وأعظم جمعًا ، ثم أهلكت عادًا وكانوا أشد أبدانًا ، وأقوى قلوبا ، وأعظم أجسادًا ، وأهلكت من بعدهم ولم تُغْن عنهم جُمُوعُهم ، ولا نفعتهم حُصُونهم ، ولا دُرُوعُهم ، اللهم ، فأنزل عليهم سطوتك وبأسك ونقمتك ، اللهم ، زلزل بهم ودُقّهم دقَّ البيض على الصَّفا » . ونحو هذا من الكلام ، فغلب على ظني أنه مستجاب ؛ فإنه كان يكاد أن يكون من غير صنيع مني ، وأنه أمرٌ ربَّاني أجراه على لساني لأمرٍ قضاه ، وحكم قدَّره وأمضاه ، فلم تمض جمعة حتى ألْقى الله بأس الأجلاب بينهم ، واستمرت الحرب بينهم قائمة ، وسبب ذلك على ما قيل: أنهم اختلفوا فى قيص النفقَة عليهم ، فاقتتلوا يوم الأربعاء سادس عشري هذا الشهر ، فقُتل بينهم واحدٌ أو أكثر على ما قيل ، وكثرت الجراحات ، وعجز السلطان في الإصلاح بينهم ، واستمرت الحرب بينهم قائمة ، وسبب ذلك على ما قيل : أنهم اختلفوا فى قبض النفقِة عليهم،وقيل : بل في اثنين جاءوا في هذه السنة فأراد بعضهم كونهما عندهم ، وأراد آخرون ذلك ، فأدَّى الحالُ ببعضهم إلى أن ضربوا نائب مقدم المماليك إلى أن أشفى على الموت ، فتعصَّب له ناسٌ منهم ، فشرى[1] الأمر وانتشر الحرب ، اللهم فأشْغلهم عنا بأنفسهم ، وألق بأسهم بينهم ، وأعذنا من شرِّ حربهم وسِلْمِهم آمين ، ثم طلب السلطانُ يوم الأحد سلخ الشهر ذَيْنك المملوكين ، فأرسلهما إلى وَلَدِه ، فسكنت الفتنة .

وفي يوم السبت تاسع عشريه ، قَدِم البدر بن المزَلِّق ، ناظر جيش

---

(١) فشرى : عظم وتفاقم .
« المعجم الوسيط » (١/ ٤٨١) .

الشام ، فطلع إلى السلطان وهو متغيّر الخاطِر ؛ لأجل قتال مماليكه ، فلم يَخْلَع عليه .

وفي هذا اليوم كَسَفت الشمس عند الظهر ، فصلى الناس صلاة الكسوف ولم يعرف بعضهم بكسوفها ، لأنه كان غيم .

وفي ليلة الاثنين مستهل شهر ربيع الآخر ، قَدِم الأمراء الذين كانوا توجهوا إلى الشرقية ، لأجل العرب العُصاة ، وذلك أن الأمير بُرْدْبَك تقدَّم العسكر في مَنْ خفَّ معه نحو مَرْصَفا (1) ، فلما رآه جمعهم هربوا منه ، وظفر برأسٍ من رؤوسهم ، بل يقال أنّه أسّ الفتنة ، وهو من فلاحي الأمير الكبير ، يقال له أبو بكر [٢٠٣] ابن المغير ، فقبض عليه ، ثم أرسل يقول لإستاذه الأمير الكبير ، المقام الشهابي أحمد ، ولد المقام الشريف : أنّي كنت أتِ إليك ، فأمسكوني ، فأرسل جماعة من مماليكه ، فتسلموه من الأمير بُرْدْبَك ، وتغيظ لأجل القبض عليه وأرسل إلى الأمراء كلهم بالرجوع ففعلوا ، وقبض الأمير بردبك على جماعة فمن انهم بالفساد فى قرية من إقطاعه ، وقبض فرقة من العسكر على شخص كان من أكابر أهل الفساد ، فوسَّطَه السلطان .

موت الحمزاوي نائب الشام

وفي يوم الأربعاء ثالث شهر ربيع الآخر من سنة ثلاثٍ وستين هذه ، مات نائبُ الشام قانباي (2) الحمزاوي ، فاستراح منه البلاد والعباد ، والشجر والدَّواب ، فإنه كان لا يكاد يفيق من السُّكْر ، وإذا مرض فلم يقدر على شرب الخمر أحضر ندماه ، فشربوا بحضرته ، يتلذذ

(1) مَرْصَفا : جاء في « معجم البلدان » (٥/ ١٠٧) « قرية كبيرة في شمالي مصر قرب مُنْيَة غَمْر » كما جاء في « الخطط التوفيقية » (١٥/ ٣٩) ، أنها قرية من مديرية القليوبية بمركز بنها .

(2) هو : قانباي بن عبد الله الحمزاوي ، الأمير سيف الدين ، من مماليك سودون الحمزاوي الظاهري ، تنقل في عدَّة وظائف ، وتولَّى حلب مرتين ، ثم انتقل إلى نيابة دمشق للأشرف إينال سنة ٨٦٠ هـ ، وتوفى بها .

له ترجمة في : « الدليل الشافي » (٢/ ٥٢٩ رقم ١٨١٧) ، و « حوادث الدهور » (٣٨٩ ـ ٣٩١) ، و « النجوم الزاهرة » (١٦/ ٢٠١ ـ ٢٠٣) ، و « الضوء اللامع » (٦/ ١٩٥ رقم ٦٦١) ، و « بدائع الزهور » (طبعة بولاق) (٢/ ٦٣) ، و « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٦١ ـ ٦٢) .

بذلك ، وأمّا ظلمه للعباد ، فأمرٌ ما سُمِع بمثله وكان جماعته كلّهم على منهاجه ، لم يكن فيهم من يُرجى فَلاَحه ، ولا من يُتَوسّم صلاحه . كانت كبائر المعاصي قد صارت في دمشق كأنّها واجبات تُفعل على رؤوس الأشهاد ، وكان من غيّر شيئًا منها أُبلغ في نكاله ، وكان مماليكه يأخذون النساء والصبيان فإذا شكى عليهم أوقع بهم شيئًا من عقوبة ، ثم يأخذ ثأرهم بأنه من وقع له بعد ذلك في جريمة قتله ونحو ذلك من مقاصد السوء التي يريد بها محو الدين ، وكان في غاية البغض للفقهاء وحملة الشرع ، وأهل الدِّين .

سمعت بعض الخبيرين به ممن يوثق به يقول : أنه لم يكن فيه خصلة تُرْتَضَى ، لا صدقة ولا ذكر ولا كفّ عن معصية ، ولا ندم على المعصية ، ولا مروءة ، وكان في عشر الثمانين فيما أظن ، نسأل الله تعالى أن يُبدل أهل الشام خيرًا منه ، وأن يجبر كَسْرَهم آمين . فعيَّن السلطان جانم نائب حلب لدمشق ، والحاج إينال نائب طرابلس لحلب ، وإياس الطويل نائب حماة لطرابلس ، وجانِبَك التاجي نائب صَفَد لحماة ، وخيربَك نائب غزَّة لصفد ، وعَيَّن لغزَّة أحد أمراء [1] دمشق ، وكان من أتباع سُودُون بن عبد الرحمن [2] .

موت البهاء أخي الأنصاري

وفي أواخر هذا الشهر ، وصل الخبر بأنَّ بهاء الدين [3] أخا الشرف

---

(١) في « النجوم الزاهرة » (١٦/ ١٢٨) الأمير بُردبك العبد الرحماني .

(٢) راجع خبر هذه التعيينات في « النجوم الزاهرة » (١٦/ ١٢٨ ـ ١٢٩) ، و « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٦٢) ، وقد تمت تلك التعيينات ماعدا نيابة غزَّة في يوم الخميس ١١ ربيع الآخر.

(٣) هو : أحمد بن علي بن محمد بن سليمان ، البهاء الأنصاري التتائي القاهري الأزهري الشافعي، ولد في سنة ٨٠٧ هـ بتتا ـ قرية بالمنوفية ـ وقدم القاهرة فاشتغل بالعلم ، ثم تعانى بالتجارة، وجاور بمكة عدة سنين حتى مات ليلة الأربعاء ١٧ أو ليلة الثلاثاء ٢٧ صفر سنة ٨٦٣ هـ .

له ترجمة في : « النجوم الزاهرة » (١٦/ ٢٠١) ، و « الضوء اللامع » (١/ ٣٢ رقم ٨٩) .

الأنصاري مات في مكّة المشرفة ، فعظم التأسُّف عليه ؛ فإنه كان أكبر إخوته ، وكان صادق القول ، حادّ القلب ، غزير المروءة ، ذا أخلاق جميلـة ، وكان منقطعًا إلى المتجر حسن الأمر فيه لائمًا لأخيه الدخول في أمر الدنيا ، وكان إخوته في أوّل الأمر يعرفون به ، فيقال : شرف الدين أخو بهاء الدين ، ونحو هذا رحمه الله وعفى عنه .

السعي على الباعوني

وفي هذا العام ، كما تقدَّم ، قَدِم الجلالُ بن عبد القادر الباعوني الشافعي ؛ يسعى على ابن عمه وخاله قاضي القضاة الجمال يوسف بن قاضي القضاة الشهاب الباعوني في قضاء دمشق ، وكان قد وُلِّي قبل ذلك قضاء حلب ، ثم طرابلس ، فساءت سيرته ، ثم استنابه ابنُ عمه في دمشق ، فكان أسوأ سيرة ، فعزله فغضب ، وقدم لأذاه ، فدفع إلى المقام الأتابكي الشهابي ، ولد المقام الشريف أوّل ما قدم خمسمائة دينار وأعطى غيره ووعد على تنجيز الأمر للسلطان بمبلغ ، ولولده كذلك ، ولجميع المباشرين .

وكان الجمالُ أرسل إليَّ كتابًا عند قدوم ابن عمه نصُّه بعد البسملة : «ويُنْهي أنّه سطرها وهو مستمرٌ على ما يُشهد به الخواطر الكريمة ، من صِدق الوداد ، وإخلاص المحبَّة والاعتقاد ، والمثابرة على وظائف الأدعية الصالحة ، وتعطير المحافل بالأثنية الفائحة ، والخواطر الكريمة أعدل شاهد بذلك ، ولم يقطع عبوديَّاته عن الأبواب العالية إلاّ إيثارًا للتخفيف، وترفيها للخواطر الكريمة عن التَّكليف ، وكان يتحقق وجود المانِع من توصّل مولانا إلى أغراضه الصحيحة ، ومقاصده الجميلة التي يعود نفعها على المسلمين عمومًا ، وعلى مولانا السلطان نصره الله ، خصوصًا والآن فقد زال المانع ، ومن الله تعالى ، وله الحمد على المسلمين بانحصار [٢٠٤] الأمر ، واجتماع الكلمة في المقام الأتابكي الشهابي خلَّد الله تعالى دولته ، وهو بحمد الله تعالى ، من الانقياد إلى الحق والرَّغبة في العدل ، والاهتمام بإعلاء منار الشرع الشريف في الغاية القصوى

والذروة العليا ، وقد تباشر أهلُ الخير والصلاح بما مَنّ الله عز وجل من شمولهم بحسن تدبيره ، وأمَّلوا أن تكون الأمور بسعيد نظره على أقوم منهج ، يعلو به الحق ، ويسفلُ به الباطل ، والمرجو من كرم الله تعالى تحقيق أملهم ، وقد مَنّ الله وله الحمدُ بقرب المخدوم من الحضرة المشار إليها وجميل اعتقادها فيه ، ووفور تعظيمها له ، وحسْن إصغائها لما يصدر من النصائح عنه ، وهذه فرصةٌ ينبغي أن تنتهز ، وأن يصرف مولانا المخدوم بهمته العالية إلى ما يحصل بواسطته الثواب الجزيل والثناء الحسن الجميل ، والله المرجو لتحقيق ذلك . والمملوك وإنْ كان أقدم مماليك المواقف الشهابية هُجْرَة ، وأصدقهم محبَّة ، وأوفرهم مناصحة ، وأكرمهم مثابرة على وظائف الأدعية الصالحة واستجلابها ، فقد أبعده عن الخواطر المشار إليها ما أوجبه إجلال مقامها من الإحجام عن التهجم بالعبوديات ، بحيث صار نسيًا منسيًا ، لكنه وإن أخلّ بذلك ، فقد لازم ما هو أكبر منه جدوى من الابتهال بصالح الدعاء بظهر الغيب ولا يشك المملوك أنَّ الخواطر المشار إليها نوَّر الله بصيرتها شاهدة للمملوك بذلك ، وقد بلغ المملوك أن جماعةً من ذوي المقاصد الفاسدة ، الذين يحسدون المملوك على ما منحه الله من صيانة العِرض وجميل الذكر ساعون في إفساد صورته ، وثلب عِرضه باختلاقاتهم وأباطيلهم لدى المواقف الشهابية ، ومولانا قد حضر بنفسه إلى دمشق المحروسة ، وأقام بها تلك المدة الطويلة حال بطالة ، وولاية غريمه ، وعدم تلبسه بما يُراعى لأجله أو يُسكت عنه بواسطته ، وقد اجتمع به الخاص والعام واطّلع على حقيقة الحال بالمشاهدة والسَّماع حق الاطّلاع ، وخلفه بعد ذلك مخدومنا الأمير بُرْدُبَك الدويدار أسعده الله في الدنيا والآخرة ، وشاهد وسمع ، وحسب المملوك ذلك في تكذيب من يزعم خلافه ، والمسؤول من الصدقات العميمة تقرير ذلك كله في المسامع المخدومية الشهابية

ضاعف الله جلالها على وجه تتحقق بواسطته حقيقة أمر المملوك ، وينتج له من مزيد القرب منها ، ووفور عنايتها ، ما يُخذِّل الأعداء ويُكْبتَهم ويُـخْرسهم ويُسْكتهم أجرًا في ذلك على عوائد الصدقات العميمة ، والله يعلم أنّ المملوك لا يقصد التوصل بذلك إلى دنيا يحصّلها ، ولا غرض نفساني يبلغه ، ولكن لكلمة الحق يصدع بها ، أو مظلوم ينصره ، أو معروف يأمر به ، أو منكر يُنهى عنه يزيله ، وأجور ذلك كلّه مسطَّرَة في الصحائف الشريفة ، والصحائف المخدومية الأعظمية الشهابية ، وجميع أرباب المناصب مقبلون على نفع أنفسهم بالعاجل ، والمملوك عن ذلك بمعزل ؛ لاستغراق أوقاته بما يعود نفعه على الرّعايا ومن هذا شأنه ، لا ينبغي أن يُخذل ، وقد ثَقُل على قلوب كثير من أرباب المناصب المقبلين على تحصيل الدنيا ؛ لأنه قذىً في عيونهم ، وشجًا في حلوقهم ، ومانع لهم عن الوصول إلى مطالبهم ، وقد صار غريبًا لا مُعين له على ذلك ، غيرْ الالتجاء إلى الله عز وجل ، والاعتماد عليه والانتصار به ، والاستناد إليه ، وكفى بالله وليًا ، وكفى بالله نصيرا ، ثم المسؤول الإمداد بالخواطر الكريمة والأدعية الصالحة المجابة والإتحاف بما يَسْنَح من المهمات والخدم والمواصلة بالأمثلة العالية على عادة صدقات مولانا وفضله ، والله المسؤول أن يحسن لنا وله العاقبة في الدنيا والآخرة آمين » . كُتب خامس عشر المحرم [٢٠٥] الحرام سنة ثلاث وستين وثمانمائة .

وكتب أخوه شيخنا الإمام برهان الدين ابراهيم أقْدر أهل العصر على الإنشاء نظمًا ونثرًا : « ويُنْهي أنّه سطّرها عن ودّ أكيد ، وشوق شديد ، وتوْق ما عليه من مزيد إلى مشاهدة المحيًّا السعيد جمع الله الشمل به في عافيةٍ ، وسلامةٍ وافية ، على أحسن الوجوه وأجملها وأفضلها وأكملها ، إنه بالإجابة جدير وعلى ما يشاء قدير وسبب تسطرها إلى خدمته فسح الله في مدته ، قضيةٌ اقتضى الحالُ إحاطة العلوم الكريمة بها وتجهيز حامل هذه

العبودية بسببها ؛ وهو أن قريبًا لنا غريب الطَّوْر [١] ، كثير المَوْر [٢] ، ربَّيناه وليدًا ، وأوليناه إحسانًا عديدا وافِرًا مديدًا ، قديمًا وجديدًا ، توسّل بانتسابه إلينا وترامیه علینا إلى أن ولی القضاء بأعمال سار فیها سيرة ذميمة واكتسب أوزارًا عظيمة ، ثم عُزل منها وانفصل عنها ، وورد إلى الشام مأزورًا مذمومًا مدحورًا وحيدًا فريدًا شريدًا طريدًا ، فَعَنَّفْنَاه وأَنَّبْنَاه ولمناه ووبَّخْناه ، وأعرضنا عنه تأديبًا له ، فضاقت عليه نفسه كما سيضيق عليه رَمْسُه [٣] ، فخدعنا بإظهار الإنابة ، وعطفنا عليه عاطفة القرابة ، فاستتبناه وأوصيناه بالاستقامة ، واقتفاء سبيل السلامة ، وقلنا له : إن استقمت أقمت ، وإن مِلْت زِلْت ، فعاد إلى ما عهد من سيرته القبيحة ، ولم يأنف من العار والفضيحة ؛ فعزلناه وأزلناه وحططناه من تلك المرتبة ، وأنزلناه ، فأظهر العداوة ، وأفرغ فيها الأداوه ، وصدرت منه أمورٌ تقشعر الجلودُ منها ، وإساءات كثيرة أغضينا عنها ، فبالغ الناسُ في تأنيبه ، ولامونا على الإخلال بتأديبه ، منهم الشيخ شمسُ الدين البلاطُنُسي وغيره من الأخيار المنتظمين في سلك الأبرار ، فأعرضنا عن مقابلته اكتفاءً بالله العالم بحقائق الأمور ، والمطَّلِع على ما في الضمائر والصدور ، وتوجَّه إلى القاهرة ، عازمًا على اختلاق ما أمكن من البُهتان والزُّور ، وحثَّه على ذلك أقوامٌ من الحاسدين البائرين الكاسدين ممن يظهر الوفاق ، ويُبطن النِّفاق ﴿ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ [٤] ﴾ والله يعلم

---

(١) الطَّوْر : الحال والهيئة .
« المعجم الوسيط » (٢/ ٥٧٠) .
(٢) المَوْر : الاضطراب .
« المعجم الوسيط » (٢/ ٨٩١) .
(٣) رَمْسه : قبره .
« القاموس المحيط » (٢/ ٢٨) .
(٤) الأعراف / ٢٠٢ .

أنهم مفترون ﴿ وإنْ يُهْلِكُونَ إلاَّ أنْفُسهمْ وَمَا يشْعُرُوَن [(١)] ﴾ والقصد أن لا يُصغي إليه ويضبط جميع ما يقوله عليه ، فإن حقَّقه ، بأن صدَّقه ، وإلاّ ثبت كذبه وفسقُه ، وقوبل مقابلةً يرتدع بها كل مجترىء وكذوب مفتري ، ويُكتب بذلك إلى كافل المملكة الشامية عملاً بالشريعة النبويـة ، وامتثالاً لقول ربّ البرية : ﴿ يأيها الذين ءَامنوا إن جاءكم فاسق بنبإٍ فتبينوا [(٢)] ﴾ الآية ، وسيدي بلَّغه الله من آماله الغاية أوْلى من سلك طريق أهل الحزم ، وشمَّرَ عن ساعد العزم في ردع شِرار الخلق ، ونصرة أهل الحق ، لعلو همَّتِهِ المزاحمه للسها ، ومتانة دينه التي لا تخفى على أحد من أهل النُّهى ، وغزارة مروءته التي إليها المنتهى مع مالَهُ من المحبَّة المعروفة ، والشَّفَقِةِ المألوفة ، والصحبة الصافية الموارد المعلومه عند الصادر والوارد ، وأنه الصديق الصدوق ، والخِلّ الشَّفُوق ، ولا يخفى عليه قول من قال ، وأحسن المقال :

والفتى إن أراد نَفْعَ صديقٍ   فهو يَدْري في نَفْعِه كَيْفَ يِسْعى

والله الموفق للصواب ، والمجازي على الخير بجزيل الثواب ، وهو المسؤول جلَّت نعماؤه ، وتقدَّست أسماؤه في إطالة بقائكم ، وتقريب أمَدِ لقائكم ، و إبهاج القلوب بما يرد من تلقائكم ، وأنتم في حفظ الله وأمانه ، وكفالة اللطف وضمانه ، والسلام عليكم ورحمة الله الشاملة وبركاته الوافرة الكاملة » .

[٢٠٦] ولما بذل ابن عمهما ما بذل كما تقدم ووعد بها وعد ، وكانت الدولة قد ماجت كما مضى بعد موت ناظر الخاص ، وكلُّ أحدٍ يجرُّ إلى نفسه النفع من غير تأمّل للعواقب ، تعلقت آمالهم بإجابة سؤالـه تنجزًا

---

(١) الأنعام / ٢٦ .

(٢) الحجرات / ٦ .

لوعده ، أو زلزلة ابن عمه رجاء رفده ، وكان المتجدد منهـم ، يظـن أن الجمال ، لطول مدة ولايته قد حصل من الأموال ما لا يحصى لظنهم أنه من القضاة الجمَّاعين ، فذهبت إلى بعضهم مع رسوله نور الدين محمود الحلبي ، وكان قد كتب أيضًا إلى جميع أركان الدولة ، وكان ابن مُزهر من شياطين الناس ، وكَذَبَتِهِمْ ، فلما ذكر له رسول الباعوني أنّي عزمتُ على الدَّوَران معه على بقية الأكابر ، سأل أنْ يتولَّى هو ذلك تقربًا إلى خاطر الجمال ، وأن ادَّخر أَنا إلى وقتِ المهمَّات إنْ احتيج إلىّ ، وكان يدور معه ، وهو يتقن قضية جلال الدين ، سعيًا في أهوائهم ، ولنيل ما وُعد به هو أيضًا ، فلما علمْت ذلك بادرت إلى المسموع الكلمة منهم فقلت لكلٍّ : أنت الآن ملجأ الناس ، وقد أرسلت إلى بلاد الشام ، لأنهم أهلُ بلادي ، وأنّ مدار الأمر عليك ، فأقبلت قلوبهم عليك ، وهم منتظرون ما تفعل ، ولا شَكَّ أن الأمور بأوائلها ، فمتى شاعَ عن الإنسان في أوَّلِيَّتِه شيءٌ استمرّ ، ولا ترجمه أشنع من عَزْل الجمال بهذا الصَّبي ، وذكرت سيرة كلٍّ منهما ، واعتقاد الشاميين فيهما ، ومحبتهم للجمال ، وبغضهم لابن عمه ، وقررت أن كلمة من الجمال أنفع من عشرين ألف دينار من غير ؛ لأنه مُطاع الأمر ، عزيز العقل ، ثابت الأوتاد ، وأقمت ما تيسّر من الأدلة على ذلك وأنه مع كونه من أهل الدين ، من أعرف الناس بأحوال الدنيا ، ولا تضيع عليه المساعدة ، بل يخدم ، ولكن لا يُقارب ما بذل هذا ، ونحو هذا الكلام ، وزدت الخصيصين بدولة السلطان من أهل السيف ، أنَّه يُـخْشَى من ولاية الصِّبيان وجَعْلهم رؤوسًا في الأقطار أن يستخفهم بعضُ النواب لغرضٍ إلى العصيان ، فيجدهم إليه سِرَاعًا ، أو يستخفوه هم لعجز عن أداء ما يُكَلَّفون به من الأموال ، أو غير ذلك عند غَضْبة من الْغَضَبات ، فيجدونه إلى ذلك سريعًا ، ويكون الناسُ ، بعد أن صاروا رؤوسهم إلى إجابتهم سِرَاعِا .

وذكرت لهم أن القاضي ناصر الدين محمد بن البارزي أبا القاضي

كمال الدين رأى الملك المؤيَّد شيخ إذْ كان نائب طرابُلُس ، فتوسَّم فيه النجابة ، فأمر من يغسِله في الحمّام أن يُخبره بما في جسده من الآثار والعلامات ، ففعل فنظم أرْجوزةً وكتبها في ورقةٍ وعَتقها ولصقها في ترجمة أبي زيد [(١)] المرْوَزيّ من تاريخ ابن أبي [(٢)] الدَّم ، وجعلها على هيئة الملحمة [(٣)] ، ذكر فيها من يتولى من الملوك إلى أن وصل إلى الناصر فرج بن برقوق ، فوصف الذي يملك بعده بأوصاف شيخ ، فتحقق ذلك في ذهنه ، فلم يزل إلى أن خرج على الناصر ، وكان البارزي معه ، وجرت بينهما حروبٌ يطول شرحها إلى أن كان آخرها القبض على الناصر وذبْحه [(٤)] .

فلما تقرر ذلك كله توقف أمر الجلال ، وكان قاضي المالكية الشهاب

---

(١) هو : أبو زيد محمد بن أحمد بن عبد الله بن محمد المرْوَزي الفاشاني ـ من قرية فاشان ، وُلد سنة ٣٠١ هـ ، وروى صحيح البخاري عن الفِرَبْري ، وكان من أحفظ الناس لمذهب الشافعي ، وأحسنهم نظرًا ، وأزهدهم في الدنيا ، مات بمرو يوم الخميس ١٣ رجب سنة ٣٧١ ، وله تسعون سنة .

له ترجمة في : « تاريخ بغداد » (١/ ٣١٤) ، و « وفيات الأعيان » (٤/ ٢٠٨ ـ ٢٠٩) ، و « سير أعلام النبلاء » (١٦/ ٣١٣ رقم ٢٢١) ، و « طبقات السبكي » (٣/ ٧١ ـ ٧٧) ، و « طبقات الأسنوي» (٢/ ٣٧٩ ـ ٣٨٠) ، و « شذرات الذهب » (٣/ ٧٦) .

(٢) هو : إبراهيم بن عبد الله بن عبد المنعم بن علي بن محمد ... بن أبي الدَّم ، شهاب الدين أبو إسحاق ، وُلد بحمَاة في ٢ جمادى الآخرة سنة ٥٨٣ هـ ، وتفقه ببغداد ، وسمع بالقاهرة ، وحدَّث بها وبحلب ، مات بحماة في منتصف جمادى الآخرة سنة ٦٤٢ هـ ، من مصنفاته : « كتاب التاريخ » و«التاريخ المظفري » .

له ترجمة في : « طبقات السبكي » (٨/ ١١٥ رقم ١١٠٧) ، و « شذرات الذهب » (٥/ ٢١٣) ، و « كشف الظنون » (١/ ٢٧٦) ، و « الأعلام » (١/ ٤٢) .

(٣) المَلْحَمَة : جاء في « المعجم الوسيط » (٢/ ٨١٩) « .. عملٌ قصصيّ له قواعد وأصول ، يشاد فيه بذكر الأبطال والملوك وآلهة الوثنيين ، ويقوم على الخوارق والأساطير ، وقد يكون شعرًا كالإلياذة عند الإغريق ، والشاهنامة عند الفرس ، وقد يكون نثرًا كسيرة عنترة » .

(٤) وذلك في ليلة السبت ١٦ صفر سنة ٨١٥ هـ .

« النجوم الزاهرة » (١٣/ ١٤٧) .

التلمساني ممن ثَقُل عليه أمر الباعوني ؛ لكون وجوده قاضيًا مانعًا له عن تعاطي ما يريده من الفساد ، وكان متموِّلاً [1] ، وكان له في القاهرة وكيلٌ من البَرْبَر [2] فيه شِنْشَنَتِهم [3] ونخوتهم وعصَبَتهم يُسمى عَلِيّاً التواتي ، وكان الجامع بينه وبين مُوَكِّله خباثةُ الأرواح ، وكان قد أرسل إليه أن يعطي الجلال مهما احتاجه من الكلفة على قضاء الشافعية بدمشق .

[٢٠٧] فلما رأى الجلالُ أمرَه متوقفًا لم يزل يزيد حتى بلغ ثمانية آلاف دينار للسلطان ، وثلاثة آلاف لولده ، ولبقية أركان الدولة تكملة ثلاثة عشر ألف فلم يُقبل ذلك منه .

ثم أَرسل إليَّ البرهانُ الباعوني أخو الجمال ما نصه : « ويُنْهي ما عنده من الأشواق العظيمة إلى مشاهدة الذات الكريمة ، جمع الله الشمل بها في خير وعافية ، وسلامة وافرة وافية على أحسن الوجوه وأجملها وأفضلهاوأكملها ، ليسكن ما بالقلب من أزيز وما ذلك على الله بعزيز ، وأنّ مطالعة المملوك تقدَّمت إلى خدمته أدام الله عليه سوابغ نعمته على يد نور الدين محمود الحلبي ، تتضمن ما أنهاه من جهة ذلك الصبي الجاهل الغبي ، الذي زيَّن له الشيطان وذووه ما زيَّنوا ، وبيَّنُوا له من سلوك طريق الشرِّ ما بيَّنوا ، وحضُّوا على ذلك وأغروه وسلبوه من الدين وأعْروه ، واستثار العزم الكريم ، والمجد الصميم في كفاية أمره وإطفاء جمره ، وإخماد شرر شرِّه على المألوف من همته العَلِيَّة ، والمعروف من غيرته الدينية ، وقيامه بحقوق الصحبة المؤسسة على التقوى والمحبة التي

---

(١) مُتَموِّلاً : أي صاحب مال كثير .
« محيط المحيط » (٨٦٩) ، و « المعجم الوسيط » (٢/ ٨٩٢) .

(٢) البَرْبَر : جاء في « محيط المحيط » (٣٢) « قومٌ في مغرب إفريقية ، جُفَاة كالأعراب ، في رقة الدين ، وقلَّة [illegible] . وأمّة من الحبُش والزَّنْج » .

(٣) [illegible] » (٧/ ١٠٠) أنالشِّنْشنةهي الطبيعة والخليقة والسجيَّة

يشهد بها عالمُ السِّرِّ والنجوي على الوجه الجميل المشكور ، وعاد جوابُ نور الدين المذكور بإنكار المخدوم لذلك الأمر المذموم ، وما صدر منه من أنواع الإحسان ، ومساعدته بالقلب واللسان ، واهتمامه بسدِّ الذريعة وصيانة منصب الشريعة من كل حائد عن طريقها غير معدود من فريقها ، مُفْسد في الأرض ، مُعْرِض عن يوم العَرْض ، غير مُهْتَم بالسُّنَّةِ والفرض ، ولا مليء بوفاء القرض كهذا التعيس وأمثاله ، الملَجِّج [1] في بحر ضلاله ، الغافل عما سيحل به من عقاب الله ونكاله وتحريضه ، أمتع الله بحياته ، وبارك في حسناته ، وحَفَّه باللطف من جميع جهاته ، لكل من ظن به الخير من الأعيان المواظبين عليه في سائر الأحيان ، وأعظمهم المقرّ السيفي بُرْدْبَك الأشرفي ، عامله الله بلطفه الخفي ووقاه شرَّ الأشرار ، ونظمه في سلك عباده الأبرار ، حتى سدّ على المذكور طُرقه ، بعد أن عَلِمَ اختلاله وخُرْقه ، وتحقق كذبه واختلاقه ، وإِفكه وائتلاقه [2] ، وما قرره عند السلطان خلَّد الله ملكه ، وأجرى في بحر السعادة فُلكه ، من سيرة الأخ التي خبرها وعرفها لَمَّا سبرها ، وتأملها واعتبرها ، ونشر بعبارته الحسنة خبرها ، وما حصل من العطف الشريف بسفارته وإيصالها إلى المسامع الشريفة بحسن عبارته ، وأنّه بالغ في ردع ذلك الشيطان ، واستجلب بردعه وقمعه الأدعية لمولانا السلطان ، وشاع ذلك بالشام وذاع وفاض ، حتى ملأ الأسماع ، فتضاعفت الأدعية بطول بقائه ، ودوام عزّه وارتقائه ، والله يسرّ القلوب بما يرد من تلقائه ، ويجزيه أفضل ما جزى صديقًا عن صديقه ، ويمدَّه بتأييده وتسديده وتوفيقه .

---

(١) الملجِّجْ : المتمادي في العناد إلى الفعل المزجور عنه .
« محيط المحيط » (٨٠٨) .

(٢) [illegible]
« المعجم الوسيط » (١/ ٢٤) .

ومما تجدَّد من الأمور والحوادث القاصمة للظَّهر ، المثيرة للحزن الكامل ، المجرية للدَّمع الهامل [1] ، موت الشيخ الإمام العالم ، ذي القلب الأنور ، الآمر بالمعروف ، الناهي عن المنكر ، المؤسِّس للخير أحسن التأسيس ، المتصدي للإفتاء والتدريس ، شمس الدين البلاطُنُسي نوَّر الله رَمْسَه ، وضاعف في الجنة أُنْسه ، فيا له من خَطْبٍ أجرى العَبَرات وأثار الحسرات ، وأضرم بالقلوب الجمرات [٢٠٨] وكانت له جنازةٌ بَعُدَ العهدُ بمثلها ، وتزاحم الأعيانُ على حملها ، عليها من الوقار والسكينة ما دلّ على مكانته المكينة ، وعمّ الحزنُ لكل من بالمدينة إلّا ما كان من أهلِ الفساد والبوار والكساد ، وقضاة الجوْر الحائدين عن واضح السبيل ، المعترضين بحلول العقاب الوبيل ، فقد كان لهم رادعًا ، وبالحق صادعًا ، وللإنكار عليهم مُسَارِعًا ، ولمن سلك مسلكهم قامعًا ، ومنهم هذا الصَّبي الذي نبغ وبلغ من قلَّة الدين والعقل ما بلغ وأمْعن في الاختلاق علينا مع انتسابه إلينا ، وما أوليناه من الجميل والإحسان الجزيل حتى إنه لما تنجَّز توقيعًا بنيابته الخطابة عن المملوك ، وسلك في الاستطالة على مباشرها أقبح السلوك ، وهو الشيخ الجليل عبد الرحمن [2] بن خليل قال : أنا بهذا الفاسق أخبر ووالله لئن صعد هذا المنبرُ لأجذبنَّهبطَوْقه[3] وأرميه على وجهـه من فوقه، ولا أوافق على

---

(١) الهامِل : الفائض .

« محيط المحيط » (٩٤٥) .

(٢) هو : عبد الرحمن بن خليل بن سلامة بن أحمد بن علي بن شريف بن مؤنس ، الزين أبو الفهم وأبو زيد بن الصلاح الأذرعي الأصل القابوني الدمشقي الشافعي ، المعروف بالشيخ خليل ، وُلد سنة ٧٨٤ هـ بالقابون من دمشق ، ونشأ بها ، وسمع على عدد من العلماء في القاهرة والخليل ودمشق وناب في الخطابة بجامع بني أمية بدمشق دهرًا ، وكذلك في الإمامة ، ومات في شعبان سنة ٨٦٩ هـ .

له ترجمة في : « الضوء اللامع » (٤/ ٧٦ رقم ٢٢٣) .

(٣) بطَوْقه : الطَّوْق حليٌ للعنق يحيط به ، وكل ما استدار بشيء .

« القاموس المحيط » (٣/ ٢٦٨) ، و « محيط المحيط » (٥٦٠) .

الصلاة خلف فاسق مثله ، مع ما أعرف من قلة دينه وعقله ، ولما بدر منه بعد ذلك ما بَدَر وصدر من أفعاله القبيحة ما صَدَر أشار بضَرْبه وحَبْسه، وعزم على تعاطي ذلك بنفسه ، ولام الأخ على إهمال ذلك غاية اللوم ، واستمرَّ عاتبًا عليه بهذا السبب من ذلك اليوم ، ولقد كان رأيه في ذلك سديدًا ، وشوْره مباركًا سعيدًا ، وبصيرته منوَّرة ، وحقائق الأشياء في مرآتها مصوَّرَة ، ولهذا الصبي الغبيُّ النازل من الخذلان في المنزل الوبيء أبٌ جاهلٌ ، عن الآخرة ذاهل ، ألأم من مارد يُسمَّى عبد القادر ، باشر تَقْدِمة ناحية من نواحي البلاد الصَّفديَّة ، فأُقْصِيَ وأُبعد ؛ لسيرته الرَّديَّة ، معروفٌ بسوءِ الطريقة من زمن الصِّبا ، وهو الآن بالشام ، يتعاطى الرِّباء، أشاع أنّ ابنه وُلِّيَ القضاء ، فضاق على المسلمين بذلك القضاء ، وارْتَـمَضُوا [1] من سماع هذا الكلام ، وقالوا : يالله ، للإسلام صبيٌّ ذو فِرْيَة[2] لا يصلح لقضاء قَرْيَة يلي منصبًا وليه السُّبكي ، إنَّ هذا مما يُؤلم ويُبكي ، فقال شخصٌ من الفضلاء الأذكياء النبلاء :

تولى شُيَيْخٌ قـضـا[3] جِـلِّقٍ ... فيالـك مـن حـادث مُمْـرِض
وهَوْل يُشَيِّبُ رأسَ الرَّضيـع ... فيصبح كالكُرْسُف [4] الأبيض
ويـا لـك مـن كـارث مؤلـم ... لكـلِّ إمرىء مسلم مُرْمَـض[5]

---

(١) ارتمضُوا : جاء في « المعجم الوسيط » (١/ ٣٧٣) « ارتمض من كذا : اشتد عليه وأقلقه » .

(٢) فِرْيَة : كذب .
« محيط المحيط » (٦٨٨) .

(٣) جِلِّقُ : جاء في « معجم البلدان » (٢/ ١٥٤) أنها كورة الغوطة كلها ، وقيل : بل هي دمشق نفسها ، وقيل : موضع بقرية من قرى دمشق .

(٤) الكُرْسُف : القطن .
« المعجم الوسيط » (٢/ ٧٨٣) .

(٥) مُرْمَض : جاء في « لسان العرب » (٩/ ٢٢) « .. وشهر رمضان مأخوذ من رَمِض الصائم يَرْمَض إذا حرّ جوْفُه من شِدّة العطش » .

فنوحوا على الدين وابكـــو دَمـًا	وفِرّوا إلـــى الله ممـا قـضـى
وتوبُوا إلـــى ربّـكـم تَوْبَـةً	نَصُوْحـًا بصدقٍ لـهُ يَرْتَضِـي
عســـاه يهُـيّــيء لـــه قاتِلاً	بسيـفٍ صَقِيـلٍ لـه ينْتَضِـي
يُرِيـْـح البرِيّـــة مِـن وَجْهِـهِ	فـمـا وجْهُـه بمنيـر وَضِـي
ولـو قيـل للكـلـب مـن بعده	تعـال توَلَّ القضـاء ما رَضِـي

ثم قال : هذا لا يكون ، ويأبى الله ذلك والمؤمنون ، ولا يجتمع على المسلمين مُصيبتان ، جليلتان عظيمتان : موتُ هذا العالِمِ التَّقي ، وولاية هذا الجاهل الشقي ، فوالله لو خرج الدَّجّالُ ، وتبعُه ، وانضم إليه ، وصار معه ، وسعى عِنده في القضاء ، ما التفت إلى كلامه ولا سَمِعَه ، ولا عَلِق بالوصول إلى ذلك طمعُهُ ، ولو رشاه بكل شيء اكتسبه ، من الحرام وجمعـه ، ولزجره عن ذلك ورَدَعه وقَمَعه ، ونرجو الله أن يُرْغم بمنعه أنف الشيطان ، وأن لا يدنِّس بهذه السيئة صحائف السلطان ، وأن يملأها بالحسنات المشرق نورها ، العظيمة أجورها ، العاصم من الآفات سورُها ، وأن يُوفِّقه إلى مَنْعه وزَجْره ورَدْعه ومقابلته على اجترائه واختلاقه وافترائه وعدم توليته منصبًا من المناصب الشرعية ، عملاً بما أوجبه عليه ربُّ البريَّة ، من العدل في الرعية ، فهو وليّ التوفيق ، والهادي إلى سواء الطريـق ، وبه نعتصم مما يصم ونستجير مما يضير ، ونستعين ، وهو نعم المعين ، وبالله باري النَّسَم ، وهو أشرف [٢٠٩] القسم لو وُلِّي هذه الوظيفة من تَبرّأ به الذِّمَّة ، وتطمئن بولايته نفوسُ الأمة ، من أهل الخير والدِّيانة ، والعفَّة والصيانة ، والعقل والرَّصانة ، والثقة والأمانة ؛ لأحببنا ذلك وما كرهناه ، واستصوبناه وما أنكرناه ، وحمدنا الله عليه وشكرناه ، والله العالمُ بالنيات ، المطلع على الخفيات ، وما تُكِنّه الطَّويَّات ، وأنتم في حفظ الله وأمانه ، وكفالة اللطف وضمانه ، وجميع الأحباب والإخوان والأصحاب ، ونحن في انتظار الجواب ، المحصّل للثواب » . كُتب سلخ صفر سنة ثلاث وستين وثمانمائة .

فكتبت إليه أدام الله نعمه عليه : « وبعد ، فقد وصلت أمثلةُ المخدوم تَبُثُّ جميل المحبَّة ، وصحيح المودَّة ، وصافي النيَّة ، وحُسْن الطويَّة في الخلة الإبراهيمية ، وتثني على ذلك الجلال ، بقبُحْ الخِلال ، وتخبر أن كفّ شره بإدامة ضُرِّه من أمتن عرى الدين ، فإنه من أكبر المفسدين ، فبادر العبدُ إلى ما دُعِيَ إليه وحُثَّ عليه ، فإذا المذكور أبو الشرور ، وأخو النجّاس والفجور ، وعم القبائح والزور ، قد ادّعى الإمامة عند أُولي الرئاسة والزَّعامة ، فأوّل ما بُدِىء وهو في شوطه كالنعامة بضربةٍ صمصامة [1] ، نثرت منه الهامة [2] ، وطحنت عظامه وقطعت أقدامه ، فأزالت إقدامه وأوجبت إحجامه ، ووصلت سِقامَه وأطارت حَمَامـه [3] ، فعجَّلت حِمَامَه [4] وشالت منه النَّعامة [5] ؛ وذلك أنه سُئِل عن الفرق بين اسمه واسم العمامة ، فصار كأنه قُلاَمة [6] على قِمامة ، أو مُضغة بين يدي أُسامه ، فاعترته ندامةٌ وكفُّ شهامة ، وعلتهُ وهو ذميم دَمَامة ، وأُبعدت عنه كما كانت الكـرامة ، وكُتِبَ عليه قَسامة أن لا يَفْجُر أمامه ،

---

(١) صَمْصَامة : أي ضربة سيف صارم لا ينثني .

« المعجم الوسيط » (١/ ٥٢٣) .

(٢) الهامَةُ : الرأس .

« القاموس المحيط » (٤/ ١٩٥) .

(٣) حَمَامه : الحمام ، جنس طير من الفيصلة الحمامية ، وهو أنواع .

« المعجم الوسيط » (١/ ٢٠٠) .

(٤) حِمَامَه : الحِمَام ، قضاء الموت وقدره .

« المعجم الوسيط » (١/ ٢٠٠) .

(٥) شالت منه النَّعَامة : خَفَّ وغضب ثم سكن .

« القاموس المحيط » (٣/ ٤١٥) .

(٦) قُلاَمَة : ظفر ، مَثَلٌ في الخسيس والحقير .

« محيط المحيط » (٧٥٤) .

فويلٌ له من كذبه يوم القيامة ، لا كتب الله عليه سلامة يومه وشهره وعامه، بل دهره وما قدّامه ، ونُبّه سيدي رفع الله أعلامَه نفذ سهامه ، وسدد لامه ، على أنَّ بُعد ذلك الثقيل الدَّنيء الذَّليل من أعظم أنواع التقدس؛ فإنه بئس الخليل ، وأقام على ذلك الدليل بأنه أَسْبَخ (١) خرطبيل ، وأبوه شيخُ العشير في بلاد الجليل (٢) ، فامتثل العبدُ ذلك الواجب الجليل وقام فيه بالقال والقيل ، وجَرَّد له من ذلك اللسان الطويل كل حسام صقيل ، ورماه بكل حجر ثقيل ، حتى صار من الهمِّ عليل ، ولم يبق له خليل ، غير حُمَّص بليل ، هو الآن له عويل ، وسُدّ في وجهه كلُّ سبيل ، فهو في بُكاء وعويل ، وهمٌّ طويل ، ما له مثيل ، وصار مثلاً لجيلٍ بعد جيل ، على أنه أقلّ من القليل ، والأمر فيه كما قيل ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

قَدْ أُشرَقَت أوْجُه أصحابكم ... ولْلأعادِي أَوْجهٌ سُودُ

قد نالَهم ذمٌّ فأخزاهُمُ ... والشيخُ نورُ الدين محمودُ

قد عادَ منصورًا على ضدِّه ... والضّدُّ مقهورٌ فَمَفْقود

وَزَيْنُه شَيْنًا غدا واشْتَكَى ... مِن شِدَّة المِعْصَار عنْقُودُ

ومُعْطَشًا أصبح رَيَّانُه ... وحُمَّصٌ في قِدْره عُودُ

واسودَّ وجهُ التُّوت من غَيْظِه ... والقلبُ من مُغْرِيه مقدودُ

والمصطَبيّ قد علا [فيهم](٣) ... ورُكْنُه يا صاح مِهدودُ

فالله يُبْقِيك لنا سَيِّدًا ... وبَحْرُك المحمودُ موروُدُ

تسر إخوان الصَّفا دائمًا ... وكلكم للناس مودودُ »

---

(١) أسبخ : السَّبْخ ، المكان يظهر فيه المِلْحُ ، وتسوخ فيه الأقدام ، والسَّبْخَةُ أرضٌ ذات ملحٍ ونزٍّ لا تكادُ تُنبت ، أي أنه لا خير فيه .

« المعجم الوسيط » (١/ ٤١٣) .

(٢) الجليل : جاء في « معجم البلدان » (٢/ ١٥٧) ، جبل في ساحل الشام ممتد إلى قرب حمص، والجليل أيضًا جبل بالقرب من دمشق ، وهو جبل بالأردن .

(٣) رسمها في الأصل (هم) ، والتصحيح بمقتضى وزن البيت .

في هذا الشعر إشارة إلى المفسدين المنضمين إلى الجلال ، منهم شخصٌ يُقال له الزِّين ، وآخر يُقال له ابن عُنْقُود ، وآخر يقال له ابن الرَّيّان ، وآخر يقال له الحُمُّصَاني ، وآخر يُقال لـه ابـن شيـخ المِصْطَبَـة[1] ، ثم انحلّوا عنه إلاّ الحُمُّصَاني ، وعلي التواتي صَبِيٌّ التِّلِمْسَاني المالكي ، وهو أسمرٌ قبيحُ المنظر .

وكتبت إلى أخيه قاضي القضاة ، وكان قد كتب ثانيًا يشكر ما بلغه عني ، ويشكو من ناسٍ حجازيين قدموا عليه فأساءوا إليه ، ويسأل المطالعة بأمر وقفهم للأكابر ، كتابًا طويلاً ، منه : « وقدم مثالُ[2] مولانا بأمر الحجازيين [٢١٠] فصادف العبد متوجهًا إلى المقام الشهابي في خدمة الشيخ نجم الدين بن قاضي عجلون من أجل بنت الصارم ، فإن أمرها لم يزل كليلاً ، وجدّها[3] مُدْبرًا حتى قدم ، فاشتد حينئذ أمرها ، واستطال شرُّها ؛ لشدَّة ما خيَّلت منه ، فقرِّر له أمرُ الحجازيين وأمرُ وَقْفِهم ، وإحسان مولانا إليهم ، وتوارُدِهم لأجل الإحسان حتى ضعف الوقف ، وكان ذلك غِبّ[4] قراءة العبد لذلك المثال ، والبكاء عند تأمل ما فيه من تضرع سيِّدي وصدق توجهه إلى الله في الحكم بينه وبينهم بالعدل ، وَتَبَرُّئه من حَوْله وقُوَّته واعتصامه بحول الله وقوته » .

إلى غير ذلك من تلك العبارات التي هي مع رقتها وجلالتها خـارجةٌ

---

(١) المِصْطَبَة : ويقال (المِسْطَبَة) وهي عند العامة بقعة بجانب البيت تُحاط بجدار وتُردم أرضها فتكون أعلى مما حولها .

« محيط المحيط » (٤٠٩) ، و « المعجم الوسيط » (١/ ٥١٤) .

(٢) مثال : كتاب .

(٣) وجدّها : حظها .

« المعجم الوسيط » (١/ ١٠٩) .

(٤) غِبّ : عَقِب .

« القاموس المحيط » (١/ ١١٣) .

من قلبٍ صافٍ بنفس طاهر ، فيالله ما أحلى ، وما أنهى ، وما أعلى ، فلما كان ذلك كذلك ، صادف من المقام المذكور قبولاً ، ويكون إن شاء الله بما رامه كفيلاً ، وقد سكن الآن أمرُ المرأة ، عجّل الله دَمارها ، وأضرم عليها نارها .

ومما تطالع به العلومُ الكريمة ، أنَّه لما اشتدت الأمورُ ، وخيف تفاقم الشرور ، بكثرة إغراء الأخصام لمن ذكر من الألداء اللئام خُيّل العبدُ بما أصغت إليه القلوب ، وارتسم في دواخل العقول ، غير أني كنت كلما نصبت خالاً زاد الخبيث له مالاً ، إلى أن نابذ العقل كما نابذ الدين ، وزاحم ياسيه بن بحراته ابن أبي العشرين ، فخفت العواقب ، فعطفت الأطماع ببعض ما جُبلت على محبَّة الطباع ، حتى تم الأمر ، وخمد الشرُّ ، فمولانا يُهَوِّن عليه ذلك إن امتطى الرُّتب العوالي ، استهدف لحسَّاده ، ومن استهدف لهم رشقوه ، وإنما يُصابُ الأمثل فالأمثل ، وإصابةٌ في المِجَنّ [1] أولى من إصابةٍ في الجسم ، وإصابةٌ في الجسم أولى من إصابة في العَرْض ، وإصابةٌ في العَرْضِ أولى من إصابةٍ في الدِّين ، فالمخدوم لم يُصب إلا في المِجَن ، وراميه قد أُصيب في جميع ما ذكر مع خيبة المسعَى ، وسوء الذِّكر والثناء ، وهذا مستوجبٌ للسماح والحمد لله على الصَّلاح ، والفوز بالنجاح مع أنّ العبد لم يُعَيِّن شيئًا أصلاً ولا شرح فيه بابًا ولا فصْلا ، ولكن لما قيل : إنّ الأطماع تعلَّقت ببعض المتاع ، قال : إن قاضي القضاة رأس العارفين ، ومثله لا يُدَلّ على صواب ، والعبد يُكاتبه بجميع ما وقع ، وأما أنتم فلا تكتبوا له إلا ما يليق بجنابه ، من حسن الثَّناء وما يقتضيه حاله من المجد والعُلا ، ولم يزل العبدُ شديد الكرْب من لهب الحرب ، حتَّى تواتر قدوم أكابر الشاميين فصدَّقوا مقالات العبد عند من

---

(١) المِجَنّ : التُّرس .
« القاموس المحيط » (٤/ ٢١٢ ، ٢٧٢) .

لم يكن يعرف المخدوم ، وحققو ما كان ذكر لهم من صفاته التي هي في هدايتها ومكانتها كالنجوم ، وتسابقوا في فداء ذاك الجمال من الأهوال والأوحال ، بالأنفس والأموال والأولاد والآل ، وكلّ نفيسٍ غال ، فقويت إذاً عُصْبَةُ الإيمان ، وضَعُفَ كيدُ الشيطان ﴿ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا [(١)] ﴾ ، ورجع حاملها أبيض الوجه ، قرير العين ، بعيد الصَّوتِ ، قويم الصوب عالي القدْر ، نابه الذِّكْر ، باذخ المجد ، ظاهر الرُّشْد ، فلله درُّه تركيّاً عربيًا شاميًا مصريًا ، نصوحًا مَرْضِيًا .

[٢١١] وفي يوم الجمعة رابع جمادى الأولى من سنة ثلاثٍ وستين هـذه ، وصل القاضي محبُّ الدين أبو المعالي بن الشّحْنة إلى القاهرة وقت الصلاة ، فصلى في جامع الحاكم ، ثم ذهب إلى بيت قَرَاجا بالقرب من جامع الأزهر ، وكان قد أُخْلِيَ له ، فنزل فيه ، ثم طلع بكرة السبت خامسه إلى القلعة ، فسلم على السلطان فأحسن تلقيه ، وخلع عليه ، وارتجت البلد له ، وزُلْزِل الأعيان زلزالاً شديدًا [(٢)] .

وفي هذا الشهر [(٣)] ، رُسم بإحضار أبي الخير النحاس [(٤)] ثم رُدَّ القاصد غير مرَّة .

وفي هذا الشهر ، حُفِر في بيت ناظر الخاص يوسف بن كاتب جكم ، فَوجد قِدْرةٌ فيها خمسة عشر ألف دينار إلا شيئًا ، ثم حُفِر أيضًا وفُتِّش ، فَوجُدِ صندوقٌ فيه قماش مُذْهَب يساوي نحو عشرة آلاف دينار .

---

(١) النساء / ٧٦ .

(٢) الخبر في : « حوادث الدهور » (٣٢٢) ، و « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٦٢) .

(٣) في : « حوادث الدهور » (٣٢٢) أن ذلك كان في يوم الأربعاء ٢٧ ربيع الآخر ، راجع أيضًا «بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٦٢) .

(٤) وذلك من طرابُلُس إلى الديار المصرية ، حيث كان منفيًا منذ أيام الملك الظاهر جَقْمق . « حوادث الدهور » (٣٢٢) ، و « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٦٢) .

وفي يوم الخميس عاشر الشهر خُلع على الأمير بُرْدَبَك الدويدار بإمرَة الحاج[1] وعُمل مولد للنبي ﷺ .

[ولادة] ابني أبو اللطف أحمد يوم السبت ثاني عشر جمادى الأولى سنة ٦٣ [٨] .

وفيها بين الظهر والعصر من يوم السبت ثاني عشر الشهر ، الموافق لحادي عشري برمهات من شهور القبط وُلد ابني أبو اللطف أحمد من فتاتي حَسْبِيَ الله الزِّنجيَّة المسَلاَتية بنت سلطان بلاد[2] المَسَلاَت (بفتحات مخفف) خَلِصَّة (بفتح الخاء المعجمة وكسر اللام ، ثم [صاد مثقلة][3]) ، ولم [أذكر ذلك[4]] اعتمادًا على كلامها ، بل حَرّرته من عدة من ذوي جِنْسها ، عن مدة تسع سنين ، وتسعة أشهر حَمْلاً ، فإني اشتريتها في ثامن شهر رجب من سنة ثلاثٍ وخمسين وثمانمائة حائضًا فانقضت مدةُ استبرائها في نحو عاشر شعبانها ، وحدثت لها أحوالٌ ظُنّ بها أنها حملت في ذلك الوقت ، ثم حصل لها ما يحصل من وَحَم[5] النِّساء ، فلما كان في أواخر السنة تحرك واستمر إلى أن جاوز السنةَ ،

---

(١) الخبر في : « النجوم الزاهرة » (١٦/ ١٢٩) ، وجاء فيه أن الأمير كَسبَاي الشُّشماني المؤيَّدي أحد أمراء العشرات أمير الركب الأول .

(٢) بلاد المَسَلاَت : ذكرها (ابن بطوطة) في « رحلته » (١٩) أثناء خروجه من طرابلس (الغرب) بصحبة جماعة من المصامدة في أواخر شهر المحرَّم سنة ٧٢٦ هـ ، وقال : « وأقام الركب في طرابلس خوفًا من البرد والمطر ، وتجاوزنا مسلاتة » .

كما ذكرها (الحسن بن محمد الوزّان) في « وصف إفريقيا » (٤٨٢) وقال « مسلاّته إقليمٌ على حافَّة البحر المتوسط على مسافة خمسة وثلاثين ميلاً من طرابلس ، ويحوي بعض القصور ، والقرى الكثيفة السكان ، وأهلها أثرياء ، ويوجد بها كثير من النخيل ، ومن شجر الزيتون ، ويعيش أهلها في حريَّة ، وقد اعتادوا أن يختاروا من بينهم رئيسًا يحكي صورة الأمير ، ويدبر شئون السلم والحرب مع العرب ، وبهذا الإقليم نحو خمسة آلاف مقاتل » .

(٣) ما بين الحاصرتين غير واضح الرسم في الأصل ، والتصحيح من مفهوم السياق .

(٤) ما بين الحاصرتين غير واضح الرسم في الأصل ، والتصحيح من مفهوم السياق .

(٥) وَحَم النساء : جاء في « المعجم الوسيط » (٢/ ١٠١٨) « وَحِمَتِ الحُبْلَى تَوْحَم وحَماً ، اشتهت شيئًا على حَبْلها » .

وحصل لها من فتور القوة ما لم تستطع معه أن تصوم رمضان سنة أربع وخمسين، مع معالجتها لنفسها في ذلك عدَّة أيَّام، تُمْسِك ناويةً للصيام إلى قريب الظهر، فتحصل لها دَوخة وقيءٌ فتفطر، فإذا أكلت لا يحصل لها ذلك، وكذا اتفق لها في رمضان سنة خمسٍ وخمسين، وصامت رمضان سنة ستٍّ وخمسين وما بعده غير منزعجة، وصامت الشهرين اللذين فاتاهما وجبرنا كلَّ يوم بكفَّارة كما أُمر به، وهي مع ذلك تحيض، وبطنها ضامر، وحركته متزايدة، ولم تجسَّها امرأة عارفةٌ ولا غير عارفةٍ، مكذبة بحالها أوّلاً إلاّ سبحت الله تعالى واعترفت أن بطنها مشتملٌ على حملٍ اجتمع منهن على ذلك عدد يفوت الحَصْر، فلما طال الأمر جِدًّا قالت واحدة منهن أو اثنتان: أنَّه مات في بطنها، وكانت إذا كشفت بطنها في الشمس ينتقل إلى الجهة التي ليس فيها شمس.

وظن الشيخ أبو الفضل البجائي أنَّ ذلك شيء سمَّاه الأطباء الرَّجـاء. قال ابن سينا (١) في القانون (٢): « ربما عرضت للمرأة أحوالٌ تُشبه أحوال الحبالى، من احتباس الطمث، وتغير اللون، وسقوط الشهوة، وانضمام فم الرَّحم، وربما كان مع صلابةٍ ما، ويَعْرِضُ انتفاخ الثديين وامتلاؤهما ». قال ابـن نفيـس (٣): « وربـما تولَّد في الثديـين

---

(١) هو: الحسين بن عبد الله بن الحسن بن علي بن سينا، البلخي البخاري، الملقّب بالشيخ الرئيس أبو علي، فيلسوف، طبيب، شاعر، وُلد بخرميشن من قرى بخارا في صفر سنة ٣٧٠ هـ، ومات بهمذان في رمضان سنة ٤٢٨ هـ، من مؤلفاته: « القانون في الطب »، و« تقاسيم الحكمة »، و« الشفا ».

له ترجمة في: « وفيات الأعيان » (٢/ ١٥٧ رقم ١٩٠)، و« سير أعلام النبلاء » (١٧/ ٥٣١ رقم ٣٥٦)، و« كتاب الوافي بالوفيات » (١٢/ ٣٩١ رقم ٣٦٨)، و« البداية والنهاية » (١٢/ ٤٢ ـ ٤٣)، و« النجوم الزاهرة » (٥/ ٢٥ ـ ٢٦)، و« شذرات الذهب » (٣/ ٢٣٤ ـ ٢٣٧).

(٢) ذكره (حاجي خليفة) في « كشف الظنون » (٢/ ١٣١١ ـ ١٣١٣)، وأشار إلى أنه من الكتب المعتبرة، مشتمل على قوانين الطب الكلية والجزئية، له عدة شروح ومختصرات.

(٣) هو: علي بن أبي الحزم القرشي الدمشقي المصري الشافعي، علاء الدين المعروف بابن النَّفيس، كان أعلم أهل عصره في الطب، مات بالقاهرة في ذي القعدة سنة ٦٨٧ هـ. =

اللبن » . قال ابن سينا : « وتحسُّ في بطنها حركةً كحركة الجنين ، وحجماً كحجم الجنين ، ينتقل بالغمز يمنة ويسرة ، وربما بقيت كذلك سنين أربعًا أو خمسًا ، وربما امتدت إلى آخر العمر ولم تقبل العلاج ، وربما عرض لها طلقٌ ومخاض ولا يكون مع ذلك ولدٌ ، وربما وضعت قطعة لحم لها صورة ما لا يُضبط أصنافها وربما كان ما يخرجُ ريحًا فقط ، وربما كانت فضولاً اجتمعت ليخرج معها دمٌ كثير مما احتبس ، والرجاء من جميع هذا هو القسم الثاني ، والسبب في تولد هذه القطعة من اللحم على ما يُحْدَس[1] شيئان : أحدهما كثرةُ موادّ تنصبّ إليها مع شدة حرارة . والثاني جماعٌ يشتمل فيه الرَّحم على ماء المرأة وهذه بالغذاء ولفقدان القوَّة الذَّكرية لا يتخلق ، ومن العلامات المميزة بين الرجاء وبين الحبل الحق ، أنّ ذلك الشيء ربما يتحرَّك وقتًا ثم بعد ذلك لا يتحرك ، وتكون صلابةُ البطن معه أشد من صلابة الحبلى بالولد الحق ، وتكون المرأة يديها ورجليها مترهِّلين جدًا مع رقة » . انتهى كلامه .

وكان حَيْظُها بتخالُف عاداته ، تارةً بالتقدم ، وتارة بالتأخر ، وتارة بنقص الأيام ، وتارة بزيادتها ، وتارة تحيض في كل شهر مرَّة على العادة ، وتارة في كل شهرين إلى غير ذلك من أمور يُتعب ضبطها إلى أن كانت سنة تسع وخمسين ، فوُجد اللبنُ في ثدييها ، لكن بقلَّة ، وهو غير أبيض ، بل لونه إلى الغبرة[2] ، واستمر إلى الولادة .

= من تصانيفه : « الشامل في الطب » ، و « المهذب في الكحل » ، و « الموجز » ، و « شرح القانون لابن سيناء » .

له ترجمة في : « طبقات السبكي » (٨/ ٣٠٥ رقم ١٢٠٦) ، و « طبقات الأسنوي » (٢/ ٥٠٦ رقم ١٢٠٤) ، و « النجوم الزاهرة » (٧/ ٣٧٧) ، و « شذرات الذهب » (٥/ ٤٠١ ـ ٤٠٢) .

(١) ما يُحْدَس : أي يُظَنّ ويُخَمّن .

« المعجم الوسيط » (١/ ١٦١) .

(٢) الغَبَرة : الغُبَار ما دق من التراب ، أو الرّماد .

« المعجم الوسيط » (٢/ ٦٤٣) .

فلما كان في رمضان سنة اثنين وستين انقطع حيضها ، وأخذ بطنها يكبر حتى تجاوز الحدَّ ، وظنَّيت أن أقلّ ما فيه اثنان ، إلى أن وُلد في الوقت المذكور في غاية السهولة ، وحصل أمرٌ عظيمٌ من اللطف ، وكانت في غضون هذه المدة ترى من المنامات مما يتعلق بهذا الحمل من البركة والخير والعظمة ، وأنّ كثيرًا من الناس يُكَذِّب بأمره ، ويحتاجُ إلى بحث وإقامة دليل ، ما لو كُتب لكان أكثر من مجلد ، وأظنه سُمِّي لها في بعضها أحمد ، وبعض المنامات مكتوبٌ في كراريس ، كنت أكتب فيها المنامات الهائلة ، جعله الله عونًا على الخير بعيدًا من الشر .

ولما سمع الناس بأمره كذّبه من لم يرسخ قدمه في العلم ، ولم يتسع فِكره لِلْجَوَلَان في فيافي المعارف ، فقلت لأصحابي : مَنْ نازعكم فقولوا لـه : أتُسْلِمُ أنَّ مدة الحمل المُسْتَمِرَّةِ كانت تسعة أشهر ؟ فإذا قال : نعم. فقولوا : أتُسْلِمُ أن الحمل لا يُعْلَم ؟ فإذا قال : نعم . فقولوا : فبما ذا حَكَم من حَكَم على أوّل امرأةٍ تجاوزت هذه المدَّة إلى أربع سنين أنها كلُّها مدَّة حملها ، ولم يقولوا : أن مدَّة الحمل منها إنما هي تسعة أشهر والباقي كان ريحًا أو غيره ، هل هو بغير القرائن ؟ فإذا قال : لا . فقولوا : وكذلك حكمنا على هذه التي تجاوزت المدتين بأن مجموع مُدَّتها مُدَّة حملٍ بالقرائـن ، فهل من فرق ؟! فقالوا ذلك ، فلم يستطع أحدٌ ابداء فرقٍ والله الموفق .

موت شاهين الدويدار

[٢١٢] وفي آخر ليلةِ الاثنين ، رابع عشر جمادى الأولى هـذا ، مـات [١] شاهين دُويدار الأتابكي الشهابي ولد السلطان ، عن نيف وخمسين سنة ، وكان من مماليك بَكْتَمُر [٢] السعدي ، وكـان عاقلاً لينًا ،

---

(١) لم أعثر له على ترجمة فيما توفر لديّ من مصادر .

(٢) هو : بكتمر بن عبد الله السعدي ، الأمير سيف الدين ، أحد أمراء الطَّبلخاناة بالقاهرة ، أصله من مماليك القاضي الأمير سعد الدين إبراهيم بن غراب ودواداره ، مات في ربيع الأول سنة ٨٣١ هـ .

له ترجمة في : « المنهل الصافي » (٣/ ٤٠٨ رقم ٦٨٤) ، و « الدليل الشافي » (١/ ١٩٥ رقم ٦٨٣)، و « الضوء اللامع » (٣/ ١٧ رقم ٧٧) .

قليل الشَّـرِّ حسن العشرة ، مليح الشكل ، يؤسف على مثله ، ولقد كثر ثناء الناس عليه ، وشهادتهم له بالخير رحمه الله .

وفي يوم الجمعة ثامن عشر الشهر ، وهـو جمادى الأولى أُحضرت مَزْرُرَةُ [1] المراسيم إلى ابن الشِّحْنة . وفي يوم [2] السبت تاسع عشره ، خُلع عليه بكتابة السر .

موت القطاوي

وفي هذا اليوم مات القاضي شمس الدين محمد [3] القطاوي الحنفي الحلبي ، أحد أعداء القاضي محب الدين بن الشِّحنة المؤذين له ، فكان ذلك من غرائب الاتفاق ، وكان القطاوي شيخًا بهيًّا جريئًا مفوّهًا ، وكان منقطعًا إلى الدويدار الكبير يونُس العلائي ، فتوصل بجاهه [4] إلى أن ناب في الحكم عن قاضي الحنفية السعد بـن الدَّيْري ، وكـان مَغْمُوصًا [5] عليه في شهاداته وأحكامه ، يُنسب إلى غاية التَّهافت عفى الله عنه .

وفي يوم الخميس رابع عشري الشهر ، لبس القاضي محب الدين بن الشّحنة ، خِلعةً بها لوظيفة كتابة السر من الأنظار على المدارس وغيرهـــا [6] .

---

(١) مَزْرُرَة : أي مجموع بعضها إلى بعض ومربوطة بخيط .
راجع معنى (زَرَّ) في : « محيط المحيط » (٣٦٩ ـ ٣٧٠) ، و « المعجم الوسيط » (١/ ٣٩١ ـ ٣٩٢).

(٢) في « النجوم الزاهرة » (١٦/ ١٢٩) « ثم في يوم السبت ثاني عشر جمادى الأولى المذكور استقر محب الدين بن الشّحنة الحلبي الحنفي كاتب السر الشريف بالديار المصرية ، بعد عزل القاضي محب الدين بن الأشقر » .

(٣) لم أعثر له على ترجمة فيما توفر لي من مصادر .

(٤) بجاهه : الجاه ، المنزلة والقدرُ عند السلطان .
« لسان العرب » (١٧/ ٣٨٠) .

(٥) مَغْموصًا : أي مطعونًا في شهاداته .
« لسان العرب » (٨/ ٣٢٨) .

(٦) الخبر في « حوادث الدهور » (٣٢٢) .

وفي يوم السبت سادس عشري الشهر لبس الجلالُ محمد بن عبد القادر الباعوني خِلعةً بقضاء الشافعية بطرابلس ، عن ابن عمه محب الدين ، وكلٌّ منهما أنحس [1] من الآخر ، وغرم على ذلك نحو ثلاثة آلاف دينار ، وغرم ابنُ عمه نحو ذلك ، فعليهما لعنةُ الله ، وعلى من دَيَّنهما ويُديِّن أمثالهما تقويةً له على أبواب جهنم .

موت النبراوي

وفي يوم الثلاثاء ، ثامن [2] عشري الشهر مات ناصر الدين محمد [3] النبراوي الحنفي ، عن نحو ستين سنة ، أحد نوَّاب الحنفية بالقاهرة ، وكان عارفًا بصناعة الشهود ، ذا شَكْل حسن ، وكان مُدمنًا [4] على الخمر والخلاعات ، كثير التَّزَوُّج للحسان ، قليل الغيرة ، مطعونًا عليه في شهادته ، وكان يصحب دُوْلات باي المؤيَّدي الدويدار ، فتوصَّل به إلى أن استنابه قاضي الحنفية ، السعد بن الدَّيْري ، ويُقال : أنه مات مخمورًا ، نسأل الله العافية .

وفي هذا الشهر والذي بعده ، زاد شرُّ الجُلبان ، وكثُر ضربهم للمباشرين ، فضربوا ناظر الخاص الزيني ابن الكُوَيْز ؛ فصدعوا يده ،

---

(١) أنْحَس : أي أكثر شؤمًا .

راجع معنى النَّحْس في « لسان العرب » (٨/ ١١٢) .

(٢) في : « النجوم الزاهرة » (١٦/ ٢٠٤) ، و « الضوء اللامع » (٦/ ٣٠٦) ، يوم الثلاثاء ٢٩ .

(٣) هو : محمد بن أحمد بن حسين ، ناصر الدين بن الشهاب النبراوي القاهري الحنفي .

له ترجمة في : « النجوم الزاهرة » (١٦/ ٢٠٤) ، و « الضوء اللامع » (٦/ ٣٠٦ رقم ١٠١٥) ، و« بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٦٣) .

(٤) يقول عنه (السخاوي) في « الضوء اللامع » (٦/ ٣٠٦) : « وكان ينفذ ما يحصّله من ذلك أولاً فأولاً ؛ لمزيد كرمه ، ومحبته في الاجتماع المذموم مع هِمَّة ومروءة » .

كما يقول عنه (ابن إياس) في « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر (٦٣) : « وكان بينهم العيش ، ويعزم على الأمراء وأعيان الناس ، ويفتك في اللذات فتكًا ذريعًا ، وكان الزمان يساعده على ذلك » .

وضربوا [1] ناظر الجيش الشرف الأنصاري وقد ألبسه السلطان خِلعة استمرارٍ ، لفتنة كانت وقعة بينه وبين ناظر الخاص ، زُلزل منها ، فضربوه على الخِلْعة إلى أن كادوا يقطعونها ؛ وكل ذلك على أمورٍ يُكلفون بها ، لا مُخَلِّص من شرِّها ، إذا مَرض إنسانٌ مثلاً طلبوا خُبْزَه ، فيعطيه السلطان لمن يريد ، ثم يطلبه آخرون ، فإن قرأ ناظرُ الجيش القِصَّة الثانية ضربه أهلُ القِصَّة الأولى ، وإن تركها ضربه أهلها ، وهكذا ناظر الخاص .

فلما كان أثناء جمادى الآخرة قَتَل شخصٌ من الزُّعر شخصًا ، فحماهُ الأمير سُنقر قَرَق شَبَق الزَّرَدْكاش ، أحد أشرفية بَرْسْباي عنده ، فطلب ناسٌ من الأجلاب الوصول إليه فلم يمكنهم ، فرفعوا أمرهم إلى السلطان ، فلم ينزعج ، فضربوه بحضرة السلطان ، يوم السبت عاشر الشهر ، فكسروا بعض أسنانه وأشرفوا به على الموت ، ولم يقدر السلطانُ ، ولا من حضره على تخليصه منهم ، ولقد أجادوا فيه ، فَلَعَمْري أنَّ ذلك لبعض ما يستحق ، فلقد كان يعمل في عباد الله ما لا يقدم عليه كافرٌ [بالله] في مسلم ، فما بقي أحدٌ أُعلم إلاّ سَرَّه ذلك ، وأن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر ، فقبض السلطان على شخص منهم اسمه سنطباي هو الذي ابتدأ بالضرب فيه ، وفي ناظر الخاص ، فقامت قيامتهم ، واجتمعوا يدًا واحدةً ، يسألون الدُّوَيْدار في إطلاقه ، وإلا ماتوا على دمٍ واحدٍ ، فتكررت الشَّفاعة فيه ، ولم يُجِبْ السلطانُ وفَّقه الله لما يُرضيه وأعانه على ما وَلاَّه آمين .

وفي يوم الأحد ، حادي عشره ضربوا اثنين من الأشرفية ، أحدهما يُقال له علاَّن ؛ غضبًا لسُنْقُر .

---

(١) كان ذلك يوم الثلاثاء ٢٩ جمادى الآخرة .

« حوادث الدهور » (٣٢٣) .

وفي هذا الحدّ ، بلغنا أنّ الأمير جانم ، نائبُ الشام وصل إلى دمشق في أوّل جمادى الآخرة هذا ، فأظهر عدلاً ؛ نادى بمنع المنكرات ، الخمر والحشيشة وغيرهما ، ووافى يوم دخوله الإتيان بشخصٍ من أكابر العرب كان دَعَى إلى [٢١٣] نفسه بناحية صَرْخَد [١] ، وخُطب له على المنابر ، فاحتال عليه مَقْلَدُ أمير العرب ببلاد حَوران ، فلما وصل إلى نائب الشام شنقه (أي ربط في عنقه حبلاً في خشبة عالية ، ورفعه عن الأرض حتى مات ؛ بخنق الحبل له) .

موت إبراهيم ابن الأشقر

وفي ليلة الثلاثاء العشرين من جمادى الآخرة هذا مات إبراهيم [٢] بن كاتب السر محب الدين محمد بن الأشقر عن نيفٍ وثلاثين سنة ، وكان شابًا جميلاً حسن الخلق والعسرة ، ذا صيانةٍ وديانة ومروءة ، بارًّا بوالديه ، كافيًا لأبيه أمرَ دنياه ، عزيزًا في أولاد الرؤساء وجود مثله ، وصلى عليه بكرة اليوم المذكور في باب النصر قاضي الشافعية العَلَم صالح البُلْقِيني في جمع كبير جدًا ، وعظم ثناء الناس الجميل عليه ، وتأسفهم ، ودُفن في تربة أبيه بالصحراء رحمه الله .

موت أبى البركات الهيثمى

وفي أواخر هذا الشهر ، بلغنا أن القاضي محب الدين أبا البركات [محمد بن [٣] عبد الرحيم بن محمد] الهَيْثَمى [٤] قريب الحافظ نور

---

(١) صَرْخَد : جاء في « معجم البلدان » (٣/ ٤٠١) « بلد ملاصق لبلاد حَوْران من أعمال دمشق ، وهي قلعة حصينة ، وولاية حسنة واسعة » .

(٢) هو : إبراهيم بن محمد بن عثمان بن سليمان بن رسول سعد الدين بن المحبّي بن الأشقر الحنفي.

له ترجمة في : « حوادث الدهور » (٣٢٣) ، و « الضوء اللامع » (١/ ١٥٣) ، و « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٦٣) ، وجاء فيه أنّ وفاته كانت في شهر رجب .

(٣) ما بين الحاصرتين بياض في الأصل ، والتصحيح من « الضوء اللامع » (٨/ ٥٢ رقم ٦١) .

(٤) راجع « هامش ١ » من (ص ١٦١) من القسم الثاني .

الدين ، مات بمكة المشرفة مجاورًا يوم الثلاثاء ثامن جمادى الأولى وهو في عشر الستين ، وبلغنا أن سبب موته ، أنَّه ذهب مع الأمير تَمُرْ بُغا ، أحد مماليك الظاهر جَقْمَق ، والخطيب أبي الفضل النويري إلى بعض المنتزهات ببطن مَرٍّ ، فرجعوا جميعًا مرضى ؛ وذلك لأنهم نزلوه في زمانٍ مُجْمع على أنَّه في غاية الوَخْم [١] ، وذلك في برمهات من أشهر القبط ، حتى أنّ بعض أهل مكة أخبرني أنَّ أهل ذلك المكان ، قلَّ أن يَسْلُم منهم أحدٌ في تلك الأيَّام ، حتى أنهم ليهربوان إلى مكة المشرفة تشفيًا [٢] ، وذكر أنَّ من أكل من غزلان هذا الوادي مرض ، بل قال : مات ، هذا هو السبب فيما يظهر لا ما ظنه الناس من أنَّ امرأة تَـمُرْ بُغا كانت فسدت في غيبته عنها في حبس الصُّبَيْبَة ؛ فخافته على نفسها إن سمع فعاجلته بأن سمته ، وذلك لأنهم ذكروا أنّ الضيافة كانت للخطيب وهو من جملة من مرض والله أعلم .

ولما اتفق لتمُرْبُغا هذا الأمر ، وخاف عليه من خاف من امرأته ، حُكِي له أمرها فطلقها ، وكانت تُوصف بجمال ، فكـان الأكابر يتداولونها ، بعضهم في الحرام ، ومن يتحاماه [٣] يتزوجها سرًا ، وكلما تركها واحدٌ لقبح سيرتها ، أخذها آخر لحسن صورتها ، ولم يحرك ذلك منه ساكنًا ؛ لأنه لما عاد إلى القاهرة وتنقَّل في رُتَب الإمْرَة إلى أن بلــغ السلطنـة [٤] ، لم يذكر أحدًا منهم بشفةٍ ، ولا بلسان ، وكان منهم ابن الصابوني التاجر الذي توصَّل بصحبة خُشْقَدم إلى أن وُلِّي قضاء الشافعية

(١) يتحاماه : يتجنبه .
« المعجم الوسيط » (١/ ٢٠٠) .
(٢) تولى السلطة نهار السبت ٧ جمادى الأولى سنة ٨٧٢ هـ حتى خُلع يوم الاثنين ٦ رجب من نفس السنة بمبايعة السلطان الملك الأشرف قايتباي المحمودي .
« النجوم الزاهرة » (١٦/ ٣٧٣ ، ٣٩٥) .
(٣) الوَخْم : أي الوباء . « لسان العرب» (١٦/ ١١٧) .
(٤) تَشَفِّياً : أي لطلب الشفاء . راجع «لسان العرب» (١٩/ ١٦٦) .

بدمشق ، والناس في غاية الحنق عليه لذلك ؛ من جهة أنه لا يعلم شيئًا من العِلْم ، وهو مع ذلك مقيمٌ بالقاهرة ، وأبوه وهو عامين ... فكان أقلّ أذاه له أن يعزله ، أو يلزمه بالسَّفر إلى دمشق ، وكان كلّ أحدٍ يشكره على ذلك ، ويستريح هو من رؤيته في كل يوم ، فلم يفعل شيئًا من ذلك ، ولا واجهه بشيء يسوءه .

وكان أبو البركات من أعيان نُوّاب الشافعية ، وكان فاضلاً في الفقه والنحو ذا ذهن جيد ، كثير التلاوة لكتاب الله ، كثير الصلاة ، مثابر على الفرائض في أوقاتها مع الجماعة ، كثير الحج والمجاورة ، إلا أنه كان غير محمود السيرة في قضائه ، عفى الله عنه ورحمه آمين .

وفي هذا الشهر وقع في قبضة السلطان اثنان من المفسدين في الأرض بالشرقية ، أحدهما كُلَيْوات أخو الفضل ، والثاني يُقال له ابن الطماوي ، فقصد الإتيان بهما إلى القاهرة ، فذهب كثيرٌ من الأجلاب إليهما ، إلى قرب بِلْبِيس ؛ ليخلِّصوهما ، فَرُدّا إلى سجن بِلْبِيس ، ثم أمر السلطان خَيرِبَك والي القاهرة بالذهاب إلى بِلْبِيس لقتلهما ، فذهب يوم الأحد ثالث شهر رجب من السنة في جَمْعٍ جيد ، فقطع رأسيهما وأُتى بهما في أوّل ليلة الاثنين رابعه يُنادى عليهما : هذا جزاء من أفسد في الأرض ؛ فسُرَّ الناسُ بذلك .

وفي هذه الأيام صار السلطان يمقت الشرف الأنصاري ، وينسبه إلى العجز والخيانة ؛ وذلك أنه كان مباغضًا للأمير زين الدين بن الكُوَيْز ناظر الخاص ، وكان ابن الكُوَيْز مصادقًا لكاتب السر المحب بن الشحنة ، فأغريا عليه أبا بكر بن مُزهِر ناظر الجوالي ومنَّياه وظائفه ، فانفعل لهما ؛ إذ كان شابًا طيَّاشًا [1] لم يَعْركه الدهر ، ولم يجرب أبناء

---

(١) طيَّاشًا : الطيّاش ، هو الأهوج ، الأرعن ، المتسرع .
« المعجم الوسيط » (٢/ ٥٧٤) .

الزمان ، وكانت أمُّه مقدَّمةً عند خَوَنْد ، وكانت أخف منه وأكذب ، على ما هو شائع وكان السلطان لا يخالف خَوَنْد ، فلفتتها عن الأنصاري إلى أن كان يوم الثلاثاء خامس هذا الشهر ، فرسم السلطان على الأنصاري [1] ، ورسم أن يكون عند نقيب الجيش ، فشفع فيه الأمير بُرْدُبَك في أن يكون في طبقة الخَزَنْدَار ؛ ليحاسب على ما دخل تحت يده في مال السلطان ، هل صرفه ، أو خاف منه في شيء ، فشق ذلك على أكثر الناس ؛ لأن الأنصاري سار في هذه الولاية سيرة أعجبتهم كان فيها ليِّنًا متواضعا مائلا إلى الضعفاء ، منفعلاً إلى الخير ، وأكثروا الدعاء له ، والثناء عليه ، والدعاء على من يؤذيه .

ثم حوسب ، فلم يظهر في جهته شيءٌ ، غير أنَّه دفع إلى الوزير والإِسْتَدَّار ستَّة وعشرين ألف دينار ، وهما معترفان بوصولها إليهما ، فذكر السلطان أنه لم يأذن في ذلك ، وقد كان شاع أنه أذن له في ذلك ، ولكنه مال مع خَوَنْد ، ولما لم يجد عليه مطعنًا غير ذلك اعتلّ به ، وذكر لي بعضُ الأكابر الخصيصين بهم ، أن خَوَنْد أظهرت أنها فعلت ذلك نكاية في زوجته خَوَنْد بنت شَرِباش التي كانت زوجة الظاهر جَقْمَق ؛ وذلك لأنها كانت تُبغض خَوَنْد زينب بنت خَصْبَك زوجة الأشرف هذا وتؤذيها كلما طلعت إليها في أيَّام الظاهر ، فلم يَحْمَد ذلك أحدٌ .

وفي يوم الخميس سابع رجب هذا الشهر ، سافر جانِبَك ، ناظر جُدَّة ، ومعه جمع يسير من الحاج ، كتب الله سلامتهم آمين [2] .

وفي يوم السبت تاسع رجب هذا سأل شخصٌ من الأجلاب يقال له مَامَيْه الأمير بُرْدُبَك الدويدار أن يطلب له من السلطان شيئًا ، فسأله أن يصبر عليه قليلاً ، فأساء الأدب في حقه ، وانتهك حُرمته ، ونال من

---

(١) الخبر في « النجوم الزاهرة » (١٦/ ١٢٩) ، و« بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٦٣) .
(٢) الخبر في « حوادث الدهور » (٣٢٤) .

زوجته بحضرة السلطان ، فقال : إن كانت المباشرة على هذه الصِّفة فلا حاجة لأحدٍ بها ، ونزل غضبان حافيًا لم يُلحق بِنَعْلِه إلاَّ عن بُعد ، وانقطع في بيته ، ولم يجتمع بأحدٍ ، ثم أرسل إليه السلطان بعد أيَّام ، فطلع إليه ولم يُعاقب ذلك الجلب بشيء .

وكان الدُّوَيْدار الكبير يونُس مريضًا من نحو شهر [1] ، فصار السلطان بغير دُوَيْدَار ولا ناظر جيشٍ ، وجرت فتنةٌ في برِّ الجيزة ، بين العُرْبَان ، فجمعوا جَمْعَيَن ليقتتلوا فكان على مَلِك مصر من قلَّة الحرمة ، وانحلال الأمر ، ما قلَّ أن عُهِدَ مِثله ، والله تعالى المسؤول في إصلاح الأحوال .

موت المحب ابن الأشقر

[٢١٤] وفي آخر يوم الثلاثاء ثاني عشر شهر رجب من سنة ثلاث وستين المذكورة ، مات [2] القاضي محب الدين بن الأشقر ، عن نيفٍ وثمانين سنة ، مكث بعد موت ابنه إبراهيم نحو ثلاثة أيام ، ثم مرض ، واستمر إلى أن مات في هذا التاريخ وصلى عليه بكرة يوم الأربعاء ثالث عشره في باب النصر قاضي الشافعية ، وكانت جنازته حافلة ، وأثنى غالبُ الناس عليه خيرًا ، وكان رئيسًا متواضعًا في رئاسته ، معظَّمًا بين الأكابر ، ففي صباه لما سافر الأشرف بَرسْبْاي إلى ابن قرالُوك لاقاه إلى دمشق فحصل له وَعَكٌ في الطريق ، فكان الأشرف يُرْكِبَهُ في محَفَّته ، ولما دخل إلى القاهرة كان أقرب الناس إليه حتى لقد كان القضاة قدَّامه ابن حجر وغيره ، وخلَّف أولادًا أكبرهم أحمد [3] شيخ خانقاه سرِياقُوس .

---

(١) في « حوادث الدهور » (٣٢٤) ، أنه تعافَى في ١٤ رجب ، وصعد إلى القلعة فألبسه السلطانُ خِلعة العافية .

(٢) راجع « هامش ١ » من (ص ٧٤) من القسم الأول .

(٣) هو : أحمد بن محمد بن عثمان بن سليمان ، الشهاب بن المحب ، القَرَمي الأصل القاهري الحنفي ، المعروف بابن الأشقر ، استقر في مشيخة الخانقاه السِّرْياقوسيّة عوضًا عن أبيه ، وانفصل عنها ثم أُعيد ، ثم رغب عنها لأخيه الأصغر ، وكان مخمول الحركات مبذِّرًا .

ترجم له (السخاوي) في « الضوء اللامع » (٢/ ١٤٠ رقم ٤٠٠) ولم يحدِّد تاريخ وفاته .

وفي ضحوة يوم الخميس رابع عشر الشهر ، أراح الله تعالى (وله أتمّ الحمد وهو المسؤول في تمام النعمة) من جار السوء العديم الغيرة على بنيه وبناته ، المحامي عنهم بالباطل ، المريد لإعلاء كلمة الشيطان على كلمة الرحمن ، علي بن الفاوي الجوهري ، فمات في هذا الوقت عن نيفٍ وخمسين سنة ، وله أولادٌ من شرِّ عباد الله ، وكان أكبرهم وشرُّهم أبو بكر غائبًا في دمشق لا ردَّه الله .

وكنت في آخر يوم الأربعاء الذي قبل يومه هذا في مسجدي ، وابني محمد وهو مرضِع يمشي في أواخر الثانية من عمره مع جاريةٍ لنا على بابِ المسجد بحيث أراه وهو قريب منِّي فأتى ولدان للفاوِي صغيران كُلُّ واحدٍ في نحو السباعي [1] وولدٌ لابن أخته مراهق [فوقفوا [2]] إلى جانب ابني ، فخشيت عليه منهم ؛ فأمرتهم بالذِّهاب ، فلم يفعلوا ، فأخبرتهم الجارية ، فأغلظو لها ، فقامت إليهم ، فتركوها ، فأمرتها بالدخول بالولد إلى المسجد ، فرجموا الحجر ، فأصاب ركن الباب ، ثم إنّ الولد اشتهى أن يقف بحيث ينظر الناس ، فأمرتها بالوقوف به على باب المسجد الآخر ، فوقفا هناك فآذوهما ، فزجرتهم الجارية ، وأرادت القبض على أحدهم لتأتي به إليَّ ، فهربوا منها وطلعوا إلى بيتهم ، وأشرفوا من الطاقات ، وشرعوا يصيحون عليها ، وكان بعضُ جيراننا أراد أن يُرْكِب ابنه لِيَخْتِنَه على عادة المصريين ، وكان غالبُ أهل الحارة قد ذهبوا معه ، فلم يكن أحدٌ يُعين عليهم ، فأمرت الجارية بالدخول بالولد إلى المسجد ففعلت ، وكان الولد فهم من الواقعة ما سكَّنه فجلس ، فلم يحترك بعد ذلك ، ولا طلب المشي ثم قام .

كل هذا والفاوي قد وصل إلى حالة لا يرجونه فيها ، وليس أحد منهم

---

(١) أي سبع سنوات .

(٢) في الأصل (فوقفا) ، والتصحيح من مفهوم السياق .

ينهاهم مع رؤية بعضهم وسماع الكلّ لأصواتهم ، فانظركم في ذلك من عجب ، فلما صلّيت المغرب ابتهلتُ إلى الله تعالى في الإراحة منهم .

وكنت في الميعاد في قوله تعالى : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ والجْرَادَ وْالقُمَّلَ [1] ﴾ الآيات ، في أمر فرعون وجنوده ، ثم في أمر اليهود وما وقع لهم بعد ذلك من النقص ، وإلى هنا وصلتُ في مسودة كتاب المناسبات ، (والعجب أن يُقال : أنَّ أصله [2] يهودي والله أعلم) وكنت في المبيضة في آخر سورة النساء ، وهي ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ الله يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلٰلَةِ [3] ﴾ وأول سورة المائدة .

وكان لما ادُّعى عليه بما تقدم في صفر سنة إحدى وستين ، وأُمر بالنَّقلـة ، وشُفع فيه بعدُ في أن لا ينتقل ، أقام أشهرًا يكثر الخجل ، ثم انتقل وترك مفاتيح بيته المجاور لنا معه ، وكان يتردد إليه ، فلما رأى أن أمره لا يزداد إلاَّ إدبارًا ، وأمرُ الله لا يزداد إلا ظهورًا وإقبالاً انقطع ، وأرسل يستعطفني ، فلم أفعل ؛ لما أعلم من طبعه على الرداءة ، وأنّي إن أجبت يصير القيامُ في ردعه عن بعض فساده عَسِرًا ، فلما لم يقدر منِّي على شيء مما يُريد ، ولا ظَفِرَ بمقاربة انقطع بالكلية إلى أن كان أول رجب هذا ، فعاد على ما كان عليه من الأذى ، بل زاد أن ابنته ، وكانت معروفة بالغناء في المحافل جمعت من يشبهها في الفجور ، وغنَّت بهن ثاني ليلة من عوده أو ثالثه ، فلم أظن أنها هي ، وظننت في بعض المجاورين لنا ، فأنكرت عليه بُكرَة تلك الليلة ، فحلف لي أنه لا يعلم من ذلك شيئًا ، ولم يكن نائمًا في الحارة ، فتتبعتُ ذلك ، فأخبرت أنها هي ، فقلـت لذلك

---

(١) الأعراف / ١٣٣ .

(٢) أيّ الفاوي .

(٣) النساء / ١٧٦ .

المخبر : إن عادت جمعنا من يشهد ، ثم تكلمنا معهم ، فمرض عقب ذلك ، واستمر إلى أن مات في التاريخ المذكور وحقق الله قوله تعالى : ﴿ لَنُهْلِكَنَّ الظَّٰلِمِينَ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ، ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وعيد [(١)] ﴾ ، وقوله في القصة التي كنت بها في الميعاد : ﴿ عَسىَ رَبُّكُمْ أَنَ يهْلِكِ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمُ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ [(٢)] ﴾ .

وكان مآل أمرى معه ما استنبطته من قصة بني اسرائيل مع المصريين، من بُغضهم للغريب ، وَرَفْعِ الله له عليهم ؛ وذلك أنهم سجنوا يوسف عليه السلام بعدما رأوا الآيات ببراءته ، فرفعه الله عليهم بأن جعل حياتهم في ذلك القَحْط [(٣)] على يده ، فكان جزاؤهم له أن استعبدوا بنيه وبني إخوته وذبحوا أبناءهم ، ثم أنقذهم الله منهم وأهلك المصريين ، ثم لم يزل بنوا إسرائيل الذين رُبُّوا في مصر في كُفْران [(٤)] ما يرونه من النِّعم ، حتى أقسم الله أنَّه لا يُدخلهم إلى الأرض المقدسة فتَوَّهَهُم إلى أن ماتوا وكان يسميهم فى التوراة الجيل المِعْوَجّ وما رَحَل إلى القُدُس إلاّ أبناؤهم الذين رُبُّوا أو وُلدوا في التِّيه .

وبعد أن ذُهب بجنازته كنت أتحدث مع عيالي في أمره وأنَّ بعض الأصحاب أشار أن أحضرُ جنازته فقلت : لو لم يكن في تَرْكِي لذلك إلاّ خوف أن يقول أحدٌ من فَجَرت أقاربه أني شامتٌ لكان ذلك كافيًا في

---

(١) إبراهيم/ ١٣ ، ١٤ .

(٢) الأعراف/ ١٢٩ .

(٣) القَحْط : جاء في « لسان العرب » (٩/ ٢٤٩) القَحْط احتباس المطر ، والقحط الجدب ؛ لأنه من أثره .

(٤) كُفْران : جاء في « لسان العرب » (٦/ ٤٥٩) الكُفْرُ ، كُفْرُ النعمة ، وهو نقيض الشكر ، والكفر جحود النعمة ، وهو ضدُّ الشكر ، وكَفَر نعمة الله يكفرها كفورًا وكفرانًا وكفر بها جحدها وسترها .

(٥) فَتَوَّهَهُم : أي حيَّرهم ، فلم يهتدوا للخروج . « لسان العرب » (١٧/ ٣٧٦) .

التركَ ، وإذا صبيٌّ جاء في الزُّقَاق [1] يقرأ ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا[2] ﴾ إلى آخرها ، وكان ختمه لها تجاه بابه ، فكان ذلك من الآيات الغريبة ، فإن الله تعالى، وجميع أنبيائه عليهم الصلاة والسلام أوصوا بالعلماء فترك وصاياهم في ذلك، ولم يرْعها من هذه الجهة ، ولا في جهة الوصيَّة بالجار .

ثم إنهم كابروا بعد موته مدة بسكني ذلك البيت ، ثم رمى الله بينهم من الشرور ما فرَّقهم ، ومع ذلك فاستمروا يعطون كِرَا البيت وهو مغلق لا ينتفعون به لئلا يُقال : إنهم غُلِبوا ، والله من ورائهم محيط .

وفي هذا اليوم [3] قُسِّمت وظائف الشرف الأنصاري على البرهان بن الدَّيري أخي قاضي القضاة سعد الدين بنظر الجيش من غير أن ترتَّب عليه شيء في كل يوم وعلى ابْنَيْ عبد الرحمن بن الكويز بنظر الكسوة ، ووكالة بيت المال ، وأُعطى أبو بكر بن مزهر نظر خانقاه سعيد السعداء ، وشقّ على الناس ما فُعل بالأنصاري ، ولا سيما أنه مع ذلك استمرّ في التَّرْسِيم [4] .

وعُوفِيَ الدُّوَيْدَار الكبير يُونس ، وطلع في هذا اليوم إلى السلطان ، وخَلع عليه ، وكان ظانًا أن الأنصاري يُكرم لأجله [5] .

وفي يوم السبت [سادس [6]] عشره ، وُزِّع ما كان يقوم به الأنصاري

---

(١) الزُّقَاق : الطريق الضيق ، نافِذًا أو غير نافذ .
« المعجم الوسيط » (١/ ٣٩٦) .

(٢) الشمس / ٩ .

(٣) وهو يوم الخميس ١٤ رجب .

(٤) الخبر في : « حوادث الدهور » (٣٢٤) ، و « النجوم الزاهرة » (١٦/ ١٢٩) ، و « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٦٣) .

(٥) الخبر في « حوادث الدهور » (٣٤٢) .

(٦) في الأصل (سابع) ، والتصحيح من « النجوم الزاهرة » (١٦/ ١٣٠) ، ومما جاء في نفس الصفحة للمؤلف من أن يوم الثلاثاء يوافق ١٩ رجب .

في كل يوم ، وهو خمسمائة دينار للإستادّار والوزير كاتب السر ، وناظر الجيش ، وناظر الخاص ، وأُضيف لهم أشياء من تَعَلُّق الذَّخِيرة ، فأُضيف إلى ناظر الجيش ما في بلاد القدس ، وأُضيف إلى ناظر الخاص ما في بلاد دمشق وطرابلس ، وأُضيف إلى كاتب السر ما في بلاد [٢١٥] حلب ، ومن ذلك الجوالي ، وعُزل [١] ابن مُزْهِر من ذلك ، فلم يبق معه إلاَّ جوالي مصر ونظر خانقاه سعيد السعداء .

وفي يوم الأحد [٢] لقى ناسٌ من الأجلاب كاتبَ السر المحب بن الشحنة ، فطلبوا منه ثياب بَعْلَبَكِّي فاعتل عليهم فأغلظوا له ، وقيل : إنهم ضربوه [٣] .

وفي يوم الثلاثاء تاسع عشر الشهر رُسِم على ناظر الخاص ابن الكُوَيْز في بيت الأمير بُرْدْبَك ، ثم أُطلق في آخره ، فلم يَنَمْ إلا في بيته .

وفيه خُلع على ابن الأقساسي ، الملقب بالمِخْلَع بدُوَيْدَاريَّة السلطان بحلب ، ثم أُخذت الخلعة منه آخر ذلك اليوم [٣] .

وفي يوم الخميس حاد عشر [ي] [٤] شهر رجب عُزل ابنُ شهري [٥] من نيابة القدس [٦] وقد كان حصل به للخليل كما تقدم

---

(١) راجع « حوادث الدهور » (٣٢٤) .

(٢) في « النجوم الزاهرة » (١٦/ ١٣٠) ١٧ رجب .

(٣) الخبر في « النجوم الزاهرة » (١٦/ ١٣٠) .

(٤) في الأصل (عشر) والتصحيح من مفهوم السياق ، ومن « النجوم الزاهرة » (١٦/ ١٣٠) .

(٥) في « النجوم الزاهرة » (١٦/ ١٢٧ ، ١٣٠) ، شاه منصور بن شهري .

(٦) كان قد استقر في نيابة القدس ، بعد عزل إياس البَجَاسي في يوم الاثنين ٣ ربيع الأول سنة ٨٦٣ هـ .

« النجوم الزاهرة » (١٦/ ١٢٧) .

خيرٌ كبير ، أذل مُفسديها ، ورفع صالحيها ، وأَمن الناسُ بها ، غير أنَّ ابن أيوب الذي كان قبله كان مقيماً بالقاهرة ، وكان من شياطين الناس ، فكان كُلَّما لقى أحدًا من أهل تلك البلاد يخبره أنَّ شُغْله انقضى ، وأنه يلبس الخِلْعة غدًا مثلاً ونحو ذلك ، فضعفت كلمةُ ابن شهري ، ولم يزل الأمرُ على ذلك حتى عُزل في هذا اليوم ، ووُلِّيَ ابـن أيوب ، فلا قوة إلا بالله .

وفي يوم السبت ثالث عشري الشهر ، حُسّن للسلطان أنه يَستْخْلِص المال الذي قَذَف به الأنصاري منه ، ولو بعَصْر كَعْبَيْهِ ، وأرسلت خَوَنْد إلى صهرها الدُّوَيْدَار الكبير تنهاه عن الكلام فيه ولم يكن أحدٌ أصحب إلى الأنصاري منه ؛ فانقطع عن القلعة لذلك ، فقام الأمير بُرْدُبَك مقامًا عظيماً ، وكان من قوله للسلطان : إنَّ كلّ من يُزَيِّن لك هذا الأمر يخرج من عندك بذمِّكَ به ، وقصدهم تبغيضك إلى الناس ، وأنا لست كهم في أمرك ، أنا في الشفقة عليك ، بحيث لو وضعت سيفك في حلقي ما تركتُ الغِيرة عليك ، فكفَّه الله عنه به ، وحمد الناس على ذلك .

وفي هذا اليوم رُسم أن يُـحْضَـر أبو الخير النَّحَّاس ، فَعُلم أن في رأسه صوتًا لا بُدَّ أن يُغَنِّيه فلم يُعارض في ذلك ، فكُتب بذلك إلى نائب طرابلس وعُيِّن له هَجَّانٌ والله حائل بين من يريد الظلم وبين نفسه ، وهو القادر الفعَّال لما يريد [١] .

موت المحب ابن الفاقوسي

وفي ليلة الاثنين خامس عشري شهر رجب المذكور مات القاضي محب الدين [٢] محمد ابن القاضي ناصر الدين محمد بن حسـن الفاقوسي

---

(١) الخبر في « النجوم الزاهرة » (١٦/ ١٣١) .

(٢) هو : محمد بن محمد بن حسن بن سعد بن محمد بن يوسف ، المحب بن ناصر الدين بن البدر، القرشي القاهري الشافعي، الفاقوسي ـ نسبة لفاقوس من الشرقية ـ وُلد سحر ليلة السبت ١٢ رجب سنة ٧٨٢ هـ بدرب السلسلة من باب الزَّهُومة بالقاهرة ، وتتلمذ على أبرز علماء عصره ، ووقّع في ديوان الإنشاء والوزر وغيرهما ، وباشر خزن كتب السابقية بعد أبيه . =

الشافعي الموقِّع في [الدَّست [1]] ، مَبْطُونًا في سكنه من درب السلسلة قرب الصالحية ، عن نيف وثمانين سنة ، وصُلي عليه في ضحوة الاثنين المذكور في باب النصر ، وحضر جنازته جمعٌ من الأعيان والفضلاء ، ودُفن في مقبرتهم بالست زينب ، وكان على مشهده سكينة .

موت خيربك شهر شعبان سنة ٨٦٣]

وفي يوم السبت مستهل شهر شعبان من السنة ، مات خَيرِ بَك أمير آخور الثاني ، فلما هنأ القضاة السلطان بالشهر عَتَبهم على عدم الصلاة عليه ، فاعتذروا بعدم العلم بموته في وقته ، وأعطى السلطان وظيفته [للأمير [2] يَلَباي الإينالي المؤيَّدي] ، ونقل ناسًا من العسكر إلى أن آل النقل إلى شخصٍ من الأَجْلاب في نيابة بعض رؤوس النُّوب فأجابه السلطان ، ثم سأل في ذلك آخرُ من فُجَّارهم فأجابه ، ثم وَلَّى الأوّل وألبسه خِلعَةً يوم الاثنين ثالث الشهر ، فقام ذلك الفاجر وقعد وآل الأمر به إلى حدٍّ سَلَّ سيفه بحضرة السلطان في القصر ونخس به المُعْـطَى فلم يتمكن منه ، فلم يجرحه ، فكان ذلك غاية في قلَّة حُرمة الملك والمملكة ، نسأل الله صلاح الحال .

وفي يوم الاثنين ثالثه لبس كاتب السر المحب بن الشِّحنة خِلعة بأنه مُسَيِّر المملكة أي لا يُوَلَّى أحدٌ وظيفة إلا على يده ، ولا يُسعى إلا من بابه.

وفي يوم الثلاثاء قدم الوزير علاء الدين بن الأَهْنَاسي بناس من برِّ الجيزة ، قد قتل بعضهم ، وسَلَخَ بعضهم ، وغَلَّ بعضهم ، ادَّعى أنهم مـن المفسديـن ، فخلع عليه السلطان وأكرم مثواه .

= له ترجمة في : « النجوم الزاهرة » (١٦/ ٢٠٥) ، و « الضوء اللامع » (٩/ ٧١ رقم ١٩٠) ، وفيه أن وفاته كانت ليلة الثلاثاء ٢٥ رجب ، و « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٦٤) .

(١) ما بين الحاصرتين غير واضح في الأصل ، والتصحيح من « النجوم الزاهرة » (١٦/ ٢٠٥) .

(٢) ما بين الحاصرتين بياض في الأصل ، والتصحيح من « النجوم الزاهرة » (١٦/ ١٣١) ، وكان ذلك في يوم الاثنين ٣ شعبان .

وفي يوم السبت ثامن شعبان ، فُرِّج عن الشرف الأنصاري [١] بعد أن أدَّى نحو عشرين ألفًا ، فسُلبت نعمته ، وأُخذت أملاكه ، وأمتعةُ زوجته خَوَنْد بنت َشرِبَاش ، فلزم بيته ولم يأذن لمن يقصده للسلام عليه ، فأجاد في ذلك من وجوه وصحَّ الخبرُ بأن زوجة صاحبنا الشيخ عمر الحصني ، الساكن بالقرافة رأت في المنام ليلة الأربعاء خامس شعبان المذكور النبي ﷺ ، فسألته ملاحظة الأنصاري ؛ لكونه من ذرّيَّة أنصاره ، فقال : ها هو معي ولا يَصِلون فيه إلى سوءٍ ، ولكن لم أُحبّ له توغله في الدنيا إلى هذا الحد ، فقالت له : الناسُ منزعجون من مجيء أبي الخير النَّحَّاس . فقال : إنه لا يُفلح ولا يقدر على ما يخشى منه ، وَوَهَى أمره جدًا ، فلم يُقَدِّر أن الشيخ عمر يحكي هذا المنام للأنصاري إلاَّ بكرة يوم السبت ثامن الشهر ، ففرِّج عنه في أواخره كما ذكر ، جعل الله التمام بخير لكن تبيّن بعد ذلك أن الشيخ عمر هـذا من الدعاة لابــن عربي [٢] الاتحـادي [٣] ، فاتُّهم في أمر الأنصاري ؛ لأنه تلميذٌ لعيسى المغربي العربى الخبيث ، المشهور بين المغاربة بالغندور فالله أعلم .

موت ابن صالح

وفى يوم الاثنين عاشره ، عند العصر ، مات الأديب الفاضـل شهـاب

---

(١) الخبر في « النجوم الزاهرة » (١٦/ ١٣١) .

(٢) هو : محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن عبد الله ، محيي الدين ، الطائي الحاتمي المُرسِيُّ ، ابن عربي ، وُلد في شهر رمضان سنة ٥٦٠ هـ بمُرسية ، وسمع بها من ابن بَشْكوال ، ورحل إلى إشبيلية ، ومصر ، والحجاز ، وبغداد ، والموصل ، وبلاد الروم ، فأنكر عليه أهلُ مصر آراءه ، وعمل بعضهم على إراقة دمه ، واستقر في دمشق ، ومات بها في ٢٢ ربيع الآخر سنة ٦٣٨ هـ ، ودفن بسفح قاسيون .

له تصانيف كثيرة تصل إلى أربعمائة كتاب ورسالة ، منها : « الفتوحات المكيَّة » في التصوف وعلم النفس ، و « محاضرة الأبرار ومسايرة الأخيار » في الأدب ، و « ونُصُوص الحكم » ، و « مفاتيح الغيب» ، و « التعريفات » .

له ترجمة في : « سير أعلام النبلاء » (٢٣/ ٤٨ رقم ٣٤) ، و « كتاب الوافي بالوفيات » (٤/ ١٧٣ رقم ١٧١٣) ، و « الأعلام » (٧/ ١٧٠ ـ ١٧١) ، و « معجم المؤلفين » (١١/ ٤٠ ـ ٤١) .

(٣) لأنه كان يقول بوحدة الوجود .

الدين [1] أحمد بن محمد بن صالح الأشليمي الشافعي فقيه المدرسة الْبِرْقُوقِيَّةِ بين القصرين ، وصلى عليه في باب النصر ، بكرة يوم الثلاثاء حادي عشره ، قاضي الشافعية العَلَم صالح البُلْقيني في جمع من الفضلاء جَمّ ، وحضر كثيرٌ منهم دفنه بتربة شيخ الظاهرية في قبلة تربة الصُّوفية عن بضع وأربعين سنة ، وكان فاضلاً في عدَّة فنون ، وكان شعره مُرقّصًا إلاّ أنه ضيّع نفسه عندما فضل ، فكان لا يُشغل ولا يَشْتغل فنقص بذلك كثيرًا .

منادي البحر

وفي يوم الأربعاء تاسع عشر الشهر ، وهو شعبان سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة ، الموافق لسادس عشر بؤنة ، دار مُنادي البحر بالبشارة بأنَّ قاعدة بحر النيل ستة أذرع ونصف ، وهو أربعة عشر إصبعا .

موت الإخميمي الإمام

وفي يوم السبت تاسع عشري شعبان من السنة ، مات شهاب الدين أحمد [2] الإخميمي ، إمام السلطان عن بضع وخمسين سنة ، وكان قبل ذلك إمام الظاهر جَقْمَق قبل السلطنة ، فلما تسلطن أمَّ به ، ثم أمَّ بالأشرف ، وخلَّف ولده الناصر محمد ، وهو حسن الصَّوتِ جدًا مع أنه جمع القراءات بالروايات السَّبع فَنِعْمَ الولد هو ، وخلَّف ابنًا آخر اسمه علي طفلاً خلفه الله فيه .

موت أبي العباس الوفائي

[٢١٦] وفي يوم الأحد سلخ شعبان من سنة ثلاث وستين هذه ، مات أبــو العبــاس الوفــائي [3]، صــاحب جوهر [4] الخَزَنْدَار الذي كان

---

(١) راجع « هامش ٣ » من (ص ١٠٧) من القسم الأول .

(٢) راجع « هامش ٢ » من (ص ٣٢٩) من القسم الأول .

(٣) ترجم له (السخاوي) في « الضوء اللامع » (١١/ ١١٩) وقال : « أبو العباس الوفائي شادّ العمائر عند جوهر القنقباي ، ومن رافع فيه أبو الخير النحاس ، واتُّهِم بذخائر عنده لمخدومه ، وضُرب بين يدي الظاهر في سنة خمس وخمسين ، وكان ذلك ابتداء تكلم المرافعة في الدولة » .

(٤) هو : جوهر بن عبد الله القُنُقْبَائي الخازندار والزِّمام ، ولي الخازندارية في دولة الأشرف =

أبو الخير النحاس يخدمه ، فاختلف معه على بعض ما قبضه له ، فشكاه إلى الظاهر ، فوجده عارفًا بالمرافعة وتفتيح أبواب الشرِّ ، فقرَّبه فكان سبب رِفْعَته عنده ، ثم جرت لأبي العباس معه كوائنٌ ومحنٌ ذكر بعضها في هذا الكتاب ، وكان شاع في بعض محن أبي العباس أنَّه مات قبل هذا في غزَّة منفيًا ، فنسأل الله الحماية من كل سوء .

موت الشرف ابن الخشاب

وفي ليلة الاثنين مستهل شهر رمضان من السنة ، بعد العشاء مات شرف الدين محمد بن [1] صدر الدين أحمد بن العلامة بدر الدين إبراهيم بن الخشَّاب المخزومي الشافعي بسكنه من الظاهريَّة القديمة ، تجاه المرَسْتَان [2] المنصوري [3] عن سبعين سنة ، في مرض طويل

= بَرْسْباي ، والزمامية في دولة الظاهر جَقْمَق ، مات في ليلة الاثنين أول شعبان سنة ٨٤٤ هـ ، وله نحو سبعين سنة ، ودُفن بمدرسته بجوار جامع الأزهر .

له ترجمة في : « الدليل الشافي » (١/ ٢٥٤ رقم ٨٧٠) ، و « النجوم الزاهرة » (١٥/ ٤٨٥ ـ ٤٨٦) و « الضوء اللامع » (٣/ ٨٢ رقم ٣٢٧) .

(١) له ترجمة في « الضوء اللامع » (٦/ ٢٨٤ رقم ٩٥٨) وجاء فيه أنه وُلد في ثالث شوال سنة ٧٩٣ هـ بالقاهرة ، ومات في سنة ٨٧٣ هـ ، كما ترجم له (ابن إياس) في « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٦٥) .

(٢) المرَسْتانَ : اختصار لكلمة (بيمارسَتَان) وهي كلمة فارسية مركبة من كلمتين : (بيمار) بمعنى مريض ، أو عليل ، أو مصاب ، و (ستان) بمعنى مكان أو دار ، وهي بذلك دار المرضى .

« خطط المقريزي » (٢/ ٤٠٥) ، و « تاريخ البيمارستانات في الإسلام » (٤) .

(٣) المرسَتَان المنصوري : يقع بخط بين القصرين من القاهرة ، وقد كان قاعة ست الملك ابنة العزيز بالله نزار ابن المعز لدين الله أبي تميم معد ، ثم عُرفت بدار فخر الدين جِهَارْكَسْ ، وبدار موسك، ثم بالدار القطبية ، حيث ابتنى فيها الملك المنصور قلاوون بيمارستانًا في سنة ٦٨٣ هـ ، بمباشرة علَمَ الدين الشجاعي ، يقول عنه (العمري) في « مسالك الأبصار ـ دولة المماليك الأولى » (٨٧) : « .... وبها المرسْتان المنصوري ، المعدوم النظير ؛ لعظمة بنائه ، وكثرة أوقافه ، وسعة إنفاقه ، وتنوُّع الأطباء وأهل الكُحْل والجراح به ، وهو جليل المقدار ، جميل الآثار ، جزيل الإيثار ، وقفه السلطان الملك المنصور قلاوون رحمه الله » .

راجع : صبح الأعشى » (٣/ ٣٦٥ ـ ٣٦٦) ، و « خطط المقريزي » (٢ / ٤٠٦ ـ ٤٠٨) ، و«تاريخ البيمارستانات في الإسلام » (٨٣ ـ ١٧١) .

مبطونًا ، وصلى عليه صاحبه الشريف علي القصيري في باب النصر ، ودُفن على أبيه في تربتهم قرب السور ، تجاه الروضة ، وحضره جمعٌ كثيرٌ من الفضلاء الطّلبة وأهل الخير ، وكان فاضلاً بارعًا ، مُبَرِّزًا في الطب ، مُشاركًا في غيره ، وله نظمٌ حسنٌ ، وكان من خيار المسلمين همَّة وغِيْرة على الدين وملازمة للطَّاعات ، ووفاء لأصحابه ، وخلَّف ولده جلال الدين دون البلوغ ، خلفه الله فيه آمين .

وصول النحاس

وفي يوم الثلاثاء ثانيه وصل القاضي زينُ الدين أبو الخير النحَّاس وطلع إلى السلطان ، فخلع عليه خِلْعة بيضاء ، ورحب به ، ونزل إلى بيت القاضي بدر الدين بن التَّنَسي ، حتى يُهيأ له منزل ، فأسرع الناس إليه للسلام ، ولم يتخلف أحدٌ له اعتبار [(١)] .

واتفق أنَّ البحر من حين وصـــل إلى أرض مصر لم يزد البحرُ إلا إصبعًا ، وذلك من يوم الجمعة ثامن عشري شعبان ثم لم يزد يوم قدومه شيئًا ، ويوم الأربعاء نقص إصبعين ، فتشاءم الناس به جدًا ، وقالوا : لما رفعه الظاهر حصل الغلاء ، ولما نفاه أخذ في النقص إلى أن صار الناس بخير ، فحين استقدمه هذا حصلت مبادىءُ الغلاء فكادوا يجمعون على قتله .

وفي يوم الخميس رابعه ، طلع أبو الخير إلى القلعة في جمع كبير ، قيل : أنَّه كان في خدمته ، زيادة على مائةٍ من الجند ، فضلاً عن غيرهم فأهدى للأمير الكبير ، ثم دخل إلى السلطان إلى قاعة الدَّهِيْشة ، بعد نزول جميع المباشرين كما كان يصنع أيَّام الظاهر ، فلم يكن تخلف عند السلطان إلاّ الخَزَنْدار ، وشهود الخزانة ، أولاد الجَيْعَان ، فلما وصل أبو الخير أمرهم الخَزَنْدار بالانصراف واستمر عند السلطان مدَّة طويلة .

---

(١) الخبر في : « النجوم الزاهرة » (١٦/ ١٣٢) ، و « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٦٥) .

وفي يوم السبت نُوديَ ، أن البحر زاد إصبعين ، وهي التي كان نَقَصَها، وطلع أبو الخير أيضًا في جمع كبير إلى السلطان بعد نزول المباشرين ، فتوقَّفت أحوالهم ، وكان كلٌّ منهم خائفٌ على نفسه ووظيفته.

وفي يوم الاثنين خامس عشر الشهر وُلِّيَ القاضي أبو الخير نظر ذَخِيـرَةِ السلطان ، ووكالة بيت المال ، ونظر السلطان الخاص ، وخُلِعَ عليه بذلك ، وجَمَعَ ما كان مُفَرَّقًا على المباشرين للوزير والإستدَّار عليه ، وهو في كل يوم خمسمائة دينار ، ولم ينزل معه إلى بيته أحدٌ من الأمراء ، ولا المباشرين [1].

ثم كتب قِصَّةً سأل فيها نظر الكسوة ، وما كان معه على أيام الظاهر من خطابة جامع عمرو بن العاص ، ومشيخة التربة الطَّويليَّة ، وأشياء تتعلَّق بكاتب السر في نابلس ، فأجابه السلطان يوم الخميس ثامن عشر الشهر ، فسأل صديقه القاضي عبد القادر الطوخي في أن يخطب عنه في جامع عمرو فلم يجبه ، فسأل غيره فلم يجبه ، فخطب المناوي على عادته، ثم كلم السلطان في أمره ، وأُخبر أنَّ الناس كرهوا نَصْبَه في وظائف الدين ، فَكَذَّبه في دعواه ، فأعاد ذلك على أربابه ؛ نظر الكسوة على ابن الكُوَيْز ، والخطابة على الشرف المناوي ، والطَّويليَّة على التقي القَرْقَشَندي ، وما لكاتب السر عليه ، وأمر بنزع القِصَّة منه وتحريقها ، وزعم أنه كذب عليه ، ومن العجائب أنه لما أُوهنت كلمته كان ذلك يوم الاثنين ثاني عشري الشهر ، فنودى في صبيحة الثلاثاء ثالث عشريه الموافق لآخر أبيب [2] بزيادة البحر عشرة أصابع ، وفي يوم الأربعاء

(١) الخبر في : « النجوم الزاهرة » (١٦/ ١٣٢) ، و « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٦٥).

(٢) أبيب : من أشهر القِبط.
راجع « خطط المقريزي » (١/ ٢٧٢ ـ ٢٧٣).

ثالث عشريه ، الموافق لأوّل مسري خمسة عشر ، فتحقق في أذهان جميع الناس أن رفعته سببٌ للقحط ، وخَفْضه سببٌ للخير .

وفي ليلة الاثنين ثاني عشري الشهر عمل الأمير بُرْدبَك المسايرة المعتاد بها أمراء الحاج ، وهي أن يركب الهِجْن هو وأتباعه العصر ، ويخرج من قَصَبَة القاهرة إلى خليج الزعفران ، فيتعشَّى هناك ، ويرجع بالمشاعل من القَصَبَة أيضًا ، فاحتفل الناس لذلك ، وكان معه هِجْنٌ كثيرٌ جدًا ، ورتَّب الوالي فيها يمنع المفسدين من الفساد ؛ فلم يحصل لأحد أذى ، وكانت مسايرة حافلةً ، فضلها الناسُ على مسايرة ابن السلطان سنة حَجّ.

وفي يوم الخميس خامِس عشريه شكى أبو الخير وهَنَ [1] كلمته بما أُسْترجع [٢١٧] منه ، ودافعه المباشرون فكلم السلطانُ كلاًّ منهم كلامًا يُرَجِّيه [2] فيه ، وانفصل المجلسُ على ذلك ، ولم يَرُدَّ إليه شيئًا ، غير أنَّه استرجع خطابةَ جامع عمرو ، فأرسل الأمير بُردبَك إليه أن لا يمنع المناوي من الخطابة به يوم الجمعة سادس عشري الشهر ، ثم كُلِّم السلطانُ يوم السبت سابع عشريّه في المناوي وَرَدَّها إليه ، ثم نقض ذلـك ، فسأل أبو الخير جماعةً من أصحابه في النيابة عنه في الخطبة فلم يُجب أحدٌ منهم ، فاحتاج إلى إبقاء نائب المناوي .

وفي آخر يوم الاثنين تاسع عشري شهر رمضان توجّه القاضي الشافعي على العادة إلى المنصوريَّة ، ومعه نُوَّابهُ لترائي الهلال ، وكان قاضي الحنفية السَّعد بن الدَّيري مريضًا ، وكذا قاضي المالكية الحُسام بن حُرَيْز ، فلم يحضر مع الشافعي إلاّ قاضي الحنابلـة العـز الكنـاني ،

---

(١) وهَن : ضَعُف .
« لسان العرب » (١٧/ ٣٤٥) .
(٢) يُرَجّيه : جاء في « لسان العرب » (١٩/ ٢٣) ، الرجاء من الأصل نقيض اليأس .

وكان للشافعي غرضٌ في إثبات أنَّ الثلاثاء العيد ؛ لأن بعض أقاليم مصر صام يوم الأحد ، وتحدث عن بعض أهل الشَّرقيَّة ، ولكن لم يبلغ ذلك إلا في أثناء شهر رمضان أن يعتمدهم ، فينسب إلى تقصير في الفحص أوّل الشهر ، فلم يُظهر شيئًا من ذلك ، فلما كان في هذه الليلة اشتدَّ تطلبه لأحدٍ رأى ، فقيل له عن شخص مؤذِّنٍ مشهور بالغناء من أصحاب ابن زوجته صلاح الدين ، فطلبه ، فلم يجسر على الشهادة ، وتمنَّع من ذلك ، حتى ظُنَّ أنه لم ير ، فأثنى عليه الشافعي ما سَكَّن رَوْعَه حتى شهد ، ثم طلبوا آخر فشهد شخصٌ أمرد مُغنيٍّ ، ربيب شخص من شهود الزور يُقال له الشيرجي في ناحية الجَّوانيَّة ، فشهد ، فتوقف نائبه الذي ندبه لذلك ، وهو شخصٌ يُقال له الأُبشيهي ، غير موثوق به أيضًا ، فصاح عليه وأظهر الغضب من تَوَقُّفه ، فأشهد عليه أنه قبلهما ، وثبت عنده أنَّ غدًا من شوال ، فأمر الشافعي المحتسب وهو علاء الدين بن امرأة الفَيْسي بالمناداة أنّ غدًا العيد ، ففعل ، فأدخل على جميع من سمع ذلك من أهل الخير تشويشًا كبيرًا ، ثم أخبرني قاضي الحنابلة أنَّه صحّ عنده أن جماعة غير المذكورين رأوه ليلة الثلاثاء ، فطاب الخاطرُ ولله الحمد .

وفي يوم الخميس ثالث شوال ، طلع القاضي أبو الخير النحاس إلى القلعة ، للاجتماع بالسلطان ، فخرج إليه جماعةٌ من الأجلاب عند السَّبيل الذي بالقرب من مصاطب نائب القلعة ، فقالوا له : مالك لا تواصل الوزير بما له عليك ، حتى يواصلنا باللحم ؟ فقال : ما له عندي شيءٌ . فكذَّبوه فنفر فيهم ، فضربوه ضربًا شديدًا ، فوقع ثم قام ، فضربوه إلى أن وقع ثانيًا فداسوه وضربوه بعد الوقوع إلى أن ظُنَّ موته ، وهرب عنه أصحابُه ، ودنى بعضُ الوجهاء من التُرك لتخليصه فضربوه إلى أن بَعُد منه ، ولما ظنوا موته هربوا ، فأمر نائب القلعة جماعته ، فحملوه ثم طلعوا به إلى بعض تلك الطِّباق ، حتى تراجع ، فحُمل إلى بيته ، فإذا هو قد جُرح في مواضع من جسده ولم يُضْرب إلاّ بالعصي ، فازداد مرضًا إلى

مرضه ولم يُظهر لذلك غمّاً ، بل كان يقول : إن هذه عادتهم لم يخرجوا به عن العادة ، ونحو هذا الكلام وهو يضحك ، ويظهر السرور ، ولكنه لا يقدر على التجلد بالجلوس (١) .

وتواصل شَرُّهُ مع العلاء بن الأَهْنَاسي الوزير ، حتى نُقل عن الوزير أنه قال : أنا سَفُلَة (٢) ، وهذا سَفُلَة ، فأنا له ، دعوني وإياه ، وانظروا ، وكان في غالب الأوقات يستظهر الوزير ، فإنه يريد منه كل يوم مائتي دينار وخمسين دينارًا ، ومتى عُوِّقت أرسل إلى الأجلاب ، أنّي عجزت عن اللحم ؛ لأن أبا الخير لم يُعطني شيئًا ، ثم سعى بينه وبين الوزير شخصٌ من أصحابهما ، فصلح الحالُ بينهما .

وفى هذا الحدِّ ، أراد الحاجُّ إينال (٣) ، نائب حلب أن يُسَعّر القمح ، فرجمه أهلُ حلب ، فظفر بجماعةٍ منهم فقطع أيديهم ، ثم أرسل إلى السلطان فحسَّن فعله وأذن له فيه .

موت المعين ابن الأشقر

وفي ظهر يوم الجمعة رابعه ، مات القاضي معين (٤) الدين عبد اللطيف بن القاضي شرف الدين أبي بكر الأشقر الحلبي سِبط بني العجمي ، وأحد أصهار الأمير جمال الدين الإِسْتَدَّار ، عن عِلَّة طويلة ، بخرَّاج [٢١٨] في يده ، وترك أولادًا أكبرهم كمال الدين ، وهو رجلٌ ، فطلع إلى السلطان ليسعى في وظائفهم وتَعَلُّقَاتِهم ، فلم يتمكن مع ذلك

---

(١) الخبر في « النجوم الزاهرة » (١٦/ ١٣٣) .

(٢) سَفُلَة : سُفُل سَفَالة ، خَسَّ ونذل .

« المعجم الوسيط » (١/ ٤٣٤) .

(٣) وهو : إينال اليشبُكي الجكمي .

راجع « هامش ٥ » من (ص ٢٣٤) من القسم الأول .

(٤) راجع « هامش ١ » من (ص ٤٧) من القسم الثاني .

من دفنـه في ذلك اليوم ، وكان يومًا شديد الحرِّ ، فأُخر إلى بكرة السبت خامس الشهر ، فصلى عليه قاضي الشافعية في باب النصر ، ودفن في تربة الأمير جمال الدين ، وكان سنُّه إذ ذاك نحو الستين ، وكان عنده فضيلة في مصطلح أهل الزمان في التوقيع ، وله اشتغالٌ في الفقه والنحو وبعض الفنون غير أنه لم يكن مطبوعًا في ذلك ، وكان شديد الحرص على الدنيا ولم يكن له إحسانٌ إلى أحدٍ ولا موافاة للناس ، الجيران وغيرهم ، فيما ينُوبُهم ، ولا أداءٌ لما يلزمه من الحقوق ، لا سيما إن استضعف أهلها ، فلم أسمع أحدًا يُثني عليه ولا يتأسف على موته ، وظن بعضُ الناس ذلك الخراج طاعونًا ، وخيف من هجوم الطاعون ؛ لأنه كان قد برك على حلب في شعبان ، فأفنى أهلها ، ومات عدّةٌ من أكابرهم ، منهم الزين قاسم بن الأَقْسَاسي [(١)] نائب قلعة حلب ، وناظر الجوالي [(٢)] فقدم ابنه[(٣)] ، وبذل للسلطان خمسة عشر ألـف دينـار ، حتى أبقاه على ما كان عليه أبوه [(٤)]، ونُقِل في هذا التاريخ أنَّ الطَّاعون وصل إلى حماة [(٥)] ، بل و إلى دمشق ، والله المسؤول في خاتمة الخير .

---

(١) راجع « هامش ٢ » من (ص ١١) من القسم الثاني .

(٢) جاء في « النجوم الزاهرة » (١٦/ ١٣٣) أن الطاعون أخذ في الانحسار عن حلب والانتشار فيما حولها من البلدان والقرى في شهر رمضان ، بعد أن مات من أهلها نحو مائتي ألف إنسان .

(٣) وهو : عمر بن قاسم بن جمعة ، الأمير زين الدين الأقساسي (القساسي) الحلبي نائب قلعتها ، مات بها في شعبان سنة ٨٦٤ هـ .

له ترجمة في « الضوء اللامع » (٦/ ١١٣ رقم ٣٥٥) .

(٤) وكان ذلك يوم الثلاثاء ثامن شوال .

« حوادث الدهور » (٣٢٥) .

(٥) كان ظهور الطاعون بمدينة حماة في شهر رمضان .

« حوادث الدهور » (٣٢٥) .

وفي يوم الاثنين سابع الشهر، لبس القاضي لسانُ الدين أحمد[1] بن قاضي الحنفية بحلب أثير الدين محمد بن كاتب السرِّ بالديار المصرية المحب بن الشِّحنة خِلعة بنيابة كتابة السرِّ عن معين الدين بن الأشقر، بسعي شديد.

ضَرْب إبراهيم الجبرتي

وفي هذا الحد، ضرب الأميرُ بَرَسْبَاي البجاسي، حاجب الحجاب، زاده الله توفيقًا شخصًا يُقال له: إبراهيم الجبرتي مرتين، وحلق رأسه وسجنه، وأمر بنفيه من القاهرة، فسأله أن يتركه ليسافر بنفسه، وحلف له أنه لا يُقيم؛ فتركه، وكان هذا الرجل لابسًا زيَّ الصوفية، وله شَعْر، وهو فظيع المنظر، أُقسم بالله أنّي ما رأيته قطّ إلاّ ذكرت برؤيته إبليس، وكان من شياطين الإنس، كان سكنه القدس، وكان قد ضربه البرهان الأنصاري نائب الشافعي بالقدس لما هو مرتكبه من المخازي، فقدم إلى القاهرة يُرافع أهل الخير، ويسعى بالفساد، وحاصل أمره أنّي ما علمت أنه وقع خلاف بين الناس إلاّ كان مع حزب الشيطان.

[وفي هذا[2]] الشهر عُزل البدرُ المحلي عن قضاء إسكندرية، بسعي الأمير الزين عبد الرحمن بن الكُوَيْز، ناظر الخاص؛ فإنه كان يعارضه في كثير من أحوال الثَّغر، كما كان يفعل مع ناظر الخاص الجمال يوسف بن كاتب شَكَم، فاستراح منه البلاد والعباد، فإنه جمع إلى قُبح الصورة سوء السيرة، وفساد السَّريرة، وكان أنسب الأسماء له

---

(١) هو: أحمد بن محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن محمود بن غازي، لسان الدين بن أثير الدين بن المحب، أبي الفضل الحلبي، المعروف بابن الشحنة، وُلد سنة ٨٤٤ هـ بحلب، ونشأ بها في كنف أبيه وجده، ثم قدم القاهرة وأخذ عن بعض علمائها، وناب عن جده في كتابة السر بالقاهرة، ثم ولي قضاء الحنفية ببلده عوضًا عن أبيه، مات في ليلة الخميس سلخ صفر، أو مستهل ربيع الأول سنة ٨٨٢ هـ بالطاعون.

له ترجمة في «الضوء اللامع» (٢/ ١٩٤ رقم ٥٢٩).

(٢) ما بين الحاصرتين إضافة اقتضاها السياق.

ظلام الدين ، فإنه أسودُ موحِشُ التخطيط من الفم الكبير الذي كأنَّه فم حيَّة ، والأنف الصَّغير المستطيل في طول الوجه ، والعينين الكبار جدًا المشبهتين كما قال بعض الأصحاب وأجاد : بعيني فأر قد خُنق فبرزتا ، هذا مع عيّ [1] اللسان ، والبُهت في غالب الأحوال ، إلاّ حال الأذى ، وقدَّمه ما خلَّف أبوه من الذَّهب ، حتى أخبرني بعضهم أن السلطان وأتباعه أخذوا من تركة أبيه نحو عشرين ألف دينار ، فكان ابنُ السلطان المقامُ الشهابي ، وأمُّه خوند شديدي التعصب له ؛ لما كان يهدي إليهم بعد ذلك ، فلم يزل ابن الكُوَيْز بنسائه حتى غيَّر عليه خَوَنْد ، فكلَّمت السلطان ، فعزله ، لكن لم يُعجب ابنها ذلك ، واستمر معه ، فأحجم بعضُ الناس عن قبول ولاية وظيفته ، وكان البدر محمد [2] بن البهاء محمد بن القطان المصري الشافعي ، صاحب ابن الكُوَيزْ ، فسأله بذلك فقبل .

موت ابن النصيبي

وفي هذا الحد ، كان يبلغنا تارَةً أن الموت تناقص بحلب وتارة أنه على حاله ، ومِمَّنْ مات بها من أعيان الفقهاء القاضي شرف الدين أبو بكر بن

(١) عَيّ اللسان : أي لا يستطيع بيان مراده .

« المعجم الوسيط » (٢/ ٦٤٢) .

(٢) هو : محمد بن محمد بن محمد بن علي بن محمد بن عيسى بن عمر بن أبي بكر ، البدر بن البهاء بن الشمس الكناني السمنودي الأصل ، ثم المصري القاهري الشافعي المعروف بابن القطان ، وُلد بعد عصر يوم الجمعة ١٦ رمضان سنة ٨١٤ هـ بمصر ، تنقل في عدة حوانيت ، واستقر في إفتاء دار العدل، واختص بصحبة ابن الأهناسي ، ووُلِّي الخطابة في الجامع الجديد بمصر ، واستقر بتدريس الفقه في القطبية ، وأم السلطان ، والشيخونية ، مات في ضحى يوم الجمعة ١٦ ذي القعدة سنة ٨٧٩هـ.

له ترجمة في : « الضوء اللامع » (٩/ ٢٤٨ رقم ٦٠٠) ، و « شذرات الذهب » (٧/ ٣٢٨) .

القاضي ضياء الدين محمد بن النصيبي الشافعي [(1)] ، وكان شابًا جميل الخُلُق والخَلْق ، فاضلاً في عدة فنون ، حَسَن الملتقى والبشاشة والمكارم ، رحمه الله وعفى عنه .

قضايا الأجلاب

وكان عقلاء الناس على خوفٍ شديد من حلول الطَّاعون أو غيره من النِّقَم ؛ لما طرأ في غالب هذه المملكة ، من الظلم ، لا سيما جور الجند ، لا سيما أجلابهم ، فلقد كانوا ينهبون بالنهار الأشياء الغالية الأثمان لا سيما الثياب البَعْلَبكي والأكل في نهار رمضان جهارًا في الأسواق ، ومن قضاياهم الغريبة أنهم كانوا يكتبون في ورقةٍ لا إله إلا الله محمد رسول الله، ويأتون بها إلى بعض أهل الذمة من اليهود والنَّصارى ، فيقولون له : إقرأ لنا هذه ، فلا يَفُكّ نفسه منهم إلاَّ بشيء من الذهب له جرم أقلّه دينار ، ومن ذلك أنّ أحدهم رأى شخصًا يستأجر الكرسي الذي تجلس عليه الحامل عند الطَّلْق ، فسأل عنه فأخبر بشأنه ، فتبع الذي أخذه ، ودخل وراءه [٢١٩] إلى البيت ، فرام [(2)] منعه ، فلم يستطع ، فتلطف به أهلُ البيت وسألوه عن مُراده ، فقال : أريد أنظر كيف تلد الحُبْلى ، فقالوا له : إنَّ هذا لا يكون إلاَّ بعد أيَّام . فقال : أنا لا أرْزَأكم [(3)] شيئًا ، معي نفقة أُنفق على نفسي إلى أن يحصل الغرض ، فلم يخرج من عندهم

---

(١) هو : أبو بكر بن محمد بن عمر بن أبي بكر بن محمد بن أحمد ، الشرف بن الضياء بن النصيبي الحلبي الشافعي ، وُلد في صفر سنة ٨٢٤ هـ بحلب ونشأ بها ، سمع على عدد من العلماء في القاهرة ، وحلب ، ودرَّس بالعصرونية ، والظاهرية ، والسيفية ، وناب في القضاء ، وفي كتابة السرّ ، ووليّ وكالة بيت المال ، وإفتاء دار العدل ، مات في رمضان سنة ٨٦٣ هـ .

له ترجمة في « الضوء اللامع » (١١/ ٨٦ رقم ٢٢٩) .

(٢) فَرَام : طلب .

« لسان العرب » (١٥/ ١٤٩ ، ١٥٠) .

(٣) أرزأكم : جاء في « المعجم الوسيط » (١/ ٣٤١) « رَزَأهُ ، رُزْءًا ، ومَرْزِئة : أصابه برُزءٍ ، ويقال رزأته رزيئة : أصابته مصيبةٌ ، ورَزَأه مالهُ : أصاب منه شيئًا فنقصه .

إلا بعشرة دنانير ، وأما الحُبُوس فلم تصر حِرْزًا بالنسبة إليهم ، كانوا يُخرجون من أرادوا من حبس من كان من حكام الشرع والسياسة ، وانثال الناس عليهم في الاحتماء بهم ، فلم تكن الأحكام تُنَفذ إلا فيمن يعجز عن الانتماء إليهم ، ولهم قضايا تجل عن الوصف ، سمعت بعض حُدَّاث[1] الترك ينسبها إلى فقهاء الطِّبَاق والغلمان ، وهو قريب ، فإن عقولهم لا تصل إلى جميع ما يُنقل عنهم من غير معلم .

وفاء البحر

وفي يوم الخميس عاشر شوال من السنة ، الموافق لسادس عشر مسرى، من شهور القبط ، نُودى أن البحر ، زاد ست عشرة إصبعًا ، فأوْفى ست عشرة ذراعًا ، وزاد أربع أصابع من الذراع السابع عشر ، فنزل المقام الشهابي ابن السلطان إلى المقياس ، فنظره ، ثم رجع ، ففتح السدَّ وتفرقت المياهُ في خلجان القاهرة على العادة . وكانت زيادته متصلة من حين نودى عليه في سابع عشري بؤونة إلى هذا اليوم ، لم يتعطل إلاَّ الأيام التي ذكرت في قدوم أبي الخير . جعل الله التمام بخير وأعاذنا من فتنة الغنى والفقر [2].

ثم نودى يوم الجمعة حادي عشره ، أنّ زيادته اثنتي عشرة إصبعًا ، فصار على ست عشرة من الذِّراع السابع عشر ، ويوم السبت ثاني عشره، عشرة أصابع فوفى الذراع السابع عشر ، وصار على إصبعين من الثامن عشر ولله الحمد .

وفي يوم الخميس سابع عشره سار المِحْملُ من القاهرة إلى البِرْكَة ، ومعه أميره ، الأمير بُرْدُبَك الدويدار في ألف ومائتي عَلِيْقَة [3]، فقال

(١) حدَّاث : الحدث ، هو الفتيُّ السِّنّ .
« لسان العرب » (٢/ ٤٣٧) .

(٢) عن زيادة البحر هذه ، راجع « حوادث الدهور » (٣٢٥) ، و « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٦٦) .

(٣) الخبر في « النجوم الزاهرة » (١٦/ ١٣٣) .

المفتشون عن مثل هذه الأمور : أنهم ما رأوا مثل ذلك ، من أعظم مَن خرج لإمْرَةِ الحج ، واعتنى بتكثير حاشيته ، دُولات باي الدُّوِيَدْار الكبير في آخر سني الظاهر جقْمَق ، وكان في ثمانمائة عَلِيْقَة ، ثم المقام الشهابي أحمد بن السلطان الأشرف كما تقدم وكانت معه أمه خَوَنْد الكبرى وابنتاها زوجتا الدُّوَيْدَارَين الكبيرين يونُس ، والثاني بُردْبَك ، وكانوا في [تسعمائة (١)] عليقة ، فقد زاد هو عن ابن استاذه ثلاثمائة عَلِيْقَة وليس معه من تلك الخَوَنْدات إلا زوجته ، وزادت جِمَالُه في البرِكَةِ وبعدها . وتتابع الناسُ في إثره على العاده .

وفي ليلة الأحد العشرين منه ، سار من البركة يَرْشْباي (٢) أمير المماليك الذين يُرَابطون في مكة المشرفة .

وفي ليلة الاثنين حادي عشريه سار منها (٣) أميرُ الأوّل (٤) كَسْبَاي المؤيدي وأعيان رَكْبه ، عبد الرحيم بن أحمد بن الناصر محمد البارزي ، وسيدي يحيى بن البهاء بن النجم ابن حجي بن بنت الكمال بـن البارزي، وصهرهما الأمير يَزْبُك صهر الظاهر جَقْمَق .

---

(١) ما بين الحاصرتين غير واضح الرسم في الأصل ، والتصحيح مما جاء في الصفحة السابقة ، حيث سار المحمل بإمرة بُردبك في ألف ومائتي عليقة ، وأشار هنا إلى أنه زاد عن ابن استاذه ثلاثمائة عليقة ، مما يعني أن المقام الشهابي سار في تسعمائة عليقة .

(٢) هو : يَرْشْباي بن عبد الله الإينالي المؤيدي شيخ ، الأمير سيف الدين ، أحد أمراء الطبلخانات ، وأمير آخور ثاني بمصر ، أصله من مماليك المؤيد شيخ ، وتأمر عشرة في دولة الظاهر جقمق ، وقُبض عليه أيام الملك المنصور عثمان وحُبس بالإسكندرية ، حتى أطلقه الأشرف إينال ، وسافر إلى مكة رأسًا على المماليك السلطانية بها في سنة ٨٦٣ هـ ، مات في شهر رجب سنة ٨٦٤ هـ .

له ترجمة في : « الدليل الشافي » (٢/ ٧٨٣ رقم ٢٦٤٤) ، و « النجوم الزاهرة » (١٦/ ٢١٦) ، و« الضوء اللامع » (١٠/ ٢٦٩ رقم ١٠٧١) ، و « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٧٤) وجاء فيه (برسباي الإينالي المؤيدي) .

(٣) أي من بركة الحاج .

(٤) أي ركب الحاج الأول .

وفي ليلة الثلاثاء ثاني عشريه سار أمير المِحْمَل الأمير بُرْدْبَك وفي ركبه جانِبَك القَصْرَوي أحد أعيان الظاهرية ، والشمس الأمشاطي [١] الحنفي، أحد نواب الحنفية ، والتقي القرقشندي ، والعلاء الحصني ، والنجم بن قاضي عجلون الشافعيون ، وبالنجم هم يهتدون ، ليس فيهم مثله عِلمًا وعقلاً وأصالة وديناً ، وقاضي الرّكب العز [٢] الأنْبَابي الذي كان نائب المحتسب ، أحد نواب الشافعية الجهلة، وسار معهم عيسى المغربي الزّنديق لا صحبه الله ، وكان قد سجنه الله بعد موت الشيخ مَدْيَن ، بأن انقطع في بيته يريد أن يقول الناسُ : أنه قام مقامه ، كل ذلك يريد أن يرفع من قدره ما وضعه الله على يدي بذلك المجلس الذي قدمته[٣]، فلم يطر له من الاسم ما كان للشيخ مَدْيَن ، ولا تردد إليه من الناس من يُرضيه ، وشرع يدعى أنه عزل فلانًا ، وولَّى فلانًا ، وأمات فلانًا، ونحو هذا ، وكان يتردد إليه من الأكابر من يكون سببًا للكف عنه عند صدور مثل هذا ، وتلمذ له تِمْرَاز أحد أعيان الأشرفية الذي كان من خواص الأشرف إينال ، فكان تمرينه له على الجوع سببًا لأن خشَّن للسلطان في قضية فأقصاه ، والشَّرف الأنصاري ، فنكبه السلطان كما تقدم نكبةً هي من عجائب الدَّهر باعتبار أنه لم يظهر لها سببٌ ، ولا وقع منه تقصيرٌ ، ونحو هذا من الأمور الظاهرة التي كانت تقع لأصحابه

---

(١) لعله : محمد بن أحمد بن حسن بن إسماعيل بن يعقوب بن إسماعيل ، الشمس بن الشهاب الكحكاوي العينتابي الأصل القاهري الحنفي ، المعروف بالأمشاطي (لا تجار جدّه لأمه في بيع أو صناعة الأمشاط) وُلد في ٢٦ ذي الحجة أو القعدة سنة ٨١١ هـ بالقاهرة ، وأخذ عن أبرز علماء عصره في مصر ، درّس بالفخرية ، وبكلمش ، وبالفيروزية ، وبالمنكوتمرية ، والباسطية ، وغيرها من المدارس يصفه (السخاوي) بأنّه حسنة من حسنات الدهر ، مات ليلة الاثنين ٢٥ رمضان سنة ٨٨٥ هـ .

له ترجمة في « الضوء اللامع » (٦/ ٣٠١ رقم ١٠٠٤) .

(٢) هو : عبد العزيز بن يوسف ، العز الأنبابي الشافعي نائب الحسبة ، ناب في القضاء ، وخطب بجامع الخطيري ببولاق ، مات يوم الجمعة ٦ شوال سنة ٨٧٢ هـ .

له ترجمة في « الضوء اللامع » (٤/ ٢٣٩ رقم ٦١٤) .

(٣) راجع « ص ٢١٩ » من القسم الثانى .

مما يوجب النفرة منه ﴿ [وَإِخْوانُهُمْ (1)] يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لاَ يُقْصِرُونَ ﴾(2) فيغرونهم به، فلا يزيدون إلا [220] ضلالاً به، غير أن هذا كله لا يعجبه ، وما كان يريد إلا تردد السلطان فمن دونه إليه ، وسبب ظنه لذلك أنه رأى من قلة عقول المصريين نموذج هذا ، ويأبى الله إلاّ أن يُضعف كيد الشيطان ويُعلي كلمة الإيمان ، فلما لم ير ذلك شرع يقيم له أسبابًا ، من كثرة الصدقة يأخذ من أتباعه ولا يرفق ويُعطي ، ثم شرع يُفرِّق زَلابِية (3) في أطباق على الأكابر ، فكان يعمل كلّ يومٍ من الدَّقيق نحو بطتين (4) ، وزعم أن ذلك تهنئة للناس بما دفع هو عنهم من الموت ، فإنَّه اطَّلع (زعم) على أنَّ الطاعون آتٍ فدفعه ، وكانت عادةُ البلد أنَّه إذا وُلد لأحدهم ولدٌ فرَّق على الناس زلابية فعدهم هو بما دفع (زعم) كالمولودين ، وفرَّق ذلك عن آبائهم ، واستمر على ذلك من أوائل هذا العام إلى آخر شعبان منه ، فلم يزد له بذلك أمرٌ ولا طار له من الذِّكر ما أعجبه ، وكان يُمالئه على ذلك ويتلمذ له العز الفيومي ، فقيه الزين بن الكُوَيْز ، فلما طال ذلك وضاق صدره مما ألزمه لنفسه من الحبس ، وسمع أن الطاعون الذي كان بحلب وصل إلى حماة ، وظن أنه عما قريب واصلٌ إلى القاهرة رأى السَّفر إلى الحج مَفْصِلا ، وزاد ذلك أن أمير الرَّكب الأمير بُرْدُبَك ممن يُعظمه ويُظهر اعتقاده ، تاب الله عليه واتفق أن كان مجيئه إلى عند الأمير إلى البركة وأنا عنده ، وكان يأكل ، فلما رآني لم يجسر أن يأتي من

---

(1) في الأصل (وشياطينهم) .

(2) الأعراف / 202 .

(3) زلابية : « حلواء تُصْنَع من عجين رقيق ، تصبُّ في الزيت ، وتُقْلى ثم تعقد بالدِّبْس » . « المعجم الوسيط » (1/ 397) .

(4) بطّتين : البطَّة إناء على شكل البطَّة ، يوضع فيه الدهن . « المعجم الوسيط » (1/ 61) .

الجهة التي أنابها ، وكانت أقرب إليه ، فدار وراء الخيمة إلى أن أتى من الجانب الآخر ، فاتفق أن كان هناك المِشْجَب [(١)] (بكسر ثم شين معجمة ، ثم جيم) وهو الذي يُسمى الآن السِيْبه [(٢)] ، وهي ثلاثُ خشبات مجموعةٌ في قريبٍ من أعلاها بنحو حلقة تُجمع كخشبة واحدة لتُحمل وتُفرق من أسفلها عند النزول فيمسكها ذلك الجامع من أعلاها ، فيعلق عليها المسافر سلاحه وما أراد من متاعه ، وكانت مُلْصقة بدائر الخيمة وبعض أعمدتها ، وظهور الجالسين في السِّماط [(٣)] ، فلم يمكنه الدخول إلاّ من تحت السيبه ، فدخل منحنيًا أوطأ مِن هيئة الرَّاكع ، فدخل على هيئة الخضوع ، ومن تحت السَّيف ، والله تعالى المسؤول أن يزيده ذِلاً وخزيًا آمين .

وخرج الأمير بُرْدُبَك في أمرٍ من الجمال والأحمال والمماليك والمتاع ، قال الناس : إنهم لم يروا من نحو ثلاثين سنة مثله ، كما تقدمت الإشارة إلى بعضه قريبًا ، وهو عازمٌ على إكثار الصدقات ، وإفاضة الخيرات ، والرِّفق ولين الجانب ، وحقق ذلك بأن سار في جميع ما حصّله من الجمال وغيرها أجمل سيرة ، ما اشترى من أحدٍ شيئًا إلاَّ برضاه ، ولا يدع أحدًا من أتباعه يعترض له ولا لغيره بسوء ، ونصب خيمةً طويلة على هيئة الجَمَلون [(٤)] تُسمى سحابه ، تسع ناسًا كثيرًا للفقراء ، ورتَّب لهم ما يكفيهم من الماء والطَّعام ، فإن كُفِيَ شرّ مرافقته لعيسي فقد أفلح .

---

(١) المِشْجبُ : ما تُعلَّقُ عليه الثياب ونحوها .
« المعجم الوسيط » (١/ ٤٧٣) .
(٢) السيبة : جاء في « محيط المحيط » (٤٤٤) ، مرقاة من الخشب على ثلاث قوائم ، يجمعها قرصٌ من أعلاها ، وهي من اصطلاح العامَّة .
(٣) السِّماط : الجانب .
« المصباح المنير » (١/ ٣٠٩) .
(٤) الجَمَلون : سقف محدَّب على هيئة سنام الجمل .
« المعجم الوسيط » (١٣٦) .

وفي ليلة الأربعاء ثالث عشريه مَرَّ مِن القَصَبَةِ شخصٌ من الجند راكبًا، في يده سيف يضرب به يمينًا وشمالاً وهو سائق فرسه ، بحيث لا يُدرَك ، فضرب بين القصرين اثنين ، رماهما فكانا في عداد الأموات ، ولم أدر آخر أمرهما ، هل ماتا أم لا ؟ وضرب عند الأشرفية اثنين ، جرح أحدهما جُرحًا خفيفًا ، ولم يجرح الآخر ، وجاوز على تلك الحال نحو باب زُوَيْلة ، وهو يضرب من لقيه ، فيقال : أنّ جَرْحَاه زادوا عن الثلاثين ثم تبسط الأجلاب وأتباعهم بعد ذلك في الجرح والقتل حتى أنهم وسَّطُوا عبدًا عند الميدان نهارًا ، وهذا دأبُ جميع الجند ، كما استعرضته أنا غير مرة، يفعلون فِعلةً فاحشة ولا يُمنعون فيها ، فإن أنكرت أخرجوها في قالب غير بعيد من المناسبة ، وإن سكتُّ عنها توسَّعوا فيها وانتقلوا إلى أعظم منها كذلك ، وقد اطَّرد لي هذا في كبيرهم وصغيرهم ، وقد زاد الله أهل مصر ذِلَّة ، فإن الجند كلما زادو بابًا من الظلمة ، زادوا لهم من الذل ما يوجب مجاوزتهم له إلى أعظم منه ، فالله المسؤول في العاقبة ، فإنا لا ندري آخر ذلك ما يكون .

مقاتلة العامة بالسلاح

وفي هذا الشهر وقع من بعض العامَّة قتالٌ بين القصرين عند الكاملية بالحديد وغيره سكاكين وعُصي من غير نكير ، وهذا أمرٌ خارق للعادة .

وفي يوم الخميس رابع عشري شوال ، كان سلخ مسري آخر السنة القبطية .

وفي يوم الأربعاء سلخ شوال وصلت كتبُ الحاجّ من منزلة [1] نخل أنهم في خيرٍ كبير ، من الرَّخــاء ، واعتدال الهواء في هـذا الفصـل الحـارّ ،

---

(١) منزلة نَخْل : منزلة تقع قبل أَيْلة من ناحية مصر ، يصلها الحاج في خمسة مراحل ، بها ماء عذب ، وهي من أشهر منازل طريق الحاج . =

والرِّفق من أميرهم ، وأنَّه يمكثُ على المنْهَل [1] بنفسه ، حتى يتروَّى جميعُ الناس في رفقٍ ، وأنَّهم جُلبت إليهم إلى نَخْل الأعنابُ والفواكه ، والجمالُ وغيرها ، والكلُّ رخيص .

أول توت

وفي هذا اليوم كان سلخ أيَّام النسئ القبطي ، وكان أوّل توت أوّل السنة القبطية يوم الخميس أوّل ذي القعدة الحرام ، سنة ثلاث وستين وثمانمائة .

ثم أتت كتب الحجاج أيضًا [٢٢١] كتبهم من العقبة بمثل ذلك يوم الأربعاء سابع ذي القعدة ، وأخبرتُ أن الآتين بالكتب قالوا : إنا كنا في الذهاب مع الحجاج في ما ذكر من الرطوبة ، وفي الإياب كدنا نموت من الحر .

وفي يوم الأربعاء سابع ذي القعدة ، وهو سابع توت ، نُودى أنَّ البحر زاد إصبعين فأوفى تسع عشرة ذراعًا وإصبعًا من عشرين ، ثم نقص بعد ذلك نقصًا فاحشًا فقيل : إنه من عدم إصلاح الجسور ، فلما فُتح سدُّ قناطر منجا لم يلق الماءُ أمامه منها ما يرده ، فذهب إلى السِّباخ والبحر الملح .

وفي يوم الخميس ثامن ذي القعدة وُلِّي النجم [2] القرمي الحنفي

= « صبح الأعشى » (٣٨٦/١٤) ، و « درر الفوائد المنظمة » (٤٤٩) ، و « كتاب المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة » (٦٤٩) .

(١) المنهل : جاء في « لسان العرب » (٢٠٥/١٤) « والمنهل ، المشرب ، ثم كثر ذلك حتى سُميت منازل السُّفَّار على المياه مناهل » .

(٢) هو : اسحاق بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن شعيب بن إدريس ، وقيل في أبيه سعد بن إبراهيم ، النجم الأمامي ، القرمي أو القريمي ثم القاهري الحنفي ، قاضي العسكر ، كان بيده مع قضاء العسكر مشيخة مدرسة قايتباي ، مات في ثالث صفر سنة ٨٨٠ هـ ، وقيل : في صفر سنة ٨٨٨ هـ .

له ترجمة في : « الضوء اللامع » (٢٧٦/٢ رقم ٨٧١) ، و « نظم العقيان » (٩٢ رقم ٤٧) .

قضاء العسكر ، عن الشمس [1] بن الرازي الحنفي أحد المتساهلين من نُوَّاب الحنفية ، ولبس النجم الخِلْعَة بذلك طرحةً [2] على هيئة قضاة القضـاة ، وذلك بواسطة الدُّوَيْدار الكبير يونُس .

واتفق في هذه الأيام من الغرائب ، أن المقام الشهابي أحمد بن السلطان ، استأجر من وقف الشيخونية بلدًا بواسطة شيخها ، الشيخ محيي الدين الكافيجي الرومي ، وله مشاركة في النظر ، فأرسل إليه خياطٌ يقيس ثيابه ؛ ليفصِّل له خِلْعَة للمسامحة في ذلك وكان قاضي الحنفية ، وعالِمُ الدُّنيا السَّعد الدَّيْري مريضًا من مدَّة تزيد على شهر ، وسنُّه إذ ذاك نحو سبع وتسعين سنة قد ناهز المائة ، وقد شاع فيمن ليس بأهل لعيادته أنه هالكٌ لا محالة ؛ لسنِّه وطول مرضه ، وكان قد سعى عليه ساعون في القضاء ، فلما جاء الخيَّاط إلى الكافيجي لذلك ، ظُن أنه لأجل القضاء ، فشاع ذلك بين بعض الناس ، ثم تحرر أنه لما ذُكر لا للقضاء . ونقل عن كاتب السرِّ أن الذي ذهـب إلى الكافيجي للتفصيـل ، ما كان أرسل إلاّ إلى النجم القرمي ، فغلط ، وأظن أنه لما تحرَّر للكافيجي ذلك تلافى الأمر بأن سأل ابن السلطان في تفصيل شيء يكون أستر والله أعلم .

---

(١) هو : محمد بن يوسف بن محمود بن محمد بن داود ، الشمس بن العز أبي المحاسن بن الجمال الطهراني، الرازي الأصل القاهري الحنفي ، المعروف بالرازي ، وُلد في وقت الزوال من يوم السبت ١٢ ربيع الأول سنة ٧٧٤ هـ بالقاهرة ، ونشأ بها ، وتصدر بالزِّمامية ، وناب في القضاء ، وكان ينسب إلى التساهل ، مات في أحد الربيعين سنة ٨٧٠ هـ .

له ترجمة في « الضوء اللامع » (١٠/ ٩٩ رقم ٣١٨) .

(٢) طَرْحة : الطرحة ، وشاحٌ يُلبس فوق العمامة ويلتف حول الرقبة ، ويسترسل على الكتفين ، وكانت الطرحةُ امتيازاً يُمنح لقاضي قضاة الشافعية ، حتى سنة ٧٧٣ هـ ، حيث سُمح لبقية القضاة ؛ الحنفي والمالكي والحنبلي بلبسها ، وتُلبس في المناسبات الخاصة ، أو في أثناء العمل اليومي .

« الملابس المملوكية » (٩٣) .

وعاده الدُّوَيْدَار الكبير ، قاضي القضاة ، فوجده طيبًا إلاّ أن طول المرض نَهَكه [1] مع السن ، ومع أنه كان في تربة أصهاره أوّل ما مرض ، وهي تربة أَصْلَم [2] فلما طال الأمرُ أُنزل إلى بيته في المدرسة المؤيدية راكبًا ، فأزعجته الحركةُ مع المرض فحصل له ورمٌ ثم تحلَّل ، شفاه الله وعافاه ، فإنه بركةُ الدُّنيا ، سنًا وعلما وعملاً .

أول أمرجاكُمو

وكان في شوال [3] قد جاء من جزيرة قُبرس شابٌ كما يقل وجهه اسمه جاكُمو (٤) (بجيم وكافٍ مضمومة) ادَّعى أنه ابنُ ملك قُبرس ، وأنَّ أهل الجزيرة ظلموه في حقِّه في الملك ، وكانوا قد أرسلوا أخبروا أنَّ ملكهم مات ، ولم يُخلِّف ولدًا غير بنت تُسمى سارة ، وسألوا تمليكها عليهم ، فأجابهم السلطانُ إلى ذلك فملّكوها فاستمرت مدةً ، ثم تزوجت بشخص مِن الكَيتْلان بينهما قرابةٌ مِن النّساء ، فلما جاء هذا ساعَدَه ، الدُّوَيْدَارُ الكبيرُ يونُس ، ولم يكن هذا رأي الدُّوَيْدَار الثاني بُرْدُبَك ، بل كان رأيه أن يَبْقى في مِصْر ، وتُجْرى عليه نَفَقَةٌ إلى أنْ يحصل مِن أهل الجزيرة ذَنْبٌ يُعْتَلُّ به في تَوْلِيته [5]، ثم أَرسلت ملكةُ قُبرس

---

(١) نَهَكَه : جَهَده وغَلَبه.
« المعجم الوسيط » (٢/ ٩٥٩).

(٢) هو : أَصْلم بن عبد الله الناصري ، الأمير بهاء الدين السّلاح دار ، أحد المقدَّمين بالديار المصرية ، وكان أميراً شجاعاً ، عمرَّ بباب المحروق بالقاهرة مدرسة تقام فيها الجمعة ، وتربة وحوضاً وسبيلاً ، مات يوم السبت ١٠ شعبان سنة ٧٤٧هـ ، وقيل سنة ٧٤٦هـ .

له ترجمة في : « الوافي بالوفيات » (٩/ ٢٨٥ رقم ٤٢١١)، و« خطط المقريزي » (٢/ ٣٠٩) ، و«المنهل الصافي » (٢/ ٤٥٥ رقم ٤٧٣) ، «الدليل الشافي » (١/ ١٣٤ رقم ٤٧٢) ، و«النجوم الزاهرة» (١٠/ ١٧٤).

(٣) في « النجوم الزاهرة » (١٦/ ١٣٢) أن وصوله في يوم الأحد ٢٨ رمضان ، راجع أيضاً «بدائع الزهور» (صفحات لم تنشر (٦٥) .

(٤) في «النجوم الزاهرة » (١٦ / ١٣٢) جاكمُ الفرنجي ابن جَوَان ، صاحب جزيرة قبرص .

(٥) هذا الرأى لبُرْدُبَك ، أثبته (ابن تغري بردي) في « حوادث الدهور » (٣٣٠) ، وأضاف «لمعرفته بأحوال قُبرس ، لكون أصله منها ، وأقاربه إلى الآن بها » .

هَدَايا ، وسألت أن لا يُقْبل له كلام ، وأخبروا أَنَّ هذا لاحَقَّ له في المُلْكِ؛ باعتبار أنّه ولد زِنَا ، لأنّ أُمه لم تكن زوجة الملكِ وإنَّما كان هَوِيّها[1]، فاسْتَقْعَدها في بَيْته وكان يأتيها بغير كتاب ، وَلَمَّا أشْرَف على الموت أوْصَى لهذا بجهة تَغِلُّ كُلّ سَنَة خمسةَ آلاف دِيْنار ، ويقال : أنهم قطعوا أنْفَ تلك الزّانِيةِ عُقُوبَةً لها ، فَلَم يَقْبَل السلطانُ رِسالةَ مَلِكَة قُبرس ، وَوَلَّي هذا، بواسِطة الدُّوَيْدَار الكبير بعد سفرة الدُّوَيْدَار الثانِي ، وشرع في تجهيزه مراكِب ، ليُجهّز معه جنداً يسلِّمونَه البلادَ ، إنْ رجع الخَبَرُ أَنَّ أخته أبت أن تُذعِن لِتَسْليمه ، وأرسِل إلى الجون مَرَاكِبَ نحو الخمسة عشر ، مَشْحونَةً بالجند لإحضار خَشَبٍ تُصْنَعُ منه مراكِبُ لذلك. وأَجَاب[2] أخته بأنَّ ولاية المرأةِ في الإسلام لا تَحِلّ في شَرْعِنا ، فإن أحبَّت الإقامةَ في الجزيرة أقامَتْ معزّة مكرَّمة فقد أمر بهذا ، وإن أَحَبَّت سافرت مع زوْجها إلى أي البلاد شاءت ، لا اعتراض عليها .

ثم إنه أَجْرى على هذا الشَّاب ما يكفيه ، وكان يركب بزيِّ جند مِصْر إلا مَا على رأسِهِ ، فعلى زيِّ الفرنج، ويدور في المفترجـات، ويعاشِره من أراد مِن الأجْلاَب وغيرهم ، ويركبون في خِدْمته ، لا اعتراض عليه في شيء ، وبَلَغني أَنَّهم كانوا يُحْضِرون إليه نساء المسلمات الخواطِيء ، وأولاد المسلمين الخاطئين لِلْفِسق ، وأنَّه يوم فَتْح سدِّ بني مَنْجا كان في المِقْيَاس على ما ذُكِر مِن الهيْئات القبيْحَة ، وَيُحَدِّث الناسُ بأن ذلك كان سبب النَّقْص الذي لم يُعْهد مثله كـما يأتي ، وكـان مـن الشَّائع بين النّاس أن

---

(١) هَوِيّها : حبيبها وعشيقها .
« المعجم الوسيط » (٢/ ١٠٠١) .
(٢) أي السلطان .

الدُّوَيْدَار الكبير يجتمع معه للفساد ، وأن السلطانَ أيْضاً كذلك ، بحيث أَنَّه كان إذا ركب فى القَصَبَةِ يقول النَّاس: طاطي يكرّرونها ، فسأل عن ذلك ، فقيل إنهم يقولون : إنّ السلطان يفعل بك كذا وأنت على هيئة الراكِع ، كما يُقال أَنَّها عادَته في إتيان الذكور ثم يأمرك بأن تنَخفض له حتى في تلك الحالة .

[٢٢٢] وكان لما جاء ركبُ الحاجّ المغربي ، قَدِم معهم ثلاثُ نِسْوَةٍ مِن زَوْجات أبي فارس [١] ، وأتوا بهديَّةٍ مِن عند السلطان عثمان [٢] ، سلطان تونس ، تكون بأربعة آلاف دينار ، ومعها متسفّرَةٌ ، فأُخِذت الهدّيةُ ، ولم يُنْزَلوا في بيت ولا أُجْريَ عليهم نَفَقة ، ولا أُرسل لهم شيءٌ ، ونَهَب الأجْلاَبُ مِن رَكْبِهم على الهيئة التي يعملونها مع عَوَامّ مِصر ، فشكوا إلى السّلطان ، فلم يأخذ لهم بيد ، وكان الأجْلاَبُ يدخلون رَكْبَهم بالخيول ، فحاول بعضُهُم خادِماً مِن نِسائهم المذكورات ، فلاذَ بالخَيْمَة ، وحاولوه فَقَطَعَت الخَيْلُ أطْنَابَ الخَيْمة ، ووقعت على المرأةِ فكان خدّامها يُقيمُونَها، وتُعاد تِلْك الفِعْلَة حَتَّي وقَعَت مِراراً فلا قُوّة إلاّ بالله ، اللهم أَجِرْنا في مُصيبتنا واعْقُبنا منها عُقْبي حسنة آمين .

---

(١) راجع : « هامش ٣ » من « ص ٢٤٩ » من القسم الثاني .

(٢) هو : عثمان بن محمد بن عبد العزيز بن أحمد بن محمد بن أبي بكر بن يحيى بن إبراهيم بن يحيى بن عبد الواحد بن أبي حفص عمر المتوكل على الله أبو عمر ، وقيل : أبو سعيد بن أبي عبد الله بن أبي فارس بن أبي العباس الهنتاتي ـ قبيلة من البربر ـ الحفصي ، ولد بعد ٨٢٠هـ تقريباً بتونس ، ونشأ بها في كنف أبيه وجده ، تولى ملك تونس في سنة ٨٣٩هـ ، وهو ابن ثمانية عشر سنة ، ودانت له البلاد والرعية ، وضخم ملكه جداً ، وخُطب له بالجزائر وتِلْمِسان ، مات ليلة عيد الفطر ، وقيل : ليلة ٢٧ من رمضان سنة ٨٩٣ هـ بعد أن حكم أربعاً وخمسين سنة تقريباً .

له ترجمة في « الضوء اللامع » (٥ / ١٣٨ رقم ٤٧٩) ، و«بدائع الزهور » (طبعة بولاق) (٢ / ٢٥٣ ـ ٢٥٤) ، و«شذرات الذهب »(٧ / ٣٥٤) .

وكان شرُّ الأجْلاَب قد زاد في هذه السَّنة كما مضى ، حتَّي وَصَلوا في الإغارة إلى قرب بلْبيس بعِلَّةِ التِّبْنِ [١] والدَّرِيْس [٢] ، ومن استضعفوه في غير ذلك أَخَذوه ، فَنُقِل أَنَّه أَصْبَح في هذا الشهر منهم خمسة أنفس مقتولين عِند حَوْضِ قَرَاجا بين الخانْكة وبلْبيس ، منهم اثنان بالسِّلاح وثلاثة لَيْس فيهم أثرُ سِلاح ، ولكنهم مُعَلَّقون شَنْقاً بِلُجم خَيْلهم ، وخيلهم مربوطة فيهم ، وفي أفواههم تِبْنٌ وفي أَخْفَافِهم[٣] دَرِيس ، وشاع الخَبرُ بذلك حتّي استفاض ، ونُقل مِن وَجْهٍ متَّصلٍ مِن وَجْهَين ، ثم سألتُ بَعْضَ أهلِ الخانْكة ، فانكر ذلك ، والله أعلم . ثم غَرِق شخصٌ منهم في خليج قناطِر [٤] الوزّ ، ثم آخر في بِرْكةٍ بناحِية باب الخَرْق ، فَتَح الله لهلاكهِم و إذلالهِم خَرْقاً لا يَقْدرون على سدِّه آمين .

وكان السلطان قد قبض على شيخ عـَربَ هَوَارة[٥] علي بـن غريب [٦]

---

(١) التِّبْن : « ما تهشَّم من سيقان القمح والشعير بعد درَسْهِ ، تعلفه الماشية » .
« المعجم الوسيط » (١ / ٨٢) .

(٢) الدّريس : « الخَلَق البالي من الثياب وغيرها » « المعجم الوسيط » (١ / ٢٨٠) .

(٣) الخفّ : حذاء برقبة طويلة ، يصنع في الشتاء من جلد أصفر اللون ، من الأديم الطائفي ، وربما صُنعت من جلد بلغاري أسود ، وربما كانت للخفّ أربطة متككة ، وغالباً ما تشد المهاميز المسقَّطة بالفضة في القدم على الخف .

« مسالك الأبصار ـ دولة المماليك الأولى » (٩٩) ، و« خطط المقريزي » (٢/٩٨) ، و« صبح الأعشى » (٤/ ٤١) ، و« الملابس المملوكية » (٦٣ ـ ٦٤) .

(٤) قناطر الوز : تقع على الخليج الكبير ، يُتوصّل إليها من الحسينية ، ويُسْلك من فوقها إلى أراضي البعل وغيرها ، أنشأها الملك الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٢٥ هـ وهي من أحسن متنزهات أهل القاهرة . « خطط المقريزي » (٢ / ١٤٨) .

(٥) هَوَّارة : بطن من اوزيغ (أوزيفة) من البرنس من البربر ، منازلهم بالبحيرة ، ومن الاسكندرية غرباً إلى العقبة الكبيرة من برقة ، وفي آخر المائة الثامنة غلبت زنارة على عرب البحيرة ، فخرجوا إلى صعيد مصر ونزلوا بالأعمال الإخميمية ، ثم قوى أمرُهم وانتشروا في معظم الوجه القبلى ، فيما بين قوس إلى الأعمال البهنساوية . « مسالك الأبصار ـ قبائل العرب » (١٨٠) ، و« نهاية الأرب » (٣٩٠ـ٣٩١) .

(٦) ذكره السخاوى في « الضوء اللامع » (٥/ ٢٧٤ و١٠/ ٣٢٩) دون أن يترجم له .

فقتله وسلخه وحَشاه تِبْناً ، ثم أرسل ابن عمه مع الزين الإسْتَدّار ليولّيه ، فَلَمّا صار في بلادِهم تهدّده العربُ إنْ لم تقتل ابن عمه الذي معه، وصدقوه في القول ، ثم حملوا عليه ، فهرب مَن معه مِن الترك حتّي تمكّن العربُ مِن مَطْبَخِه فأخذوه فقَتل هو ذلك الرّجل .

ولما فُتح سدٌّ بني مَنْجا نَقصَ البحْرُ نَقْصاً فاحِشاً فانكشفت بعضُ الأراضي ، وكان النّاس قريبي عَهْدٍ بالغلاء ، فازدحموا على الخُبْزِ ، وشِراءِ القَمْح ، وكانوا يأخذون أكثر من كفاياتهم فعزَّ القَمحُ والخبزُ في نِصْف ذي القعدة ، وخَطَفَ بعضُ النّاسِ مِن الأفْرَان ، ووصل الحالُ ، أَنْ أخبرنِي مَنْ مَرَّ مِن مصر القديمة إلى قُرْب باب النَّصْر مِن القاهِرة ، فلم يجدْ رغيفاً واحِداً ، واستمرّ يتردَّدُ إلى مصِر أيّاماً فلم يقدر على شراءِ شىءٍ مِن القَمْح ، وكان أكثرُ الناسِ يقولون : إنّ البلاءَ مِن المحتسب ، فكانوا يدْعون أن يلي الحسبْةَ الأميرُ حاجبِ الحجَّاب بَرْسْباى البَجَاسي ، أو يكون ناظِراً على المحتسب ، كما كان لمّا وُلِّي الحسْبَة الصلاحُ بن برَكُوت ربيْب القاضِي الشافعي صالِح ، فأَمَرَهُ السلطانُ بذلك ، فدار في الأسْواق يوم الثلاثاء العشرين مِن الشهر ، فتباشَـرَ النّاسُ بهِ ، وضربَ بعضَ من يَتَوسَّمُ فيه قَصْدَ الغلاء مِن الطّحّانِين وَمَن شاكَلَهم ، وكان ميْمُون الطَّلْعَةِ، مُبَاركَ الأمْرِ ، فانصْلَحَ حالُ البلد ، وكثر الخبْزُ ، حَتّى بات كثيرٌ مِنْه ، وأصبحوا ينادُون عليه فلا يجدون له مَنْفَقاً وسعْر الأرْدَبِّ مِن القمح بثلاثمائة درهم ، عنها دِينار ، والله تعالى يَزِيد مِن فضله ، ويُجْري الخيرات على يديه ، ويجعل التمام إلى خَيْر .

واستمَّر الحالُ صالِحاً إلى يوم الأحد خامِسِ عَشْرِي الشهر ، فعادوا إلى قريبٍ من ذاك الحال في مَنْع الخُبْز ، فدار عليهم الحاجِبُ ، وضَـرَب بَعْضَهم ضرْباً شديداً ، فلم تَنْزَعج القلوبُ لقيامِه في ذلك كما انزعَجَت أوّلاً .

هاتف لقاضي القضاةُ ابن الديري

وكان سببُ غالِبِ الفساد قُوّةَ أضْعفِ النّاسِ بالأجْلابِ على ما يُريد مِن العباد ، ومِن العجائب ما حدَّثني قاضِي القضاة [٢٢٣] ، بَركة المسلمين سعد الدين ابن الدَّيْرِي الحنفي ، وهو يومئذ منقطعٌ في رواقِهِ في المدرسة المؤيَّديّة من مرضٍ كان عَرَض له ، وكان سنُّهُ إذ ذاك زيادَةً على خمس وتسعين سنة ، مائة إلا شيئاً ، أنه كان نائِماً في قاعته بالمؤيَّدية في آخِرِ دَوْلة الأشرف بَرْسباي ، كأنّه في سنة إحدى وأربعين [(١)] ، فاسْتيقظ مِن منامِه ، واستمر مضطَجعاً ، فسمع قبل أن يفتح عَيْنَيه هاتِفاً يقول : النّاس في سترٍ رفيع يوشك أَنْ ينكشِف . قال : ففتحت عيني فلم أر شيئاً، فأشفقت مِن ذلك ، فلم تمض سنةٌ أو نحوها حتى قبضَ الظاهِر جَقْمقَ على التاج بن الجلال بن السّراج البُلْقِيني ونسبه إلى الخِيانَة فيما تحت نَظَره مِن الأوْقاف ، فشفع فيه قضاةُ القضاةِ ، فأطلقه وَقَبض على البهاء بن عز الدين البُلْقِيني ونسبه إلى عَدَمِ الدِّين ، وتعاطِي فضائح الأمور التي لايرتكبها دَيِّنٌ وَشَرع يتتبَّع الفقهاءَ بل أكابِرَهُم وُيبدي فضائحَهم ، ويكشف عن عوراتهم إلى أن صِرْنا إلى ما ترون من انهتاك السِّتْر، وانخراق السِّياج، وعدم الهَيْبَة والحياء مِن ذوي الهَيْبَات ، وترْك الخوف مِن أَهْل الدِّين ، وحكّام الشرع وكنت أنا في هذه الأيَّام قد أتاني فَلاحٌ كان يَزْرَع بعضَ ما تحت نظري وهي رزقة جامعِ الفكاهين [(٢)] في

---

(١) وثمانمائة .

(٢)جامع الفكاهين : لعله جامع الفاكهاني ، أو الفاكهيين ، وهو المعروف قديماً بجامع الظافر بالقاهرة وسط السوق الذي كان يُعرف قديماً بسوق السّراجين ، ثم عُرف بسوق الشوّايين ، وهو من المساجد الفاطمية ، عمره الظافر بنصر الله سنة ٥٤٣ هـ .

« خطط المقريزي » (٢ / ٢٩٣) ، و«الخطط التوفيقية » (٢/ ٣٠ و٥/ ٦٧) .

صندلا [1] ، وكان شَيْطاناً ، فأحْضَر إليَّ أربعةَ دنانير فيها واحدٌ نُحَاس ظاهِر الأمْر ، زِنَتُه ثلاثة أَرْباع دِرهم ، فادَّعى أَنَّه لم يكن يعلم أَنَّه مغشوش وسألني المُسامَحة في بعض ما عليه ، فسامَحْته في ثلاثة آلاف مِن خمسة ، وتأخَّر عنده ألفٌ ، فطلب الدِّينار ، فلم أُعْطِه إيَّاه ، فأتاني بَممْلُوكَيْن يَسْألاني في دَفْعه له ، فحاولتهم بكل طريق ، واجتهدت في إلاَنَةِ القَوْلِ ، فلم يُفد ، فأظْهرتُ التّصميم على الامتناع ، فكفّها الله عنّي، غير أنهما ذهبا وهما يتهدَّدان ، وكان ذلك آخر يوم الخميس خامِس عشر ذي القعدة ، وكان ميعادي يوم الجمعة في قوله تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوْا مِنكُمْ خَآصّة ﴾ [2] إلى قوله : ﴿ والله ذُو الفَضْل الْعَظِيم ﴾ [3] واسْتَمَرّا هُمَا وغَيْرهُما مِن أَتباعهما في كلِّ يوم يجورون عليَّ ، فإن رأوني جالِساً تهدَّدُوني وإلاَّ سألوا عَنِّي مِن بعض الجِيْران وأَظهْروا التَّحرُّق له ، فظفِرْتُ بالفَلّاح يوم الأحد ثامِن عشره ، عند بيت حاجب الحجّاب ، وكنت قد دَفَعْتُ الدّيْنار إليه وأَعْلَمْته القِصَّة فأدْخلته إليه ، فَضَربه ؛ فازْدَادوُا حُنْقاً ، وزاد التهديد والمرور على باب مسجدي للكلام الغض ، وأنا لا أزيدهم على قولي : يكفينا الله . ثم عملت المِيْعاد يوم الجمعة ثالثِ عشري الشهر في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَمكرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [4] إلى قوله : ﴿ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُم تكـفُرُونَ ﴾ [5] فحرَّك الله

---

(١) صندلاً : بلد من أعمال الغربية بمصر ، يقول (ابن الجيعان) في « التحفة السنية » (٨٥) : «مساحتها ٢٦٢٥ فدان ، بها رزق ٩٦ فدان ، عبرتها ٤٢٠٠ دينار ، كانت للمقطعين ، والآن لهم أملاك وأوقاف » . راجع أيضاً « الانتصار » (٢ / ٩٤) .

(٢) الأنفال / ٢٥ .

(٣) الأنفال / ٢٩ .

(٤) الأنفال / ٣٠ .

(٥) الأنفال / ٣٥ .

شخصاً مِن مماليك طنتتا يُقال له : جَانَم الأشْرَفي ، فذهب إليهم وكَلَّمهم فكفَّهم الله به ، وأرسلوا يسألون المصالَحَة على وَجْهٍ فيه مُخَادَعة ، فسلكت، أَمْرَاً وسَطَاً مُدَبَّجاً عليهم إلى أنْ رضوا به وَسَلِمْتُ من خِداعِهم ، فلله الحمد سبحانه ، لا يَذِلّ مَن والى ، ولا يَعِزُّ مَنْ عادى .

ابن الشماع

وفي هذا الحد ، وهو أواخر العشر الثاني مِن ذي القعدة مات الإمام العلامة المعتَقد شمس الدين [محمد بن محمد بن على بن أحمد] [١] ابن الشمّاع الحلبي الشافِعي الصوفي في طريق الحج الشامِي قرب المدينة الشريفة فَحُمل إليها ودُفن بها على ما بَلَغَنا ، وكان قد مات جميعُ من في بيته في الطَّاعون الذي كان بحَلَب ، وكانوا فوق عشرين نَفْسَاً ، فعزفت نَفْسُه عن الدّنيا ، وعزم على المجاورَة بالأماكِن المشرَّفة على سبيل التَّجْرِيد[٢] إلى أَنْ يموت ، فاختار الله تعالى له مجاوَرَة بيته عليه الصلاة والسَّلاَم ، وأظنه كان يزاحم السَّبْعِين ، وكان مُعَظَّماً بحلَب مُعْتَقَداً ، وكانت له ..[٣] في الدنيا ومكارم وفضايل مِن نَظْم ونَثْر ، وأظنه صَنّف في التصوف ، ولكنه كان يُتهّم بطريق ابن العربي والعلم لله .

وفي يوم الجمعة مستهل ذي الحجة الحرام مِن السنة ، الموافق لسلخ توت ، نودِي بوداع المناداة بزيادَة البَحْر ، وأخْبرني المنادِي أَنَّ البَحْرَ الآن على ست عشرة ذِرَاعاً وأربع أصابع مِن الذّراع السّابع عشر .

---

(١) ما بين الحاصرتين بياض في الأصل ، والتصحيح من مصادر الهامش التالي .

(٢) راجع « هامش ٢ » من « ص ٢٥٦ » من القسم الثاني .

(٣) التَّجْرِيد : جاء فى « المعجم الوسيط » (١ / ١١٥) ، عزل صفة أو علاقة عزلاً ذهنياً، وقصر الاعتبار عليها ، أو ما يترتب على ذلك .

(٤) كلمة غير واضحة الرسم في الأصل ، لم نجزم بتصحيحها .

وكان ميعاد هذا اليوم في ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ [الله] ﴾ [1] إلى ﴿ نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾ [2] ، وكان شخصٌ مِن أولاد الناس مَسْخَرَةٌ يُسَمِّيه الذين يَسْخَرُون به ملك الأمراء ، ممن كان باسمه جزء في أَوْقاف خان الفندق ، وكان في كل قليل يريد السَّعْيَ في اقتْلاعه مِنّي ، فجاءني آخِر يوم السَّبت ثاني الشهر شخصٌ من أكابر شِرار الأَجْلاَب ، يُقال له : قنبردي الحسني ، مِن طبقة الزِّمَامِيَّة [3]، يخبر أنَّ ملك الأمراءِ نَزَل له عن حِصّته ، فكلَّمْتُه بما ردَّه الله به في مجلسٍ طويل ، فإن كان ملك الأمراء أعْطاه شيئاً وهو الذي يَغْلب على الظَّنّ ، فقد ضاع عليه ودخل في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ﴾ [4] إن شاء الله وذلك بمن هو مَوْلانا نعم المولى ، ونعم النّصير ، وهو المرجو في الفَتْح بالغنائم التي تلي هذا [٢٢٤] .

وفي يوم الجمعة خامِس عشري ذي الحجّة هذا ، كان ميعادِي من قوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ امَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا ﴾ [5] إلى قوله : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الملـَٰٓئِكة ﴾ [6] إلى آخِرها ، وهو قوله : ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بظَلَّـٰمٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ [7].

---

(١) الأنفال / ٣٦ .

(٢) الأنفال / ٤٠ .

(٣) الزِّمَامية : يفهم مما جاء في « صبح الأعشى » (٣/ ٤٨١ ، ٤٩٥ ، ٤٩٦) أنهم طبقة الخدم والخصيان ، فيقال : زمام القصر ، وزمام بيت المال ، وزمام الدور السلطانية .

(٤) الأنفال / ٣٦ .

(٥) الأنفال / ٤٥ .

(٦) الأنفال / ٥٠ .

(٧) الأنفال / ٥١ .

وفي يوم العيد مِن الشهر ، مات الشهاب أحمد الطوباشي الدِّمشقي الحنْبلي الوكيل في مدرسة الولي ابن تقي الدين البُلْقِيني ، وكان قَدِمَ معه مِن دِمشق على عَزْمٍ أنه يَفْتح على الشاميين أَبواباً مِن الأذي ، منها أنه يَضْمَنُ للسلطان في الاوقاف أَمْوالاً عظيمة ، كما كان فَعَل محمد بن الأسْوَد على أَيَّام الظَّاهِر فانطفأ في هذا اليوم شهابُه ، وانْـمَزَق إهابُه ، وانْخَرَم حسابُه ، وَلَقد كان معروفاً بالشرّ مُبْرِزاً فيه ، في الذرْوَة . مِن الَّلدد، له فيه وقائع لاتكاد تُحْصى ، يسافِر في السِّرِّ مِن بلدٍ إلى بَلدٍ ، ويُناطح الأكابِرَ ، وكان سِنُّهُ نحو الخمسين ، والله المسؤول أن يُلْحِقَه بإخْوانِهِ ممن كان شأنُه مثلَ شأنِهِ .

وفي هذا الشهر قَدِم الخَبَرُ ، أَنَّه لَقِيَ المراكِبَ التى تَقَّدم [١] أنها ذهبت إلى الجُون لإحضار خَشَب قُرْقُورة كبيرة جِدّاً مِن جهة الفَرَنْج ، تسمّي عفِرْيت البحر ؛ تريد أَخْذَ ما تيسّرَ لها مِن مراكب المسلمين ، وقِيْل إنَّه بلغ مِن عِظمها أنّه كان في مراكب المسلمين قُرْقُورَة كان صَنَعها ناظِرُ الخاص الجمال يوسُف بن كاتِب جَكم دخل في قِلْعها [٢] ستة آلاف ذِراع، فكانت بالنسبة إلى قرقورة الفرنج كالعصفور عند النسر فأسعد الله أهل الإسلام ، فدارت حولها مراكبُهم واقتتلوا ، فقُتِل مِن المسلمين نحو خمسة مِن الجند، وناسٌ مِن النُّواتِيَّة [٣] ، وقُتِل مِن الفِرنْج نحو ثلاثين نَفْساً ، وأُخِذَت قَرْقُورتُهم ، وأُسِر مَنْ بَقِيَ بها ، فكان فتْحاً عظيماً ولله الحمدُ والمِنّةُ .

---

(١) قُرْقورة : سفينة طويلة عظيمة .
« محيط المحيط » (٧٣٠) ، و« المعجم الوسيط » (٢ / ٧٢٩) .

(٢) قِلْعها : شراعها . « محيط المحيط » (٧٥٣) ، و« المعجم الوسيط » (٢ / ٧٥٥) .

(٣) النُّوَاتية : النَّوتِيّ ، الملّاح الذي يدير السفينة في البحر ، يوناني معرَّب « محيط المحيط » (٩٢٢) ، و« المعجم الوسيط » (٢/ ٩٦١) .

وكان الجند كما تقدّم قَدْ زادوا في الفَسَاد ، فكان مِن جملة أَذَاهُم أَنْ نَهَبُوا شوْنه شَرِباش كُرْد ، أحد الأمراء الكبار ، وهو الَّذي كان أمير آخُور وغيرها من شون الأمراء ، وأخذوا كثيراً من طِيْنِهم ، وأتوا ليلاً مثقالاً الخَزَنْدار لالا المقام الناصِري محمد بن السلطان إلى بَيْته في بِرْكة الرَّطْلى ، فطلبوا منه شيئاً فأبى ، وأَغْلظ لهم ، فلم يزالوا به حَتّي أَعْطاهم ، ثم لم يزالوا به حَتَّى رَكِب معهم في مركب هم به ، فضربوه وأخذوا جميع ما عليه مِن الثياب ، وقيل إنّهم فعلوا به ما يُستهَجن ذكْره وطَرَحوه قرب الكيمان التي عند الفوا خِير ، لا يَعي فعثر عليه بعضُ جماعةِ الوَزير فحملوه إلى بيته ، فتراجعت إليه نَفْسُه ، فغضِب له ناسٌ مِن الأَجْلاب ، منهم يونُس كفل ؛ لأنه أنيه [1] هو مِن طبقته ، فحَقَد عليه ذلك الذين ضربوه ، فلم يزالوا يَتَتَبَّعُون يونُس حتى ظَفِروا به ، فضربوه ضَرْباً كاد يموت مِنه .

وكان العزُّ [2] محمد بن شمس الدين محمد المنُوفِي ، أحد نّواب الشافِعي في القاهِرة ، والقاضي بالخانْكة قد زوّج ابنته لشخصٍ يُقال له ، عَلِي ، مِن ذريّة ابن أَوْحَد الذي كان ناظِر الخانْكة ، وكان في الخانْكة مَنْ

---

(١) أنيه : حميمه .

« القاموس المحيط » (٤/ ٣٠٢) ، و« محيط المحيط » (٢٠) .

(٢) هو : محمد بن محمد بن عبد السلام بن موسى بن عبد الله ، العز والمحبُ والشمس ، أبو عبد الله بن الشمس المغربي الصنهاجي الأصل المنوفي ، ثم القاهري الشافعي ، ولد بمنوف سنة ٧٧٥هـ ، وقدم القاهرة بعد بلوغه وأخذ عن أبرز علمائها ، وناب في القضاء حتى أصبح من أجل النّواب ، مات عصر يوم الاثنين ١٤ ربيع الآخر سنة ٨٦٥ هـ .

له ترجمة في « النجوم الزاهرة » (١٦ / ٣١١) ، و« الضوء اللامع » (٩/ ١٠٦ رقم ٢٧٩) .

يَشْهد أَنَّهَار رَضَعَت معه ، وكان ذلك بحيث لا يُشَكُّ فيه ، فاعْتَرف هذا الذي يريد زَواجَه لابنته عِنْد ناسٍ بذلك ، فركب العزُّ رأسَه ، ولم يلتفت إلى شيء ، وقيل : إنَّه إنّما أَلَحَّ في ذلك ؛ لأنّ ابنَ أَوْحَدٍ أَمْردٌ مليحٌ فزوَّجه بها واستحكم بعض نّواب الحنفية بصحة العقد ، وكانت في ذلك أمورٌ صار يَتَخَوفّ معها إدخالَ ابنته عليه ، إلى أنْ أدْخلها عليه في هذا الأوان ، ووافق أن انتُهكت حرمةُ الخانْكة بعد موت كاتِب السرّ ، المحبّ بن الأشقر ، فدخلت فيها يَدُ والى القاهرة ، فأقام بها نائباً عنه ، فصار يَحْكم في كثيرٍ مِن الأمور ، فشقّ ذلك على القاضِي عزّ الدِّين ، فصار بينهما بذلك ضغائن فاغرى به نائبُ الوالي الأَجْلاَبَ ، فصاروا يأتون [ويقولون له] [1] : أحْضِر لنا صِهْرَك نفعل به ، أنت تفعل وحدك ، ونحو هذا ، فلا يذهبون إلاّ بمالٍ يأخذونَه منه ، ثم تفاقم الأمرُ ، فصاروا يقولون له : أَنْت زوَّجته ابنتك وهي أخته فضربوه ضَرْباً كثيراً ، وقيل : أنهم فعلوا به ، وكانوا قد أَغروا بعضَ أَتباعِه على الإفْسادِ قَرْب بيته فأخذه وضربه وهو لا يشعر أنّه مِن جهتهم ، فادّعوا أنه كان معه ستون دِيْناراً فسقطت منه لما ضربه ، فطلبوها مِنه ، ولم يزالوا يغادونه ويراوِحونه حتى أرضاهم .

[٢٢٥] وفي أوائل هذا الشهر ، وهو ذو الحجّة سنة ثلاثٍ وستين [2] ، أو أواخِر الذي قَبْله ، قَدِم شخصٌ مِن بني حسين ، عرب حارثة الخُفَراء بنواحي وادِي [3] عارا واللَّجُّون [4] يُقال له.. [5] فسعي على الخَفير منهم

---

(١) ما بين الحاصرتين إضافة اقتضاها السياق .

(٢) وثمانمائة .

(٣) وادي عارا : لم أعثر له على تعريف فيما بين يدي من مصادر ، ويبدو أنه بلد في الأردن ، أو فلسطين .

(٤) اللَّجُّون : جاء في « معجم البلدان » (٥ / ١٣) أنه بلد في الأردن بينه وبين طبرية عشرون ميلاً ، وإلى الرملة في فلسطين أربعون ميلاً .

(٥) بياض في الأصل بمقدار ثلاث كلمات .

وهو ...[١] ، وبذل للسلطان مالاً يقال : أنه ألفا دِيْنار ، فولّاه الخَفَر، فسمع الذي عُزل ؛ فأغار على الذين يَبْنُون خان اللَّجُّون للسلطان ، فسلبهم جميع مامعهم وترك البلاد وذهب إلى مأمنه ، فصار الطريق خَوفاً . وقد كان على أَيّامه في غايَةِ الأَمْنِ ، حتى ربما كانت تذهبُ المرأةُ وَحْدَها في وادي عاره الذي يُضرَب المثلُ بخَوفْه ، فنسأل الله أنْ يُقَيّض للسلطان بطائِنَ الخَيْرْ ، ويُبعد عنه بطائنَ السّوء آمين .

وفي يوم الأحَد سابع عشر الشهر ، مات شخصٌ مِن المُقَدَّمين اسمه باربر مِن النّاصِرّية ، فأخذ تَقْدِمَتَه سُودون قرقش ، وأخذ وظيفته سُودُون بُرْدُبَك البَشْمَقدار الظاهِري فصار رأس نَوْبَة ثانِياً [وأخذ] السلطان من سُودُون على ذلك خمسة آلاف دينار ، ومن بُرْدُبَك .

وفي هذا الشهر ، بعد العيد تَغَيَّظ السلطانُ على المباشرين ، وتَكَلَّم بكلامٍ عَرَّض فيه بأبي الخَيْر في كَوْنِهِ مُشْتَغِلاً برؤية البحر وما عليه مِن تَعَب السلطان ، فانتقل إلى المدينة وكان قد أُخِذ [إلى][٢] بيتٍ للأمين ابن الهَيْصَم الذي كان وزيراً ، وهو على باب جامِع الزَّاهد ، فانحط في المرض فعجز فيما قُرِّر عليه للوزير والإسْتَدَّار ، فأَلَحّ عليه الوزيرُ في الطَّلب ، فأرسل أخاه يوم الجمعة ثاني عشري ذي الحجة يطلب مِن السلطان ألفاً وخمسمائة دينار ، فاشْتَاط السّلْطانُ غَضَباً ، فاجتمع الوزيرُ بالسلطان ، وشكى إليه أنَّ أبا الخير لا يُوَافيه ، وأنّه هو مشرف لأجِل ذِلك على الاختفاء ،. ووقع الكلامُ في عَزْل أبي الخَيْر مِن الذَّخِيرَة وردّها إلى نحو ما كانت عليه قبل حضوره فَفُعِل ذلك ، فأخَذَ التقي بن مُزْهِر

---

(١) بياض في الأصل بمقدار ثلاث كلمات .

(٢) ما بين الحاصرتين إضافة اقتضاها السياق .

وكالَة بيت المال وجوالِي دمشق وحَمَاة وطرابُلُس ، ثم عارضَه فيها ناظِرُ الخاص الأَمير زين الدين بن الكُوَيْز فأخذها وما للذَّخِيْرَةِ بها ، وأخذ كاتب السرّ المحب بن الشِّحْنة ما بحَلَب ، وأَخَذَ ناظِرَ الجيش البرهان بن الدَّيْرِي ما بالقدس ونواحِيْها ، وكان مع أبي الخَيْر إقْطاعٌ فأُضِيْف إلى الذَّخِيْرةِ ، وأمر السلطانُ أن يُحاسَب عِند كاتب السّرّ ، فقيل له : مريضٌ . فقال : يحضر على حَمَّال ، فطُلب يوم السبت ثالِث عشري الشهر فاعْتَلَّ بالمرض ، فأُخْبر بما قال السلطانُ ، فلما عَلِم أَنَّ الأَمْرَ لابُدَّ مِنه طلب الفَرَس فركِبَ ، فَعَجزَ في الَّطريق ، فَحُمِل على قَفَصٍ وأُحْضِر بَيْن يدى كاتِب السّر ، فحُوسبَ فَبقي عنده مالٌ وأُخِرج عليه أحد عشر ألف دينار مِن زَمن الظَّاهِر فرُدَّ إلى بَيْتِه على قَفَصٍ حَمَّال ليخرج من عهده ذلك إلى ثلاثة أيَّام ، وكانَ أخوه قد بدا منه كلامٌ فيه غلظ فَرُسِّم عليه(٢) .

وفي أوائل هذا الشهر ، أو أواخِر الذي قبله ، مات مِن الشّام بَعْضُ أَعْيَان بتوعك الخريف على العادَة ، وأمَّا الطاعون فلم يكن وَصَل إليهم ، أرسل إلَيَّ القاضَي وَلِيُّ الدِّ ين عبدُ الله بن قاضِي عجلون في كتابٍ ، تاريخه نصف ذي الحجّة هذا: «مات جماعةٌ بغير طاعون ، منهم زين الدين عُمرَ بن الحاره ، وظهر عليه ديونٌ كثيرة ، ومنهم ابن السّيّد عَجْلان ، أبو الأولاد الكثيرين ، (يعني السّيّد شمس الدين محمد ، وكان سيء الطّريقة جريئاً فحصل بموته فرج كبير) ، ومنهم جمالُ الدِّين الأرْبلي الشاهد ، وابن سَلَمون عين البستانِيَّةِ بالشَّاغُور»(٢) انتهى . وكان ابن الحارة عين من

---

(١) راجع خبر مرض أبي الخير النَّحاس هذا في « حوادث الدهور » (٣٢٩) .

(٢) الشَّاغُورُ : جاء في « معجم البلدان » (٣/ ٣١٠) أنها محّلة بالباب الصغير من دمشق ، مشهورة ، وهي في ظاهر المدينة .

بقي من تجار الشّام ، وكان خَيِّراً دَيِّناً منقاداً للخَيْر ، وكان الأربلي عين مُوَقِّعي الحكْم وكلاهما في عشر الستّين .

وفي هذا الشهر عُثِر في محلَّه الجُوَّانِيَّة بالقاهِرة على نصراني مِن مباشري ستخراج الجوالي في الوجْه القِبْلي عند مُسْلمَة ، فادَّعي أنها زَوْجَته ، فحُمِل إلى القاضِي الشّافِعي العَلَم صالِح ، فتحقَّق أَنَّها مُسْلِمة ، فخاف على نَفْسه ، فأَسْلَم ، وبلغني أنه تزوجّ بها .

وفي يوم السبت سلْخ سنة ثلاثٍ وستين [١] هذه ، قَدِم الأميرُ جانِبَك ناظر جُدَّة ومعه بشيرُ الحاجِّ ، فاجتمع بالسلطانِ ، فخلع عليه وأَحْسَن مُلْتَقَاه ، وكان النّاسُ قد ساءهم تأخُّر البْشَيرِ ؛ فإنّ مِن عادَته أَنْ يأتي في ثاني عَشْري ذي الحجَّةِ ، أو قَبْلِه بيومٍ أو بعده بيوم فتبينَّ أَنَّ السبب مُرافَقَتُهُ لجانِبَك ، ومعه أثقال [٢] .

سنة ٦٤ [٨]
المحلي

[٢٢٦] وفي يوم الأحد ، مستهل سنة أربعٍ وستين ، مات العَلامَةُ جلالُ الدين محمد بن أحمد المحلِّي [٣] الشافعي عن خمس وسبعين سنة ، وكان بيته في حَذْرَه الكماجيين ، وكانت العادَةُ أَنْ لا يُدْخل مِن أبوابِ البلد المشهورة بميِّتٍ ، فلم يدخلوا به من باب زُوَيْلَة ، وَدَخلوا مِن باب الفَرَج ، وصَلَّى عليه في باب النّصْر قاضِي الشافِعّية العَلَم صالح ، وكانت جنازته حافِلةً جداً بالأعْيَانِ وأهـل العِلْم عـامّة ، وكثيرِ مِن الفقراء وأهل الخَيْرِ ، ودُفِن في تربة له أمام تربة جَوْشَن ، وعَظُم تأَسُّفُ الناس عليه ولم يُخَلِّف أَحَداً مِن أهل العلم ، وكان له وظيفتـان كبيرتان ،

(١) وثمانمائة .

(٢) معلومات مفصَّلة عن وصول جانِبَك هذا في « حوادث الدهور » (٣٢٧) .

(٣) راجع « هامش ٢ » من « ص ٣٠ » من القسم الثاني .

تدريس الفقه بالمؤيَّدية والبرقوقِيَّة ، فسعى النّاسُ فيهما ، فسبَقهم الشمس بن [1] المرُخِّم بمائتي دينار مِن جهة نسائه كان لهن وَصْلة بخَوَند، فاستكتب له الدُّوَيْدَار الكبير يونُس غَضْباً بعد أَن كان عيَّنَها للعبادِي ثم أُرْضِيَ بالمال . وتكلَّم الشيخ أمين الدين بن الأقصرائي للشمس [2] بن البامي في الظّاهِريَة ، فأُجيب ، فضجَّ الناسُ من ولايتهما ، لكن مِن ولاية ابن المُرَخِّم أكْثر ، وقد كان في البلد مِن الشّافِعِيَّة مَنْ لايقربان مِنْه ، ولكن بُخْس الفضلاء لم يزل سنّة مستعملة ، ولا سِيّما في أهل مِصر ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللهُ إِلاّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ ﴾ [3] .

وكان الشَّرَفُ الأنصارِي قد قرَّرَ في ذِهْنِ ا' سلطانِ أَنْ يُؤخذ مِن الجمال الباعونِي ألف دينار لَمَّا سعى عليه ابنُ عَمِّه الجلال بعشرة الاف دينار، فلمّا عُزل أملاها في حِسابِهِ ، فأرسل ناظِرُ الخاص الزّين بن الكُوَيز مَنْ طالبَ الباعوني بها على وَجْهٍ بَشِعٍ ، فبلغ ذلك عنده ، وعند كل

---

(١) هو : محمد بن على بن محمد بن قاسم ، الشمس القاهري البهائي الشافعي ، المعروف بابن المُرَخِّم ـ حرفة أبيه ـ ، ولد بالقاهرة سنة ٨٠٨ هـ ، وأخذ عن أبرز علماء مصر في عصره ، وناب في القضاء ، وتولى التدريس بمدرسة أقبغا آص ، والمؤيَّدية ، والأجيهية ، وغيرها من المدارس ، مات في ليلة الجمعة ١٤ جمادي الأولى سنة ٨٨٨ هـ .

له ترجمة في : « الضوء اللامع » (٨/ ٢٠٥ رقم ٥٣٩) ، و«شذرات الذهب » (٧ / ٣٤٧ ـ ٣٤٨) .

(٢) هو : محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن الفقيه أحمد بن قريش ، الشمس بن الشهاب ، المخزومي البامي ـ نسبة لبلدة بالصعيد ـ ولد في سنة ٨١٠ هـ بالقاهرة ، ونشأ بها ، وتتلمذ على علمائها ، وأُذن له في التدريس والفتيا ، ودرَّس بالشريفية مع النظر عليها بعد أبيه ، وبالمجديَّة في جامع عمرو بن العاص ، وبالخرُّوبية ، مات في شوال سنة ٨٨٥هـ .

له ترجمة في « الضوء اللامع » (٧/ ٤٨ رقم ١٠٢) .

(٣) التوبة / ٣٢ .

مسلم مِن المَشَقةِ أمراً عظيماً ، وأوهَن كلمَتَهُ ، فأرسل في ذي الحجَّة خِتام سنة ثلاث وستين هذه يستعفي مِن الوظيفة ، ويشكو مِن الدَّيْن ، وكان القاضِي كاتب السرّ بن الشِّحْنة عارِفاً به مِن أنَّه عفيف لا يَرْتَشِي ، ولا يأخذ مِن أحد هديَّه ، ولا ممن يصلُ إليه مِن قضاة البر ولا غيرهم شيء مع مَالَهُ مِن الصَّدَقَةِ سِرّاً والصِّيام والقِيام والتَّحرِّي في القضاءِ والمحاسِن العديدة ، فتلطّف في إعْلامِ السلطان بذلك ، فأنكر السلطانُ أنْ يكون التفت قطُّ مِنه إلى شيء ، فاستأذَنَه في كتابَةِ مَرْسُومٍ ، فكتب : بأنّ الخواطِرَ الشريفةَ بَلَغها كذا ، فأنْكَرْتُه إنكاراً شديداً ، وحاشى الله مِنْ أَنْ يُلتفت إلى شيء مِن ذلك ، وأَنّ لنا في المشارِ إليه من الاعتقاد ما يقتضي استجلابَ أَدْعيتَه وأَنْ يجريها على خاطِره وقت تَهَجّده ونحو ذلك مِن الكلامِ الذي لا تسمحُ بمثله إلاّ قرائحُ أهْل الدِّيْن ، وأرسل مع ذلك كامِليةً مِن السلطان مع قاصدٍ مِنْ عنده في أوائل شهر الله المحّرم سَنَة أربع وستين وثمانمائة ، ثم عُورِض في ذلك إلى أنْ مِيل السلطان إلى جهة طلب ذلك ، فتلطَّف هو حتّي حلَّ السلطانَ عَنْه والله تعالى يُعينه على مقاصِد الخَيْر .

محرم سنة أربع وستين وثمانمائة

وفي نصف [1] محرّم هذا أتت المراكِبُ التى كانت ذهبت إلى الجُون لقطع الخشب ومعهم المركب الذي أخذوه واسمه عفريت البحر وهو كبيرٌ جداً طوله بضع وثمانون ذِراعاً ، وعرضه بضعٌ وعشرون ، ودَوْر صارِيه [2] اثنا عشر ذراعاً ، فلم يحمله فمُ البحر الحلْو ، فخلّفوه في ميناء وَقَدِموا في مراكِبهم ومعهم مما كان فيه مائةٌ وَنَيِّف وثلاثـون أَسِيْراً ، ونُقِـل

(١) فى « النجوم الزاهرة » (١٦ / ١٣٤) في يوم الثلاثاء ١٧ محرم .

(٢) صارِية : عمودٌ يُقام في السَّفينةِ ؛ يُشَدّ عليه الشِّراع .
« المعجم الوسيط » (١ / ٥١٤) .

أَنَّهم كانوا نحو ثلاثمائة قُتِل بقيَّتُهم في الوَقْعَةِ ، وَبعْدَها من الجِرَاحات ، ولله الحمدُ ، وأسلم بعضُ الأسْرى خَوْفاً مِن القَتْل ، فخافَ شخصٌ مِن كبرائهم أن يتتباعوا في الإسلام ، فقال : لا يَخَفْ أحدٌ منكم ، أنا أشتريكم كلكم ، فأمْسَكوا [1] ﴿ وَمَنْ يُضْلِلِ الله فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ [2] .

[٢٢٧] وفي آخر يوم الأحد خامِس عشر محرَّم سنة أربعٍ وستين وثمانمائة ، مات الشيخ الصالِح المقرىء نور الدين علي [3] بن محمد بن علاَّمة القِراءات الشيخ فخر الدِّين البُلْبِيسي الشَّافِعي ، إمام جامع الأزْهر عن نحو ستين سَنَةٍ ودُفِن بكرة الاثنين سادِس عَشْره ، وأخَذَ إمامة الجامع عنه ابنه .. [4] الدِّين .

وفي يوم الثلاثاء سابع عَشْره ، وصل جَمْعُ الأمراء الذين كانوا في الجُون لقطع الخشب ، وطلعوا بما معهم مِن الفَرنْج إلى السلطان ، فَقَتَل منهم نحو الخمسة ؛ واحدٌ كان مرتَدّاً ورفع الباقين إلى البُـرْج ليرى فيهم رأيه .

موت النّحاس

وفي صبح يوم الجمعة العشرين منه مات أبو الخير النحاس [5] عن نَيِّفٍ وأربعين سنة فيما أظُن ، بعد عِلّة طويلة جداً ، فإنه لمّا قَدِم في أوّل شهر رمضان مِن السنة التي قبلها كان مريضاً ، وأخبرني أنّ له مّدة أرْبَعة أشهر مريضاً ، ثم استمر بعد ذلك ، تارَةً يَقْوى مرضُه فينقطع ، وتارة يخفّ فيركب ، إلى أنْ قوي به في آخِر ذى الحجة ، وكانت به أمراض مختلفة ، أقواها فيما أظن السل ، كان ضخما ، فصار في غايَة النحافَةَ ، رأيته في آخِر ذي الحجَّة وكـأَنَّ يديـه خَيْطان أو خَطَّان ، ثـم حـَدَث في

(١) راجع الخبر في : « النجوم الزاهرة » (١٦ / ١٣٤) ، و«بدائع الزهور » صفحات لم تنشر)(٦٨).

(٢) الزمر / ٢٣ .

(٣) له ترجمة مختصرة في « النجوم الزاهرة » (١٦ / ٢١٠) .

(٤) بياض في الأصل بمقدار كلمة .

(٥) راجع « هامش ٥ » من « ص ٩٣ » من القسم الأول .

مقعده خُرَّاجٌ قُطِع بعد عاشوراء ، فزادَه ما خَرَج منه ضَعْفاً إلى أنْ مات في اليوم المذكور ، فلم يَحْفَل بِهِ أَحَدٌ ولا مُشِيَ مع جنَازَتِهِ ، فَوفَّق أهلُه فأتوا به إلى جامِع الحاكِم ، فَصَّلى عليه مَنْ صَلَّى بِهِ الجمعة عَقِب الصّلاة ، ثم دُفِن بالصحراء فلعلَّ ذلك يَنْفَعُه ، فلقد كان جِبلَّة شرٍّ مع ما قاسى في زمانِهِ مِن الأَنْكادِ التي تُهَذِّب أعْتَى النّاس إذا حصل له يسير عناية ، فإنّه كان في أوّل عمره لايجد ما يأكل ، فكان تبعاً لأبي العبّاس الوفائى ، الذي كان عِند جَوْهر الخَزَنْدار ، أُخْبرت أنّه كان يمْشِي وراء حمارِه حافِياً وربما ذَهَب إلى بِلْبِيس كذلك ماشياً حافِياً ، ثم إنه قُبيل سنة خمسين [1] حصل له منه حَنَقٌ كبير، شكاه من رجله إلى الظاهِر جَقْمَق ، وكان نَسْمةَ شَرَّ فَجَمَعَتْ خَبائَةَ الأرْواح فَرَجّحَه على أبي العبّاس ، ثم توسَّمَ فيه موافَقَتَه في أغراضِ الشّرّ فَرَقّاه وخالَفَ فيه النّاسَ ، وكان يُهين من يَعْذِله فيه إلى أَنْ أخذ به السَّفْطي وأكل جميعَ مالِه ، واستخرج له مِن عبادِ الله أموالاً جمّة بالظلم والعدوان واستخفّ النّاس بالسُّلْطان ، فأطاعوه كُرْهاً بما كان يُطَاوِهم به مِن أنواع العَذَاب ، أنّه كان مِن المشرفين ، ثم عاشر أبا عبد الله التُّريكي البَيْدَمُورِي المغربي التونسي ، وكان أَنْحَس منه ، وذلك في أواخِر سنة ثلاث وخمسين [2] ، فبلغ حينئذٍ النّهاية في النَحسِ ، وكأنّه أفتاه بإباحَةِ أشياء مِن المحرَّمات ، فصار يستَحِلُّ ما كان يفعله معتقداً حُرْمَتَه، فلما دَخلت سنة أربع وخمسين [3] انشرحت نَفْسُه لما كان يتأتى له مِن المظالِم ويَسْهل عليه مِن أسبابها ، فكان يقول : سنة أَرْبع مِن الرَّبيع ، والمَرْبَع طيّب يا سنة أربع . فأتى فيها الغلاءُ والقَحْط ، وأُخِذَ فيها، واستمر به النكالُ إلى أَنْ حصلت له هذه الهيئة مِن ذِكْرِ السلطان له.

---

(١) وثمانمائة .

(٢) وثمانمائة .

(٣) وثمانمائة .

فـأتـى في سنة ثـلاثٍ وخمسين [1] على شرّ مـا كـان عليه مِن الضّغائن ، وقصد الانتقام وزيادَة الكَذِب عن العدّ ، وتجاوَز الشَّتْمَ والسَّفَهَ الحدّ . أخبرني من دَخل إليه قبل موته بنحو أرْبَعة أَيَّام أَنَّه كان لا يستطيع كلامَه إلاّ بالإشَارَةِ ، وإنْ حصل نُطْقٌ فهو في غايَةِ الخَفَاء، حَتّي يشير إلى أحَدٍ مِن أتباعِهِ بشىء فيخالِفُ غَرَضَهَ ، فحينئذٍ يَشْرَع في سَبِّه بأقْبَحِ الكلام بغايَة ما يكون من علُوِّ الصَّوْتِ ، فلم يكن يسير له إلاَّ ذلِك وكل مُيَسرٌ لما خُلِق له وكان مطلق سنة أربع [2] كـانت مشؤومة عليه .

[٢٢٨] ومِن عجائب الأمور في أحْوَالِه أَنّ الشَّرَفَ الأنْصارِي حَدَّثني في أوائل ذي الحجَّة سنة ثلاث وستين [3] أن الأمير بُرْدُبَك وهو مِن أكبر المبْغْضِين له (أنا [4] أَعْرِفُ ذلك) قال له : وإنْ لم يودّ النَّحَّاسُ أن يحْلِق لِحْيَتَهُ ويَخْرُج مِن القاهِرة في لبَّادٍ مِنْ يَدَيْ هذا السلطان فلا تَعُدَّني رَجُلاً ، فكـان كـذلك . حـَدثني الشيخ عـلاءُ الدين علي [5] الضّريـر البُرُلّسي ،

(١) وثمانمائة .

(٢) وخمسين وثمانمائة .

(٣) وثمانمائة .

(٤) أي البقاعي .

(٥) هو : على بن أبي بكر بن أحمد بن شاور ، العلاء البُرُلّسي البلطيمي الشافعي الضرير ، ولد سنة ٦ أو ٨٠٧ هـ ببلطيم من البرلس ، وحصل له جدري في السابعة من عمره وكف بصره ، ثم تحول إلى القاهرة ، ثم انتقل إلى صَفَد ثم إلى دمشق ثم إلى طرابلس ، ثم إلى حمص ، وأخذ عن أبرز علماء تلك البلادفي فنون مختلفة ، ثم عاد به أبوه إلى البرلس ثم انتقل مع أبويه إلى القاهرة ، ثم سافر بأمه بعد أن طلقها أبوه إلى دمشق ، ثم بعلبك ، ثم قدم القاهرة سنة ٨٦٠ هـ بعد سفره إلى بلاد الروم مرتين وإقامته بها أكثر من عشرين سنة ، ثم انتقل إلى دمشق وأقام بها إلى أن مات فى أوائل سنة ٨٧٤ هـ .

له ترجمة في : « عنوان الزمان » (مخطوط) (٣٠٣ ـ ٣٠٤) ، و«الضوء اللامع » (٥/ ١٩٨ رقم ٦٧٣) ، و«بدائع الزهور » (طبعة بولاق) (٢/ ١١٣) .

وكان يتردد إليه وقد حَصَل له إليه مَيْلٌ أنه قال له : يا شيخ علاء الدين ، والله لو أَنّ لي قُوَّة عَلىَ المشْي لأحْلِقَنّ لِحْيَتي ولأَخْرُجَنّ مِن هذه البَلْدة بِلَبَّاد، فلا يُسْمَع بِخَبري إلاّ مِن بلادِ الرّوم . قال لي الشَّرَفُ : وقال الأمير بُرْدُبَك لي ولجماعَةٍ : طَيِّبوا خواطرَكم ما آتِي مِن الحجّ وهو موجود . فلما عُزِل أوَّلناه على ذلك ، فقدَّر الله أنّه لم يكن تأويلُه إلاّ على الوجود الحقيقي ، فمن حين أخذ في الرّجوعِ مِن الحجّ ، أخذ النّحَّاسُ في الانحطاط العظيم ، وكان كلّما قَرُب ازْداد انْحِطَاطُهُ إلى أنْ مات في صبح هذا اليوم ، واستراح منه العبادُ والبلادُ والشَّجر والدَّوَابُّ ، أَلْحَق الله بِهِ أَشْكَالَه ممن يعملُ أَعْمَاله . ولقد اسْتَقْرَيْتُ أحْوالَ من يُسَمَّي باسمه في زماننا ، فما علمت منهم نَسْمةَ خيرٍ ، مِن ذَكَرٍ وأنثَى ، كل من يشهر بأبي الخَيْر وأمّ الخير فهو كذلك أعاذنا الله منهم آمين .

فوصل ركبُ المماليك الذين يتناوبون المُجَاوَرَة في مكّة بعد عَصْرِ يوم الجمعة هذا إلى بِرْكة الحاج ، ثم وصل الرّكبُ الأوَّلُ في عصر يوم السبت حادي عشريّه .

وفي عصر هذا اليوم وصل كِتابٌ من أمير المحْملُ الأمير بُرْدُبَك ، أنَّه عَرَض لهم عارِضٌ اقتضي تأخّرَهم ، عن الوصول يوم الأحد ثاني عَشْريِّه إلى يوم الاثنين ثالِث عشريه ، وسأل أن يُعْلَمَ السلطانُ بذلك فَفُعل ، ثم وصل هو بنفسه في ناسٍ قليلٍ في عصر يوم الأحَدِ ، وتراسل [1] الحجّاجُ إلى [أنْ] [2] تكاملوا في نحو ثُلْث ليلة الاثنين في البِرْكة ، وأخبروا أنه أشار عليه أكابرُ الرّكْبِ بالمُبَادَرَة في العـادَةِ لِئلا يَشُقّ على الناس ، فَجـدَّ

(١) تَرَاسل : أي جاءواجماعة جماعة .
« لسان العرب » (١٣ / ٢٩٩) .
(٢) ما بين الحاصرتين إضافة اقتضاها السياق .

السَّيْرَ حتى وقع ذلك ، ثم طلع إلى السلْطان بكرة يوم الاثنين ، فخلع عليه على العادَة ، وعلى ولده ، وعلى من له عادَةٌ بذلك ، وَوَجَدْنا الحجَّاجَ يشكرونَه في الرِّفْقِ بهم في الماءِ والسَّيْرِ وغيرهما مِن كَثْرَةِ الصَّدَقَةَ على الفقراء بالبُقْسُماط [١] والطَّعَام ، حتى إنّه يُفَرِّقُ هو وعيالُه في كل يَوْم حِمْلين من البُقْسُماط أو أكثر ، وأَنَّه عمّ الرّكوب الثلاثة ، والمغاربة معروفه، وساسهم أَحْسن سِيَاسة وأشاعَ بعضُ المفسدين في مكة موت السلطان ، فلولا ثباتُه وَعَقْلُه لحصل بلاءٌ كبير ولكن الله سَلَّم [٢] .

ولمّا وَصَل أَهْدى إلى السلطانِ والأمراءِ ، ولم يُهد إلى فقيهٍ شيئاً ، لا قضاة القُضاة ولا غَيْرِهم مع أنّ مملوكَه لما جاء بشيراً خَلَع عليه بعضُ القضاةِ وأَعْطاه بَعْضُهم على قَدْر حاله ، ولم يَصِل المغاربةَ بشيء بعد وُصوله ولا ردّ معهم عِوَضَ ما أَهْدى له سلطانُهم فَعِيبَ ذلك عليه ، وقيل : لو كان ما فَعَلَه لله لتناسب في جميع الأحْوال ، هذا مع أنَّ ابنَ السلطان ، وحاجِبَ الحجَّاب تقدّماه ، فلم يَدعَا فقيهاً يُذْكر حَتَّى أهْدَيا إليه ، وما بالعهد مِنْ قِدَم ، وهو لايكاد يقطع مجالِسه الخاصَّةَ إلاّ بِذَمِّهِمَا بالبُخْل .

سفر الشيخ أبي الفضل من مكة المشرفة إلى نحو الطور

ثم جاء الخَبَرُ مِن مكّة أنَّ الشّيخ أبا الفضل محمد بن العَلاّمةِ أبي عبد الله محمد بن العلاَّمة أبي القاسِم المشدَّالي البجائي المغربي المالِكي سافر منها عَقِبَ رجوع الحاجَّ ، وَقَصَد جُدَّةَ ، وأوْهم أَنَّه يريد اليمن ، ثم جاء الخَبَرُ اليقينُ أنّه قَدِم إلى الطُّور أوْهم بعضَ مَنْ رآه ، أنّه يريد مِصْر

---

(١) البُقْسُماط : « اسم لنوع من الخبز ، يخبز ويجّفف ، ويُسمي في المغرب (بُشْماط) . « المعجم الوسيط» (١ / ٦٥) .

(٢) خبر وصول بُرْدبَك في « حوادث الدهور » (٣٢٩) .

ولكن أوائل الطّاعون قد أتَى مِصْر ، وانقطعت أواخِرُه مِن الشام ، فاكْتَرى مع المسافِرين إلى غَزَّة ، ثم فارَقَهم قبل الدُّخول إليها ، فلم يعرفوا له خَبَراً ، ثم جاء الخَبَر أَنَّه أَفْتَى لبعض أهل غَزَّة فَتْوَى قَدِم بها إلى دِمشق ، وأراد الحُكْمَ بها ، فاختلف فيها أَهْلُ الشَّام ، وحصل غايَةُ العَجَب مِن شخصٍ يُخْفي نَفْسَه مِن النَّاسِ ، ثم يُفْتِي بها يَفْضِي إلى النِّزاع ، ثم جاء الخَبَر أَنَّه رُؤيَ في حَمَاة ثم في حَلَب وذلك في جمادي الآخِرة أو شهر رجب مِن السَّنةِ ، ومن هناك تحقَّقَ أنه قَصَد بلادَ الرُّوم ؛ لأنّ ملكها السُّلْطان محمد من أهل التَّفَنُّن في العلِم والتَّعْظيم لأرْبَابِه ، فهو أَجْدَرُ الملوك بأنْ يَعْرِف مِقْدار الشيخ ، ثم جاء الخَبَرُ كما سيأتي أنه مات في مدينة عَيْنَتاب رَحمه الله وآجَرنَا في مصيبَتنا وأَخْلَفَ لنا خيراً منها ، فلقد فقد النّاسُ عالماً قلَّ أن سَمَح الزّمانُ بمثله ، ودُفِن في الأرض مِن بحور العلْم والعَقْل ، وبُعْد الغَوْر ، ونافِذِ الفِكْر ، وصائبِ الرأي ، وصادِق الظَّنّ ، مالو تَجَسَّدَ لم تَسعه ، هذا مع حسن الشّكَالَةِ ، وخِفَّةِ الرّوح ، ولَطَافَةِ ، المُحَادَثَةِ ، وأُنْسِ المُجَالَسَةِ ، وحَلاَوَة النَّادِرَة ، وجزالة النّظْم ، وفصاحة اللسان ، وبلاغة القول ، وجلالة المعاني في كلّ ما يتوجَّه إليه إلى غَيرْ ذلك مِن أمور يُعْجِزُ البليغَ وَصْفُها ويُعْييه إفْصَاحُها وكَشْفُها .

وكان موتُه عن نيِّف وأربعين سنةٍ أكثرها اسفار ، وبُعْد عن القرار ، هذا مع ان أباه شيخ بلاد المغرب ورئيسها الذي تتردد إلى بابه الملوك فمن دونهم ، ولهم من الرياسة والضخامة ما يجل عن الوصف ، ثم إنه مات غريباً وحيداً كسيراً فريداً ، فسح الله له في قبره ما بينه وبين مولده آمين ، وأخبرني تلميذه العلامة نجم الدين محمد بن العلامة القاضِي وَليّ اللهعبد الله بن القاضِي زين الدّين عبد الرّحمن ابن قاضِي عجلون الدِّمَشْقِي الشافِعي ، أنه كثيراً ما كان يَسْمَعهُ يُنْشِدُ هو بنفسه في ناسٍ قليل :

بكَىَ صاحِبي لَمَّا رأى الدَّرْب دُوْنَه وَأَيْقَنَ أنـَّا لا حِقانِ بِقَيْصَرا

فقلت لـه : لاتبـك عَيْناكَ إنـَّما نحاوِلُ مُلْكاً أَوْ نَمُوتَ فَنُعْذَرا[1]

قال : وكان إذا أنشدهما يهتزُّ لهما ، ويَظْهَرُ عليه أنه يُرِيْدُ محاولَة أمْرٍ عظيم لا يصدُّه عَنْه إلاّ الموت ، فسبحان الفعّالُ لما يُريد الذي قَضَى أنْ يموت بَعيْنتّاب ، بعد نشأته بِبَجَايَة مِن بلاد المغرب ، فأسْكن في قلبه ما أسْكن حتى كان سبباً حامِلاً له على الذَّهاب إليها حَتَّى مات بها .

وفي غياب النّاس في برْكَةِ الحجّاج للقاء الحاجّ لَحِق السّلْطانَ مَرَضٌ خَطِرٌ ، وَلَكِنَّه عُوفِيَ منه بسرعة ؛ وكان سببه أنه يوم ضَرْب رقابِ الفرَنْج خَلَع لِباسَه وكان به عَرَقٌ ثم شرِب بَطِّيْخاً صَيْفيّاً ، ولم يُعَوِّض عما خَلَعَه شيئاً فأخَذَ منه البَرْدُ وعُوْفِي قبل عَوْدِ النّاس مِن البِرْكة .

ثم أَسْلَم مَنْ بَقِيَ مِن الفرَنْج في أوائل صَفَر ، فحسَّن بَعْضُ المُفْسِدين مِنَ الأَتْرَاكِ أَنْ يَقْتلَهم ؛ لأَنّ إسْلامَهُم تَعوُّذ وليس خالِصاً ، فأُخْبِر بأن هذا لا يسوغ ، فكفّ عنهم .

وفي أوائل صفر [2] أيضاً اختفي الوزيرُ علاءُ الدِّين بن الأهْنَاسي ، فَوَلّى السّلْطانُ الوَزَرَ لشخصٍ مِن الأتراك اسمه فارِس [3] ، يوم السَّبْت ثانِي عشر صفر ، فلم يقْدِر على السَّدَادِ ، فَعَزله [4] وَوَلّى منصور الـذي

ولاية منصور الوزر

---

(١) هذه الأبيات لامرىء القيس . راجع « ص ١٧٩ » .

(٢) في « حوادث الدهور » (٣٣٠) في يوم الخميس عاشره .

(٣) هو : فارس المحمدي الركني فيروز نائب مقدم المماليك ، أصله من سبي قبرص . « حوادث الدهور » (٣٣٠) و«الضوء اللامع » (٦ / ١٦٣ رقم ٥٤٤) .

(٤) وذلك بعد ثلاثة أيام ، وقيل : بعد يوم واحد . « حوادث الدهور » (٣٣٠) ، و« النجوم الزاهرة » (١٦/ ١٣٥) ، و«الضوء اللامع » (٦/ ١٦٣).

كان صِهْرِ الزَّين الإِسْتَدَّار ، وكان صاحِبُ ديوان قَانَم وذلك يوم الاثنين رابع عشره ، نسألُ الله تعالَى صلاحَ الحالِ آمين . ثم عجز منصور؟ بسبب أنّ ابن الأَهْنَاسِي كان يُسَلِّطُ عليه مماليكَ يؤذُونَه ، فعُلِم أنه ما اخْتَفى مِن عَجْز ولكِنّه كان معتاداً بأنّه إذا أظهَرَ العَجْزَ رَفَده السلطانُ بمالٍ ، فأظْهر السلطانُ [٢٢٩] أنه لَوْ ظَهَر أعادَ إليه الوزَرَ ، فظهر أبوه الحاج محمد [١] (وكان مِن العارفين بأمر الوزَرِ ، الماهِرين في الظُّلْم مع اللّين) في العشر الأخير مِن صفر هذا ، فذكر إن قويت يدُه سدّ ، فألْبَسَهُ السلطانُ كامِليّة فَسَدّ ، واستمر ابنه مختفياً [٢] .

ومات في [هذا] [٣] الشهر ، عَلاَّن الأمير الكبير في دِمشق [٤] ، وأقامت وظيفَتُه وإقطاعُه أيّاماً كثيرةً يُدَلَّل عليها في من يَزيد ، كما يُنادى على السّلَع ، حتى وصلت إلى عشرين ألف دينار ، فَوَلِيهَا نائبُ الكَرَك ، وَوُلِّي الكَرَكَ [٥] تَغْري بَرْدي ، أحدُ مماليك السلطان القدماءِ ، ثم سافر إليها يوم الجمعة [٦] سادِس جمادي الأُولى . وفي ذلك اليوم سافر النجم بن قاضِي عجلون .

---

(١) هو : محمد بن أبي بكر بن محمد بن حسين ، الشمس بن الأَهْناسي الوزير ، ولد قبل القرن التاسع بقليل ، وترقّى في الدولة المملوكية حتى صار مقدّمها ، وتولى الوزر أكثر من مرة ، مات بطّالاً في ربيع الآخر سنة ٨٧٣ هـ .

له ترجمة في « الضوء اللامع » (٧/ ١٩٣ رقم ٤٥٥) .

(٢) راجع هذه الحوادث في : « حوادث الدهور » (٣٣٠) ، و« النجوم الزاهرة » (١٦ / ١٣٥) ، و« بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٦٩) .

(٣) ما بين الحاصرتين غير واضح الرسم في الأصل ، والتصحيح من مفهوم السياق .

(٤) راجع « هامش ٣ » من (ص ١٩) .

(٥) وذلك يوم الاثنين ١٢ ربيع الأول .

« النجوم الزاهرة » (١٦ / ١٣٦) ، و« بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٦٩) .

(٦) في « حوادث الدهور » (٣٣٣) في يوم الخميس ٥ .

ثم تغلَّب العَرَبُ مِن هَوَّارة على بلاد الصَّعيدِ ، فنهبوا وأَخْربَوا وانتشر فسادُهُم حتى انقطع الجَلَبُ ، وأفسدوا الزَّرْعَ ؛ فغلت الأسعارُ بالقاهِرَة ، وفسدت الأحوال ؛ مِن فسادِ الكلمة ، وَعَجْزِ السلطان ، وَقِلَّةِ حُرْمَتِهِ ، وَعَدم طَوَاعِيَةِ العَسْكَر له ، فأمر صهَره الأميرَ بُرْدُبَك الدُّوَيْدَار الثانِي ، فَتَوجَّه إلى بلادِ الصَّعيد يوم الاثنين ثانِي عشر شهر ربيع الأول مِن سنة ٦٤ [١] هذه [٢] ، فأقام في برّ الجِيزَة ثلاثة أيّام إلى أَنْ وافاه من عَيَّنه السلطانُ للتوجّه معه ، ثم ذهب أصلح الله به أحْوَال المسلمين ، ثم تبعهم الأميرُ حاجب الحجّاب بَرْسْباي البَجَاسي يوم الخميس [٣] خامِس عشر الشّهْر في البرِّ الشّرْقي ، وبلغني أنهم أرسلوا إلى مؤمن أمير عرب البُحَيْرَة وغَيْرِه مِن أمراء تلك النّوَاحي ، ليأخذوا عليهم طُرُقَ الجبالِ لئلا يَنْفُذُوا إلى البَرِّيَّة ، وأرسلوا إلى كل كاشفٍ في تلك البلاد ظفَّرهم الله بهم في صَلاح المسلمين آمين .

وَبَلَغنا أنه مات في أوّل هذا الشّهْر ، أو أواخِر الذي قبله شهاب الدين أحمد بن الشيخ بدر الدِّين حسن بن علي بن محمد بن عبد الرَّحمن الأذْرُعي الأصل الشّامِي ، الشهير بابن قاضِي أَذْرِعَات الشافِعي ، أخو الضّفْدع ، وكان شاباً فاضِلاً ، أَظُنه في حدود الأَربعين ، وكان ينوب في القضاء [٤] .

ومات أيضاً أَحَدُ نُوَّابِ الشّافعيَّة القاضِي البارِع رضي الدين

(١) هكذا وردت في الأصل رقماً لا كتابة ، وهي سنة ٨٦٤ هـ .

(٢) خبر هذه التجريدة في « حوادث الدهور » (٣٣٢) ، و«بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٦٩ـ٧٠) .

(٣) في « حوادث الدهور » (٣٣٢) في يوم الجمعة ١٦ .

(٤) راجع « هامش ٣ » من (ص ١٧١) من القسم الأول .

محمد[1] بن الإمام العالِم شهاب الدِّين أحمد بن عبد الله بن بدر بن مفرج بن يزيد بن عثمان بن جابر العامِري الغزي الأصل الدّمشقي عن نحو خمسين سنة ، وكان فاضِلاً مُفَنّناً ، غَيْرَ أَنَّ عَقْله لم يكن رصَيْناً فَعَلَّق تَعَالِيقَ في التَّاريخ وغَيره ، فيها ما يُضْحَكُ منه ، وامْتُحِن بسبب بَعْضِها وخلَّف أولاداً ليس فيهم رشيد ..

وتعاظم الطّاعون في هذا الحد في دِمشق وجميع بلاد الشّام ووصلت بوادره إلى بِلاد مصر ، وذلك في كانون الأصم ، وهو طوبة بحساب القِبط[2] فكان مِن العجائب ، وكان له مِن الصَّوْلَةِ ما يُزعج القلوبَ ، ومع ذلك فكَّرَ القادِمون إلى مصِر للسَّعْي في أرزاق الموْتَى ، يخرج الإنسان منهم وربما خلَّف في بَيْتِه مَيِّتاً لا يُمْهل حَتَّى يُجَهِّزَه ، ويكون أكثر باقِيهم صَرْعى ، فلا يصدُّه ذلك في هذا البَرْد والأمطار والثُّلوج ، وربما مات في الطَّريق إنّ هذا لَعَجَب .

ومات في هذا الطّاعون أيْضاً بدمشق المقرىء شمس الدين محمد بن البعباع[3] (بموحدتين ومهملتين) البِقاعي الشافِعي ، عن نَيِّف

---

(١) في « الضوء اللامع » (٦ / ٣٢٤ رقم ١٠٦٠) محمد بن أحمد بن عبد الله بن بدر بن مفرج بن بدر بن عثمان بن جابر ، رضي الدين أبو البركات بن الشهاب أبي نعم العامري الغزّي ثم الدمشقي الشافعي ، المعروف بالرضي بن الغزي ، ولد في رمضان سنة ٨١١ هـ بدمشق ، ونشأ بها ، وقدم القاهرة، وناب بالقضاء في دمشق ،حتى صار أحد أعيان الشافعية ، مات يوم الخميس مستهل ربيع الأول سنة ٨٦٤ هـ .

(٢) في « النجوم الزاهرة » (١٦ / ١٣٦) في أول شهر ربيع الآخر ظهر الطاعون بمدينة بلْبِيس ، وخانْقاه سِر ياقُوس من ضواحي القاهرة ، وكان أول الشهر يوم الجمعة الموافق لأول طوبة من شهور القبط . راجع أيضاً « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٧٠ ـ ٧١) .

(٣) لم أعثر له على ترجمة فيما بين يدىّ من مصادر .

وستين سنة ، وكان قرأ السّبْعَ على الشيخ صدقة [1] الضّرير ، ثم قدم ابن الجَزري فتَلاَ عليه ، وجَمَع بالعَشْر بَعْضَ القرآن سنة سَبْعٍ وعشرين [2] وكان ذاكِراً للقراءات كثير التّلاوة ، وكان يَشْهَدُ ولم يكن بالموثوق به في صناعته رحمه الله .

وكان مِن أجلاب السلطان شخصٌ يقال له يونُس كفك ، وكان مِن مماليك دُولات باي الدُّوَيْدَار ، فلما مات أخذه وحظِيَ عنده ، وكان مِن أكابِر المفسدين على المباشرين وغَيْرِهم ، وكان قد حَصَّل من ذلك ثروةً كبيرةً ، وكان قد عَيّنه السلطانُ لأنْ يُلَبِّس نائب الشَّام خِلعَةَ الشّتاءِ فى هذا العام ، فذهب وقد أخذ مرسوماً بمحاسبة النَّاس على الأَوْقاف وغَيْر ذلك مما يَقْصِد به الأَذَى ، واسْتِجلاب الأموال ، فلما وَصَل إلى دِمشق طُعِن فمات ، وكفى الله شَره فاستراحت مِنه البلادُ والعِبادُ والشجرُ والدّوابُّ ، أَلْحَق الله به أقْرَانَه وأَلْزَمَهم المهَانَةَ ، وكان موتُه في صفر فيما أظنّ ، وكان سِنّة فوق العشرين .

وحصل بعد سفر العسكر إلى الصعيد مَطَرٌ ما رأيتُ في بلادِ مِصْرَ قَطّ مِثْلَه واستمرَّ نحو يومين لا يَفْتَر ، وكان معه هواءٌ بارِدٌ جدّاً ، وكان معظم المطر مِن أوّل ليلة السّبْتِ سابع عشر ربيع الأوّل سَنَةِ أرْبع وستين [3] إلى آخر ليلة الأحد ، فورَد الخَبَرُ عن العسكر أنَّه كان عليهم وأَنَّه

---

(١) راجع هامش «٦» من (ص ٢٤) من القسم الأول .

(٢) وثمانمائة .

(٣) وثمانمائة .

منعهم مِن السَّفَرِ ، وأنّ كاشف الْبَهَنْسة محمد الصُّغَيِّرْ تقدَّم فَلقِيَ العربَ فَواقَعَهم ، فَهَزَمهم ثم لَمَّا لَمْ يَجِدوا أحداً وراءه كرُّوا عليه فما نَعَهم ، وأرسل إلى مَنْ ورائه بذلك .

موت ابن الجيعان

وفي أواخِر يوم الخميس ثاني عَشْرِي شهر ربيع الأوّل المذكور ، مات إبراهيم ابن الجَيْعان [1] ، صِهْر الجمال يوسف بن كاتِب جَكَم على أخته بَعْدَ عِلَّةٍ طويلةٍ ، مِن جَمْرَةٍ أكَلت عنقه ، وكان سِنُّه نحو ستين سَنَةٍ ، وكان مشكورَ السِّيْرَة في مباشراته ذَخِيْرَةِ السلطان والجَيْش وغالِب مدارِس القاهِرَة وصُلّي عليه عَقِب صلاة الجمعة في جامع الأَزْهر ، ودُفِن في تربتهم في الصحراء ، وشَيَّعه مِن الأمراء الكِبار والصِّغار والقضاة والفقهاء وغيرهم خَلَقٌ كثيرٌ جِدّاً ؛ لِمالَه ولأخيه عَلَم الدين شاكِر (وهو أكبر منه بنحو خمس عَشَرَةَ سَنَة) وأولاد أخيه عليهم مِن الإحسان بالقول والفِعْل وما يرجون منهم لِمَا تحت أيديهم مِن المباشرات .

وفي ليلة الاثنين [2] سادِس عشري الشهر عمل السّلطانُ المولِدَ النَّبويَّ على عادَتِهِ كلّ سنة ، وكان أراد أن يعمله ليلة الاثنين ثاني عشر الشهر ، فَمَنَعه ذلك المطَرُ الذي تَقَدَّم ذِكْره ، فإنه بَلّ الخَيْمَةَ التى تُنْصبُ في الحَوْش لذلك ، واسمها المُدَوَّرة ، وهي عظيمةٌ جِداً ، بحيث أن عمودها الأوسط يكون دَوْرُه باعـاً [3] ، وطلب السُّلْطان ابـنَ مَلِك قُبْرس

---

(١) راجع « هامش ٤ » من « ص ٣٧١ » من القسم الأول .

(٢) في « النجوم الزاهرة » (١٦ / ١٣٦) يوم الأحد ٢٥ .

(٣) باعاً : الباعُ « مسافةُ ما بين الكفين إذا انبسطت الذراعان يميناً وشمالاً ، ويُقال : فلانٌ طويل الباع: طويلُ الجسم ، وطويل الباع في كذا : بلغ الغاية فيه » .

« المعجم الوسيط » (١ / ٧٦) .

وأَحْضره المولِدَ وأَجْلَسَه وراءه ، فعاب عليه النّاسُ ذلك ، وكانوا لا يزالون يعيبون عليه إحْضَارَه مَحَافِلَه و إجلاسَه له فَوْق الأمراءِ ، وكَثْرَة إقْبَالِهِ عليه .

وفي هذا الحد قدم كِتاب من ..[1] الدين ..[2] الشهير بابن القف الذي كان رئيس صَفَد ، وناظِر جيشها من القدس ، يشكو مِن طول غُرْبَتِهِ ، وما حَصَل له مِن ذلك مِن الضَّعْف في البَدَنِ والفَقْر وَغَيْر ذلك مِن المَضَارّ ، فَشَفَعَ فيه الأميرُ بُرْدُبَك الدّوَيْدار ، فرُدَّ إلى بلده صَفَد ، وكان السّلطانُ شديدَ الحُنْقِ عليه ، لتعَاظُمِه عليه لمَّا كان نائبَ صَفَد ، ومُعَارَضَتِهِ له في كثير مِن الأمور فقبل الشَّفَاعَة فيه في هذا الوقت ، ثم لم تمض هذه السّنة حَتَّي ردّه إليها كما يأتي .

موت عمرو

[٢٣٠] وفي يوم الثلاثاء ثالثِ عشر شهر ربيع الآخر مِن السَّنَة ، قُبيل عَصْرِهِ ، مات فَتَاى عمرو الزنجي الكوكائي ؛ بمرَض دَمَوى مَكَث به نحو أُسْبوع أزالَ عَقْلَه نحو يومين ، فكان لا يَعْقِل إلاّ يسيراً إلى أن كان يوم مَوْته تَعَرَّق عَرَقاً كثيراً يُشْبه الصَّمْغَ مِن ثِخَنِه وتَلَزُّجِهِ ثم طلع مِن فمه وأَنْفِه دمٌ كثيرٌ ، ومات عقبه ، وكان سِنُّة فوق عشرين سنة ، وكان قِويَّ البَدَنِ والقَلْبِ ، طويلاً ، عَبْلاً [3] ، ربيّتَه صَغيراً ، وعَلَّمْتَه الرَّمي والثِّقَاف [4] ، وكان فيه سماحة ، ومكارمٌ ، وموافاة ، مع صبر على الشدائد، قليل التَّشكّي لِلْهَمِّ يُصيبُه ، يتَلقَّي الأمور الصّعاب بالبِشْر والتّرْحاب ، وله عِصْبَةٌ ، مع دِيْن وحُسن خُلق ، وكان مطبوعاً على النَّجْدَة

---

(١) بياض في الأصل بمقدار كلمة .

(٢) بياض في الأصل بمقدار كلمة .

(٣) عَبْلاً ضَخْماً .

« المعجم الوسيط » (٢ / ٥٨١) .

(٤) الثِّقَاف : إجادة اللعب بالسلاح . « المعجم الوسيط » (١ / ٩٨) .

والمعاوَنَةِ على النّوائب ، قل أن عَزَّاني أحدٌ ، إلاّ ذَكَر شيْئاً أعانَه عليه .
مُقْبلاً على صَلاَتِه وخِدْمَتي ، مُعرِضاً عن جميع ما يتعاناه السُّوْدان مِن اللّهو والمُسْكر والفَسَاد ، غَيْر أنّه أراد الكون مع الزُّعرْ مَرةً فنَهَيْته عن ذلك ، وهدَّدته فكفّ عنه ، واستمر مُقْبلاً على ما يَنْفَعه إلى أنْ مات في الوقت المذكور ، ويَسَّر الله له أَعْمالاً صالِحَةَ قُبَيْل موتِهِ زادته خيراً ومحبّة إلى النّاس ، وحين مَرِض وَفّى دَيْناً كان عليه لأُنَاسٍ مُفَرَّقين ولم يُبْق بينه وبين أَحَدٍ عُلْقَه [1] ، فكَثُرَ تأسُّفُ النّاس عليه ، وصلّى عليه جمْعٌ جمٌّ مِن طَلَبة العلم وأَهْل الخَيْر وكُلُّهم يَشْهَد له بالخَيْر ، وكنت قد زوَّجْتُه فأَوْلَدَ ابْنَاً اسْمُه عبدُ الله ، ومات قَبْلَه ، وخلّف بنْتاً اسْمها غالِيَةَ ، ودُفِنَ عند مقَابِر أوْلادِي وأَرِقّاي علي يمين قبّة النَّصْر وراء القَبْر الذي فيه أَمَتِي زَهْرة، وابني محمد سِبط العَلامة نور الدين البُوشِي رحمهم الله أجمعين ، وجعلهم في خَيْرٍ مما كانوا عندي وجَبَر مُصِيْبَتي فيهم ، وعَوَّضَنِي خَيْراً منهم .

وكان الحاج محمد أبو الوزير قد استقلّ بأمر الوَزَرِ وأَعْرض عن ابنه ، ثم عَجِز فاختفى في نحو العاشِر من هذا الشّهْرِ [2] .

وكثر فساد الأَجْلاب وأذاهم للمباشرين، فكان يُدَوْلِبُ [3] أمْرَ الوزر

---

(١) عُلْقَة : العُلْقَةُ ، « كل ما يُكْتَفى به من العيش ، وما يَتَعلَّلُ به الإنسان قَبْل الوجَبْة ، ويُقال : له في هذا المال عُلقة ، ولم يُبْق عنده عُلقة بشيء »

« المعجم الوسيط » (٢ / ٦٢٢) .

(٢) كان استقراره في الوزر في ٨ ربيع الأول ، واختفائه يوم الاثنين ١٩ منه . « حوادث الدهور » (٣٣٢) ، و«النجوم الزاهرة» (١٦/ ١٣٥ ـ ١٣٦) .

(٣) يُدَوَلِبُ : يُدور ويتحايل .

« محيط المحيط » (٢٨٧) .

شخص يُقال له الببائي [1] (بموحَّدَتين) مع بقية المُعَامِلين ، وكان الأَجَلاَب كلَّ يوم يضربون المباشرين وتُقْفَلُ أبوابُ القلعة ، وكان يتفق مِن ضعف الكَلمةِ ، وفسادِ الأَمْر مالم نَرَه قطّ ، هذا مع فسادِهم في المدينة، بالنَّهْبِ والضَّرْب والإغارة علىَ الصبيان والنسوان ، فنسأل الله أنْ يردّ العاقِبة إلى خَيْر .

وفي يوم الخميس خامِس عشر الشّهر ، خُلِع على سعد الدين فَرَج الذي كان كاتِب المماليك خِلعَة الوَزَر ، بعد أن استعفى من ذلك ، فوُعِد بأنْ يُسَاعَد [2] .

وفي أواخِر هذا الشّهْرِ أَنْهى شخصٌ مِن الأجْلاَب كَذِباً وفاةَ إنسانٍ ، وأخَذَ إقْطَاعَه ، فاستعانَ ذلك الإنسانُ بالدُّوَيْدار الكبير يونُس فأوْقَفَه للسلطان ، وساعَدَه فَخَشَّن ذلك الجَلَبُ للسلطانِ ، ثم نزل إلى الدُّوَيْدار فسَبَّه وأَسْمَعه مِن الكلام مالايُحْتَمل ، فَغَضِبَ مِن ذلك، وطَرَدَ النُّقَباءَ عن بابِهِ وعَزَل نَفْسَه عن الحكم ، وانْقَطَع في بيته [3] ، وكان قد تكرّر في هذا الشهر إغلاق الأجْلابِ أبوابَ القلْعَةِ وتَعْويق الأمـراءِ في كـل صبيحـة

---

(١) هو : محمد البباوي ـ نسبة لببا الكبرى من الوجه القبلي ـ شمس الدين ، كان ـ يخدم بعض الطّبّاخين ، ثم عمل صبياً لبعض معاملي اللحم ،. ثم مُعاملاً وتموّل حتى صار رئيس جماعته ، ثم أصبح ناظر الدولة ، وتسمّي بالقاضي ، ثم ترقّى وتولّى منصب الوزارة ، فأساء السيرة وانحط منصب الوزارة في ولايته له ، مات غريقاً مغرب يوم الأربعاء ٢٨ ذي الحجة سنة ٨٦٩ هـ .

له ترجمة في : « حوادث الدهور » (٥٨٠ ، ٦٩٢ ، ٧٧١ ، ٧٨٠) ، و«النجوم الزاهرة » (١٦ / ٣٤٠ ـ ٣٤٢) ، و«الضوء اللامع » (١٠/ ١١٨ رقم ٤٥٩) ، و«بدائع الزهور » (طبعة بولاق) (٢ / ٧٧ـ٧٨) .

(٢) خبر تولية سعد الدين فرج الوزَر في « النجوم الزاهرة » (١٦/ ١٣٧) ، و« بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٧١) .

(٣) كان ذلك في يوم السبت ٢٣ ربيع الآخر .

« النجوم الزاهرة » (١٦ / ١٣٨) .

خِدْمَةٍ عن النزولِ إلى بيوتهم ؛ لإمور يريدونهم على تكْلِيم السُّلْطان فيها ، فأمر السّلْطانُ في يوم الأَحدِ رابع عَشْري الشّهْر أنْ لا يطلعوا إلى الخِدْمة كَراهة أنْ يصَنْعَوا بهم أيْضاً ذلك ثم إنَّه أَنْزل ابن غَرِيب الذي أفسد العربانُ لأجْلِهِ إلى اسكندريّة . وقيل إلى الكَرك ، وقيل بل غرّقَه ، وأشاع ذلك ليُخْفِي أمْرَه ، والله أعلم . ثم تحقّق أنّه شيَّعه إلى إسكندريَّة ، ثم أقْدَمه بَعْد ذلك في ذي الحجّة مِن هذه السَّنةِ وعمله بَوّاً [1] كما سيأتي .

وفي هذا الشهر ، وهو شهر ربيع الآخر مِن سنة أربع [2] هذه كثر الموت في القُدُس ، وما صَاقَبها ؛ بالطّاعونِ ، وكان في أحوال الموتى عجائب ، أخبرني العلاّمة كمال الدين محمد بن ناصر الدين محمد بن أبي شريف : أنه مات مِن بيته وبيت أَخيه برهان الدين وأبيهما عشرةُ أوْلاد ، وأنه كان للشيخ كمال الدين ولدان ، أحدهما له أربع سنين ودخل في الخامسة ، والآخر له ثمان سنين ، فاتّفق أن ماتت امرأة أخي الشيخ برهان الدّين قُبيل الطّاعون ، فَفَشا ، فقال ابن الأربع : يا أبي ، أين امرأة عمي ؟ فقلت له : أَلَمَ تقل لك جدَّتُك : أَنها ذهبت إلى الجنَّةِ . فقال : وأنا أيْضاً أروحُ إلى الجنَّة وفلانٌ وفلانٌ ، وفلانةٌ وفلانةٌ ، وعدَّ ثمانية أنْفُسٍ من أولادنا، فكرهت ذلك، وزجرْتُه زَجْراً عنيفا؛ فسَكت قبل أن ينتهي كلامُه، فاتَّفق أن جميع من سمّاه مات ، ومات اثنان غيرهم ، فظننت أنه لولا زجري له كان سمّاهما ، وأمّا ابن ثمان فلما حُضِرِ جلس في أَوَاخِرِ نَزْعِه على هيئة المُتَشهِد، ثم نَظَر إلى الباب وهو في القِبْلَةِ ثم انْجَمع خائفاً ثم ثَبّتَ نَفْسَه وأعادَ النَّظَر ، وقال : يا ملائكة ربِّى، اشهـدوا أنِّي أشْهدُ أن لا إلـه

---

(١) بوّاً : جاء في « لسان العرب » (١٨ / ١٠٨) ، البوُ الحُوَار ، وقيل جلده يُحْشَي تبناً ، أو ثُماماً ، أو حشيشاً .

(٢) وستين وثمانمائة .

إلا الله ، وأنَّ محمداً رسول الله ، ثم اضطجع على جنبه ومات .

وفي الأحد مستهل شهر جمادي الأولى مِن السَّنَة قَدِم الأميرُ بُرْدُبَك الدُّوَيْدار ، والأميرُ بَرْسْباس البَجَاسي حاجب الحجّاب صِهْر السلطان ، ومن معهما من الأمراء والأجناد من سفر الصعيد ، فناموا في القرافَةِ ، وقَدِموا معهم بأربعة عشر رجلاً رؤوس عرب قتيل [1] وهم العرب المفسدون ، فقُتلوا وسُلِخوا ، وخافَ أمْرَهم جميعُ العَرب ، ودوَّخوا جميعَ تلك البلاد ، وأَذَلُّوا بني كَلبْ [2] ، وكانوا مِن أهل الفَسَادِ ، وكانوا مع ذلك مُحْتَمِين بابنِ السلطانِ ، وكان الذي صنع ذلك كله بُرْدُبَك ، وأما الأمير بَرْسْباى فكان في برّ الشّرْق ، ليمنع مَن أراد منهم الهروبَ إلى ناحيته، فلم يأته منهم أحد .

وفي هذا الشهر كثر الموتُ بالطّاعون في القاهِرة [3] ، وكان مِن أوائل من ابتدأ به الأمير يُونُس العلائي أمير آخور ، فصار يموت من مماليكهِ وعيالِهِ حتى لم يبق عِنْدَه كبير أَحَد ، ثم مات هو [4] يوم الاثنين ثالثِ عشري الشَّهْر .

وفي هذا اليوم ماتت بنت بدر الدين خصبك (٥) قرابة خَوَند زينب امرأة السلطان .

---

(١) قتيل : قبيلة من جماعة جعفر بن عمر ومنازلهم من سوسة إلى بئر السّدْرة ، حدود الدّيار المصرية ، على مسافة شهر بسير القوافل من الإسكندرية .

« مسالك الأبصار ـ قبائل العرب » (١٨١) .

(٢) كَلْب : بطن من كان بنواحي منفلوط بالديار المصرية .

« نهاية الأرب » (٣٦٥) ، و«معجم قبائل العرب » (٣ / ٩٩٠) .

(٣) جاء في « النجوم الزاهرة » (١٦ / ١٣٩) أن الطاعون وقع بالأرياف قبل القاهرة بمدة ، فلما أخذ في الانحطاط من الأرياف تفشى في القاهرة ومصر وضواحيها .

(٤) راجع « هامش ١ » من (ص ٣٢٦) من القسم الأول .

(٥) راجع « هامش ١ » من (ص ٢٤٢) من القسم الثاني .

وتأخَّر امتدادُ حصولِ البَرْدِ في هذا العام إلى أن نَزَلَت الشمس [١] الحمل ، وبعد أن نزلت بأيام ، فكان كما كان في قَلْبِ الشتاءِ أو أَقْوى ، وكان بعض من ينتسب [٢٣١] إلى معرفة الطبّ يذكر أن تأخر البَرْد على هذا الوجْه مِن أسباب زيَادَةِ المَوْتِ والله تعالى أعلم .

وَعُيِّنَت [٢] إمْرَة آخور لحاجب الحجّاب بَرْسْباي البَجَاسي ، وعينت حجوبية الحجّاب لقَانَم التّاجر أحد أعيان المؤيديه فأباها واعتلَّ بأنه لا تركْب الآن في خدمته إلاّ مملوكان ؛ لِما كان وقع بين مماليكه وبين مماليك السلطان ، ولم يسأله السلطانُ يَوْماً عن سبب ذلك ، ولالام مماليكه في أمْرِه ، وفي هذا وَهَنٌ له، ولا تَصْلُح وظيفةُ حكم مع وَهْنِ الكلمة ؛ فنقلت إلى أحد أخوته سُودُون قُرْقُشْ وعُيِّن إقطاع أمير آخور يونس لشَرِباش كُرْد، وعُيِّن إقطاع شَرِبَاش وإمْرَته لجانِبَك ناظر جُدّة ، أحد مماليك الظاهِر جَقْمَق [٣] .

وفي يوم الخميس سادِس عَشْري الشهر لَبِس بَرْسْباي وسوُدُون خِلْعَتَيْنِ على عادَتِهما .

وفي أوائـل عـام أربعـة وستـين [٤] هـذا أظنّـه في هـذا الحـد [٥] مات شمس الدين محمد بـن ابراهيم بن أحمد بـن داود بـن عمر بـن على

---

(١) برج الحمل .

(٢) كانت هذه التعيينات في يوم الخميس ٢٦ جمادي الأولى .
« النجوم الزاهرة » (١٦ / ١٤١) .

(٣) راجع الخبر في : « النجوم الزاهرة » (١٦ / ١٤١) ، و«بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٧١-٧٢) .

(٤) وثمانمائه .

(٥) في « الضوء اللامع » (٦/ ٢٤٤) في صفر من سنة ٨٦٤ هـ .

الأنْصارِي الحلبي الشافِعي [1] أحد أعيان الموَقّعين في ديْوان الإنشاء، وأقدمهم بالقاهِرة لعلَّه عَن نَيّفٍ وثمانين سنة ، وكان طويلاً ، ذا لِحْيَةٍ هائلة طولاً وعَرْضاً ، ولدية فضيلةٌ ، وله خَطٌّ حَسَنٌ وعبارَةٌ جَيِّدَةٌ ، وله سماعٌ على السِّراج البُلْقيني في سنة ثمانمائة أوّل هذا القَرْن مِن الرَّوْضَةِ وغَيرْها ، وأجاز له ، وكذا أجاز له السِّراج (٢) عمر بن علي الأنصاري بن المُلَقِّن وادّعى أنه سمع على المحدِّث شمس الدين (٣) محمد بن موسى بـن سند اللخمي الشافِعـي جملةً مـن كتب الحـديث وكتب أسانيده بهـا ولكنه لم يصدق في ذلك لريبة ظهرت ، وكان ينسب إلى تساهلٍ رحمه الله .

وفي أَوَاخِر جمادَي الأوْلى وجميع جمـادي الآخـرة تفاقَم أمـرُ الطَّاعون في القاهِرة ، بحيث بَلَغَ كلٌّ مـن مصلى بـاب النصر ، والبياطـرة ، وسبيل

---

(١) كان مولده في حلب سنة ٣ أو ٤ أو ٥ أو ٧٧٨ هـ .

له ترجمة في : « عنوان الزمان » (مخطوط) (٣٨٥ ـ ٣٨٦) ، و«الضوء اللامع » (٦ / ٢٤٣ رقم ٨٥١) .

(٢) هو : عمر بن علي بن أحمد بن محمد بن عبد الله ، السراج أبو حفص بن أبي الحسن الأنصارى ، الوادياشي ، الأندلسي ، التكرورى الأصل ، المصري الشافِعي المعروف بابن المُلَقِّن ، ولد في ربيع الأول من سنة ٧٢٣ هـ بالقاهرة ، وسمع على ابن سيّد الناس ، ولازم الزين الرَّحَبيّ ، ومُغْلَطاي ، واشتغل بالتصنيف وهو شاب حتى بلغت تصانيفه ثلاثمائة مصنف ، احترق غالبها قبل موته ، ومن تصانيفه : « شرح البخاري » ، و«شرح العمدة » مات ليلة الجمعة ١٦ ربيع الأول سنة ٨٠٤ هـ .

له ترجمة في : « الدليل الشافي » (١ / ٥٠٢ رقم ١٧٤٧) ، و« الضوء اللامع » (٦ / ١٠٦ رقم ٣٣٣) ، و«حسن المحاضرة » (١ / ٤٣٨ رقم ١٨٤) ، و«شذرات الذهب » (٧ / ٤٤ ـ ٤٥) .

(٣) هو : محمد بن موسي بن محمد بن سند بن تميم اللخمى، المصري الأصل ، الدمشقي الشافعي ، المعروف بابن سند ، ولد في ربيع الآخر سنة ٧٢٩ هـ ، وطلب الحديث في حدود الخمسين ، وسمع عن جماعة بدمشق ، ومصر ، والقدس ، ألف وخرَّج ، وكان من أحسن الناس قراءة للحديث مات في عاشر صفر سنة ٧٩٢ بدمشق .

له ترجمة في : « حسن المحاضرة » (١ / ٣٦٠ رقم ٩٣) ، و«شذرات الذهب » (٦ / ٣٢٦ ـ ٣٢٧) .

المؤمني ، وجامع الأزهر أربعمائة إنسان في كل يوم ، وقيل زاد على الستمائة ، فكان تقدير عـدد الموتى تقريباً في جميع البلاد في كل يوم نحـوخمسة آلاف إنسان ، والعجب أن تعريف [1] الوزير لم يبلغ قط ثلاثمائة في اليوم ، وكان منه مماليك السلطان والأمراء ، فبلغوا في بعضِ الأيام مائة ، ومات مِن مماليك السلطان إلى ثاني عشري هذا الشهر نحو تسعمائة كان مِن متمرديهم عدة نحو : قَرْقَماش النصراني ، ومُغُلْبَاي الأقطش وغيرهما ومات محمود بن المحبي محمد بن الشحنة في يوم الجمعة ثامِن عشره . ومات ابنه يحيى يوم السَّبْت تاسع عشره [2] .

وفيه مات الشَّيْخ بدر الدين [3] محمد بن العلامة مجد الدين إسماعيل البرماوي مطعوناً عن نحو ستين سنةٍ ، وكانت عنده فضيلة وكان يظهر زهداً ووسوسة في أمر الطهارة تتجاوز الحدَّ ، فقدمه ذلك عِند ناظر الخاص الجمال يوسف بن كاتب شكم في حدود سنة ثلاث وخمسين [4] وكان يُعْطِيه كثيراً مِن الصَّدَقات ليفرّقها .

وفيه في أَوَاخِره [5] ، ماتت فتاتي شهيدة ، امْرَأة فتاىَ عمرو عن غاليةِ ابنتها مِن عمرو .

---

(١) تعريف جاء في « النجوم الزاهرة » (١٦ / ١٣٩) التعريف عدة من يرد اسمه في الديوان من الأموات .

(٢) راجع عدد ضحايا الطاعون في هذه الفترة فى « حوادث الدهور » (٣٣٦ ـ ٣٣٧) ، و«النجوم الزاهرة» (١٦ / ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ـ ١٤٦) .

(٣) هو : محمد بن إسماعيل بن أبي الحسن علي بن عبد الله ، البدر بن المجد البرماوي الأصل القاهري الشافعي ، ولد تقريباً سنة ٧٩٦هـ بالقاهرة ونشأ بها .

له ترجمة في « الضوء اللامع » (٧ / ١٣٨ رقم ٣٣٥) .

(٤) وثمانمائة .

(٥) جمادى الأولى .

وفي أواخِره [١] أيضاً مات شرف الدين موسى بن المحب محمد بن زين الدين الحلبي موقّع كاتِب السّرّ ، ومات ولده يحيى يوم الأحد العشرين منه وأخرجهما معاً .

وفي آخر يوم الأحد هذا مات ابني أبو اليسر محمد بن فتاتي حُلْوه الحبشية شهيداً مطعْوناً تحت إبطِه الأيسر عن سنتين وتسعة أشهر لا تزيد يَوْماً ولا تنقصه ، نَعمْ تزيدُ ساعة ، فإنه وُلِد في أواخر يوم العشرين من شهر رمضان سنة إحدى وستين [٢] وكان في غايَة ما يكون مِن طُمأنينة النَّفْس والسَّكينة والوقار والذكاء ، كان لا يراني أفعلُ شيئاً إلاَّ سألني عن عِلَّته ، وكان يشب شباباً لا تَشِبَّه الغلمان ؛ زحف على بطنه في الشهر الثامِن ، واشتد فَهْمُه في التاسِع ومشى في أوّل الخامِس عشر ، وَدَرَج دَرْجاً حَسَناً في السادِس عشر ، وفُطِم يوم الخميس بعد العصر مِن يوم الخميس ثامِن عشر شهر رمضان سنة ثلاث وستين [٣] . وكان في طولِه عِند موتِهِ وعَبَالَةِ بِدَنه يُظن أنّه ابن خمس سِنين ، وكان يركبُ الفَرَسَ ، ويطلب المقْرَعة ، فيأخذها في يَده كهيئة الفارس العظيم ، وكان لا يُطلب منه شيء إلاّ أعطاه ، فكان يُتَوَسَّمُ فيه العلم والدِّيْن والكَرمَ والرّياضة والشجاعة ، وكان أُنْسي حيث لا أَنِيس ، وجَلَيسي وقد قلَّ الجليس فقلت:

محمدُ يا قـَلْبِي وسمْعِي وناظِـرِي ... لقد هَدَّني قول النواعى لقد أوْدى
فـوالله لا أنْفَكُّ أَشـْدُو بذكْرِ كـمْ ... وإنْ قـال قـَوْمٌ إنـّه جـاوزَ الحـدَّا
لقد كنت لِي أُنْسَاً وكانت مجَالْسي ... بقُرْبـك لا تَحْتـَاجُ هـَزْلاً ولا جدّا

---

(١) جمادي الأولى .

(٢) وثمانمائة .

(٣) وثمانمائة .

رَعَى الله أوقاتاً مَضَت فَمضتَ بِهَا وحقِّكَ رُوْحِي لا رأيتُ لكَمُ فَقْداً

ثم قلت :

لم يبـق مـنِّى بعـد فقـد محمـد إلاّ الدمـوعُ نـواطقاً بغَرَامـي
لم يبـق مِني غَيرُ معنى كـاشفٍ عن فَرْطِ أَشْجَاني وعظْم سقَامِي
لم يـبق مـني غيـر طـَرْفٍ نَاثِرٍ درَّ الدمـوع وخـاطـرٍ نظـّامِ
فـالقلبُ يَنْظُمُ كـلَّ مَعْنىً رائقٍ والـعَيْنُ تنـثـر كـل دَمـعٍ دَامِ

واتفق أنْ ماتت غالِية بنت فَتَاي عمرو في أواخِر ليلة الاثنين حادي عشريه فدفنتها في قبر واحِد أمام ابني أبي حاتم محمد الذي مات سنة ثلاث وخمسين .

وفي يوم الثلاثاء ، ثانِي عَشْري جمادي الآخِرة هذا ، مات [زين] [1] الدين عبد الرّحيم ابن الشيخ بدر الدِّين محمود العَينْي الحنفي ، وكان ناظر الأحباس ، فأخذه عنه الشيخ سراج الدين عمر بن [حسين بن حسن] [2] العبادِي الشافعي [3] ، بعد أَن استمر شاغِراً مدَّة ؛ بسبب أنّ خُشْقَدَم أمير سلاح كان صِهْرَه ، فكان يريدُ أنْ يكون من يَتَولَّى نَظَر الأحباس نائِباً عن ابن العَيْني المتوفّى ، فكـان لا يجسرُ أَحَـدٌ ممن لـه تعلُّق

---

(١) ما بين الحاصرتين بياضٌ في الأصل ، والتصحيح من مصادر الهامش التالي .

(٢) ما بين الحاصرتين بياضٌ في الأصل ، والتصحيح من مصادر الهامش التالي .

(٣) هو : عمر بن حسين بن حسن بن أحمد بن علي بن عبد الواحد بن خليل بن الحسن السراج أبو حفص بن البدر العبادي الشافعي ، ولد سنة ٨٠٤ هـ تقريباً بمنية عباد من الغربية ، ثم تحول منها وهو مميز إلى طنتدا ، وقدم القاهرة مرتين وقطنها سنة ٨١٧ هـ ، وأخذ عن أبرز علمائها ، وتصدّى للتدريس ، وولي إمامة الجمالية ، ومشيخة التصوف بالباسطية ، وتدريس الفقه بالبرقوقية ، ومشيخة سعيد السعيدا ، مات في ربيع الأول سنة ٨٨٥ هـ .

له ترجمة في « الضوء اللامع » (٦ / ٨١ رقم ٢٧٨) .

بالدَّوْلَة على مخالَفَةِ هذا الغرض ، ولا يرون لأنْفسهم في ذلك غِبْطَةً ، فوثب عليه السّراج المذكور ، ولم يلتفت إلى غَيْظِ أمير سِلاح ولا رِضاه ، فأصاب .

وفي ليلة الأربعاء ثالِث عَشْري جمادي الآخرة هذا ماتت فتاتِي ثريّا الهنديّةَ الدابُليّة ، أم ابنتي ، أم هاني فاطمة ، قريب العِشاء وَدَفنتّها في يوم الأربعاء المذكور غَرْبي قبر ابني أبي اليسر محمد إلى جانِب رأسه ، ولَقَدْ كانت مع كونها هندية رَيِّضة ديِّنة هَيّنة ليِّنة يرحمها الله .

[٢٣٢] وفي هذا اليوم ، وهو ثالِث عَشْرِي جمادي الآخرة تجاوَز الموْتى مِن مماليك السُّلْطان الألف .

وفي أواخِره [١] مات شرفُ الدِّين بن أَصيل [٢] ، وأَوْصَى أن يكون عمق قَبْره اثني عَشَر ذِراعاً لئلا يُدفن عليه أحد ودُفن يوم الأربعاء ثالِث عَشْره على نحو ما أَوْصَى، وكان رجلاً صِيْداً ، ومات عن نحو ستين سَنَة .

ومِن العشرين مِن هذا الشهر تناقصَ الطَّاعونُ في الحسَيْنِيَّة وما ولاها، واشْتَدَّ في نواحي القَلْعَةِ من جنوبي البلد ، فَصُلِّيَ يوم الجمعة خامِس عشري الشهر في جامِع الحاكم على خمسة عشر وفي جامع الأَزْهر على نحو عشرة ، وكان في كلّ منهما في الجمعة التي كانت ثامِن عشرة نحو ثلاثين ، وصُلّي يـوم السَّبْت سـادس عشريه في بـاب النّصر عـلى مـائتين

---

(١) يوم الثلاثاء ٢١ .

« الضوء اللامع » (٩/ ١٣٦) .

(٢) هو : محمد بن محمد بن عثمان بن أيوب بن عثمان ، الشرف العمري الأشليمي القاهري ، المعروف بالأصيلي ، ولد بأشميم ، ثم قدم القاهرة ، واشتغل عند البيجوري ، والشرف السبكي وغيرهما، وتنزل في الجهات ، وباشر الكاملية والقبطية ، واتّجَرَ ، فنمت أمواله ، مات يوم الثلاثاء جمادي الآخرة سنة ٨٦٤ هـ . له ترجمة فى «الضوء اللامع» (٩/ ١٣٦ رقم ٣٤٦) .

واثني عشر ، بعد أن زاحم في وسط الشهر الستمائة ، ولكنه صار بعد النقصان في المعروفين مِن النّاس أغلب وفَشَى في الكبار في السِّنّ.

وفي يوم السَّبْتِ هذا ، مات الفقيه بشير (١) كرد بن عبد الله الهِنْدي الشافِعي عن نحو ثمانين سَنَة ، وكان تاجراً سَفَّاراً صالِحاً خَيِّراً على طريق السَّلفِ الصالح ، وكان مقرئاً فَرَضياً فقيهاً نَحْوياً مُفَنَّناً كثير العِبَادَةِ ، رحمه الله ونفعنا به .

وفيه رُفِع إلى السلْطان ثلاثة مِن البزادِرَة ، وهم أهْلُ طيور الصَّيْد السلطانية يتعاطون الفسادَ على نسائِهم ، وبالنَّهْب والخَطْف ، وقيل له : أنَّهم يَتَجوَّهون (٢) على الناس بك وبولدك ، فأمر بتَسْمِيرِهِم ثم تَوْسيطهم فَفُعل ونودِيَ عليهم في الأسْوَاق ، فكثر الدّعاءُ للسلطانِ ، وذلّ بهم البَزَادِرَةُ ، وهم أنْجَسُ الناس وأَجْرَ أهم زادَهم الله خِزْياً .

بنت شرباش

وفي هذا اليوم ماتت خَوَنْد [زينب] (٣) بنت شَرباش خاشُوق زوجة الشرف الأنصاري التى أخذ نسبتها ، وكانت زوجَة الظاهِر جقمق ، مطعونة ، وحمل على جنازتها حَجَلَةٌ (٤) مزركشة وهي المدعوة بشخاناه ورايات عظيمة من بيتها عند جامـع بَشْتَك إلى مـدرسة الظاهر برقوق بين القصرين فدفنت بهـا ، وحضرهـا جميعُ الأعيـان مِن جميع الطَّوائف ،

---

(١) هو : بشير الحبشي ثم القاهري ، مولى الخواجا يعقوب كرت ، اشتغل على عدد من علماء عصره في فنون مختلفة : القراءات ، والفقه ، والفرائض ، والحساب ، كما عمل بالتجارة فأثرى .
له ترجمة في « الضوء اللامع » (٣/ ١٦ رقم ٧٠) .

(٢) يَتَجوَّهون : الجاه المَنْزلة والقَدْر ، وتَجوَّه فلانٌ ، تكَلَّف الجاه «المعجم الوسيط » (١ / ١٤٩) .

(٣) ما بين الحاصرتين بياض في الأصل ، والتصحيح من مصادر الهامش التالي .

(٤) حجلة : ساتر كالقبة يزين بالثياب والستور للعروس ، وستر يُضرب للعروس في جوف البيت.
« المعجم الوسيط » (١ / ١٥٨) .

وكان بينها وبين الأنْصاري عِشْقٌ عظِيمٌ ، فيقال : إنه أُغْمِيَ عليه لما بلغه احتضارها وتشاءم به من يلوذ بها مِن النساء ، مِن أمّها وغيرها ، فلما حَضَر إلى البَـرْقُوقِيَّة لم يَـجْسُر على الجلوس في القبة ولاالأيوان الكبير ، ولافي مكان تُمكِن رؤيتهن له ، وهن على مجلسٍ في الأيوان الشرقي على هيئة المرضى ، ولم يجلس عنده أحدٌ مِن الأعيان ، ولا حَمَده على جلوسه هناك إنسان .

وكانت هذه المرأة في غاية الحظوة عند الظاهِر دون بقية نسائه ، واشتهر عنها الفساد مع شاهين الخصي المشهور بغزالي ، ويقال : إنّ ذكره لم يقطع منه سوى نصفه وزادت محنتها بها إلى أن دعت الأدباء فنظموا لها فيه الأشعار ، وشاع بعض ما نُظم في القاهرة وغَنَّى به أكثر الناس في كل موطن ، حَتّي العبيدُ والجواري إلى [أن] [1] خاف شاهينُ سماعَ السلطانِ لذلك ، وكان جانِبَك الوالي صديقه ، فأمر فنودي في أرجاء البلدان ، من غنى شاهين غزال حَلَّ به ، وحَلَّ ، حتي كفّ النّاسُ عن ذلك ، ثم فسدت مع غَيره إلى أن استمالها الأنصاري ، بعد مَوت الظاهر، فأحب كلٌّ صاحِبَه فتزوَّج بها سِرّاً ، وكان يَتَخَفَّى ليلاً وينزل مع بعض ملاحي بِرْكَة الفيل في بعض القوارب التي هناك ، بمثل ثياب الملاحين ويطلع إلى عندها مِن القيطون [2] ، وكان قَد فعل مع خَوَند بنت طَطَرْ ، زوجَة الأشرف بَرْسِباي مثـل ذلك إلى أنْ وُلِّي نَظَر الجيش في الـدَّوْلَة ، فاستأذن

---

(١) ما بين الحاصرتين إضافة اقتضاها السياق .

(٢) القيطون : من الأعمال الشرقية ، عبرتها ألفي دينار ، ومساحتها ٦٢١ ، أو ٦٢٩ فداناً ، والقيطون أيضاً من أعمال الغربية ، عبرتها ٨٠٠ دينار ، ومساحتها ٨٥٠ أو ٥٥٠ فداناً .
« الانتصار » (٢ / ٥٧ ، ٥٨) ، و« التحفة السنية » (٢١ ، ٦٨) .

السلطانَ في زَوَاجِها ، وبذل له ما أرضاه به ولأركان الدولة ، فأذن له ، فأظهر زواجها ونقلها إلي بيته واستَخَفَّ أمرُ هذه الدولة ، وقيل عنه أنه قال : كلُّ ثانٍ لابد له من ثالث يُعَرِّضُ بزوجة الأشرف إينال، فأخذ بسبب ذلك أخذاً عنيفاً كما تقدم .

وفي هذا الحد ، وجدت نقصاً في قوتي وَبَرْدَاً في بعض الأوقات وطلب جسدي معه الاضطجاع ، وقد كنت قبل ذلك لا أضطجع إلا نادِراً ، بل كنت إذا نمت في النهار أنام جالساً ، واستمر ذلك يتزايد إلى أن انْقَطَعْتُ مِنه في ثامن عشري الشهر ولزمت الفراش ، ثم مات ابني أبو اللطف في اليوم الثاني كما يأتي ، فتجشمت المشي للصلاة عليه ، ثم ركبت إلي قبره ، فقمت على دفنه فتمكن فيَّ المرض ، وتزايد ، فغلط فيَّ الأطباء فعالجوني بالأشياء الباردة ، لظنهم أن المرض حاد ، لأنه كانت بي حكّةٌ شديدةٌ قبل ذلك من أوائل ربيع الأوّل ، وإذا المرضُ بارِد والحمّى بَلْغَمِيةٌ ، فزاد فِعْلَها وقوي تمكنها ، فصار لساني في غشاء من بَلْغَم ، وانقطع الريْقُ مِن فمي أصْلاً ورأساً ، وكنت أحسّ على فم معدتي بلغماً مغروساً بمقدار الرَّغيف وامتنعت مِنِّي شهوة الأكل ، وأمّا الماءُ فكنت لا أقدر على سماع حسّه ، فَضْلاً غن إيصاله إلى فمي ، ثم فطن الأطباء لذلك بَعْدَ نحو خمسة أيَّام ، فعكسوا العِلاجَ فإذا الداء قَدِ استحكم ، وكانت أحوالي كل يوم في لونٍ ، لكن استمَّر راسي صحيحاً ، وذِهْني حاضِراً إلاّ أني لا أقدر على قراءةٍ ولا كتابةٍ ، بل وإذا نظرت إلى الكتب وهي موضوعة في رفوفها يوجعني باطِني إلى أن أجد طعْمَ الموت في ذلك ، بعد أن كنت لا راحَةَ لِي إلاّ في المطالعَةِ ليلاً ونهاراً .

لما علمت غَلَطهم ، واعترف به اليهودِيُّ ، وأمَّا المسلمُ فكابرَ ، قطعت مطامِعي منهم ، وقطعت علائقي ممن قدرت عليه مِن الخلائِقِ ، وجعلت

قَصْدِي كلّه إل الله ، فكان مَن عادَني ، أطلب منه ماءَ زمزم ، فإنْ كان عِنْدَه ، وإلاّ سألته أنْ ينظر إلى عِند أحَدٍ مِن أصْحابه ، فأُحضر إليَّ شيء كثيرٌ مِن ذلك ، وكنت أتداوى بشُرْبه كما في الحديث الصحيح والحَسَن[1]، فأتى الله بالفَرَج ، فتقيَّأتُ شيئاً أصْفراً مُرّاً ، في ثلاث دَفعات، في ثلاثة أيّام متواليات ، قدَّرْتُ أنّه يكون بمقدار زيادَة على صفارِ مائة بَيْضة ، فقال اليهوديُّ : أتى الفَرَجُ بشيء ما كنّا والله نَقْدِر على إخراجها بأدْوِية ولا حقن ، ولكن هذا أمْرٌ ربّاني واعترف المسلمُ بنحو ذلك ، وصار البلغمُ ينزل مِنّي قِطَعاً مِن القُبُل مع البُوز [2]، ومن الدبر .

واستمريت منقطعاً إلى العشرين مِن شهر رمضان مِن السَّنة ، واستمريت [3] ناقِهاً لا أقدر على كبير حركة ، وكنت لا أشتهي الطَّعَامَ شهـوةً صادِقةً ، ولا يَنهَضِمُ إذا أكـلتُ إلاّ بنَقُـوعٍ [4]وصَفَـه لي الطبيبُ ، وَحَتى زدت في الأكل شيئاً عن عادَتي ثَقُل عليَّ ، ووجدت حموضَتَهُ وأمْرَضَني أيّاما، فَقُدِّر أَنْ وقع في نَفْسِي أنّ الفضاءَ يُنْعِشني فانتقلت بعيالي

---

(١) يشير بذلك إلى قوله ﷺ ، فيما رواه عنه جابر بن عبد الله رضي الله عنه : « ماء زَمْزَم لما شُرِب له» .

« سنن ابن ماجة » (كتاب المناسك ـ باب الشرب من زمزم ، ج ٢ ص ١٠١٨ ، الحديث الثاني من الباب ٣٠٦٢) .

وكذلك إلى قوله ﷺ فيما رواه عنه ابن عباس رضي الله عنه : « ماء زَمْزم لما شُرِب له ، فإن شربته تستشفي به شَفَاك الله ، وإن شربته مستعيذاً عاذك الله ، وإن شربته ليقطع ضمأك قطعه » .

وهو حديث صحيح الإسناد إن سلم من الجارودي ، ولم يخرجاه « المستدرك للحاكم » (كتاب المناسك ، ١ / ٤٧٣) .

(٢) البوز : الفم وما حوله .

المعجم الوسيط » (١ / ٧٦) .

(٣) ناقِها : « نَقِه من مرضه نَقْهاً ونقوهاً ، برىء ، ولا يزال به ضعف » .

« المعجم الوسيط » (٢ / ٩٤٩) .

(٤) نَقُوع : النَّقُوع ، ما يُنْقَعُ في الماء من الليل لدواء ، أو نبيذ ، ويُشْرب نهاراً ، وبالعكس .

« لسان العرب » (١٠/ ٢٣٩) .

في سابعِ عشر ذي القعدة من السّنة إلى مَنْظَرةٍ للأمير بُرْدُبَك الدُّوَيْدار في فم الخَوْرِ [١]، انتقَلَتَ إليه مِن الزّين يحيى الإسْتَدَّار أيام مصادَرَته في أوّل دَوْلَتِهم ، وهي أحدُ منتزهات الدّنيا في حُسْنِ الرّخام والصَّنْعة ، وكثرةِ المعازِل ، وجَوْدَةِ ترتيبها مع أنّه تحيط بها مِن شماليِّها وشَـرْقِيها بستانٌ كبير مُحْتَبِك[٢] الأشجار ، ويليه بساتين ، فالجالِس في المَنْظْرة يَرَى رؤوسَ الأشجار كأنها بساطٌ من زمرَّد أخْضَر مَدَّ بَصَرِهِ ، وفي الأشجار ما هو أطْول من ذلك ، وفي شماليها قِطعةُ ياسمين بجواز أربعين ذِراعاً طولاً في عَرْضٍ فإذا هبَّت الريح نقلت تلك الرَّائِحةَ اللطيفةَ للجالِسِ في تلك الشَّبَابيك الظّرِيفة ، ومِن غربيِّها خليجُ الزربية ووراءه الجزيرة الوسطى ووراءها البحر الأعْظم ، ووراء ذلك الفضاءُ المتّصل بالأهْرامات ، وفي شماليّها مقعدٌ قَمَريٌّ بارزٌ عَنْها أكثَر مِن عشرة أذرع ، يُرَى منه بحر بولاق، وترى منه الزَّرِبْية إلى ما هناك مِن البساتين والمروج ، والهواء مسلّطٌ عليها مِن كلّ جهة ، فلَمّا وردتها صَحِبْتُ مَعِي سَلاحي وأنا أظنّ أنِّي أقدر على جَذْب القـوس كعادَتي ، فلما وصلت إليها جَذَبته فلـم أقـدِر على مُجَاوَزَة نصف ذراعي الأيسر فَفَجأني أَمْرٌ مـا مَرَّ بي أَمْرٌ أشدّ عليّ مِنه في عَضُدي، وهَّد جانِبي فأَقَمْتُ بها آكل أكثر مِن عادَتِي في المدينة ، وَينْهَضِمُ مِن غير نَقُوعٍ ولو زدت على العادَةِ . ثم صِرْت كلّ يَوْمٍ في قُوَّة على القَوْسِ إلى أن وَصَلْتُ إلى خَدِّي الأَيْمن في آخر ذي القعدة المذكور ، ثـم استوفيته جَرّاً مِـن غير سَهْم في عيد الأضْحَى ، ثم استوفيته

---

(١) الخَوْرُ : مصبُّ الماء في البحر ، والمنخفض من الأرض بين مرتفعين .
« المعجم الوسيط » (١/ ٢٦١) .

(٢) محتبك الأشجار : محكم التنسيق والتخطيط .
راجع معنى (حَبَكَ) في « المعجم الوسيط » (١ / ١٥٢) .

جرًّا على السَّهْم في أوائل محرَّم سنة خمسٍ وستين [1] ، ثم تكامَلَتْ قُوَّتي عليه في عاشوراء فلله الحمد . ثم رجعت إلى بيتي في سابع محرَّم المذكور في مثل اليوم الذّي أتيتها فيه .

ووافق أن كان آخر مواعيدي في جامع الظاهِر في قوله تعالى : ﴿ لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلاَ عَلَى الْمَرْضَىٰ ﴾ [2] إلى آخرها ، ثم مرضت ، فكان ذلك مِن غرائب الاتِّفاق ، والله الموفّق .

وفي يوم الثلاثاء تاسِع عشري الشهر ، مات جانِبَك القَصْرَوي أحدُ أعيان الظّاهريّة عن نحو أربعين سنة [3] ، وكان حسن الوجْه ، وكان يفعل الخيرَ ، ويقوم مع الضَّعيف ، وكانت له هِّمةٌ وعصبيَّةٌ وحُسْن تَأَتٍّ في الأمور ، وكان مِن أعيان أصحاب ناظِر الخاص الجمال يوسف ، وكان شديد النَّفْعِ في أيّام الظاهِر ، وهذه الأيّام ؛ فإنه كان مقبولاً عِند الأجْلاَبِ، ومع هذه الصُّحْبَةِ ، فلم يَزِد إقطاعُه في أيام الظاهِر على عشرين ألْف درهم مِصْريَّة ، بنحو سبعين ديناراً فقرَّبه الأشرفُ إِيْنَال ، وأحْسَن إليه ، فأعْطاه إقطاعاً يَغِلّ [٢٣٣] مائة ألف دِرهم وخمسمائة إردَبّ ، وزوَّجه بنت قريبه بَرْسباي ، الذي كان حاجب الحجَّاب بدمشق، هذا بعد ركوبه عليه أوّل الأمْر ، ومع ذلك فأخْبَرني أخبرُ النّاس بهذه الدَّوْلة أنه لم يكن يَفْتَرُ عن السَّعِي في نقص هذه الدّوْلَة ، وكانَ يَتَرَدَّدُ إليه نحو أربعمائةٍ مِن الأجْلاب فلا يألوا جهداً في تَعْليمهم السوءَ و إفسادِهم على السلطان .

---

(١) وثمانمائة .

(٢) التوبة / ٩١ .

(٣) ترجم له (السخاوى) في « الضوء اللامع » (٣ / ٥٩ رقم ٢٣٨) ترجمة مختصرة وقال : «جانبك قصروه ، مات سنة أربع وستين [وثمانمائة] » .

وفي آخر هذا اليوم مات ابني أبو اللطف أحمد الذي تقدَّم أن أمّه حملت به طويلاً ، ودُفن نْصف يوم الأربعاء ، سلخ شهر جمادي الآخرة هذا ، ودفَنْتُه وراء أَمَتِي ثرّيا التي دفَنْتُها تحت رأس ابني أبي اليسر محمد، وهي أم ابنتي أم هاني فاطمة .

وفي أوّل هذا اليوم وسَّطَ السلطانُ ثلاثةَ أنْفُسٍ مِن المفسدين الذين يَقْطَعون الطّريقَ ، ومنهم شَخْصٌ كان هجم ليلاً على بيتٍ في التُّربِ ، ونهبَه فخرج إليه جماعةٌ منهم مملوكٌ ، فقَتَله وهرَب عنه أصحابُه ، وكان فَلّاح وَلده أحمد ، فسُرّ بذلك النّاس ودَعوا له سبَّبَ الله له أسبابَ الخيْر .

وفي هذا الحدَّ تناقصَ الطّاعونُ جِدّاً إلى أنْ اضْمَحَلَّ في آخر هذا الشهر في جميع البلد واستمر في القلعة بكثرةٍ فكان الأجلاْبُ ينتقلون إلى البلد ، فلا يَغْنيْهم ذلك شيئاً إلى أنْ وَصَلت مجموعُ الموتى منهم إلى قريب الألف وخمسمائة ، وذلك نحو نصفهم ، وكان في المْوتى منهم أكثر مفسديهم ، والمعروفين بالشّرّ منهم .

استهل شهرُ رجب بالخميس ، وفي يوم السَّبْتِ ثالثه مات أبو بكر بن شمس الدين محمد بن الحَلَبي .

وفي يوم الاثنين خامِس [١] شهر رجب مِن سنة أربع [٢] هذه كانت ولاية السَّراج العبادي لنظر ديوان الأحْباسِ عَنِ ابن العَيْنِي كما تَقَدّم [٣] .

وفي أوائل [٤] هذا الشهر مات محبُّ الدِّين محمد [٥] بـن شهاب الدين

---

(١) في « النجوم الزاهرة » (١٦ / ١٢٩) أن خامس شهر رجب هو الثلاثاء .

(٢) وستين وثمانمائة

(٣) الخبر في « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٧٤) .

(٤) في « الضوء اللامع » (٧/ ٣٣) في ثامنه .

(٥) هو : محمد بن أحمد بن عمر بن يوسف بن علي ، المحب بن الشهاب بن الزين ، الحلبي ثم القاهري الشافعي ، ولد في ليلة نصف شعبان سنة ٨١٥ هـ بحلَب ونشأ بها .

أحمد بن زين الدين الحلبي ، موقّع كاتب السّرّ المحب بن الشّحْنَةِ ، عن نيّف وخمسين سنة ، وكانت عِنْده فضيلة في الفقه ، والنّحو وغير ذلك ، وكان يحب العلم ويطلبه رحمه الله ، وخلّف ولده شهاب الدين أحمد رجلاً.

وفي نصف شهر رجب هذا عُزل ناظِر الجيش البرهان بن الدَّيْري [1]، وذلك أن الشّرَف الأنصارِي نُسب إلى إخفاء مكتوب رِزْقَةٍ لبنت طَطَر ، فطُلب منه ، فادَّعَى دَفْعَه إليها ، فكُذِّب وشَدَّد السلطانُ عليه النَّكير وَرَقَّ له ابنُ السلطان الأمير الكبير ، فعقد له مجلسٌ بالقضاة الأرْبع عند ابن السلطان ، فأخْرَج مكتوباً فيه الشهادَةُ لميها أنّ ذلك المكتوب صار إليها ، فسأل القضاة عنه ، فقال قاضِي الحنَفيَّة السَّعْد بن الدَّيْرِي : لعل هذا المكتوب أثبتَ مكتوبٍ وُجِد مِن زمَنِ آدَم إلى هذا التّاريخ . فقال أخوه ناظِرُ الجيش : أنت اطّلَعت على جميع ما وُجِد مِن المكاتيب في جميع ذلك الزَّمان ؟! فاشتاط ابن السّلطان غَيْظاً وسبّه في المجلس ودخل إلى أبيه وأمّه فأعلمها بالمكتوب ، وببراءة الأنْصارِي ، فقبلا ، ثم تكلم في عَزْل ناظِر الجيش فأُجيب .

وكان قد شاعَ له صيتٌ في التّجاهر بِأكل الرّشا والتّهافت في طلبها ، حَتَّى مِن أصاغِر الناس، وفي الشيء اليسير ، قلَّ أنْ سُمع عَنْ أحَدٍ مثله ، بحيث أنّهُ حُكي لي عن إسماعيل بن عبد القادِر ، شيخ جبل نابُلُس أنّه قال : ما رأينا مِن أبي الخَيْر النحّاس ، ولا مِن أتْباعِه مِن الظلم مِثل ما رأينا مِن ابن الدَّيْري هذا ، ولا ما يقاربه ، وأُقْسِم أنَّه إنْ استمر

---

(١) تولى نظر الجيش بعد عزل الشرف الأنصاري في يوم الخميس ١٤ رجب . « النجوم الزاهرة » (١٦ / ١٢٩) .

أَخْربْتُ البلادَ وَعَصَيْتُ على السلطان : وأخذ عنه سيدي أبو بكر بن مُزْهِر بخمسة آلاف دينار [٢٣٤] ، فأخذ ناصِر الدين بن أصيل نظَرَ ديوان الجوالي عن ابن مُزْهر بأربعة آلاف دينار .

وفي هذا الشهر بلغ الخَبَرُ بموت عمر بن قاسم بن الأَقْسَاسِي ، نائب قلعة حَلَب ، فأخَذَ عنه نِيابة القلعة ونظر الجوالي قريبه خليل بن جُبَاره[1].

وفي هذا الشهر ، رُفِع إلى السُّلْطان شخصٌ مِن البَزَادِرَةِ كان يهجمُ على نساء النّاس فَيفْسِقُ فِيهنّ طَوْعاً أو كَرْهاً ، بَحْضَرةِ زَوْجها أَوْلاً ، وكان له على ذلك أَعْوانٌ ، فَهَجم على امْرَأة شخص مِن النّاس ، فضربه زوجُها بسيف ، ثم رَبَطه ، ورفع أمْرَه إلى السلطان ، فسمع به كلُّ من أحْرَقَه بأفعالِه ، فَطَلَعوا بالمصاحِف وِالأَعْلامِ معهم يستغيثون منه ، فوسَّطه السلطانُ مع بعض من كان يُعيْنُه على ذلك .

في شهر شعبان قَدِم شَخْصٌ مِن أَكَابِر تجّار بلادِ ابن عثمان . يُقال له : خواجا إلياس ؛ بسبب التّهيؤ لغزو رُودس ؛ وسبب ذلك أن أهلَ دُروس قطعوا الطّريقَ على مَرْكبٍ مِن جماعة ابن عثمان يريدون الحجَّ فيه ، نحو ثلاثمائة نَفْسٍ ، فقتلوهم قَتْلاً شنيعاً ، وأخذوا ما في مركبهم ، فلّما قرب خواجا إلياس مِن ميناء إسْكندرية ، إذا مراكب من أهل رُودس يقاتلون مركِباً مِن أعدائهم من الفرنج أظُنّهم مِن الجنويين[2] ، فلما رأوا

---

(١) جاء في حاشية الصفحة اليمنى من الأصل . « ابنُ جبارة بالضم والتخفيف » .

(٢) الجنويين : نسبة إلى مدينة جنوة ، وهي مدينة ببلاد الروم على ساحل بحر الشام ، وهي مدينة قديمة البناء .. كثيرة المزارع والقرى والعمارات ، أهلها تجار مياسير ، يسافرون برّاً وبحراً ، ولهم أسطول ومعرفة بالحيل الحربية والآلات السلطانية .

« الروض المعطار » (١٧٣) ، وحسب «أطلس العالم» (٥١ / تقع جنوه حالياً على الساحل الشمالي الغربي لإيطاليا .

مراكب إلياس ألقى الله الرّعبَ في قلوبهم ، فهربوا فَطَلَبَهم فأخذ منهم مركبين هم الذين أسروا جماعتهم ، ثم قَدِم إلى القاهِرة فوافى رأس المفسدين مِن الرَّوادِسَةِ قد جهَّزَته ملكةَ قُبْرس رسولاً عنها ، ليُرَقِّق عليها السلطان ، فيكف عن مساعَدَةِ أخيها ، ويعقد صلحاً بين السلطان ، وبين الكَيَتلان لئلا يبقى عليها لومٌ في تَزَوُّجِها بشخصٍ منهم أرادها ، فوجد خواجا إلياس السلطانَ قد أجابَ الرُّودِسِي ، وخَذَل ابنَ مَلك قُبرس ، وخلع على الرُّودِسي ، على أنّ الرُّودِسي كان قد أسر قاصِدَ السلطان تَغْري بَرْدِي دُوَيْدار أسِنْبُغا الطيَّاري لَمَّا أرسله السلطانُ في هذا العام إلى مِلكة قُبْرس ، ليَعْلَم جوابَها في أمرِ أخيها ، وما أطلقه إلاّ بَعْد عِلْمه أَنَّ ابنَ عثمان أَقْسَم لَيُخَرِّبَنّ رُودس ، فرأى أنْ يُخادِع ملك مِصر لئلا يجتمع عليه هو وابنُ عثمان وَرَشَوا تَغْري بَرْدي بمالٍ كثير ، وسألوه أن لا يُنِمّ عليهم أَسْرَهم له ، ففعل الخبيثُ ، فلما خلع السلطانُ على الرُّودِسي قال قاصِدُ ابن عثمان : كيف تخلع يا مولانا على هذا وهو عدوٌّ لك ولولدك السلطان محمد بن عثمان وقد قتل مِن جماعته كذا وكذا نَفْساً ، وأنا ما جئت إلاّ بسببه ؟! أنا أدّعي عليه عند مولانا السلطان بخمسين ألف دينار ، أخذها مِن جماعتنا ، وعنده منهم أسرى منهم عالِمٌ ، فاضطرب أمرُ الجند مِن هذا الكلام ، وكَثُرَ الصَّخَبُ ، وكان كثيرٌ مِن الأَجْلاَبِ يحبّون ابنَ ملك قُبرس ، فقام السلطانُ عند ذلك ، فأخَذَ الأجلابُ قاصِدَ رُودس فقلّعوه الخِلْعَةَ وتقاطعوها بينهم وضربوه حتى أَدْمَوه ، فلما رأى السلطانُ ذلك أظهر أنه بأمرِه ، وطلب القُبرسِيَّ فَخَلَع عليه ، وأَظْهر أَنَّه مستمر على نُصْرَتِهِ ، وأَنْ يُجَهِّزَ معه جَيْشاً ، وجدّ في أمر المراكب ، حتى أكملها .

وفي هذا الشهر ، قَدِم الشيخُ سالِمِ بن عبد القادِرِ الرَّمْلاوي الذي مِن ذريّة سَيِّدِي عبد العال خادم الشيخ البَدَوِي وذلك أنَّه كان مات خليفتُه ولم يبق في مصر أَحَدٌ مِن ذُرِّيَّتِهِ ، فأرسل الأميرُ بُرْدْ بَك إلى ناسٍ مِن ذُرِيَّتَهِ في رَمْلة لُدٍّ (١) ، فَزَهِدُوا في ذلك وأشاروا بأنّ لهم قريباً في دِمشق يُقال له سالِمٍ هو أولى منهم ، وهو مِن أقارب الخواجا شمس الدين (٢) محمد بن الزَّمِن ، وهو رَجلٌ صالِحٌ ، فأَرْسَلوا إليه فحضر ، فلما حضر نَفِسُوا عليه ذلك ، وَقَدِموا معه إلى القاهِرة ، فأقبل عليه الأميرُ والسلطانُ وولَّاه المَشْيَخة ، فنازعه أولئك ، فلم يلتفت إليهم ، وقال لهم السلطان : أَنا لم أُوَلِّه وإنّما ولاّه الله .

وفي النصف (٣) مِن شعبان سنة أربع وستين (٤) وُلِّيَ القاضِي وَلِيّ الدين أحمد بن القاضي تقي الدين محمد بن القاضِي بدر الدين محمد بن الشيخ

---

(١) رَمْلَةِ لُدٍّ : لُدّ ، قرية قُرب بيت المقدس من نواحي فلسطين ببابها يُدْرِك عيسى بن مريم الدجالُ فيقتله .

«معجم البلدان» (٥/ ١٥) .

(٢) هو : محمد بن عمر بن محمد بن عمر الزَّين بن محمد بن صديق بن أبي بكر بن يوسف الخواجا الشمس بن السراج القرشي الدمشقي ثم القاهري الشافعي ، المعروف بابن الزَّمِن ، ولد سنة ٨٢٤ هـ بدمشق ونشأ بها ، ثم اشتغل كأبيه بالتجارة ، وأقبل على السَّفر ، فسافر إلى بلاد الروم ، ومصر، وطرابُلُس ، ومكة ، والمدينة ، والتقى بكثير من علماء هذه البلاد وصلحائها ، وله مآثر محمودة في عمارة البيت الحرام ، والمسجد النبوي الشريف ، والمسجد الأقصى ، ومسجد قباء وفي إنشاء الأربطة والمدارس في مكة والمدينة ، مات عند غروب شمس يوم الأحد ١٨ شوال سنة ٨٩٧هـ .

له ترجمة في «الضوء اللامع» (٨/ ٢٦٠ رقم ٧٠٣) .

(٣) نلاحظ أن البقاعي قَدَّم وأَخَّر في عرضه للحوادث الواقعة في شهر شعبان ، دون التقيد بالتسلسل الزمني ، ويبدو أنَّ هذا الاضطراب في العرض جاء نتيجة الإضافات الكثيرة التي أدخلها المؤلف على النص بعد الكتابة الأولى له ، وحفاظاً على التسلسل الزمني الذي التزم به المؤلف ، ولم ينِدّ عنه إلا في هذا الموقف وربما في مواضع أخرى قليلة ، أعدنا ترتيب الحوادث بما يتفق مع هذا التسلسل حفاظاً على وحدة السياق وترابط الأفكار ، وذلك دون المساس بجوهر النص .

(٤) وثمانمائة .

سراج الدّين عمر البُلْقِيني قضاء الشافعية بدمشق عن الجمال يوسف الباعوني بمالٍ بذلَه على ذلك بعنايَة بنت البيسرى أم أبي بكر ابن مُزْهِر ، وعنايَةِ ابنها ، فكانت هي تُوَسْوِسُ إلى خَوَنْد ، وابنها إلى السلطان وابْنِهِ ، وذلك أنَّ الباعونِي كان يَرَى ابنَ مُزْهِر صغيراً ، فكان لا يكاتِبه ، ولا يُكْرِم أَحَداً مِن ذَوِيه إذا وردُوا إلى دِمشق ، فكان يودّ عَزْلَه ولا يتمكن من ذلك ، فلَمَّا سعى عليه ابنُ عمّه الجلالُ كما مَضَى وردّه السلطانُ أَقْبح ردٍّ ، بما يستلزم غاية الإكرام للجمال ، كان القياسُ يقتضي أنّه يرسل للسلطان شيئاً ، وأشار عليه كلُّ مَن يحبّه بذلك فلم يفعل ، ثم الشرف الأنصارِي عند عَزْله قرَّر في جهته ألفَ دينار ، فتبرَّم مِن ذلك فلم يزل كاتِبُ السّـرّ حَتّى أسقطها السلطانُ عنه فقَوِيَ تَعَلُّق الرَّجاءِ بَأَنْ يرسل ما يُتِمّ هذا الإكرام ، فلم يفعل فَغَضَّ منه السلطانُ ببعض الكلام ، فوَجَد المذكورُ وأُمُّهُ مجالاً للقول ، وكان الوليُّ هذا قد اشتدّ سَعْيُه في قضاءِ الشَّام قَبْل هذا، فَلَم يُجَب ، فَحَرَّكه فوجده سريعاً إليه فتكلم له هو وأُمُّهُ إلى أن كان ما كان ، واتَّفَق أنّ قاضِي الشافِعِيَّة بالقاهِرة عم أبيه ، العَلَم صالح كان يُبْغضه وزاده فيه بُغْضاً ابنُ امرأته الصّلاح أمير حاج بن برَكُوت المكيني ، وكانت بَيْنَه وبين الوَلِي منافَسَة شديدة ، فأَخْرج عنه البلادَ التي كان قضاؤها باسمه واسم أبيه مِن مدّةٍ كبيرةٍ وهي : الْمِنْيَةِ ، وشُبْرا ، ونواحِي القَلْيُوبِيَّة ، لكاتب السّـرّ المحب بن الشّحْنة ثم ما كفاهم ذلك حتى جعلوا نائبَه فيها شخصاً مِن أتباع الصَّلاح ، لا يُرْضى للشهادة ، فقامت قِيامَةُ الْوَلِيِّ ، وكانت المسارَعَةُ إلى ذلك منهم غَلَطاً ، فَشَكى أَمْرَهُ إلى ابن مُزْهِر واسْتَنْجَدَه وثَوَّرَه : بأنَّ هذا أوَّلُ أَمْرٍ يوهِنُ مِنِّي ، ومتى تَرَكْتَنِي وأنا نَشْؤك [١] طَمِع فيّ ، وكلُّ ما يُنْقصنِي يَضَعُـكَ ويُنَفِّر النـاسَ عَنْك ؛ لِأَنِّي

---

(١) نَشْؤك : تربيتك.
«المعجم الوسيط» (٢/ ٩٢١).

إنْشَاؤك وهذه أوّلُ قضاياك الَّتي قمت فيها ، فقام معه في ذلك واستنهض معه ابنُ السُّلْطانِ وأمُهُ إلى أن أُعيدَت إليه البِلاَد ، بعد أَنْ شدَّدَ على كاتِب السرّ ؛ فَضَخُم أمْرُه ، ولزم ابنُ مُزْهر شأنه وعُرِف بالعُصْبَةِ له ، فكان لا يُرى مَنْ يَتَكلَّم فيه بشيء إلاَّ سَعَى في كَفِّهِ ، وكان مِن المال الذي سعى به الولِي ، قاعَته الَّتي عمَّرها أبوه في زقاقِهم مِن حارة بهاء الدِّين ، وكانت حَسَنة ، فسرّ بها جماعَةُ السُّلْطـان .

ثم سافَرَ في أوائل شهر رمضان مِن هذه السَّنَه وَقْد قَرَّت عَيْنُه بما رأى مِن العصْبَةِ له ، وصحب معه مِن خواصّه أصحابِهِ القاضِي شمس الدّين محمد العمريطي [١] أحد نوّاب الشافِعي بالقاهِرة ، فجعله نَقِيْبَه، والفاضِل محب الدين محمد [٢] بن العلاَّمة القاضِي نور الدين علي بن سالِم، والفاضِل نور الدين علي بن..[٣] المقْسي، وشمس الدين محمد بـن [علي بـن خـلـد][٤] المحـلي[٥] الشـافِعيين وَوَصـل إلى دِمشـق في

---

(١) هو : محمد بن إسماعيل بن عمر بن مزروع ، الشمس العمريطي ثم القاهري الشافعي ، ولد بعد سنة ٨٢٠ هـ بعمريط من الشرقية ، وسافر إلى أدكو ، وأخذ عن علمائها ، وبرع في الفقه ، والعربيـة، والقراءات ، مات في ذي القعدة ظناً سنة ٨٦٤هـ .

له ترجمة في: «الضوء اللامع» (٧/ ١٣٩ رقم ٣٣٩) .

(٢) هو : محمد بن علي بن سالم بن معالي ، المحب أبو الفضل بن نور الدين الماردیني الأصل القاهري الشافعي نزيل دمشق ، المعروف بابن سالم ، ولد يوم الأربعاء ١٦ صفر سنة ٨٣٥هـ بالقاهرة، ونشأ بها ، وأخذ عن علمائها في النحو ، والفقه ، والفرائض ، والحساب ، وتولّع بالتوقيع حتى صار من رؤوس الموقعين في دمشق ، ثم دخل القاهرة سنة ٨٩٦هـ ، ثم رجع إلى دمشق .

ترجم له (السخاوى) في « الضوء اللامع » (٨/ ١٨٣) ، ولم يحدّد تاريخ وفاته .

(٣) بياض في الأصل بمقدار كلمتين ، لم نجد ما يصححه في المصادر المتيسرة .

(٤) ما بين الحاصرتين بياض في الأصل ، والتصحيح من الهامش التالي .

(٥) هو : محمد بن علي بن خلد بن أحمد ، الشمس ، المحلّي ، ثم القاهري ، الشافعي ، ولد سنة ٨٢٦ هـ بالمحلّة ظناً ، جوَّد الخط ، وتعانى النَّظْم فأحسن ، مات بالشام في محرَّم سنة ٨٦٥هـ.

له ترجمة في «الضوء اللامع» (٨/ ١٨٠ رقم ٤٤٨) .

أواخِر شهر رمضان ، فَخَطَب بالجامع الأموي في آخِر جمعة فيه ، وكان حَسَن التّأدِيَةِ للخطْبَة ، صَيِّتاً ، حسن القِراءة في المِحْراب ، فأَعْجَب النائبَ والشّاميين ، وصادَفَ أَنَّ بَعْضَ التّجار كان أَوْصى بألف دِيْنار تُفَرّق في المستحِقِّين ، ولم يكن الجمال الباعوني فَرّقها ، فَبادر هو إلى تَفْرِقَتِها ، فملأَ بها دِمشق ، فَنَفَقَتْ له بها سوقٌ ، وطار له بها صِيْتٌ وَصَوْتٌ ، وأظهر عِفَّةً عظيمةً ، وقارن ذلك هذه التّفْرِقة ، فَصُدِّق ما أظهر، وتحقّقَ في القلوب وتقرّر .

وبعد سفره بشهر شَنّع عليه بَعْضُ أصْحابه بأن به سَلَس البَوْلِ ، وأَنَّه لا يَحِلّ له أن يتولّى خَطَابَةً ؛ لِأنه يحتاج في مَذْهبه إلى وضوءٍ جديدٍ للصّلاَةِ بَعْد الخطْبَة وهو لا يفعل ، فَبُحث عن أمر هذا السَّلَسِ مِن خواصِّه ، فَوُجِدَ صحيحاً ، وصاروا يعتذرون بما لا عُذْر فيه ، فيقولون : أَنَّه أمرٌ خفيفٌ ، بحيث لا يتحقَّقُ ونحو ذلك .

وكانت قد عَظُمت المشَّقَّةُ بِصَرْفِ الشّيْخ برهان الدين الباعوني عن الخطابَةِ ؛ لِدِيْنِه وَخَيْرِه ، مع سِنِّه وفَقْرِه وَكَرَمِه وحُسْنِ طَلْعتِه ، فَوَجَدَ محبّوه مساغاً للسّعي له ، فتحرّكوا في ذلك ، وزاد مبغضوا الوَلي في الشناعَةِ عليه بإشاعَةِ ذلك ، فقام ابنُ مُزْهِر في أَمْره إلى أنْ سكنَ عَنْهُ ذلك .

وبَلَغنا أنّه صلى في الجامِع الأموي صَلاَةً على إثْر وصولِه ، إمَّا الجمعة أو غَيْرِها ، فقرأ : ﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَـٰهِلُونَ ﴾ [1] الآيات . فَضُمّ ذلك إلى ما فعله في مَدْرَسة بني الجَيْعان ، وزاد أنه لو ساغ كان عَلَيْه فالُه ، فإنّ فِيهِ نِسْبة الفاعِل بيوسف

(١) يوسف/ ٨٩.

وأخيه إلى الظّلم ، وانحطاط المَنْزِلة عنه ، وتحكّمه فيهم إلى غَيْرِ ذلك، فكان ذلك مِن العجائب .

ثم بلغنا أَنَّه مرض هو وجميع مَن سافَرَ معه مِن مصر في آخر شَوَّال، أَوْ أوّل ذي القعدة ، ومات القاضِي شمسُ الدين محمد العمريْطِي الّذي كان عمله نقيبه .

ثم بلغنا أنه كان أمر من في بابِهِ أن لا يأخذوا على ما يكتبونه للناسِ مِن الوثائِق غَيْر أرْبعة دراهم شامِيَّة على كلِّ وثيقة ، وأنه سمع عن المحب بن سالِم ، أنه أَخَذَ ستَّةَ على وثيقة كبيرة ، فأَحْضَره وأَهَانَه وسَجَنه ، مَعَ أَنَّه كانَ أخصَّ المذكورِين به ؛ لِأنّه كان المتوَلِّي غالِبَ مَهمَّاتِهِ في القاهِرَة ، مع فَضْلِهِ وحُسْنِ أدَبِهِ ، وكثْرَة ثنائِهِ عليه ، ومناضلته عنه .

فكثرت عَلَيْهِ القالَةُ بذلك ، وَوَجَد مَنْ يَتَنَقَّصَهُ مِن أَقَارِبِهِ ما يَشْنَع عليه بِهِ ، فيقولون : هل يسوغُ مثل هذا في عَقْلِ عاقِلٍ ، أَوْ سَجِيَّةِ مَنْ له مروءة وقد كان يمكن ردّه عِن مِثل ذلك بغير هذا ، مِن اللوم بينه وبينه ، أو بين النَّاس إنّ كان يريد شيوع مثل ذلك عَنْه ؛ ليشتهر بالعِفَّةِ ، ثم صَحّ أنّ السَّبب غير ذلك ، وهو أنه كان أوْصَى وصِيَّةً ذكر فيها مِن جهة البيت الذي أعطاه لِخَوَنْد ما عليه جهة درك فطلبها مِن ابن سالِم ، فأجابَه بما يُريب فِي أَمْرِها ، ثم ادّعى ضَيَاعها ؛ ففعل ذلك ليردّها ، وأرسل إلى الحاجِب ليرضيه ، فأصَرَّ على دعوى عَدَمها ثم رَضِيَ عنه ، وَرَجَع إلى ما كان عَلَيْهِ عنده وأَعْظم ، فإنّه خَلا له وجهُه ، بأن مات العمريطي ثم المحلي ، وَرَجع المقسي فلم يبق عنده غيره .

وفي شهر شعبان ، دخلت الغَلّة الجديدة فانحلّ السّعْرُ إلى أَنْ وَصَلَ الشَّعَير مِن مائتين إلى مائة وعشرين ، وقِس على ذلك غيره ؛ وما ذاك إلاّ

لِقِلَّةِ الفساد من المماليك وأَتْباعهم ، ثم لم يَلْبَث إلاّ نحو عشرين يوماً وارْتَفَع السِّعْـرُ إلى أن عاد إلى ما كان ثم زاد إلى أن وصل الشّعِير إلى ثلاثمائةِ وهي صَرْف دينار ، وكذا الفول ، بل زاد عليها ، وكان القمح أرخص منهما ، ثم وصل القَمْح إلى دينار ؛ وسبب ذلك إعادَةُ مَنْ بَقِيَ مِن المماليك الفَسَادَ ، مع ما قارَن ذلك مِن فَسَادِ العرب في الشّرْقِيَّة ، وبلاد الصَّعِيد وغيرهما ، فلذلك لم تُؤثِّر حسن زيادَة البحْرِ في الرّخص ، بل وصل البحْرُ في ذي الحجّة إلى سبع عشرة إصبعاً مِن الذّراع العشرين، والأسعارُ على حالها ، بل يُخشى مِن زيادَتِها ، والله المستعان ، ثم انحلّ السعر في أول سنة خمسٍ وستين [1] كما سيأتي فلله الحمدُ .

وفي أواخر شعبان هذا ، قَدِم أبو الفضل بن أبي الفضل النُّوَيْرِي ، خَطِيب مكّة مِن دِمشق ، وكان قَدْ وَرَد مع الحجَّاج إلى القاهِرَة ، وسافر في جمادي الأوْلى إلى دِمَشق ؛ لِأن نائبها الأمير جَانَم كان صَدِيقَه ، ثم رجع إلى القاهِرة في أواخِر هذا الشهر ؛ وكان سببُ قدومه وجلُّ مقصده السّعْيَ في نظر الحَرَم ، فإنه ظَنّ أن سبب [إ] [2] عاقته عنه فيما مضى إنّما هي مِن ناظِر الخاص ، فلما بلغه خَبَرُ مَوْتِهِ اغتنم الفرْصَةَ فقدم ثم سعى في ذلك أشدّ السَّعْي ، فلم يُجَب ؛ لِمَا قُرِّرَ عند السلطان وخواصِّه مِن ذميم سيرته ، وسوءِ طويَّته ، وزاد ذلك أَنّ أهْلَ دِمشق نقلوا عَنْه ، أَنَّه في السَّفْرَة القصيرة إليهم سعى في إفساد صُوَرِ جماعَةٍ منهم عِنْدَ جَانَم ، مع مبالغتهم في إكرامِه .

وفي شعبان هذا قُتِل إسماعيل بن يوسف مُقَدّم بلاد الزَّبَدَاني ، الذي كان مُسْتَوْلِياً على خان الفُنْدقِ قَبْلِي ، وذلك أَنّي لم أَقْدر أدْخل تلك البِلَاد

---

(١) وثمانمائة .

(٢) إضافة اقتضاها السياق .

لعمارةِ الخان بَعْد أَخْذي له مِنه حتَّى سَعَيْتُ لبعضِ أعدائِهِ في أَنْ يكون مُقَدَّماً على جماعته ، فصار للبلاد مُقَدَّمَين : إسماعيل مُقَدّماً على أصْحَابِهِ، ومحمود بن باكله مقدّماً على أصحابه وهم أصحابُ أَقارِبي ، فضاق إسماعيلُ ذَرْعاً بهذا ، ولم يَزَل يَحْتَالُ في التَّخَلُّصِ مِن هذا حَتّى أَخْلَفَ بين جماعَةِ محمود ، فاستمال مِن أكابرِهم ناساً يُقال لهم أولاد العزقي وسعى لشخْصٍ منهم ، فعُزِل به محمود ، فسعى محمودٌ بمالٍ كبير ، فأُعيد ، وبَطَش بإسماعيل يوم طلوعه إلى البلاد بالخِلْعَة ، وقتلَ بعضَ جماعته ، وهرب إلى بلاد ابن بشارَة .

وفي يوم الجمعة مستهل شهر رمضان مِن السَّنَة ، الموافِق لسادِس عشري بؤونة مِن أشهر القِبط ، نودِي ببشارة البحر ، وكانت قاعِدَته [ستة أذرع] (١) .

وفي ثانيه سافر جانِبَك شادّ جُدَّة إليها في البر ؛ بسبب ما يستخرجه من التجار للسلطان ، وسافر معه جماعة قليلون إرادة الحج منهم أبو السعود بن الشيخ أمين الدين يحيى الأقصرائي الحنفي (٢) .

وفي شهر رمضان مِن السّنَة ، شاع أَنَّ الموْتَى في هذا العام يقومون في يوم الأربعاء سابع عَشْريّة ، فَصَدَّق كلُ ضعيف العَقْل ، جاهلٌ بالدِّين ، فَطَلَعوا إلى الجبَّانَات (٣) بالثِّياب المبخَّرَة والمياه ، وحفروا قبورَ أمواتِهِم ، ثم رجعوا بِخُفَّي حُنَيْن (٤) ، وسواد الوجوه ، وبكاء العَيْنين ، وهذا حالُ مَنْ لَوْ أَتَى الدَّجَّالُ لَمْ يَتَخَلَّف عنه منهم أَحَدٌ ، فإنّا لله وإنا إليه راجعون .

---

(١) ما بين الحاصرتين بياض في الأصل، والتصحيح من حوادث الدهور (٣٤٠) .

(٢) الخبر في «بدائع الزهور» (صفحات لم تنشر) (٧٦) .

(٣) الجبَّانات : المقابر .

«المعجم الوسيط» (١/ ١٠٦)، و«محيط المحيط» (٩١) .

(٤) مثلٌ يضرب عند اليأس من الحاجة والرجوع بالخيبة .

«مجمع الأمثال» (١/ ٢٩٦) .

وفي هذا الشهر قَدِم القاضِي أثير الدِّين محمد ، قاضِي الحنفيَّة بحلَب ابن القاضِي كاتب السرّ محبّ الدين محمد بن الشِّحنة ، فحصل له توعّكٌ، وصارَ يَنْصِل [1] منه ويعاوده مدّة ، ثم عُوفي وسافَرَ إلى محل ولايته حَلَب في أواخِر محرّم كما سيأتى .

[٢٣٥] وفي هذا الشهر كثُر أذى العامَّة المستأجرين للسّفر في المراكب إلى قُبْرس ، سَمَّوا أنفُسَهم المجاهِدين ، فكانوا يَقْطعون الطرقات، وينهبون ما أرادوا مِن أيِّ أسواق البلد أرادوا ، ويأكلون جهاراً في نهارِ رمضان ، ويقولون : الزَّرَدْكاش أباح لنا ذلك ، وَضَرب الله الذِّلّةَ على أهل مصر ، فلا يَجْسِر أَحَدٌ على منعهم عن نفسه ولا غيره .

وفي هذا الشهر ، نُفِيَ القاضِي تاجُ الدين محمد بن الشيخ شهاب الدين أحمد بن عَرَب شاه الحَنَفِي ، وأبو البركات شمس الدين بن الحِمْصي أخو أبي الوفاء شمس الدين قاضِي غَزَّة الشّافِعي في يوم واحِد وذلك أَنَّ ابن عَرَب شاه كان قَدْ قَدِم إلى القاهِرة في أوائل سنة ثلاث وستين [2] ، يسعى في قضاء الحنفية بدمشق عن علاء الدين علي بن قاضِي عجلون ، وكان ابن عَرَب شاه فقيراً ، فلم يتهيَّأ له أمرٌ ، وصار يَكْره أن يعود إلى دِمشق ، وقد شاعَ عنه السَّعْي بلا شيء ، فكان أعداء بن قاضِي عجلون يُرْجِفون به في كل قليل بابن عَرَب شاه ، ويشيِّعون أنه وُلِّيَ، فيوجب ذلك له بعضَ الوَهَنِ ، فلمّا طال عليه ذلك أرسل قاصِداً مغربِيًّا جريئاً وعلى يده مال للأكـابِر ، فَنُفِيَ . وأمَّا ابن الحِمْصِي فكـان

---

(١) ينصل : يخرج .
«المعجم الوسيط» (٢/ ٩٢٧) .
(٢) وثمانمائة .

قاضِي الشافِعِيَّة بغزَّة ، وكان قد قَرَّب شخصاً من الشهود ، يُقال له شرف الدين بن مفلح ، فاتَّفَق أَنْ عُزِل ابنُ الحمْصِي وَوُلِّيَ ابن مفلح ، فصار ابن مفلح يخشاه ، فصار يَسْعَى في أذاه وكان له أَخٌ في القاهِرة عارِفٌ بمُدَاخَلَةِ أهْلِ الدُّنيا ، لا شغل له إلاّ ذلك ، واسم هذا الأخ خليل .

ثم تَنَقَّلَت بابن الحمْصي الأحْوَالُ فَوُلِّيَ قضاء حَمَاة ، ثم عُزِل منها وعادَ إلى قضاء بلد غزَّة ، فلم يَدَعْهُ ابنُ مُفْلح إلاّ قليلاً ، وَعَزَله ، وأخذ عنه ، وشرع يؤذِيه ، فاشتدَّ خَوفُ أخي أبي الوفاءِ هذا المذكور مِنْه فهرب إلى القاهِرَة ، فخافَ أَنْ يكون إنّما قَدِمها لِيَسعى لأخِيه ، فأرْسل في أثره ، فَنُفِيَ ، ولكن كانت قضيَّته غير متقنة ، لم تكن إلاّ بمرسومٍ من كاتِب السرِّ ، لم يطّلع عليها أَحَدٌ سواه ، وخَرَج خليلُ بن مفْلح مع ابن الحمْصي، ورَشى النُّقباء المرسمين على ابن الحمصِي فأمْكنوه من وضْعِ زِنْجِيرٍ في عنقه مِن خارِج باب النَّصْر ، فلما وصل إلى الخانْكة ضربه بنعله على وَجْهه ضَرباً كثيراً ، وأفحش في أمْره ، وبادَر إلى تشييعه ؛ خَوفاً مِن أن يُسعى في رَدّه ، لعِلْمه أَنَّ أمْرَه على غَيرْ أساس جيد ، فعلم به الخطيبُ أبو الفَضْل النُّوَيْري ، خطيب مَكَّة المشرّفَةِ ، وكان صاحِب أخيه أبي الوَفاء رفيقه في الاشتغال على الشيخ أبي القاسم النُّوَيري ، جَهَّزَ ابنَ الحِمْصِي ، فسعى في أَمْرِه ، فَرُدَّ مِن نحو بِلْبِيس ، وَرَثَى له كلُّ واحد ، وكان الإسْرَاف في أمْرِه سبب عَزْلِ ابن مفلح وولاية أخيه كما سيأتي ، وأمَّا ابن عرب شاه فاستمر [1] .

---

(١) جاء في أعلى الصفحة للمؤلف : فائدة في القيء ، يجب عند القيء أن تعصب العينين ، ويُقمط البطن ، وعند الفراغ يُغسل الوجه بماء بارد وقليل ، ليمنع ثقلاً يحدث في الرأس ، ويستعمل عقيبه شراب ليمون ، وقليل مصطكا نحو ربع درهم ، ووقت القيء الربيع والصيف دون الشتاء والخريف ، ولا يُكثر من الجماع في الخريف .

[٢٣٦] وفي هذا الشهر في عشره الأوَل ، رابع الشهر أو خامِسه ، مات زين الدِّين عبد الرحمن [١] بن ناصِر الدين محمد بن البدر حسن الفاقوسي عن نحو ثمانين سَنَةٍ ، وكان أبوه أسمعه على البرهان الشامِي وَغَيْرِهِ مِن المسندين ، وَقَرأ عليه الطَّلَبَة ، ثم عَثَروا على تزويره ، فإنّه رأى خبراً فيه طبقة بخط قاضِي القضاة ابن حَجَر ، أنه سمعه عبد الرّحمن وفلان الفاسِيّان ، فزادهما (قو) ، فصارَت الفاقوسِيَّان ، وهي زِيادَة لا يُشَكُّ فيها أنها مُفْتعلة ، ثم رأوا له تزويراً آخر ، مع أَنَّه كان مشهوراً بكثرة القَرْض لأعْراضِ النَّاس وبعض مُجَازَفَةٍ في الكلام ، وَجَرت له بسبب ذلك محنَةٌ مع قاضِي القضاة زين الدِّين [٢] عبد الرحمن التَّفَهْنِي الحنفي ، وذلك أنّه نُقِل أنّه عُزل ، فبلغه ذلك ، فكشف عنه ، فوجده كَذِباً ناشِئاً عَنْه ، فأَخْبَر بذلك السُّلْطانَ الأشْرفَ بَرْسْباي ، فأمر بِضَرْبِه وتجريسه [٣] ، فَفُعِل

---

(١) هو : عبد الرحمن بن محمد بن حسن بن سعد بن محمد بن يوسف بن حسن ، تقي الدين أو زين الدين بن القاضي ناصر الدين ابن الفاقوسي ، ولد ليلة الأحد ٢١ ربيع الآخر سنة ٧٨٦ هـ بالقاهرة ونشأ بها ، وأخذ عن أبرز علماء مصر ، وزار القدس ، وسافر إلى حلب والإسكندرية وبلاد الصعيد ، مات يوم الثلاثاء ٥ رمضان سنة ٨٦٤ هـ .

له ترجمة في : « عنوان الزمان » (مخطوط) (٢٤٩ ـ ٢٥٠) ، و« الضوء اللامع» (٤ / ١٢٨ رقم ٣٣٨) ، و«بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٧٦) .

(٢) هو : عبد الرحمن بن علي بن عبد الرحمن بن علي بن هاشم ، الزّين أبو هريرة التَّفَهْني القاهري الحنفي ، ولد سنة ٧٦٤ هـ بتفهنا ـ قرية بالقرب من دمياط ، ونشأ فقيراً ، واشتغل حتى برع في الفقه والأصول والعربية ، وأفتى ودرَّس ، وناب في الحكم ، ثم استقل بوظيفة القضاء ، ولم تشكر سيرته؛ لحدَّة فيه ، مات ليلة الأحد ٨ شوال سنة ٨٣٥ هـ .

له ترجمة في : « النجوم الزاهرة » (١٥ / ١٧٥ ـ ١٧٦) ، و«والضوء اللامع » (٤ / ٩٨ رقم ٢٨٥).

(٣) تجريسه : أي يعلق فيه جَرَس للتشهير به وإذلاله .

على هَيْئةٍ بَشِعة ، حوله سيوف مسلَّلَة ، وكان مُمَقَّتاً إلى النّاس ، فلما عُثِر على التّزْوير نُهي أكابرُ الطلبة عن السَّماع منه ، فتُرِك .

وفي يوم الاثنين تاسِع شَوَّال مِن سنة أرْبع وستين [(١)] هذه ، نزل السلْطانُ إلى بُولاق ، فنظر المراكِبَ ، التى يُريد بَعْثها إلى جزيرة قُبْرس لانتزاعها مِن ابنة الملك ، وتسليمها إلى ابنه ، وما يتعلّق بها ، وذلك بعد أنْ عَرَض الجنْدَ ، وبذل فيهم النَّفَقَة وَعَيَّن الأمراءَ ، وهم : قَانَم التَّاجِر ، وبُرْدُبَك البَشْمَقدار رأس نَوْبَة الثّاني ، وغَيْرِه مِن الظَّاهِريَّة الجَقْمَقِيَّة وسُودُدون قرقش ، خاجب الحجَّاب ، ويَشْبُك الفقيه شاد المؤيَّديه ، [ورأسهم] [(٢)] الدُّوَيْدار الكبير يونُس ، صِهْره على ابنته ، وهؤلاء كُلّهم مؤيَّديّة [(٣)] .

وفي هذا الحد ، عُزِل جلالُ الدِّين البكري الشافِعي عن قضاء ثغر الإسْكَنْدَرِيَّةِ ، وَوَليه [(٤)] أوحد الدين محمد بن شهاب الدِّين أحمد العجيمي البُلْقِيني قاضِي المحلَّة ، واستمرّ قضاء المحلّة بيده ، واستناب فيه صهره الشرف بن أبي المكارم بن قاسم [(٥)] ، ثم بَلَغنا أَنَّ الدُّوَيـدَّار

---

(١) وثمانمائة .

(٢) في الأصل (ويلسهم) ، والتصحيح من مفهوم السياق .

(٣) الخبر في « حوادث الدهور » (٣٤١) ، و«النجوم الزاهرة» (١٦/ ١٥٠) ، و«بدائع الزهور» (صفحات لم تنشر) (٧٦) .

(٤) هو : محمد بن أحمد بن أبي بكر بن رسلان ، أو حد الدين ، أبو الخير ، البُلْقِيني الأصل المحلّي الشافعي ، المعروف بالعجيمي ، ولد في يوم الثلاثاء ٢٨ شوال سنة ٨٢٣ هـ بالمحلّة ، ونشأ بها ، تميَّز في الفرائض والحساب ، وشارك في العربية وغيرها ، مات فجأة في يوم الجمعة ١٩ رمضان سنة ٨٨٧ هـ بالمحلة .

له ترجمة في « الضوء اللامع » (٦/ ٢٩٦ رقم ٩٩٠) .

(٥) هو : محمد بن محمد بن قاسم بن عبد الله بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد القادر ، الشرف ابن كريم الدين أبي المكارم المحلّي ثم القاهري المالكي ، ولد سنة ٨٢٠ هـ بالمحلّة ونشأ بها ، مات سنة ٨٧١هـ .

له ترجمة في « الضوء اللامع » (٩/ ١٨٠ رقم ٤٦٥) .

الكبير يونُس ، لما وَرَد إلى دِمْياط ، نادَى بِكَفِّ الأذَى وأَنَّ مَنْ أَفْسَد فلا يَلُومَنَّ إلاَّ نَفَسه ، ثم أتبع القولَ الفِعْل ، فَضَرب وقَتَل وهوّل فيهم الزَّوَاجِر، فانْكفُّوا أعظم انكفاف ، حتى رَجَع كثيرٌ مِمنّ كان رحل .

وفي يوم الثلاثاء ، عاشِرَه رسم السُّلْطان بِتَوْسِيط ثلاثة : عبدٌ طلب من شَخْصٍ لَيْلاً دِرْهماً ، فقال له : مَا مَعي شيء ، فَضَربه ، فَقَبض عليه بيديه فطعنه بسكين ، فَلَمّا عرف أَنّه أَتْلَفَه شَدَّ عليه بيديه (وكان رجلاً أَيِّداً[1] وكان مسكوراً) وصاح فَنَزل إليه جِيْرَانُه ، فقبضوا عليه ، فأودِع السّجن ، وَبَدوي ، كان يَقْطع الطريقَ ، وتركماني قتل جندياً ، ثم كثر إتْلافُه لأهل الفساد مِن أهل البَرِّ والمدينة ، فمكث أيَّاماً متوالِيَةً يوسِّطُ كلَّ يوم ناساً ، وتَارَة يُصْلبون ، وتارَة تُعَلَّق رؤوس مَن يَقْتلونه في نواحِي البَرِّ ، ولا يَزْدادُ الأَمْرُ إلاّ فساداً ، فلا قُوَّة إلاّ بالله .

وفي هذا الحَدَّ ، وهو عاشر شَوَّال سنة أرْبَع وستين [2] ماتَ الشيخ أبو الفضل [3] المغربي ، علاَّمة زمانِهِ ونادِرته في عنتاب كما سيأتي في أوائل سنة خمس وستين [4] رحمه الله .

وفي هذا الحد ، نهب بَنوا حرام مِن أهْلِ الشَّرْقِيَّة ، قريةَ بلقس وقف الأَشْرَاف ؛ فأخَذَ نقيبُ الأشراف جماعَةً منهم ، وطلع بهم إلى السلطان ، فشكوا حالهم إليه ، فقال : مَنْ فعل ذلك ؟ فقالوا : قرية كذا ، وقرْيَة كـذا ، وَسَمُّوا لـه المفسـدين . فَسكت ، فلما طـال سكـوتُه ، قـال الأميرُ

---

(١) أيِّداً : قوِّياً شديداً .
« المعجم الوسيط » (١ / ٣٤) .
(٢) وثمانمائة .
(٣) راجع « هامش ٣ » من (ص ١٥٦) من القسم الأول .
(٤) وثمانمائة .

بُرْدُبَك الدُّوَيْدار : اذْهبوا ، حتى يكشف السلطانُ عَنْ هذا الأَمْر ، فانفصلوا على ذلك .

وفي يوم الاثنين سادِس عَشَر شوال المذكور ، الموافِق لحادِي عَشَر شهر مسري مِن أشهر القِبط ، نودي على البحر بزَيادَة [١] ثلاث عشرة إصبعاً ، فَوَفَى سِتّ عشرة ذِراعاً وثماني أَصابع مِن الذِّراع السَّابِعَة عشرة ؛ فنزل ولدا السلْطان ، أحمد ومحمدّ فَخَلَّقا المقياس ، ثم رَجَعا فَفَتحا السَّدَّ، وكان معهما جاكُمو ابن صاحب قُبرس ، الذي جاء يسعى في ولايتها وعَزْل أُخْتِه وذمَّهُم النَّاسُ على ذلك ، والله الموفّق ، وَجَرت المِياهُ فِي خلال القاهِرَة في الخِلْجَان ، وصار السُّقاةُ يَمْلأون فيها إلى سادِس عشر محرّم وهو الموافِق لثالِث هتور [٢] مِن أشهر القِبط ، فمنعوا مِن الخليجِ الأَدْنى فكانت مدَّة انتفاعهم به ثلاثة أشهر كامِلَة .

وفي سابع عشره نُودِي بزيادَة ثماني أصابع ، فذلك ست عشرة إصْعباً مِن الذّراع السَّابِعة عشرة .

وفي هذا اليوم سافَر الأمراء المعيَّنون إلى جزيرة قبرس ورأسهم الدُّوَيْدار الكبير يونُس ، صهر السلطان ، وأمير البحر المتكلّم على المراكِب عند خروج العسْكَر إلى البَرّ الأمير قَانَم التّاجِر ، وذلك بسبب ابن ملك قبرس المسَمَّى جاكُموُ ، لينزعوا الملك مِن أخته ويملكوه عليها . وكان سفرهم بَعْدَ أن مُلئت القاهِرةُ بسببهم فساداً ، وبلغني أن دِمياط خَلت خـَوْفاً منهم إلاّ مِمنَّ لا يقـدر على النُّقْلَةِ ، فالله المسـؤول أن

---

(١) راجع الخبر في « حوادث الدهور » (٣٤١) ، و«بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٧٧).

(٢) في « خطط المقريزي » (١ / ٢٧٠) هاتور .

يَكُفَّ أذاهم . وتأخر سُنْقُر الزَّرْدكاش ، ليَقْبِضَ علي مَن عساه يتأخّر من النُّوَاتيه أو غيرهم مِن البَحْرية ، فاستمر نحو خمسة أيّام ، ثم سَافر ، فَيُقال عنه : فسادٌ كبير وهو منحدرٌ مِن نهب : البطيخْ والتين ، وأَخْذِ من يلقاه يلزم بالسَّفر معه قبَّحه الله [١] .

وفي يوم الأربعاء ثامِن عشر شوال هذا ، ماتَ الشَّريفُ صدر الدين[٢] عبد القادر ابن الشّريف شرف الدين محمد اليُونيني قاضِي الحنابِلة بِبَعْلَبَك ، وكان يُعادِيه قاضِي الشافعيّة وابن قاضِيها علاء الدين علي الشهير بابن قرقين ، وكان غايَة في الفساد ، لا يكفّ عن قتل نفسٍ ولا مادُوْنَه مِن أنواع الفجور ، وكان قد اتَّفقت له قِصَّةٌ مع نائب الشام ؛ بسبب أنه نُسب إليه قَتْلٌ في مسكره ، فأحْضَرَه وغرَّمه مالاً كثيراً ، فتفلَّت وهرَبَ إلى القاهِرَة ، فأرسل وراءه قاصِدَه ليردَّه السلطانُ إليه ، فتعصَبَ له كاتبُ السّرّ المحب بن الشَّحْنَة ، فلم يَتَمكَّن مِنْه قَاصِدُ نائِب الشَّام ، ثم استمرّ في بيت كاتِبِ السّرّ يَفْتَح أبوابَ الشرور ، فاتفق أن ورَد إلى القاهِرَة أحد دُوَيْدارِيَّة نائب الشام ، فَحَسَّن له ابن قرقين أن يأخذ معه مراسِيمَ بالكشْفِ على هذا الشريف وأخبره أنه يحصل مِن ذلك مالٌ كبير ففعل فسافر إلى بَعْلَبك ووضع الشريف في القَلْعَة ، ونَادَى في البلد : مَنْ

---

(١) راجع الخبر في : « حوادث الدهور » (٣٤٢) ، و «النجوم الزاهرة» (١٦ / ١٥٠ ـ ١٥١) ، و«بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٧٧) .

(٢) عبد القادر بن محمد بن محمد بن محمد بن عبد القادر ، الصدر بن الشرف بن المعين اليونيني البعلي الحنبلي ، ولد في نصف شعبان سنة ٨٢١ هـ ببعلبك ونشأ بها ، وناب في القضاء ببعلبك ودمشق، ثم استقل بقضاء بعلبك سنة ٨٥٣ هـ إلى أن مات في صالحية دمشق .

له ترجمة في « الضوء اللامع » (٤ / ٢٩٥ رقم ٧٨٤) .

له عنده ظُلاَمَة فَلْيَرفَعَها . فلم يَظْهر في جَهتَه شيءٌ ، ولا شكاه أحَدٌ ، ثم عَلِم بذلك الأَكابِرُ ، وعلموا أنّ الأَمْرَ مِن ابن قرقين ، فأعلموا نائبَ الشّام ، فأرسل إلى دُوَيْدَاره ليلطف به ، وأَقْدَمَه إلى دمشق بعد أنْ غُرِّم ستمائة دينار ، وكتب له نائبُ الشّام إلى السّلْطان فمَن دونه كُتُباً حَسَنَةً ، وأرسل قاصِداً بذلك ، فاتّفق مَوْتُه في التاريخ المذكور ، وهو يوم دخولِ قاصِده إلى القاهِرَة ، فلّما بَلَغ خبرُ مَوْتِهِ زوّر عليه ابن قرقين ورقةً تقتضي إذهاب وظائفه ، وجميع تَعَلُّقه لكاتِب السّرّ ، فاتّفق أن كان البدر ابن المزَلّق ناظِر جيش الشّام في القاهِرَة ، فسعى في القَضِيَّة إلى أن كُتِبَ له توقيعٌ بأنّ تَعَلُّقَه لابنه شرف الدّين محمد بن صدر الدين المذكور ، وذلك على نحو مائتي دينار لكاتِب السرّ المحب بن الشّحْنَة .

وفي يوم الخميس تاسع عشر شوال هذا ، خَرَج مَحْمَلُ الرَّكب الحجازي إلى بِرْكة الحاج ، وأمير المِحْمَل تَمُرْ بَاي [١] القِرْمي ، تاجر المماليك وهو في غاية ما يكون مِن فسادِ السّيرة وقُبْح السّريرة ، وبُغْضِ الفقهاءِ وأهل الخَيْر ، والتّجاهر بِسَبِّهم وَضَرْبِهِم ، حمى الله الرَّكْبَ مِن شَرِّه، وأمير الأوّل تَنَم السّاقِي [٢] ، أحد رؤوس النُّوب [٣] .

---

(١) هو : تَمُرْ بَاي بن عبد الله من حمزة الناصري ، الأمير سيف الدين المعروف بتَمُرْ باي طَطَر ، تركي الجنس من مماليك الملك الناصر فرج ، نزل به الدهر ، ثم عاد إلى بيت السلطان وترقّى إلى أن صار أمير مائة ومقدم ألف في دولة الملك خُشْقَدم ، مات في ليلة السبت ٢٨ جمادي الآخرة سنة ٨٦٦ هـ ، وقد ناهز الثمانين .

له ترجمة في : « حوادث الدهور » (٧٩٠) ، و«النجوم الزاهرة» (١٦ / ٣١٦) .

(٢) هو : الأمير سيف الدين تَنَم الحسيني أو (الحسني) الأشرفي بَرْسْباي ، أصله من مماليك الأشرف بَرْسْباي وخواصّه وسقاته ، وامتحن بعد موته وحُبس ثم أُطلق ، فتأمّر عشرة ، ثم صار من رؤوس النوب ، ثم صار رأس نوبة ثاني ، ثم نائب حَمَاة ، ثم بَطَّل ، ثم قدِّم بحلب ، ومات بها في جمادي الآخرة سنة ٨٧٣ هـ .

له ترجمة في : « حوادث الدهور » (٧٢٢) ، و«الضوء اللامع » (٣/ ٤٥ رقم ١٨٦) .

(٣) خبر خروج المحمل في : « النجوم الزاهرة » (١٦ / ١٥١) ، و«بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٧٧) .

وفي يوم السبت حادِي عشريّه ، سار الأوّل مِن البِرْكَةِ (١) .

(٢٣٧) وفي يوم الأحد ثانِي عشريه ، سار المِحْمَل صَحِبَهم الله وحماهم مِّن شرّ أميرهم ، وسافر معهم خطيبُ مكةَّ أبو الفضل النُّوَيْري ، بَعْدَ أن اشتدَّ سَعْيُه في نَظَر الحَرَم ، فَلَم يُجَب ، وكان بعض الصُّلَحاء قد قَرَّرَ عِند أَخِصَّاءِ السلطان بعضَ أخلاقِه الذَّميمة، على وجه لا يمكن دفعه ، فقام الدليلُ على ذلك وعلى غَيْره ، فَعُرِف على ما هو عليه ، وشرعوا يُنَقّبون عن أَخْباره ، ويذوقون مقاصده ، ولعلهم سَمِعوا ما كان رُمِيَ به في السَّفْرةِ التي قبل هذه مع عبيد فراش السلطان ، فإنها كانت قضية شنيعة نَظَم فيها بعض الأدباء أبياتاً وكثرُ تَنَاقُلِ النَّاس لها ، وسؤالهم عَنْها ، فكانت تُحْكى بأسانيد مُتَّصلة علي وجوه مفصَّلة ، والله وَلِي التوفيق .

وكان السلطانُ ، قد أَرسل جُنْدَاً إلى الصعيد ؛ لِيَكُفُّوا شَرَّ الْعَرَب وأمَّر عليهم خُشْقَدم أَمير السّلاح ، فاتّفق أنْ بيَّته العربُ لَيْلَة مِن الليالي ، فنالوا مِنْه ، وهزموه إلى البحر ، فَعَثَر وهو في البحر على مركب فيه عَرَبٌ كثيرٌ ، فأَمَر بالقبض عليهم . فقالوا : نحن كُنَّا في القاهِرَة ، ولا تَعَلُّق لنا بمن حارَبَك ، ونحن مِن فلاّحي سُنْقر الزَّرَدْكاش ، ثم رآهم يكثرون التَّلَفُّتَ إلي أمتعتهم ، فارْتاب منهم ، فأمر بتفتيش الأَمْتِعَة فإذا فيها دروعٌ كثيرةٌ ، فقال : ما هذا ؟ قالوا : أرسلها معنا الزَّرَدْكاش . فقال : أَمعَكم كُتب ؟ فقالوا : لا . فَفَتَّشهم ، فإذا معهم كُتُبٌ إلى ابن غريب وَذَوِيه ، وهو الذي حارَب أميرَ السِّلاح ، يُهَوِّنُ فيها أَمْرَ الجند ، ويأمرهم بمحاربتهم ويَعِدهم بعمل مصالِحِهم عند السلطان وحِمَايتهم من كلّ ما يخافونه ، فأرسل ذلك أميرُ السلاح إلى السلطان .

---

(١) جاءت هذه الكلمة (تكعيبةً) في نهاية صفحة (٢٣٦) إشارة إلى أول كلمة تبدأ بها صفحة (٢٣٧) ، إلاّ أنّها لم تُثْبَت هناك ، لذا تم التصحيح .

هكذا شاع في القاهرة ، ثم قِدم عبد الله الكردي ، المعروف الآن بتَغْري بَرْدي مِن البَهَنْسة ، وكان علي إقطاع قَرْ قَماش [١] خال العزيز [٢] ، رأس نَوْبَةِ النُّوب ، وكان مِمّن واقَع العربَ ، وتجرّح منهم ، فسألْتُه عن ذلك فصدّقه ، وقال إنّه مُحَقَّقٌ ، فشاع في القاهِرَة أنّ السُلْطان لما بلغه ذلك أرسل مَن يُحْضِر الزَّرَدْكاش مِن دِمْياط في قَيْدٍ وغِلٍّ وهو الزِّنْجير ، ورُوفِعَ بأنّه حَصّل في جزيرة هذه السّفن ، الّتِي عملها في هذه المدَّة الطَّوِيْلَة مالا جَزِيلاً ، ربما قالوا : أنه خمسمائة ألف دِينار ، والله تعالى يزيده نكالاً ، ثم لم يَظْهر لهذه الإشاعة صحةٌ ، فإنّه لم يَحْضُر .

وفي هذا الحدّ [٣] وهو أواخِر شَوَّال تكلَّم منصور في صِهْره الزَّيْن الإسْتادَّار مِن أنه يأكل مالَ الدِّيوان ، وأنَّ في جهته مالاً جزيلاً ، فَوَضعه السلطانُ في الحديد ، وسجنه في البَحْرَة ، بالقَلْعة أيّاماً ، فلم يَنْهَض بتحرير شيءٍ في جهته ، فَضَربه الأَجْلاَبُ ضَرْباً شنيعاً ، وخلع السلطانُ على الزَّيْن يوم الاثنين مستهل ذي القعدة الحرَام ، من سنة أربع وستين[٤]

---

(١) هو : قرقماش بن عبد الله الأمير سيف الدين ، الأشرف برسباي ، المعروف بالجلَبَ .

ترجمته في « هامش ٤ » من (ص ٣٩٤) من القسم الأول .

(٢) وهو : الملك العزيز يوسف بن الأشرف بَرْسْباي ، تولي السلطنة بعد وفاة والده في ١٣ ذي الحجة سنة ٨٤١هـ وكان عمره نحو ١٥ سنة ، ثم خُلع في ١٩ ربيع الأول سنة ٨٤٢ هـ بعد ثلاثة أشهر من توليه السلطة .

« خطط المقريزي » (٢ / ٢٤٤) .

ويُفهم من إشارة (للصيرفي) في « إنباء المصر » (١١١) أن قرقماش قريبٌ للأشرف بُرسْباي الذي جلبه من بلاد الجاركس إلى الديار المصرية ، كما ذكر (السخاوي) في « الضوء اللامع» (٦ / ٢١٨) أن قرقماش كان من معارف استاذه الأشرف برسباي ويقال له : أخوه الأشرف ، ويُظن أنه رضيعه .

(٣) في « النجوم الزاهرة » (١٦ / ١٥١) في يوم الجمعة ٢٧ .

(٤) وثمانمائة .

هذه ، واجتمع له الخلائق ، سرور اً به ، وكان يوماً مشهوراً [1] .

وفي هذا الحد ، وصل البَدْر حسن بن الخواجا الكبير شمس الدين محمد بن المُزَلِّق ناظِر جيش الشام ، إلى القاهِرَة ، فانزله الزينُ بن مُزْهِر ناظر جيش مِصر في بيت عبد الباسِط على بِرْكة الرَّطْلي ، وكان قد قُسِّم قسمين ، وكان البرهان بن الدَّيْري الذي أخذ عنه ابنُ مُزْهِر نَظَر الجيش ساكِناً في أحد القِسمين ، فَشَقّ عَلَى ابن المزلّق إنزاله هناك ؛ وكان يريد النزول في وسط البلد ، في غير جميل أحَد ، فإذا الأمْرُ قد أُحْكِم مع السلطان ، فشكى ضِيقَ المنزل ، ثم تحول مِنه إلى بيت بني الجيْعَان على البِرْكَةِ أيـضاً ، ووصل معه الشَّيْخ نجم الدين محمد بن القاضِي وَلِي الدِّين عبد الله بن القاضِي زين الدِّين عبد الرحمن بن قاضِي عجلون الشافِعي .

وفي يوم السبت سادِس ذي القعدة ، كان آخر شهر مسري ، سلخ السَّنَةِ القبطية .

وفي يوم الأحَدِ سابع ذي القعدة ، وهو الموافِق لأوّلِ أيّام النَّسِيء ، نودِيَ أنّ البَحْرَ زاد إصْبَعين ، فوَفَى إحدى عَشَرة إصْبعاً مِن تسع عشرة ذِراعاً ، وما عَلِمتُ أن الزّيادَة بطلت يَوْماً مِن الأيَّام مع المقاطِع التي تُقْطَع ؛ لتَنْبسط منها المياه على الأراضي ، ومع ذلك فالنّاس يتزاحمون على الغِلال يشترونها ، ويخزِّنُونها ، حتّى غَلَتِ أسعارُها بعد أنْ كانت انحطَّت

(١) الخبر في : « النجوم الزاهرة » (١٦ / ١٥١ ـ ١٥٢) ، و«بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٧٨) .

وعَزَّت ، بعد أنْ كانتَ هانت ، فلا قُوَّة إلاّ بالله ، وسألتُ بَعْضَ النّاس عَنْ سبب ذلك ، فقيل : انقطاع الطرق مِن عرب هوَّارة جماعة ابن غريب؛ فإنّهم بَطِروا [١] بكسرهم أميرَ سلاح ، وَزادَهم ذلك ، أنّه قَدِم إلى القاهِرَة ، ولم يُرابطهم بعد هزيمته شيئاً حتى قِيْلَ : إنّ بلادَ الصَّعيد ربما يتعطّل زرْعُها في هذا العام ، لهذه الفتنة ، وقال بعض النّاس : بل أخبرَ أَهْلُ التَّقْويم الداَّخِلون فيما لا يعينهم مِن الأمور المُسْتَقْبَلِيَّة بالغلاء ، فَحَزَّن بَعْضُ الأمراء ، فتبعه النَّاس ، نْسأل الله القوىَّ الكريمَ إكْذَابَهُم وإِرْخاصَ الأسعار آمين .

وفي هذا الحَدِّ وُلِّي القاضِي أبو الوفا شمس الدين محمد بن الحمصي قضاء الشافِعَّية بِغَزَّة ، عن ابن مفْلح ، وذلك أنّ خليل بن مفلح أخا شرف الدِّين موسي القاضِي بغزّة ، لما بالَغ في أذى أخِي أبي الوفاء ، رقّ له كثيرٌ مِن النّاس ، وكان منهم جماعَةٌ مِن أخِصّاءِ المقام الشهابي أحمد ، وَلَد السلطان ، فرقّقوه عليه ، وقاموا في أَمْرِه إلى أن وّلاه .

[٢٣٨] وفي يوم الاثنين ثامِن ذي القعدة ، ساعد شَخْصٌ مِن أكابر الأَجْلاَب يقال له : جانِبَك حبيب ، شَخْصاً في شيء ، وكان في ذلك معارضة لشخص آخر مِن أكابرهم ، فتعصّب لكلّ منهم ناسٌ إلى أنْ كانوا فئتين ، فَرَكِبوا ونزلوا إلى الرُّمَيْلَةِ ، وهمّوا بالقِتال ، فنزل إليهم مُقَدَّم المماليك [٢] ولم يَزَل يتردّد بينهم حَتَّى انكشف بعضهم عن بعض .

---

(١) بَطِروا : كفروا النعمة واستَخفُّوا بها .

« المعجم الوسيط » (١ / ٦١) .

(٢) وهو الطواشي مرجان العادلي الحصني ، منذ يوم الاثنين ٤ جمادي الأولى سنة ٨٦٢ .

« حوادث الدهور » (٣٤٤) ، و«النجوم الزاهرة» (١٦ / ١١٧) ، و«بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٥٤) .

وفي يوم الخميس ، حادي عشره عُمِل موكِبٌ سلْطاني ؛ بسبب أنه قَدِم عليه رسولٌ مِن البنادِقَة [1] ، فَلَمَّا اجتمع بالسلطان وخرَج سألَه بعضُ المباشرين (على ما قِيل) : في أيِّ شيء جاء. فقال : ما أُذِنَ لي أَنْ أُكَلِّمَ في حاجَتِي غيرَ السلطانِ في خَلْوَةٍ ، واليوم كان السَّلامُ ، وَبَعْده يكون الكلامُ ، فاختلَفَ النّاسُ ، فقيل : إنَّه قَدِم يَشْكوا مِن أَنَّ المتكَلِّمين عن السلطان في البَهَار [2] ، مثل ابن المزلِّق ، وابن قليب يُضَيِّقُون عليهم ويظْلِمونهم ويسندون ذلك إلى السلطان ، وقيل : بل صاحِبَة قُبرس أرسلته ؛ يتلافَى خاطِرَ السلطانِ في إبْقائِها على المُلْك ، وعَدَم غَزْوِها. والسبب في إرسالها تارَة مِن الكَيَتلان ، وتارَةً مِن البَنَادقَة ، أَنَّ الجزيرة مُسْتَضْعَفة فأَيْدي جميع الكفَّارِ عليها . هـذا المظنون والله أعلم.

فلما خاب رسولها الكَيَتلانِي ؛ لِمَا تقدّم لطائِفته مِن العَدَاوَةِ للسلطان ، ولابن عثمان جعلت هذا الثاني مِن البنادِقَةِ المعروفين بالتِّجارَة وَعَدم الإمْعان في الشّـرِّ ، ثـم تحرَّر أَنَّه إنما قَـدِم بسبب مظالِمٍ أُحْـدِثَت عليهم في

---

(١) البنادِقة : طائفة مشهورة من الفَرَنج قاعدة مملكتهم البُنْدُقِيَّة على طرف الخليج المعروف بجَوْن البنادِقة ، عمارتها في البحر ، وتتردَّد المراكب بين الدور ، ومركب الإنسان على داره ، ودنانيرهم أفضل دنانير الفرنج .

« صبح الأعشى » (٥/ ٤٠٤ـ ٤٠٥) .

والبندقية اليوم من أهم المدن الإيطالية في أقصى الشمال من البحر الأدرياتي .

(٢) البَهَار : عين البَقَر من الأقحوان الأصفر ، وهو نباتٌ له ساق رخصة ، وورق شبيه بورق الرازيانج ، وزهر أصفر أكبر من زهر البابونج ، له حدّة وحرافة .

« الجامع لمفردات الأدوية والأغذية » (١٢١) و « إحياء التذكرة » (١٨٩) .

ويبد وأن (البَهَار) أصبح يُطلق على كل ما له حدَّة وحرافة مما يُضاف إلى الأطعمة .

البَهَار والقطن وغيرهما ، فقال لهم الأمير بُرْدْ بَك صهر السلطان ودُوَيْدَاره: إنْ كان شيءٌ أُحَدِث مِن عشر سنين فأنا ضامِن إزالَته ، فرضوا بذلك .

وفي هذا الحَدّ ، تزوّجَت بنت بُرْدْ بَك العجمي بابن أَسِنْبُغَا الطيّاري وكانت قَبْلَه عِنْدَ ابن الزَّيْن أبي بكر بن مُزْهِر ، فخطب بنتَ القاضِي بهاء الدين محمد بن النّجم ابن حِجّي فأجابوه ، بشرط طلاقِ العجمية ، فأجاب ثم لما دَخَل على بنت حِجّي راجعها ، ثم جَرَت بينهم أمورٌ ، وترافعوا إلى السلطانِ وَزَوْجِه خَوَنْد مِرَاراً كان آخِرها أنْ طَلَّق بنتَ ابن حِجّي ، بعد أن تواتر وَصَحَّ أنها حُبْلَى مِنه مع بكارتها ، مع أنّه شابٌ لم يبلغ أربعين سَنَة ، بل ولا خَمْساً وثلاثين فيما أظن ، ولكن به ارتجالاً لا يَقْدِر على افتضاض بِكْرٍ ، ثم إنّه سأل في إعادَتها بعد أن حَجَّت مع أمها وأخيها سنة ثلاث وستين [1] ، فاشترطوا بَتَّ طَلَاقِ العجمية ، فطلَّقها ثلاثاً ، ثم إن ابن أَسِنْبُغا تزوّجها الآنَ بعد أنْ ثَبت طلاقُ ابن مزهِر لها ثلاثاً بقاض ، فلما بلغ ابن مُزْهِر ادَّعى أنّه لم يَبِت طلاقها ، فلما بلغه إيصال ذلك بحاكمٍ بشهادةِ مَنْ لا يَقْدِر على الطَّعْنِ في شهادَتِهِ ادّعى أنه كان مختلَّ العقلِ حين طَلَّقها ، غير واعٍ لما يقول ، وأثبت له هذا زوجُ أمّهِ العَلَمُ صالحِ البُلْقِيني ، فبلغ ذلك ابن أَسِنْبُغا فأخذ كِتابَ طلاقِها وكتابَ زواجِهِ لها ، وطَلَعَ بهما إلى السلطان ، فلمّا شرح له القِصَّة ، قال الأميرُ بُرْدْ بَك الدُّوَيْدَار صهره : أنا سألتُ ابنَ مُزْهِر عنها في الجمعة الماضِيةِ فقال : طَلَّقْتُها ثلاثاً . فأرسل السلطانُ إلى العَلَم يقول له : لا تتكلَّم في هذا الأمر ، وإنْ تكلّمت فيه فأنت معزولٌ فانتهى .

---

(١) وثمانمائة .

وفي يوم الجمعة ثاني عشر ذي القعدة هذا ، الموافِق لِأوّل توت ، أوّل سنة القِبْط ، وهو الذي يُسَمُّونه يوم النَّيْروز ، تعدى بَعْضُ العربان ، وفتح سدَّ الأميريَّة ، وقد كان مِن سُنيَّاتٍ يُفْتَح فيه ، ثم صاروا يؤخّرونه أيَّاماً ؛ فنقص البحرُ ، بسبب ذلك ، بعد أن كانت انتهت الزّيادَة إلى تسع عشرة إصْبعاً مِن الذّراع التّاسِعَة عشرة ، وكان مجموعُ النَّقْصِ لذلك عشر أصابع إلى يوم الاثنين نصف ذي القعدة ، ثم نودِي يوم الثلاثاء بزيادة خمس أصابع مِن النَّقْص ، واستمرَّ في زيادَة إلى أنْ وَفَى النقصُ وأكْمَلَ الذراعَ التاسعة عشرة ، ونُودِي يوم الاثنين ثاني عشري ذي القعدة الموافِق لعاشر توت بزيادَة ثلاث أَصابع مِن الذّراع المُوَفِّيَة عشرين ، واستمر إلى أنْ وصل في آخِر ذي القعدة إلى سبع عشرة إصْبَعاً مِن عشرين ذِراعاً ، ثم كان بعد ذلك يزيد تارَةً ، ويَثْبُت أُخرى ، وينقص أخرى [1] .

وفي هذا الحدّ بلغنا أنّ مدايني المحبِّ الباعونِي الذي كان وَلِيَ قضاءَ بيروت وصَيْدا وأعمالها شكوا عليه إلى نائب الشام الأمير جَانَم أخِي الأشرف ، فأحْضره ، فلمَّا تحقّقَ سوءُ سيرته وما هو منْطَوٍ عليه مِن أنْواعِ الفِسْقِ والتّهاون بالدّين ضَرَبه بالمقارع وأَوْدَعه السِّجنَ فأصاب فيه سبيل الرَّشاد .

وفي يوم الأَربعاء [2] سابع عشر ذي القعدة هذا ، قَدِم عَلِي بن غريب مِن سجن إسكندريّة وَسُلِخ جلْدُه ، وحُشِي تِبْناً وأُرْكب فرساً وَمرُّوا به في وسط القاهِرة ليذهب به محمد الصُّغَيّر (بالتّصغير مثقلاً) إلى بلاده ، كذلك ليُنْكى به طائفته مِن العَرَب ، لِأنّ مرادَهم بإمْعَانِهم في الفساد أن

---

(١) الخبر في « حوادث الدهور » (٣٤٢) .

(٢) الخبر في : « حوادث الدهور » (٣٤٢) ، و« النجوم الزاهرة » (١٦/ ١٥٢) .

يُطْلِقه السُّلْطانُ ، فَعُومِلُوا بضدِّ مُرَادِهِم إعْلاَماً بأنّها عِبْرَةٌ بهم ، ولا خوف مِنهم ، وإنْ هَزَموا طائِفةً مِن الأجْنَاد ، لِأنّ ذلك على خلافِ القياس ، لا لوَهنٍ في عسكر السلطان ، ولا لخلل في المملكة ، والله تعالى المسؤول في إصلاح الحال ، فإنّه نشأ مِن الفساد في الشرقيّة والصعيد ؛ غلاءُ سائرِ الحبوبِ لِقِلّة الجَلَب ، لخوف الجالبين على أنفسهم ، وعاقَة أهْل الصعيد مِن الزّراعَة .

وفي هذا الحدّ ، بلغنا أنّ علاءَ الدين علي بن بَلَبَان شيخ كَرَك نوح [1] خُنِق ، وسبب خَنْقِه أنه كان له مدَّة سنين لا يحضر على الحكّام مع إرسال خراجهم ، وما يجب مِن أمورِهم ، والسَّعْي في كلّ ما يأمرون به ، فهو عاصٍ في صُورَةِ مُطِيع ، وكان حاجبُ الحجَّاب جانِبَك مملوك بَرْسْباي ، الذي كان حاجِباً قَبْلَه بدمشق ، ثم ناب في طرابُلُس شديد الحُنْق عليه ؛ مِن أَجْلِ أن كَرَك نوح في إقطاعه ، فهو فلاَّحُه ولا يَحْضرُ إليه ، فكان يتوقع الظّفَر به ، وأنّ يسْجِنَه في القلعة ويخشى مِن المعارَضَة ، فكان يَسْتَنْجِزُ مراسيمَ السلطانِ بذلك مرسوماً بعد مرسوم ، إلى أنْ اجتمع عِنده منها عِدَّة ، منها واحِدٌ بقتله ، وكان شيخ الكَرْك قد وقع بَيْنَه وبين إخوته ، وبقيّة أقارِبه (ويُعْرَفون ببني الحُرِيس) شَحْنَا ، أدّت إلى وَهَنِ كلمته ، فخرج مِن الكَرَك إلى الفَرْزَل [2] ، فلما طال عليه الأَمْرُ كان مالَ إلى الحضور على الدَّوْلة ليقَوِّي جانِبه وكان يصانِع الأكابر وكان بَيْنَهُ وبَيْن جَانَم الذي صار نائبَ الشَّام صُحْبَة، فلما وُلِّيَ الشام قصده إلى حَلَب ، فطيَّب خاطِرَه وَوَلاَّه التَّقْدِمَةَ على البلاد التي كانت بيده غَيْر الكَرك .

---

(١) كَرَك نوح : قرية كبيرة قرب بَعْلَبك ، بها قبر طويل ، يُقال : أنه قبر نوح عليه السلام . «معجم البلدان» (٤/ ٤٥٣) .

(٢) الفَرْزَل : من قرى بقاع بَعْلبَك ، في لحف جبلها الغربي . «معجم البلدان» (٤/ ٢٤٩) .

وطال طلبُ الحاجِب له مِن نائب الشام وهو لا يُمكِّنَه منه ، فأرسل إليه الحاجبُ مَن أَطْمَعه في توليته الكَرَكِ على عادَته ، وكان قد بَنَى بها مدرسةً وأَبْنِيَةً هائِلةً ؛ فمال إلى ذلك ، فاستأذن نائبَ الشّام جَانَم في القدوم إلى دمشق لاسترضاء الحاجب ، وسأَلَه حمايَتَه منه إن لم يرض ، فأجابَه ، فنزل إلى دِمشق ، نزل عند[ناصر] [1] الدين .. [2] ابن شبل [3] الذي كان محتسباً بدمشق ، وهو كان السَّفير له في جميع ذلك .

فأرسل الأميرُ جَانَم ، نائبُ الشام إلى أستاذِه حاجب الحجَّاب جانِبَك ، مع ابن شبل المحتسب ليرضى عنه ، فوضعه في الحديد ، ورفعه إلى القلعة ، فغضب النائب ، وسأله في إطلاقِهِ ، فلم يَفْعل ، وقال : هذا مرسوم السلطان بقَتْلِهِ . فقال النائب : بأيّ جُرْمٍ يُقْتَل ؟! وأرسل إلى نائب القلعة وأَلَحَّ في الأمر ، فسلَّمه نائبُ القلعة لجماعَةِ النائب ، فَوَضعه في المسجد الذي في دار السَّعَادَة ، فَشَنَّع الحاجِبُ بأنّ نائبَ الشام عاصٍ للسلطان ؛ لِأنه لا يُنَفِّذ مراسِيْمَه ، وتكلَّم بهذا بعضُ مَن أطاعه ومِن الأكابر ، وتشاوَروا على المكاتبةِ إلى السلطان بذلك ، فبلغ النائبَ ، وعَلِمَ أنَّه لا غَرَض للحاجِبِ في قَتْلِ شيخ الكَرَك ، وإنما قَصْدُه التمكين منه ، ليصل منه إلى أَغْرَاضِهِ ، من عمارة الكَرَك ثم ما يُلزمه به مِن المال ، فطلب النائبُ الواليَ ليلاً ، وأمره بقَتْلِه ، فأصبح مُعَلَّقاً في المشْنَقَةِ تحت القلْعَةِ ، و (صار) [4] بذلك ممتثلاً لمرسوم السلطان ، وأَدْحض حُجَّتَهم فيما نسبوه إليه .

---

(١) ما بين الحاصرتين بياض في الأصل ، والتصحيح من « الدارس » (١/ ٥٩١) .

(٢) بياض في الأصل بمقدار كلمة لم نجد ما يصحّحه في المصادر الأخرى .

(٣) في « الدارس » (١/ ٥٩١) ابن شبلي .

(٤) ما بين الحاصرتين غير واضح الرسم في الأصل ، والتصحيح من مفهوم السياق .

فلما سمع الحاجِبُ ، عظمت المشقَّةُ عليه ، وأَنزله مِن المشْنَقَة ، فأرسله إلى الكَرَك ليُدْفَن في مدرسته ، ولم يسعه إلاّ السكوت ، ثم دخل النّاسُ بَيْنه وبين النائب ، فتصالحا وأَلْبَسه النائبُ خِلعَةً وفي القلوب ما فيها .

وكان علاء الدين هذا ، عاقِلاً ، رزيْناً ، تامّ البَدَن ، حَسَن التكْوِين ، شَهْماً شجاعاً ، ذا نَفْس أبيّة ومكارِم . ولكنّه كان رافِضِياً كأسْلاَفِهِ على ما يُقال ، والله أَعْلَم .

[٢٣٩] وفي يوم الخميس ثامِن عشر ذي القعدة مِن سَنَةِ ٦٤ [١] المذكورة وُلِّيَ أبو السّعادات [٢] محمد بن تاج الدّين محمد بن قاضِي القضاة جلال الدين عبد الرّحمن بن شيخ الإسلام عمر البُلْقيني نظر خانقاه سعيد السعداء ، على مبلغٍ بَذَله للسلطانِ قيل : إنه ثلاثمائة دِيْنار، ومبلغ بذله للساعِي له في ذلك ، ولبَقِيَّةِ المباشرين ، بحيث كان مجموعُ ما بُذِل نحو خمسمائة .

وكانت هذه الوَظِيفة قد آلت إلى الزَّين أبي بكر بن مُزْهِر ، فرآها كثيرةَ الشّـرِّ ، عديمةَ الخيْر ؛ لأن أبا الخير النّحّاس بدأ في خرابِها ، بسبب أنّه كان فيها نحو أَربعمائة صُوفِي ، فلم يُنْكَب إلاّ وقد جعلهم نَيِّفاً وسبعمائة ، ثم زادها شرفُ الدين موسى الأنصارِي خراباً ، وباع كثيراً مِن أوْقافها ، فلما رأى ابن مُزْهِر أمْرها استعفى منها في شهر رمضان مِن هذه السَّنَة ، فنفر النّـاسُ منها ، فكانت كلّما عُرِضَت على أحَدٍ من أَهـل الدّنيـا أباها

(١) هكذا ورد رسمها في الأصل رقماً لا كتابة ، وهي سنة ٨٦٤هـ.

(٢) الخبر في : « حوادث الدهور » (٣٤٢ـ ٣٤٣) ، و « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٧/٨).

لِأنهم لا يقصدون إلاَّ مَوْضِعاً يأكلون منه ، وهذه الآن لا يُقْبِلُ عليها إلاّ رجلٌ يريد الخيْرَ في بذل نَفْسِهِ ومالِهِ وجاهِهِ في عمارتها ، وذلك تعبٌ كلُّهُ ، أو رجلٌ أَحْمَق ، فكان هذا أَحْمَق الحَمْقى ؛ فإنَّه زاد على الحُمْق بَذْلَ المالِ الكثيرِ ، فكان ذلك موجِباً لِأن تَذَاكر أمرَه المقامُ الشهابي بن السلطان ، والقاضِي كاتِبُ السِّـرّ ، فقال ابن السلطان : هذا البيت (يعني البَلاَقِنَةِ) ليس فيهم عاقِلٌ ، هذا فَعَل بنفسه ما ترى ، وذاكَ الذي وُلِّيَ قضاء دِمشق (يعني وَلِي الدين بن تقي محمد بن بدر الدِّين محمد بن شيخ الإسلام عمر) بذل بَيْتَه الذي عَمَّرَه أبوه ، وهو مِن محاسِنِ البيوت ، ومالَه فكان جُمْلة ما تَكَلَّف نحو سبعة آلاف دِيْنار ، حَتّى وَلِيَ قضاءها ، وهو يحلِفُ جَهْدَ أيمانِهِ أنّه لا يَرْتَشِي ، ولا يأخذ مِن وَقْفٍ ولا غَيْرِهِ دِرْهماً مِن غير حلّهِ، فهذا إنْ وَفَى بما قالَ ، فهو في غَايَةٍ مِن قِلَّةِ العقل ، وإنْ لم يَفِ فهو في غايَةِ ما يكون مِن قِلَّةِ الدِّيْن ، يَعْنِي ولا يُعْتَذر عَنْه بأنَّ قَصْدَه الجهاد في الله ، فإنّه لا يمكنه في هذا الزَّمان مع ما حذَّر به النبيُّ ﷺ مِن الولايات في كلّ زمان ، فَضْلاً عن زمان الفِتَنِ ، لا سِيَّما والذي عَزَله مِن الوظيفة ، مِن أهل العلم والدِّين ، وَقَد جُرِّبت عِفَّتهُ وأمانَتهُ وسياستهُ ، ووفور عَقْلِه نحو عشرين سنة .

وأما هو فجرِّبت سِيْرَتهُ في أيّام قريبِهِ العَلَم على أيّام الظاهِر بضد ذلك وكان مما حُفِظ عَنْه مِن الطَّامَّات أن السَّعْد إبراهيم بن الجَيْعان القِبْطي بَنَى مَدْرَسَةً على شاطىء [النيـل] (١) بين الحجـازيّة (٢) والبرابخيـة (٣)

---

(١) ما بين الحاصرتين غير واضح الرسم في الأصل والتصحيح من مفهوم السياق .

(٢) الحجازية : اسم المدرسة بخط الجمالية على يمين السالك من الجمالية إلى قصر الشوك ، أنشأتها الست خَوَند تتر الحجازية بنت الملك الناصر محمد قلاوون ، زوجة بكتمر الحجازي سنة ٧٦١ هـ ، وعرفت فيما بعد بزاوية الحجازية .

« خطط المقريزي » (٢/ ٣٨٢ـ ٣٨٣) ، و « الخطط التوفيقية » (٢ / ٧٦ و ٦/ ٦ ، ٢٤ـ ٢٥)

(٣) البرابخية : اسم لمنظرة كان يمتلكها إبراهيم بن عبد الغني بن الجيعان كما أن الحجازية =

في سنة ست وخمسين ، وسبع وخمسين [١] ، فلما كَمُلَت ولّوا خَطَابَتِها لصديقٍ لهم مِن دَيَرُوط [٢] . وكان رجلاً صالحاً ، مُقْرِئاً خَيِّراً ، لا يعرف الرّياء ، فخطب خطبةً أَبْلَغَ فيها مِن التَّحْذير مِن الظّلْمِ ومِن فعل الخَيْرِ بِغَيْرِ الحلال إلى غَيْرِ ذلك مِن المواعِظِ الّتي أخذها الباني وأقاربه لأِنفسهم ، ثم قرأ في صَلاَة الجمعة ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَـٰجِدَ اللهِ شَـٰهِدِينَ عَلَى أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ ﴾ [٣] الآية ، مما[يُفهم] [٤] أنه قصدهم بجميع ذلك ، وأشار بالآية إلى سوءِ أصلهم ، فَصرفوه ، وَوَلّوا القاضِي وَلِي الدين هذا ، وكان موصوفاً بحسن الصَّوْتِ والأداء للخطبة ، وكان يخطب في زاوِية الشيخ مَدْيَن فخطب خطبةً راءاهم فيها ، ثم قرأ في الصَّلاة ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً للهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِن الْمُشْرِكِينَ شَاكِراً ﴾ [٥] ووقف على شاكِراً ، لِأنّ عَلَمَ الدين أخا إبراهيم اسمه شاكر ، فعدَّ النّاسُ ذلك عليه ، وقالوا : إنْ كان ذاك أساء الأدَبَ فهذا كفر .

وأما كبيرهم ، العَلَم صالِح فأَمْره معروفٌ في سفافِ الأخْلاق في عِلْمه وَدِيْنِهِ ، وأنّه رَضِيَ مِن حياتِهِ بما هو فيه مِن أكل الرّشَى ، وتغيير الأحكام ، غَيْر محتشم في ذلك مِن قريب أو بعيد ، أو رفيع أو وضيع .

= أيضاً تطلق على منظرة ببولاق .

« النجوم الزاهرة » (١٦/ ٢١٢) ، و « الضوء اللامع » (١/ ٦٨) ، و « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٧٠) .

(١) وثمانمائة .

(٢) دَيَرُوط : ذكرها (ابن الجيعان) في « التحفة السنية » (١٣٨) وأشار إلى أنها من أعمال ثغر الأسكندرية عبرتها (٦١٢٥) ديناراً .

(٣) التوبة/ ١٧ .

(٤) ما بين الحاصرتين ، إضافة اقتضاها السياق .

(٥) النحل/ ١٢٠ ، ١٢١ .

قلت : وَلَعَمْري إنَّ هذا الذَّمّ فيهم بَعْض الذمّ في مواليِهم ، وما أشبهه بقول الحلاَّج [١] المقتول على الزَّندقَةِ مجيباً لبعض أصدقائِهِ : وكل كتاب جاءني فردَدته إليك بلا ردّ الجواب جَوَابي .

وفي يوم لبس الخِلْعَة شَرَع أبو السَّعادات في تحصيل ما غَرِمَه فيها ، فأرسل إلى كلّ ذي وظيفة فأحْضَرَه ، وفتح له بابَ نكَدٍ في وظيفته ، فلم يصل مِن أَحَدٍ منهم إلى شيء حَتَى إنّه أحَضَر بَوَّاب جَبَّانَتِها وهي المسمّاه بمصر التربة فقال له : أنت حَصَّلت في هذا الطّاعون ألْفَي دِيْنار ثم حاوَله على أن يأخُذَ منه شيئاً ، فلم يُعْطِهِ واجتمع ببعض الأكابر واشتكى عليه فبعثوا إليه ، فتَركه وأرسل إلى جابي عمائِرِها فأراد مِنه شيئاً ، فقال له : إنَّ الأماكِنَ خرابةٌ وأنا أُدَارِيها مُدَارَاةٍ ، فليس بها إلاَّ التَّعب . فألَحّ عليه ، فقال : تركت جبايتها ، فانظروا غَيْري . وكان لَمّا لَبِس الخِلْعَةَ ركب معه قريبُه العَلَمُ صالِح قاضِي الشافِعِيّة ، والحُسَامُ بن حُرَيْز قاضِي المالكِيّة ، وبَعْضُ نوّابهم ، وأتى إلى الخانِقَاةِ ، فلما جلسوا بها قال العَلَمُ : اليوم مُسامحة ، أي يُصرف للناس مَعْلُومُهم مِن الخبز وغيره ، مِن غير حضور في وقت العصَرِ ، وقاموا على ذلك ، فلما أرسل إلى مَنْ ظَنّ أنّه يرشـوه ، ومـا

---

(١) هو : الحسين بن منصور بن مُحَمّى أبو مغيث ، أو أبو عبد الله ، البَيْضاوى ـ نسبة إلى مدينة البيضاء ببلاد فارس ـ المعروف بالحلاَّج ، كان جده مُحَمّى مجوسياً فأسلم ، ونشأ الحْلاج بواسط ، وقيل : بتُسْتَر ، ثم قَدِم بغداد وخالط الصوفية ، وسافر إلى الهند وتعلّم السحر ، وبدت منه كفريات أباحت دمه ، وحُبس في سنة ٣٠١ هـ ثم أُخرج يوم الثلاثاء لثلاث بقين من ذي القعدة ، وقيل لست بقين منه سنة ٣٠٩ ، فضُرب ألفَ سوطٍ ، ثم قُطعت أربعته ، ثم حُزَّ رأسه وأُحْرِقت جثّته ، ونصب على رأس الجسر أياماً .

له ترجمة في : «تاريخ بغداد» (٨/ ١١٢ـ١٤١) ، و «المنتظم» (٦/ ١٦٠ـ١٦٤) ، و «الكامل في التاريخ» (٨/ ١٢٦ـ ١٢٩) ، و «وفيات الأعيان» (٢/ ١٤٠ـ ١٤٦) ، و «العبر» (١ / ٤٥٤ ـ ٤٥٨) ، و «سير أعلام النبلاء» (١٤ / ٣١٣ ـ ٣٥٤) ، و «النجوم الزاهرة» (٣ / ٢٠٢ـ٢٠٣) ، و «شذرات الذهب» (٢/ ٢٥٣ـ ٢٥٧) .

حَصَل منهم على شيء أمر بكتابة الغيبة على النّاس ، فكتب عليهم ولم يَصْرِف لأحِدٍ شيئاً ، لِأَنَّهم لم يَحْضروا اعتماداً على المسامحة ، فأطلقوا ألسنَتَهم بِثَلْبِهِ والدُّعاءِ عليه ، فلم يحصل له مِن مجموع تصرّفه إلاّ الثناء السَّيء الموجِب للعار وغَضبِ الجبّار فلا قُوّة إلاّ بالله .

وفي هذا الحدّ رُسِم بكتابَةِ مرسوم إلى نائب صَفَد أن يُعيد نَفْيَ القاضِي بدر الدين ابن القفّ إلى القدس الشريف ، وأُمر كاتِبُ السرّ أن يُخْفي ذلك عن كل أَحَد ، لئلا يطّلع عليه الأمير بُرْدْ بَك صهر السلطان ، فيشفع فيه ففعل ذلك ، ولم يَبْلغ الأمير بُرْدْ بَك ذلك إلاّ مِن السلطان ، بعد أنْ ظنّ أن ابن القفّ قد صار في القدس ، فلم يسعه إلاّ إظهار الرِّضى والتسليم لما ظهر له مِن عظيم رغبة السلطان في ذلك .

[٢٤٠] وفي ثاني عشري [١] ذي القعدة هذا اختفى الزّين يحيى الإستَدَّار [٢] ؛ لعجزه عن سدّ وظيفته ، وذلك لِقِلَّة الحُرْمَةِ بانتشار الكلمة، وسمعتُ أنه كان آخِر ما ظَهَر مِن أسباب هربه أنه حَكَم في الخَوَلة [٣] الذين في بِلْبِيس بشيء ، فاجتمعوا عند رأس الأَجْلاب جانِبَك حبيب[٤] ، فأتاه فقال له : لِمَ تتعرض إلى خَوَلةِ بِلْبِيس ؟ فقال :

---

(١) في « النجوم الزاهرة » (١٦/ ١٥٢) ، وفي يوم الاثنين .

(٢) حادث إختفائه في النجوم الزاهرة » (١٦ / ١٥٢) ، و « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر)(٧٨) .

(٣) الخَوَلة : الخول ، هم الأتباع والعبيد .
«لسان العرب » (١٣/ ٢٣٨-٢٣٩) .

(٤) هو : جانبك العلائي بن أقبرس ، ثم الأشرف إينال ، ويقال له جانبك حبيب ، كان خاصكياً أيام أستاذه ، ثم أمير آخور ثاني أيام الأشرف قايتباي ، سافر في أوائل سنة ٨٩٠ هـ رسولاً لملك الروم ، مات بعد مرض طويل في المحرم سنة ٨٩٣هـ .
له ترجمة في : « الضوء اللامع » (٣/ ٥٩ رقم ٢٣٦) ، و « بدائع الزهور » (طبعة بولاق) (٢/ ٢٤٨) .

وهل يُنكر عليَّ ذلك وأنا إسْتَدَّار السلطان ، وكاشِف الجسور ؟! فقال : نعم ، لا تتعرَّض إليهم . فقال : لا أتركهم . فقال : إنْ تعرَّضت إليهم شبَّعت عُنقَكَ مِن السِّكِّ [1] . فاستعظم ذلك ، ثم شرع يدعو لابن الأهْنَاسي استصواباً لرأيه في الهرب مِن الوزَرِ ، ثم اختفى بعد يومين مِن هذا الكلام ، فَجُعِل سدادُ الوظيفة ، وأَمرُ المباشرين بها إلى الأمير فيروز الخَزَنْدار الزِّمام الخصي ، وأُعين بها سَدَّ بِهِ إلى أن أُلْبِسَ منصور صهر الإسْتَدَّار خِلْعةَ الإسْتَدَّاريَّةِ يوم الاثنين سلخ ذي القعدة هذا .

وفي ذي القعدة هذا ، صاهَرَ ابنُ الشِّحنَة القاضِيَ بَدْرَ الدِّين [الحسن ابن علي بن محمد بن أحمد بن علي بن محمد بن أحمد] [2] بن الصّواف [3] الحنَفَي الحموي ، وسار قاضِي الشّافِعِيَّة بِحلب جلال الدين أبو البقاء محمد بن قاضِي الحنفيَّة بها أثير الدين محمد بن كاتب السرّ المحب محمد بن الشحنة مِن حلب إلى حَمَاة ، فعقد لِعَمِّه أبي البر [4] بن المحب علي بنت بن الصَوّاف ، وسار معه جمعٌ جمٌّ لذلك .

---

(١) السِّكّ : المسمار .

«المعجم الوسيط» (١/ ٤٣٩) .

(٢) ما بين الحاصرتين بياض في الأصل ، والتصحيح من الهامش التالي .

(٣) هو : الحسن بن علي بن محمد بن أحمد بن علي بن محمد بن أحمد ، البدر أبو عبد الله بن العلاء بن الشمس الحصني ثم الحموي القاهري الحنفي ، المعروف بابن الصوَّاف ، ولد في سنة ٨٠٣ هـ ، وكان أصله من حَمَاة من أولاد التجار ، واشتغل بالعلم في مبدأ أمره ، ثم مال إلى المتجر وتحصيل المال ، وقدم القاهرة سنة ٨٦٦ هـ ، وصاهر ابن الشِّحنة ، وحصل بينهما شنآن ؛ بسبب النساء ، فسعى في القضاء حتى صُرف عنه ابن الشحنة وَوُلِّي مكانه في ٢٢ رجب سنة ٨٦٧ هـ ، ومات في المحرم سنة ٨٦٨هـ .

له ترجمة في: «النجوم الزاهرة» (١٦/ ٣٢٦) ، و«الضوء اللامع» (٣/ ١١٣ رقم ٤٤٣) .

(٤) هو : عبد البر بن محمد بن محمد بن محمد بن محمود ، سري الدين أبو البركات بن المحب أبي الفضل ، الحلبي ، القاهري ، الحنفي ، المعروف بابن الشحنة ، ولد في ليلة الثلاثاء =

ولمّا انقضى يوم الاثنين التّاسِع والعشرون مِن ذي القعدة تراءى القضاةُ الهِلاَلَ ليلة الثلاثاء على مِئذَنَةِ المدرسة المنصوريَّةِ بالقاهِرة على العادَةِ ، فلم يُخْبِر أَحَدٌ مِن الناس برؤية الهِلال إلاّ شَخْصٌ أسودٌ كان عَبْدَاً مِن جماعَةِ العَلَم صالِح البُلْقِيني قاضِي الشافِعِيّة وآخر مِن آحاد أتباعِهِم فأُشير إلى القاضِي ولي الدين محمد بن الشهاب أحمد الأسيوطي أن يسمع شهادتهما ، فسمعها ، ثم قال : من رآه غيرهما ، إشارة إلى عَدَم الإكْتفاء بهما ، فقال : العَلَمُ : يكْفي ، يكْفي . فَعَلِم الأسيوطي مُرَادَه ، وكان قد لان جانِبُه بموتِ ناظِر الخاص الجمال يوسف ، وكان قريبَ عهدٍ بتَغَيُّظِ السلطان عليه ؛ مِن أجل إبطائه عن الحضور لقراءة البخاري ، وفي الوقت الذي أرادَه السلطانُ . فقال : يكفي . ثم انتظر الناسُ أهل القلْعَةِ وبولاق وغيرهما ، فلم يتحدَّث أَحَدٌ برؤيته ، ولا جاء أَحَدٌ مِن أهلِ القرى فأخبر بشيء مِن ذلك ؛ فاتّهَمَ النّاسُ العَلَمَ بأنّه فَرَّ مما يُشاع أنَّ الملوك يتشاءمون بموافقة العيد للجمعة ، فلم يُضَحِّ كثيرٌ مِن النَّاس يوم الخميس ، ولا قُوَّة إلاّ بالله .

وفي يوم الثلاثاء ، الذي جعلوه أوّل الشهر سلَّم القُضاةُ على السّلْطان في إيوان الدَّهِيْشَةِ ، بكرة على العادة ، إذ لم يكن اليوم يوم خِدْمَة ، فطلع معهم أبو السّعادات ؛ لِأجْلِ نظره على سعيد السعداء ، ولم تكن له عادَة بالسّلام ، فذهب إلى الميمنة يروم الجلوسَ إلى جانب القاضِي المالكي

=٩ ذي القعدة سنة ٨٥١ هـ بحلب ، وانتقل مع أبويه إلى القاهرة ، وأخذ عن علمائها ، وأفتى وناب في القضاء ، زوجه أبوه بابنة العضدي الصيرامي بعد امتناع البدر بن الصواف من إعطائه ابنته ، درّس في الشيخونية والمؤيَّدية ، مات في سنة ٩٢١ هـ .

له ترجمة في : « الضوء اللامع » (٤/ ٣٣ رقم ١٠٢) ، و « شذرات الذهب » (٨/ ٩٨ـ ٩٩) .

فسبقه السِّـرَاج عمر العبادِي إلى ذلك على عادته ، فجلس دون العبادي ، ثم بَعْد أنْ استقرّ بكل أَحَدٍ مَجْلِسُهُ ، وثَبَ مِن مكانه وجاء إلى المَيْسَرَةِ ، فجلس فَوْقَ نقيب الأشراف إلى جانِب الحَنْبَلِي ، فلم يُوَسِّعوا له فصار جلوسُهُ أَمَامَهما وعلى بعض ثياب كلٍّ منهما ، فاسْتَسْمَجَ [(١)] الحاضِرون ذلك مِنه ، وقضوا بِجنّه وأَخَذَتْه أَلْسِنَتِهم في المجلس ، بعد انقضائِهِ ، وصار سُبَّةً في البَلَدِ ، ما لِغالِب الناس شغل إلاّ الحديث فيه ، ودار العبادي على من يعرفه مِن الأكابر ، وذكر لهم أنّه يخاف أن يدافِعه في الجلوس في الشهر الآتِي ، فوعدوه بأنّه إنْ فعل منعوه ، فلم يعد إلى الحضور لذلك .

وفي يوم الجمعة ثانِي عيد النحر نودِي أنّ الفضّة تكون بالميزان ، وكان النّاس مِن حين أصلحها السلطان يتعادُّونها ، فشق ذلك عليهم ؛ لإلْفِهِم له ، والمشقّةُ في مُفَارَقَةِ المألوفِ معروفَة ، فأكثروا الدّعاء عَلَى مَن كان السَّبب في ذلك ، فنودِي بإبْطال ذلك ورجوعِ المعامَلَةِ إلى المعَادَّة ، فاسْتَقَرّ الحالُ بَعْد اضطرابِهِ ، واستمر البحرُ يزيد تارَة مِن النقص الذي نَقَصَه بعد أنْ وَصَل إلى ستّة عشرة إصْبَعاً مِن الذّراع المُوَفِّيَة عشرين ، وينقص تارَةً ، ويثبت أخرى إلى نصف ذي الحجّة هذا ، وهو يوم الثلاثاء الموافِق لثالِث بابه [(٢)] مِن شهور القِبط ، فظهر فيه النَّقْصُ .

الكماخي

وفي هذا الحد ، بَلَغَنَا أَنَّ القاضِي محـب الديـن محمد [بن محمد [(٣)] بن

---

(١) اسْتَسْمَج : استقبح .
« المعجم الوسيط » (١/ ٤٤٧) .

(٢) عن هذا الشهر ، راجع « خطط المقريزي » (١/ ٢٧٠) .

(٣) هو : محمد بن محمد بن عمر بن محمود ، المحب بن الشمس الكماخي الحنفي ، ناب في الحكم ، واستقر في تدريس الظاهرية العتيقة .
له ترجمة في « الضوء اللامع » (٩/ ١٧٨ رقم ٤٥٥) .

عمر بن محمود] [١] الكماخي الأصْل المصري الحنفي ، مات بدمشق ، فكأنه مات في أواخِر ذي القعدة أو أَوائل ذي الحجَّة ، كان له تعلُّق بالشَّام عِند بَعْضِ الظَّلَمةِ ، فسافَرَ لِخَلَاصِهِ ، وكان فاضِلاً في الفقه ، عارِفاً بالوثائق ، حَسَنَ الخطِّ ، والعِشْرَةِ ، مليحَ الشَّكَالَةِ ، عَذْبَ الألْفَاظِ، وأظنّه جاوَز الخمسين ، رحمه الله . وخلَّف ولَدَه القاضِي برهان الدين إبراهيم [٢] ، وهو مِن وجوه النوّاب الحنَفِيّة ، عِفَّةً ونزاهَةً وقِياماً في الحقّ ، مشهوراً بذلك على قرب ولايته ، وكان في هذا العام قد حجّ ، جَبَر الله كَسْرَه . وأخذ الشيخ أمين الدين الأقصرائي وظائِف أَبِيه له بولاية من السلطان وولاية مِن النَّظَّار جزاه الله خَيْراً .

ثم بلغنا عَقِب ذلك موت شرف الدين [أحمد] [٣] بن التاج المصري الموقّع في دِمشق ، كان سافَر إلى بلاد الشام لتعلُّقَاتٍ له في بلاد الشام، ثم رجع إلى دمشق، وكان بها وباء من حمَّى فمات بها ، وكان وقَّع عند القاضي ناظر الخاصّ الجمالِ يوسف ، ثم بعد ناظِر الخاص ، الزَّين عبد الرَّحمن بن العَلَم بن الكُوَيْز ، ولعلّه كان قارَب السَّبْعِين ، وكان غير معتمد في أموره، لا في التّوْقِيع ، ولا في الشهادَة .

وبلغنا أيْضاً موت .. [٤] بن البطخاصِي ، ناظِر الجيش بَصَفد ، وَقَدِم ابنه .. [٥] يسعى في وظيفته .

---

(١) ما بين الحاصرتين بياض في الأصل ، والتصحيح من الهامش السابق .

(٢) هو : إبراهيم بن محمد بن محمد بن عمر بن محمود ، سعد الدين بن محب الدين الحنفي ، المعروف بابن الكماخي ، ولد في ١٩ شعبان سنة ٨٣٥ هـ بالقاهرة ، من تلاميذ الأمين الأقصرائي ، استقر بعد أبيه في تدريس الفقه بالظاهرية ، وبمدرسة قلمطاي ، مات يوم الاثنين ٨ ربيع الأول ، أو ليلة ٩ منه سنة ٨٨٦هـ .

له ترجمة في « الضوء اللامع » (١/ ١٦٠ ـ ١٦١) .

(٣) ما بين الحاصرتين بياض في الأصل ، والتصحيح من « الضوء اللامع » (١١/ ٢٣٨) .

(٤) بياض في الأصل بمقدار كلمتين ، لم نجد ما يصححه في المصادر المتيسرة .

(٥) بياض في الأصل بمقدار كلمة ، لم نجد ما يصححه في المصادر المتيسرة .

وفي نحو العشرين مِن ذي الحجَّة ، وصل الخَبَرُ عن الجيش الذين سَافَرَوا إلى قُبْرس أنهم قارَبوها في أواخِر ذي القعدة ، فخرج عليهم ريحٌ عاصِفٌ ردَّهم عنها ، وكان ماؤهم قد قَلَّ فقصدوا طرابُلُس ، فوَصَلوا إليها متفرِّقين فرَوَّوا مِن الماء ، واشتروا ما يحتاجون إليه ، ثم تَوَجَّهَوا نحو قبرس في ثانِي ذي الحجّة . وكان الذي كاتب بِخبرهم هذا ، الأمير شهاب الدِّين بن قُليب إِسْتَدَّار السلطان بها ، وعَجِبَ السلطانُ من نائب طرابُلُس في عَدَمِ إرساله بذلك[1] .

وفي أواخِر هذا الشهر قَدِم الشيخ كمال الدين محمد بن أبي شُرَيْف القدسي ، ومعه أبوه ناصِر الدين محمد بن أبي بكر .

وفي هذا الشهر اشترى القاضِي محبُّ الدِّين بن الشحْنة ، كاتب السرّ بيتَ الخطيري ، الذي في دَرْب الأصفر [2] أمام المدرسة البيبرسِيّة ، بعد أن كان حَلَّه مِن الوَقْفِيَّة الجمالُ يوسف ناظِر الخاص بن كاتب شكم .

وفي مغرب ليلة الأحَدِ سابع عَشْرِي ذي الحجة مِن سنة أربع وستين [3] هذه ، الموافِق لخامِس عشر بابه ، مِن أشهر القِبْط وَقَع مَطَرٌ متقطّع ، بحيث زَلَّق الأرض ، والمطر في مثل هذا الوقت إيْذانٌ بهبوط البَحْر ، وكذا وقع ازداد هبوطه .

وفي هذا الشهر ، نزل الأمير بُرْدْبَك الدُّوَيْدار عن نظر وَقْفِ الأسْرى بدمشق ، وكان أَخَذ عن ناظِر الخاص ، الجمال يوسف عند موته للجمال

---

(١) الخبر في « حوادث الدهور » (٣٤٣) ، وجاء فيه أن الخبر ورد بذلك في اليوم الأول من ذي الحجة .

(٢) جاء في « خطط المقريزي » (٢ / ٤٤) أنه تجاه خانقاه الملك المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير ، وموضعه المنحر .

(٣) وثمانمائة .

الباعونِي والنجم محمد بن الولي عبد الله ابن قاضِي عجلون بخمسمائة دينار ، فأراد النجمُ الأشهاد على السلطان بالتقرير للحكم في ذلك ، فدفع الأمير بردْ بَك القِصَّة لابن مُزْهِر ، ليأخذ عليها خط السلطان من غير أن يذكر أنه هو النازل ، فأراد ابن مُزْهِر تحويل القَضِيَّة إلى الولي البُلْقِيني ، وأخّرَ القِصَّة في اليوم الذي أعطاه إيّاها ، وكلَّمه في ذلك حَتّى غاظَه ، فقام الأميرُ بُردْ بَك في ذلك ورأى أنّه قد اهتضم أمره بأن ينزل عن شيء فيتكلّم أَحَدٌ في رَدِّه ، فَصَرَّح بالقضيّة للسلطان في غَيْبَةِ ابن مُزْهِر فأمضاها بعد أن أظهر التعتّب على الباعونِي وأنه ما قصد بعزله إلاّ تأديبه .

وفي أواخِر[1] هذا الشهر ، مات الشريف محمد [2] بن القُبيباتي الشامِي عن نحو سبعين سنة فيما أظن ، وكان قد قطن مصر في مدّة مديدة ، وكان له أخ يكفيه أمر تَعَلُّقَه بدمشق ، فمات أخوه في طاعون هذه السَّنَةِ ، فاشْتَدَّ قَلَقُه عليه ، فسافر إلى دِمشق بعد رمضان ، فمات رحمه الله فلقد كان رجلاً عظيماً في هِمَّته ومروءته ومشورته وبركته وقضاء حوائج النّاس ، وحُسن محاضرته ، وكان ملجأ لعبادِ الله لا سِيّما الشامِيين ، رحمه الله .

سنة خمس وستين وثمانمائة ، أَهَلّها الله علينا باليُمْنِ والإيمان والسَّلامة والإسلام ، استهلّت بالخميس [3]، باكمال العدّة مع الرؤية ، ووافق ذلك تاسع عشر بابَه مِن أشهر القِبط فطلع القضاة وهم : العَلَم البُلْقيني

---

(١) في « الضوء اللامع » (٧/ ١٢٦) في ٢٥ ذي الحجة سنة ٨٦٥ هـ .

(٢) هو : محمد بن أحمد ، الشريف الشمس الحسيني القُبيباتي الدمشقي ، كان من أعيان التجار، وممن صار بالقاهرة مرجعاً للشاميين .

« الضوء اللامع » (٧/ ١٢٦ رقم ٢٨٢) .

(٣) هكذا أيضاً في « النجوم الزاهرة » (١٦/ ١٥٢) .

الشّافِعِي ، والسَّعْد الدّيْرِي الحنفي ، والحُسام بن حُرَيْز المالِكي ، والعز الكناني الحنْبَلِي ، يسلِّمون على السلطان في إيوان الدَّهِيْشة كما هو العادَة ، بِأنّه إذا كان غَيْر أيّام القَصْرِ يُسَلِّمون هناك بكره ، وإذا كان أوّل الشَّهْرِ مِن الأيّام الَّتي ينام فيها السلطان في القَصْرِ فالسّلام فِيهِ وقت العَصْر وكان السلطان [٢٤١] قد أَمرهم إذا جاءوا للسلام أن يَتَكَلَّموا في مسألة وعاب عليهم سُكُوتَهم ، ففتح الشافِعي في هذا اليوم الكلامَ في شيء فَمدّ السلطان يَدَه إشارَة إلى قَطْع ذلك الكلام ، وقِراءة الفاتِحة والانصراف فأخزاهم بذلك ، وكان قد حَدَث منه بعد السَّلْطَنَةِ تجبُّرٌ عظيمٌ ، عُرِف به أنَّ تواضعه قبل ذلك إنما كان لما تَقَرَّرَ مِن قواعِدِ الشَّرَاكِسَةِ ، أنهم لا يجتمعون إلاّ على مَن يألفون لِيْنَه ، فلما تَمَكَّن استمر على لِينهِ لهم ، وظهر تَجَبُّره على غيرهم .

وأُخبرت عن قاضِي القضاة الحنبلي وغيره أنه وقف له شخصٌ مِن النّاس في هذا المجلس بحضرة القضاة ، فشكى إليه أنّ شخْصاً مِن مماليكه أسرف في ظُلْمه ومِن ذلك أنه أخذ زوجَتَه ، فأمر مَن قال له : تعال غَدَاً ، فعلم مِن ذلك أنه ما أراد إلاّ صَرْفه عنه ؛ لأَنَّه لم تجر العادة بالجلوس يوم الجمعة ، ولا الحكم ، ومن تَجَبُّره أيْضاً أنه كان عاب على القضاة إتيانهم مَن غَيْرِ نُوّاب ، وكانت عادتهم أنْ يُجْلِسوا نُوّابهم بعيداً عن مجلس السلطان أَدَباً معه ، فأَحْضروهم مَرَّةٌ ، فلما جلسوا تَغَيَّظ غَيْظاً عَظِيماً ، وأمر بإيقافهم ، فوقفوا ، ثم أمر بصرفهم على هَيئة الغضب ، فَعُلم أَنَّه لم يكن القصد بإحضارِهم إلاّ إظهارِ إهانتهم ، ومما يدل على عدم اكتراثه بالدِّين وأهلِهِ ، أَنَّه كان على بحرة فسقيّة الدَهِيْشة هيئة طائر مِن نحاس مطَلْي بذهب إذا أُجْرِي الماءُ إليها جرى مِن منافِذه ، فكانت

له رؤية [١] ، وكان ذلك على أيَّام الأشرف بَرْسْباي ، فلما وَلِيَ الظاهرُ جَقْمَق ، وكان يُظهر النُّسُك [٢] ، ويَلْهَجَ بسيرة عمر بن الخطاب ؛ إيهاماً أنه يسير بها ، فأزال ذلك الظاهر ، فلَّما وَلِيَ هذا ، أمر بإعادته ، فحدَّثني الشيخ محبُّ الدين محمد بن الأقصرائي أحد أئمته أنَّه نهاه عَن ذلك برفْق فلم ينته ، فقال له : يا مولانا هذا مانعٌ مِن حضور الملائكة ، فإنّ النّبي ﷺ ، قال : « إنَّ الملائكة لا تحْضرُ بيتاً فيه كلبٌ ولا صورة » [٣] فقال له : الملائكة تعرف طريقها . فلا قوْة إلاّ بالله ، إليه سبحانَه نشكوا ، ونسأله مِن فَضْلِه ورحمته .

وفي هذا الحد ، كان أمير المدينة زُبَيْري قد [سجن] [٤] شخصاً مِن أقاربه يُقال له دبوس للإطلاع عليه أنه سرق قناديل الحجرة الشريفة النبوية ، ثم أطلقه بعد أيَّام ، فأراد أن يفعل فعلةً فاحِشةً ، تكون سبب عزل [زُبَيْري مِن] [٥] المدينة ، فأتى إلى باب المسجد الشريف ، فَوَجَد ناصِر الدِّين أبا الفَرَج [٦] بن القاضِي زين الدين المراغي العثماني وهو

---

(١) رؤية : منظر حسن .
« المعجم الوسيط » (١/ ٣٨٤) .
(٢) النُّسك : الزهد والتعبّد .
« المعجم الوسيط » (٢/ ٩١٩) .
(٣) أخرجه (البخاري) في « صحيحه » (٧٧ كتاب اللباس ـ ٨٨ باب التصاوير / ج ٧/ ٦٤) بلفظ « قال النبي ﷺ : لا تدخل الملائكةُ بيتاً فيه كلبٌ ولا تصاوير » .
(٤) ما بين الحاصرتين رسمها في الأصل (سحص) .
(٥) ما بين الحاصرتين غير واضح الرسم في الأصل ، والتصحيح من مفهوم السياق .
(٦) هو : محمد بن أبي بكر بن الحسين بن عمر ، ناصر الدين أبو الفرج بن زين الدين المراغي ـ نسبة إلى مراغة بمصر ـ ولد في صفر سنة ٨٠٦هـ بالمدينة النبوية ، ونشأ بها ، وأخذ عنه أبرز علماء مكة والمدينة في فنون مختلفة : الحديث ، والفقه وأصوله ، والبيان والمعاني ، والتفسير ، ودخل القاهرة سنة ٨٤٣هـ وأخذ عن علمائها ، مات صبيحة يوم الجمعة ٢٠ محرم سنة ٨٨٠هـ بالمدينة .
له ترجمة في : « الضوء اللامع » (٧/ ١٦٥ رقم ٤٠٢) ، و« نظم العقيان » (١٤٠ رقم ١٣٦) .

رئيس المدينة الشريفة ومِن أعيانها في العِلْم والسَّند ، فَضَربه بالسَّيْفِ فَحَمَتْه العِمَامَةُ فقطعها وجرحه في كتفه جرْحاً بالِغاً ، ثم ثنّى عليه بضربة أخرى فتلقّاها بصنجارةٍ معه ، وقرب مِن الضَّارِب وصاح ، فخاف الضارِبُ فَهَرب وخرج من المدينة ، فعلم زُبَيْري أنه ما عمل ذلك إلاّ لِأذاه ، فانْتُدب شخصٌ مِن أقارِب زبيري فقتل دبوساً ، فقَتَل شخصٌ مِن أقارِب دبوس قاتِلَه ، فانتشر القتل بينهم إلى أن وصل إلى بضعة عشر رجلاً ، ثم كانت عاقِبَتهم أن خرجوا مِن المدينة كما سيأتي ، في مثل هذا الوقت مِن العام الآتِي إن شاء الله .

وفي يوم السَّبْت ثالِث محرَّم هذا ، وقعت عجيبةٌ ، وهو أنْ شَخْصاً لابِساً زَيَّ الفقراء مَرّ على بَيْطار [1] ينعل خَيْلاً لشخصٍ قِبْطِي مِن أولاد البقرِي ، فأظهر التَّوَلُّه [2] وَوَثب على فَرَس مِنْها فَرَكِبه في وَلَهِ ذلك ، ثم ساقه وهو يَتَوَلَّهُ فأبهت الناسَ فِعْلُه ، ثم تبعه بعضُ من له عناية بذلك ، وصاروا يسألون عنه ، فَيُخْبَرون أنّه مَرَّ سائِقاً الفرس يَتولَّه ، فخرج مِن باب النَّصْرِ ، ثم اشتد في سَوْقِ الفَرَس ، ففات الطَّلب ، ثم قيل إنهم ظفروا به ليلة الأَحَدِ في ناحِيَة قَلْيوب ، ثم تحرَّر أنّ أمير العَرَب ظفر به هناك فاستنكر أمْرَه ، فأخذ الفرسَ منه ، ثم وصل غلام الفرس يقفوا أثره ، فأعطوه الفرس ، وأُرسل بالفقير إلى المقْشَرَةِ ، سجن المجرمين .

وفي آخِر هذا اليوم وَصَل الأميرُ جانِبَك شادّ جُدَّة ، ومعه كثير مِن الحجاج [3] ، ثم طلع إلى السلطان بكرة يـوم الأَحد ، رابع الشهر ، فَخَلع

---

(١) بَيْطار : معالج دواب .
« المعجم الوسيط » (١/ ٧٩) .
(٢) التَّوَلُّه : وَلَهَ فلان ، يَلِهُ وَلَهاً ، اشتد حزنهُ حتى ذهب عقلُه ، وتحيَّر من شِدَّة الوَجْد .
« المعجم الوسيط » (٢/ ١٠٥٧) .
(٣) الخبر في « النجوم الزاهرة » (١٦/ ١٥٢) .

عليه على العادَة ، وَوَصل معه بشير الحاجّ ، وتأخّر عن عادَته ؛ فإنّ عادَتَه كانت أنْ يصل بَعْدَ الخامِس والعشرين مِن ذي الحجّة ، وأَخْبَر أَنَّ وقْفتهم كانت يوم الخميس مِن غيْرِ شك ، وأن الحجاج بخير وعافِيَةٍ ، وأَطْلَق لِسَانَه في العَلَم صالِح ؛ لكونه أَثْبَت أَنَّ أَوَّل ذي الحجّة الثلاثاء ، وأنّه عمل ذلك بالغرض ، فَلَمَّا بَلَغ الشافِعي عاوَدَه الاسهالُ الذي ينزل به كل قليل .

وفي يوم الثلاثاء سادِس الشهر ، قَطَع أبو السَّعادات خُبْزَ خانقاه سعيد السعداء ، وكان قد سار فيها في هذه الأيّام اليسيرة أَقْبَح سيرة ، بحيث أَنَّه كان لا يُمْضي لِأَحَدٍ نزولاً إلاّ برشوة يأخذها ، ويطلب بفمه ، وإن كان بَيْنَه وَبين المَنْزُول له واسِطةٌ سأله ذلك الواسِطة بحضرة المُعْطي أنّه وَصَل إليه ذلك القدر ، فيقول : نَعْم ، وَيَحْتجّ في ذلك بأنّه ما وَلِيَها إلاّ ببذل مالٍ منه إلى غَيْر ذلك مِن السَّفالات ، فشاع له بين الأكابِر أَقْبح صِيْت ، وحَصَل له غايَة المَقْت ، فلما قُطع الخُبْزُ ضجوا مِن ذلك بأجمعهم في الخانقاه ، وصرخوا بِلَعْنِهِ ، وقالوا : ما يَحِلّ لِلأَمير بُرْدْ بَك أَنْ يبيع السُّلْطانَ بثلاثين ديناراً . ألم يَعْلم [٢٤٢] أَنَّ هذه الخانْقَاه سمٌّ على من يتهاون بها ، نحن نَجْمع مِن بَيْننا ما بذله هذا للسلطان ؛ ليعزل عنا هذا إن كان يُبْقِيه لما أعطاه ، ونحو هذا مِن الكلام ، وإنما خَصُّوا الأمير بُرْدْ بَك بهذا الكلام، وإن كان غيره أخذ أكثر منه، لرجائهم نفعة، فإنه أقرب أهل الدولة إلى الخير والمساعدة فيه ، ثم طلبوه إليه وشكوا حالهم معه، فلم يفدهم ذلك شيئاً مع اعتراف الأمير بُرْدْبَك بجنّه ، وقِلَّةِ دِيْنِهِ ، وسوءِ تصرفه في الخانقاه على قرب مدّته .

وفي هذا الشهر ، ظهر مرسومٌ مِن القاضِيَيْنِ ، العَلَم البُلْقِيني الشافعي ، والسَّعْدِ الدَّيْرِي الحَنَفِي إلى نوَّابِهم ، يتضَّمن منـع القاضـِي فخـر الدِّين

محمد[1] الأُسيوطِي الشافِعي أن يحكم في قَضِيّةٍ تتعلّق بِذِمِّي ، وَمَنْع ابنه بدر الدين محمد أن يتكلَّم في شيء يتعلّق بأهل الذّمّة ، وَمَنْعِ النّوّاب مِن سماع شيء مِن أمور أَهْلِ الذّمّةِ يكون للأسيوطِي فيه دخْل ؛ وذلك لِما شاع مِن أَذَى المذكور وابنه لِأهلِ الذّمّة ، بحيث لم يكن لابنه مأوى إلاّ حارَة اليهود والنّصارى يَتّبع عثراتهم ، فكان هذا المرسوم مِن أفْحَش القبائح على الشّافِعي ، وهو لا يشعر ، لِأنّ مِن لا يوثق به في أَهْل الذّمّة لا يوثق به مطلقا .

وفي هذا الحدّ وَصَل مع جَلَبَة المماليك شَخْصٌ مِن الشراكِسة كهْلٌ ، يزعم أنه ابن السلطانِ ، فتكلَّم السلطانُ مع تاجرهم في أَمْرِه ، وكان مِن كلامه ، أنّه قال : أَنْا أُخذت مِن بلادِنا صغيراً ، فلا عِلْم لِي بِصحَّةِ ذلك ، فقل لهذا : أنَّه إن ظهر لنا مِنه خيراً أحْسَنّا إليه ، وإن بدا مِنْه شَـرٌّ فلا هو منيّ ولا أنا منه وسماه ..[2] فأعجب النّاسُ ذلك وَدَعوا له بسببه .

وَقَدِم أيضاً آخرٌ رومي ، يقول : إنه خال يونُس الدُّوَيْدَار الكبير ، ورأيت الأميرَ بُرْبَك الدُّوَيْدار الثاني صِهْر السّلْطان يَتَطَيّر مِن ذلك ، ويقول : إنّه استقرى أنّه ما وَرَد على عين مِن الجند قريب له إلاّ أُخذ عن قريبٍ وعدَّ جماعةً نحو العشرة . وقع لهم ذلك .

---

(١) هو : محمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن هبة الله بن عبدالرحمن فخر الدين الأسيوطي القاهري الشافعي ، ولد سنة ٩٢أو ٧٩٣ هـ بالقاهرة ، ونشأ بها ، وأخذ عن علمائها في فنون مختلفة ، وناب عن الجلال البُلْقيني سنة ٨٢٢هـ ، مات في جمادي الآخرة سنة ٨٧٠هـ .

له ترجمة في : « عنوان الزمان » (مخطوط) (٦٤٦ ـ ٦٤٧) ، و « الضوء اللامع » (٩ / ٣٧ رقم ٩٧) .

(٢) بياض في الأصل بمقدار كلمتين .

وفي هذا الشهر ، انتقل القاضِي كاتِبُ السّـرّ المحب بن الشّحْنة إلى بيته الذي اشتراه في دَرْب الأَصْفَرَ ، وهو يُعرف ببيت الخطيري ، وكان نَزَله الشمسُ بن الدّيْرِي ، وابن العجمي المحتسب ، وقاضِي المالِكِيَّةِ الولي السُّنْباطِي ، وكان قبلُ وَقْفاً ، فَحَلَّه الجمال يوسف ناظِر الخاص ابن كاتب شكم .

وفي هذا الحد ، قلّ طالِبُ الحبوب ، فانْحَلَّ السّعْرُ ؛ للطُّمأنينة بِرَيِّ الْبِلَاد ، وزرع النّاس على عادتهم ، فنزل القمحُ إلى مائتي دِرْهم ونحوها ، والفولُ إلى مائتين وخمسين ، والشَّعِيرُ إلى أقلّ مِن مائتين ، فلله الحمدُ .

وفي سادِس عشر محرّم هذا ، وهو رابع هتور [1] مِن شهور القِبْط ، مُنع الناسُ مِن الملء من الخليج ، فكان انتفاعهم به مدّة ثلاث شهور سواء .

وفي هذا الحدّ بلغنا موت الشريف محمد القُبيباتي في أوَاخِر السَّنَةِ الماضِيَةِ كما تقدّم [2] ، وصُلِّي عَليه في جامِع الأَزْهَرِ صلاةُ الغائب .

وفي هذا الحدّ أتى إلى علاء الدين علي بن أبي بكر بن علي بن قرقين ، الشهير بابن قاضِي بَعْلَبك قانصوه [3] الإسحاقي ، أحدُ أشرار الأَجْلاب ، فقبض عليه مِن بيت كاتب السرّ المحب بن الشّحْنَةِ ، وكان يأوي إليه ، وكان يُخَيّل منه ويُنهى عنه ، وَيُخْبر بخزاياه ، وأَنَّه يُعاب بتقريبِهِ ، فلا يقبل ذلك ، وأَخَذه هذا الجَلَب على أَقْبَحُ هَيئة إلى بيته (ونعِم ما فَعَل) فهدَّدَه

---

(١) في « خطط المقريزي » (١/ ٢٧٠) هاتور .

(٢) راجع « ص ١٦٥ » .

(٣) هو : قانصوه الإسحاقي الأشرفي إينال ، أحد العشراوات ، ورؤوس النوب ، مات مطعوناً سنة ٨٨١هـ .

له ترجمة في « الضوء اللامع » (٦/ ١٩٨ رقم ٦٧٧) .

وضربه ، وضيّق عليه بما أراد ، ثم أخذه إلى رأس نَوْبَة النُّوب قَرْقَماش الجَلَب وحَدَّثه بأمره ، فسجنه في سجن الرَّحْبَة [1] ، وتناقل النَّاسُ قِصَّته ، وتساءلوا عن سببها إلى أن ذُكر أنها بسبب إقطاعٍ أخَذَه عن صِهْرِه ناصر الدين محمد بن محمد بن دنكربُغَا الحافظي ، وهو حَيٌّ ، وكان قبل ذلك قَدْ جرابَيْنَه وَبَيْنَه عَلَيْهِ مخاصماتٍ ، قَصَد في بعضها ابن قاضِي بَعْلَبك قَتْله، وَبيَّته في منزله بنفسه وأعوانِهِ فأنجاه الله منهم ، ثم آل الأَمْرُ إلى أن دَخَل النَّاسُ بينهم وكُتِبَ على ابن قاضِي بَعْلَبك الْتِزامٌ أَنَّه مَتَى سعى في هذا الإقطاع ، كان عنده لابن دنكربُغَا مائتا دينار ، وحكم بذلك مالِكيٌّ فلما أَخَذ الإقطاع جاء ابن دنكربُغا إلى القاهرة ، لما سمع بذلك ، فسعى عليه إلى أنْ عمل معه ما عَمِل ، خذله الله ولا أخرجه مِن السجن إلاّ إلى أضْيَق منه ، وكان مِمَّا يرضى به الناس ابن دنكربُغَا عليه أَنْ يقول : أنا كنت نائب بَعْلَبك ، وهذا كان قاضِيْها ، فأرسلوا معنا بريدي يكشف سِيْرَتي وسِيْرَته ، ومن ثبتت قباحةُ سِيْرَته يُؤَدِّي إلى البريدي ألف دينار .

وفي يوم الثلاثاء العشرين مِن الشهر ، وَصَل رَكْبُ المماليك مِن الحجّاج وتبعه الأول والمِحْمَل في الأربعاء والخميس على العادَةِ ، وَدَخَل غالِبُ ركب المِحْمَل يوم الجمعة ثالِث عشريه [2] ، وَحَدَّثونا أنهم عانوا مَشَقَّاتٍ كثيرةٍ في الرَّجْعَةِ ، وأن أكثرها مِن سوء تصرف أَمِيْرِهم تَمُرْباي التَّاجِر ، وذلك هو الذي كان يُظَنّ بـه ؛ فإنه مبغضٌ للإسْلامِ وأَهْلِهِ . وحدّثنا الشيخ محمد الفُوِّي : أنّ الأمير كـان يأخُذُ جِـمال النّاسِ ولا سِيّما

---

(١) أو حبس الرحبة ، راجع « هامش ١ » من (ص ١٤٣) من القسم الأول .

(٢) وكان أميره تَمُرباي ططر ، وقد تأخر ركب الحاج عن العادة بيومين . «النجوم الزاهرة» (١٦/ ١٥٢) ، و « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٧٩) .

الضعفاء ، وما عليه منهم سَلِموا أم هَلَكوا ، وأنه سارَ يوْماً وبقي جماعَةٌ كثيرةٌ ما لهُم ما يَحْمِلهم ؛ لِهَرَبِ جَمّالِيْهِم منه . قال : فَمَرَّ علينا خليل بن مَشَّاق (بتشديد المعجمة) شيخ بعض جبل نابُلُس ، وكان رَكْباً وَحْدَه ، فلمّا عَلِم حالنا أحضر لنا الجمالَ وحَمَلنا ، وأعطانا البُقْسُماط والسُّكّر ، وذكر شيئاً كثيراً ، وزاد في التَّرَحّبِ بهم والسرور بِحَمْلِهِم ، وكان يذكر ذلك وَيبْكي ؛ سروراً بما رأى مِن لطف الله بهم بسببه ، وحكى أنّه كان معه ماتتا قَوَّاس ، وأنه كان يقولُ : ناموا ولا تخافوا ، وَمَنْ كان معه شيء عليه قُفْلٌ فَلْيَفْتَحْه ، ومهما ذهَبَ له أَعْطَيْتُهُ بكل دِرْهَم منهِ دِيناراً ، وحكى عنه مِن الإحسان إليهم واللطف بهم أمْرَاً عَظِيماً ، وَأَنَّهم لمّا وصلوا إلى العقَبَةِ عَرَض على الشيخ أن يتوجّه معه ، فيزور القدس ، ثم يرسل معه مَنْ يوصله إلى الطِّيْنة ، فاعْتذر له ، فَوَدَّعه وانصرف ، وكانت حكايته هذه لي بحضرة الشيخ نجم الدّيْن محمد بن قاضِي عجلون الدّمشقي ، وهناك كثيرٌ من المصريين ، فامْتَلأتُ سروراً بما سمعت ، وذكرت ما عليه أهلُ مِصر إلاَّ النَّادِر مِن أضدادِ هذه الأخلاق ، فقلتُ هكذا أفعال أهلُ بلادنا وهذه سجاياهم .

وفي يوم الاثنين ، سادِس عَشْري الشهر ، لبِسَ أثيرُ الدين محمد قاضِي الحنفية بحَلَب بن القاضِي محب الدين محمد بن الشِّحْنة ، كاتب السرّ بالقاهِرة خِلعةً مِن السلطان ، للسّفر [٢٤٣] إلى محل ولايته بحلب .

وفي هذا الحد ، قدم كتابُ نائب إسكندرية ، بأنّه قَدِم مَرْكِبٌ لِلْفَرَنْج فأخَذَ منـه كِتاباً إلى القُنْصل ففتحـه ، فإذا فيه إن الشَّوَانِيَّ (١) الَّتي يقـدم

---

(١) الشَّوَاني : من السفن الحربية في عهد المماليك ، تُجَذِّف بمائة وثلاثة وأربعين مجذافاً ، فيها أبراج وقلاع للدفاع والهجوم ، كما أنها تحتوي على مخازن للغلال ، وصهاريج لحفظ الماء .
« نظم دولة سلاطين المماليك » (١/ ١٩١ـ ١٩٢) .

فيها تُجّارُهم وَصَلت إلى قرِيطِش[1] ، فبلغهم أنّ سلطان مِصر عَمَّر عِمارَةً على قُبْرُس ، فَأَرْسَوا هنالك وأرسلوا مَن يَتَعَرَّفُ لهم الخَبَر ، فَسُمع في رُودِس أنَّ عمارة السلطان وصلت إلى قُبرس ، وأنَّ المرأة الّتي ملّكوها عليهم فرّت هي وزوجُها ، ومن أطاعها إلى القلعة التي في شمالي الجزيرة واسمها أَشِرِيْنَهْ ، وهي قلعةٌ منيعة جدّاً ، وأنّ زوجها مَريض مَرَضاً شديداً ، وأنّ أَخاها جاكمُو الذي ذهب العسكرُ لنصرته ، ذهب في طائفةٌ منه يحاصِرها .

وفي يوم الأربعاء ثامِن عشري الشهر ، عَثَر السلطانُ على شَخْصٍ مِن بلاد طرابُلُس كان قد تكرَّرَ مِنه تزوير ما يكتبه السّلْطانُ لطالبي المُرَبَّعات[2] والمناشير[3] ، وهو المشهور بيَكْتِب ، فلما وقع وجد جماعةً مِن الأَجْلاَب يحتمون له ، فلم يتمكن السّلْطانُ مِن قطع يَدِه ، وقد كان شديد التّطلع إلى ذلك ، فسجنه ببرجٍ مِن أبراجِ القَلْعَةِ ، بعد أنْ ضربه .

---

(١) قرِيطِش : أو كريت جزيرة من جزر البحر الأبيض المتوسط إلى الجنوب من بلاد اليونان ، فتحها جماعة من الأندلسيين بزعامة مغامر يقال له : أبو حفص سنة ٢١٠هـ .

«الكامل في التاريخ» (٦/ ٣٩٩) ، و «أطلس هازارد» (٢٩) .

(٢) المربَّعات : جاء في « صبح الأعشى » (١٣ / ١٥٤ ـ ١٥٥) أنه جرت عادَة ديوان الجيش إذا عَيَّن ناظِرُ الجيش المثال ، أو القصّة ، أو الإشهادَ على أحدٍ من كُتّاب ديوان الجيش ، يُخلِّد الكاتب ذلك عنده ، ثم تكتب به مرَبَّعة من ديوان الجيش ، وتجهزَّ إلى ديوان الإنشاء ، ويُعَيِّنها كاتب السرّ على من يكتب بها منشوراً .

والمربّعات تُكتب في ورقة مربعة ، على صورة فصَّلها (القلقشندي) في « صبح الأعشى » (١٣/ ١٥٥ـ١٥٦) .

(٣) المناشير : جمع منشور ، والمنشور في اللغة خلاف المطوي ، وتطلق على كل ما يكتب في الإقطاعات ، وهي على أربعة أصناف : ما يُكتب في قطْع الثلثين ، وهو لأعلى المراتب من الأمراء ، وما يكتب في قطْع النصف ، وهو لأمراء الطَّبلخانات بمصر والشام ، وما يكتب في قطْع الثلث ، وهو لأمراء العشرات مطلقاً بسائر المالك ، وما يكتب في قطْع العادَة المنصوري ، وهو للمماليك السلطانية ومقدّمي الحلْقة ورجال الحلْقة .

« صبح الأعشى » (١٣/ ١٥٨ـ ١٥٩) .

خبر الشيخ أبي الفضل

وفي هذا الحد ، جاء الخَبَرُ المشؤوم ، أن الإمام محقق الزّمان ، ونادِرة الأوان أبا الفضل محمد بن الإمام أبي عبد الله محمد المشدَّالي البجائي المغربي ، مات في مدينة عينتاب ، فلعله مات في أوائل هذا الشهر أو أواخِر ذي الحجّة سنة أربع وستين [١] ، ثم غلب علي الظّنّ أنه مات قبل ذلك ، في أواخِر شوَّال ، أو أوائل ذي القعدة ، ثم أَخْبَرني فتاه فرج ، أنه مَرِض في أواخِر رمضان ، واستمر نحو جمعة مريضاً ومات ، فكان في أوائل شوال سنة أربع [٢] رحمه الله [٣] . وآجَرَنا في مصيبتنا فيه ، وأعقبنا منها عقبى حسنة .

وأخبر المُخْبِر أنّه كان معه فَرَسان وَبَغْلان وحمار ، وعَبْدَان ، ونحو مائة مجلَّد ، وألف دينار ، وأنّه دَفَع إلى شخص مِن النّاس [ثمانمائة] [٤] دينار وأوصاه أن يُراجع أباه في أَمْرِها ، فإن أَجَازها له كما هو أَغْلَب ظنّه تصدّق عنه منها بما تسمح به نَفْسه ، وتناوَل الباقِي طَيِّباً له ، وكتب وصِيَّةٍ ، ذكر فيها أنه لا يملك من النّقد سوى مائتي دينار ، ليخفي أمر الثمانمائة ، فسمع بذلك نائبُ حَلَب الحاج إِيْنال ، فوضع يَده على جميع التّرِكَةِ ، وتوقّف قاضِي عينتاب في تسليم ذلك إليه ، فأهانه ، وتسبَّبَ في عزله ، وأخذ ما ظهر ، وقبض على الذي أُعْطي الثمانمائة ، فقرَّره عليها وأخذها منه ، وَضَربه با لمقارِع ظنّاً منه أَنَّ المدفوع إليه أكثر منها ، وكان الشيخ أبو الفضل قـد أوْصى عِند سفره مِن القـاهِرَة إلى الشَّيْـخَيْنِ ، الجلال المحـلِّي

---

(١) وثمانمائة .

(٢) وستين وثمانمائة .

(٣) في الأصل تكررت جملة (رحمه الله) .

(٤) ما بين الحاصرتين غير واضح الرسم في الأصل ، والتصحيح مما جاء في نفس الصفحة .

والأمين الأقصرائي ، فلما سمع الأقصرائي هذا الخبر سأل في مرسوم إلى نائب حلب بإرسال التَّرِكَةِ فَرَتَّبْتُ قِصَّة لذلك ، نصها : « الفقراءُ إلى الله تلامِذَةِ شيخ الإسلام أبي الفضل المغربي البجائي ، يبتهلون إلى الله تعالى بالأَدْعِيَةِ الصَّالِحَةِ ، وَيُنْهون أَنّ شيخهم الشيخ أبا الفضل المشار إليه رحمةُ الله ورضوانُه عليه توفي بمدينة عنتاب من معاملة حَلَب المحروسة ، وَخَلَّف تَرِكَةً تشتمل على نَقْدٍ عدَّتُه ألف دينار ، وعلى حمل كتب فيه نحو مائة مجلّدة مختارة ، يَعْرِف أكثرَها تلامذتهُ وعلى عَبْدين وفَرَسين وَبَغْلين وحمار وغير ذلك ، وأنّه في عنتاب قبل موتِهِ بوصية بعد أنْ كان أَوْصَى قبل سفره إلى شيخ الإسلام ، الشيخ أمين الدين الأقصرائي ، وبلغ الفقراء أنّ نائِب السَّلْطَنَةِ بَحَلَب المحروسة احتاط على تركته ، مع أَنّه هو شيخ الإسْلام وممن لا تضيعُ حرمَتُهُ ، ولا تَتَعدَّى وصيّته رجاء بركاته ، والتماس فضل صالِح أَنْفَاسه وحالاتِهِ ومع أنّ أباه شيخُ الإسْلاَم ، ومِمَّن تردَّدَ ملوكُ المغرب إلى بابه التماساً لبركته ، وصالِح أدعيته ، فسح الله في مدَّته ، ومع أنّ وصِيّة شيخ الإسلام ، وممن تقبل كلامَه الملوكُ بالدّيار المصرية وغيْرِها ، ويرجون صالح دعواتِهِ ، ويقصدون النَّفْعَ بسديد إشاراته ، أعاد الله مِن بركاتِهِ .

وسؤال الفقراءِ ، مرسومٌ شريفٌ إلى النائب المشار إليه ، بالإنكارعليه ؛ لكونه ما طالع المسامِعَ الشريفَةَ بمثل هذا الخطْب العظيم والنّبأ الجسيم ، الذي كادت الأرضُ له أَنْ تميد ، والقلوبُ أن تتفطَّر ، والأَجسامُ أن تتخلخل ، فتبيد لترى المواقِفَ الشريفةَ فيه رأيها ، على حكم العدل ، وتلتمس فيه ما يشيع لهَاَ بهِ مِن حسن الثَّناءِ ، وظاهِر الفضل ، وأن يستدرك ما فات بالمبادَرة إلى إرسال جميع ما خلَّف ، بحيث لا يضيع منه

شيء ، بل ترد الكتبُ بأعيانها ، وكذا الحيوانُ والأثاثُ ، ويرد النَّقْدُ لا ينقص منه درهم واحد .. ومرسوم آخر إلى مَوْلَيَيْنَا : قاضِي الشّافِعِيّة أبي البقاء محمد ، ووالده قاضِي الحنفيَّةِ أثير الدين محمد ، بحَلَب المحروسة بنحو مِن ذلك ؛ لِيَتَوَلَّيَا الفَحْصَ عن التَّرِكَةِ المذكورة ، فلا يَدَعا منها شَيْئاً إلاّ تَسَبَّبَا في استعادَته ، فإنّ مَنْ وَضَعَ يَده على شيء مِن ذلك لغير حِفْظِهِ فهو آثِم غايَة الإثم ، معاند للكتاب المبين ، مارق مِن الدِّين ، ثم إذا اجتمع جميع ما خَلَّف ، يُرْسل مع الوَصِيَّة التي كُتبت عنه في عنتاب إلى وَصِيَّة مولانا شيخ الإسلام ، الشيخ أمين الدين الأقصرائي ، أعَادَ الله مِن بركاتِهِ ، ونفع بعلومه ، وصالِح دعواتِه ، لِيُفْعل في ذلك كلّه ، ما تقتضيه الشريعةُ المطَهّرَة ، جعلنا الله مِن أهلها ، والواقفين عند عقدها وحلّها آمين . انهو ذلك » .

فكُتِبَ مرسومُ السلطان على نحو ما في القِصَّة ، وجَهَّز الشيخ أمين الدين به وكيلاً عنه ، يُقال له بدر الدين محمد بن الشَّحّام ، وذلك بعد أن أثبت وفاة الشيخ أبي الفضل ، وأُثبتت الوصية .

فكتب نائبُ حَلَب محضراً ، بأنَّ الشيخ أبا الفضل حَيٌّ ، وأَنّ الميِّتَ بعنتاب غيره ، وفي المحضر شهادَة اثنين مِن أهل أنطاكِيَة ، أَنهما رافقا الشيخ أبا الفضل إلى برْصَه مِن بِلاد الرُّوم ، وخلَّفاه بها حَيّاً ، فاتَّهَمْتُ النائبَ في ذلك لِأجل التَّرِكَة .

ثم أخبرني شخصٌ مِن المغارِبَة في شهر رجب سنة خمسٍ وستين [1] هذه ، عن آخر أَنَّ شخصاً مِن أصحابهم رأى الشيخَ أبا الفضل متوجِّهاً مِن برْصَة إلى أدرنة ، فترجَّحَ عِنْدي صِحة حياته ، لِأنَّ خبر موته ليس فيه

(١) وثمانمائة .

مسند يتّصل بمن رآه في عنتاب ، ولا رآه مريضاً ثم شاهد موته ، فغلب على الظّنّ أن مستند نَقَلته كلّهم الظّنّ ، والله أعْلم .

ثم تبيّن كَذِب هذا الخبر ، وأنَّ النائب زوَّر المَحْضَر المذكور ، وعُقِد لذلك مجلسٌ بحَلَب ، وطالب ابن الشَّحَّام النائبَ بالتّرَكة ، بحضرة القضاةِ ، فأخرج المحضَرَ ، فلم يلتفت الأثير قاضي الحنفيَّةِ بها ابن القاضِي محب الدين بن الشِّحْنَة ، كاتب السّـرّ بالقاهِرَة إليه ، وأَمَرَ النائبَ بدفع التّرِكة إلى ابن الشَّحَّام ، فاستشاط غضباً ، وصادَف ذلك موت السلطان الأشرف وَضَعْضَعة ابنه ، ثم خَلْع ابنِهِ ، ولم تَزْدَد الدّوْلة إلا تزلزلاً ، فطمع النائبُ في ذلك ، فلم يعط شيئاً ، فرجع بن الشَّحَّام خائباً والله الموفّق .

ثم مات نائبُ حَلَب كما سيأتي ، فظفر الشيخُ أمين الدين الأقصرائي الوصِي المشار إليه مِن تركته بخمسمائة دينار مِن مال الشيخ أبي الفضل ، ثم قَدِم علينا فرج فَتَى الشيخ أبي الفضل فأخبر بموته هناك ، وحوطة نائب حَلَب على تركته ، فوقع القطْع بذلك ، وكان ذهابه على طريق الاختفاء مِن النّاس ، وكان قاصِداً إلى بلاد الرّوم ؛ لكون ملكها مِن أهل العلم ، فكان يرجو أنه إذا سمع كلامَه عرف مِن قدْرِه ما جهله غيرُه ، فرفع مِن منزلته بمقدار ذلك ، وكان قد رأى في مصر نكايات ، مِن جَحْد فَضْله ، وَتَقَدّم من لا يَفْهم عَنه عَلَيْه ، لا بَلْدَةٍ لو رأوا فيها الشافِعِي ما وقَّروه إلاَّ إن كان له جاه ومنزلة مِن السلطان ، وملوكهم لا يفهمون شيئاً ، فهم لا يعرفون لعالِمٍ مقداره ، إلاّ إن رفعه أحَدٌ مِن أمرائهم ، أو مباشريهم لِعِلّة . ومِن العجب أنّ الشيخ الإمام العلاَّمة نجم الدين محمد بن قاضِي عجلون الدّمشقي ، أحد تلاميذ الشيخ أبي الفضل أخبرني أنّه سمعه كثيراً ينشد متمثّلاً بقول امرىء القيس :

بكى صاحِبي لَمَّا رأى الـدّربَ دونـه　　وأَيْقَـن أنّـا لاحِقـانِ بقَيْصَـرا
فقلـتُ لـه لا تَبْـكِ وَيْحَـكَ إنّمـا　　نحـاولُ مُلْكـاً أو نمـوت فَنُعْـذَرا

وقد تقدَّم سَوْقُ ذلك عند بلوغ الخبر في محرم سنة أربع وستين [1] بسفره مِن مكة .

وفي يوم الخميس تاسع عشريه سافر القاضِي أثير الدين محمد بن الشّحْنة ، قاضِي الحنفيَّة بحلَب ، وخرج معه لوداعه أبوه القاضِي محب الدين محمد كاتب السرّ ، وولده القاضِي لسان الدين أحمد وجماعة ، فوصلوا إلى الخانْكَة ، ثم رجعوا .

وفي هذا اليوم ، وقعت بِطَاقَةٌ ، بأنّ بُرْدْ بَك العربي جاء بشيراً بأخبار العسكر الذي توجَّه إلى قُبرس [2] .

وفي يوم الجمعة جاءت الكتب التي أرسلوها وفيها أنهم ركبوا البحر مِن طرابلس في ثاني ذي القعدة ... [3] فأقاموا خمسة أيّام سائرين ، فوصلوا إلى الماغوصة في سابع ذي الحجّة ، فرفقوا بأهلها ، وأَقاموا إلى أن تَجَهّزوا بما يحتاجون إليه ، ثم دخلوا إلى الأَفْقُسِيّة [4] قَصَبة قُبرس ، فلم يتخلّف عنهم أَحَدٌ مِن أكابرها ، إلاَّ الملكةِ وزوجها لويز الكَيَتلانِي ، وَمَن

---

(١) وثمانمائة .

(٢) تفاصيل أوسع عن أخبار هذا العسكر في « حوادث الدهور » (٣٤٥ـ٣٤٧) ، و « النجوم الزاهرة » (١٥٢ـ١٥٣) ، و « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٧٩ ـ ٨٠) .

(٣) ما يقارب أربع كلمات غير واضحة الرسم في الأصل .

(٤) الأفْقُسِيّة : جاء في « معجم البلدان » (١/ ٢٣٢) اسم مدينـة جزيرة قبرس ، وهـو تعريب (أفْقد يون) بالرومية ، ومعناه خير موضع .

أطاعها مِن الجند ، فإنّهم تَحَصَّنوا في قلعة أَشِرِيْنَةْ ، فتوجه إليهم أميرُ البَرِّ ومعه جاكمُو ، الذي قصد تمليكه عليهم في ثامِن عشر ذي الحجة ، فأقاموا على القَلْعة المذكورة نَـيِّفاً وثلاثين يوماً يحاصرونها ، فَقُتِل منهم نفرٌ يسير وحصل لهم وَخَمٌ عَمَّهم منه المرضُ ، بَحيث لم يَسْلم منهم مِنه إلاّ القليل ، وعُوفِيَ أكثرهم ، ومات جماعَةٌ منهم ، فَوْق العشرين ، أجلّهم الأمير حاجب الحجّاب سودون قرقاش ، مات في سلْخ ذي الحجَّة سنة أرْبَعٍ ، أو أوّل محرَّم هذا ، رحمه الله ، ودفِن في أرض أَشِرِيْنَةْ إلى جانب نهر هناكَ ، وصَنَع سُنْقُر الزَّرَدْكاش في هذه الإقامة مَكْحَلَةً [1] عظيمةً ، فلما فرغت وبردت وأُخرجت إذا بها صَمَّاء غير مجوفة ، ليس بها ثقْب لحجر ولا غَيْرِه ، فرأى الأمير يونُس الدُّوَيْدَار التحوّل عن ذلك الموضِع ، فرجع إلى المراكِب ، وأَبْقَى عِنْد جاكمُوا الذي مَلَّكُوه مِن المماليك مائتي نفس وخمسين نَفْساً ، مِن المشاة ، غَيْـرَ الأتباع ، وَمَن أراد الإقامة هناك للفسق .

وحصل أيضاً في هذه المدّة للمراكِب في الميناء التي هم بها ريحٌ عاصِفٌ كُسِر مِن تلك الريح بَعْضُها، وكاد باقيها يَنْكَسر ، ثم سَلَّمه الله ، ثم قصدوا إلى ناحِيَةِ الملاحة ، فحصل لهم قبل الوصول إليها ريحٌ عظيمٌ جدّاً ، ثم تَوَجَّهوا راجعين في أواخِر محرّم .

هذا حاصِل مافي كتابِهِ ، ثم تبيَّنَ كذب بعضه ؛ وذلك أنّه لما عصى عليهم أهل أَشِرِيْنَةْ وأروهم ثباتاً عظيماً ، وأرسلوا يهدِّدونهم ، أظهر

---

(١) مكحلة : مكاحل البارود ، وهي المدافع التي يُرمى عنها بالنِّفْطِ ، وهي أنواع : ما يرمي بأسهم عظام تكاد تخترق الحجر ، وما يرمي ببُنْدُق من حديدٍ من زنة عشرة أرطال با لمصري إلى ما يزيد على مائة رطل .

«صبح الأعشى» (٢/ ١٤٤) .

الدّوَيْدار أنّ الصَّوَابَ التَّشْتِيَة في تلك البِلاد ، للوصول إلى الغرض ، فاختلف عليه من معه ، وربما رَجَع بعضُهُم فخارت حينئذٍ قُوَاه ، وسافر سفر الهارِب ، بحيث لم يعلم به كثيرٌ من النّاس ، فلما علموا به أحرقوا خيام أنفسهم ، وكثيراً مِن أثقالهم ، وتبعوه على الصَّعْبِ والذَّلول ،فيقال : أنّ الفِرَنج خرجُوا ، فقتلوا من لحقوه منهم مِن أهْلِ الضّعْفِ ، ويقال أنّ ذلك الفرنجي الذي ذهبوا لنصرته ، صار يقولُ لهم : لا تحرقوا شيئاً ، فإنّ ذلك يكسر الحرْمَة ، ويُطْمع العدو فينا ، وبالَغَ في مثل هذا الكلام وهم لا يكفّون ، فيا ويح من زندقه الجاحظ .

وفي يوم السبت ، أول شهر صفر ، أراد السلطانُ ضَرْب وسط ذلك الذي قِيل أنّه يُزَوّر الْيَكْتبات عليه ، فَشُفِع فيه إلى أن أطلقه ونفاه إلى بلادِ الشام ، وفيه ماتَ جانِبَك [1]، نائب إسْكَندريّة كما يأتي .

وفي يوم الأحَد ثانيه وصل قَانْصُوه ، وهو الدُّوَيْدار الثالث للدّوَيْدار ، بكتاب استاذه إلى السلطان ، أنه وصل إلى الطِّيْنة ، بين دِمْياط ، وَقَطْيا ، وأنّه تَوَجّه إلى دِمياط ، وأرسل المركب [٢٤٤] الذي كان فيه ، وهو مركب الغَنِيْمَةِ ، المسمّى عِفْريت البحر إلى إسكندريّة ، وفيه ثلاثون جنديّاً بما معهم مِن البحريَّة والنَّفْطِيّة والأتباع ، وتوجّه هو إلى دِمْياط ، وأرسل رسلاً كثيرة ؛ لتعرف أحوالَ المراكِب ، وينتظرون ، حتَّى يجتمعوا ، فيقدموا مجتمعين ، فشكره السلطان على ذلك ، وخلع على دُوَيْداره خلعَةً حَسَنَةً .

وكان سبَبُ تَفَرّقهم ، أنه خرج عليهم بعد انفصالهم مِن برّ قُبْرس ريحٌ عظيمةٌ ، ذات رَعْدٍ وَبَرْقٍ ومطرٍ هَطَّال ، فَفرّقتهم حتى لم يكن لِأحدٍ

---

(١) راجع « هامش ٢ » من (ص ٤٤٣) من القسم الأول .

منهم عِلْمٌ بغيره ، فخرج بَعْضُهم في الطِّيْنَةِ ، وبعضهم بالعَرِيْش ، وبعضهم فيما بين ذلك ، وبعضهم لم يقعوا له على خَبَر ، منهم أمير البحر قَانَم التَّاجر ، ثم وَصَل إلى الطِّيْنَةِ ، وورد كتابُهُ ، أَنَّ الريح أَلْقَته إلى بيروت ، فلما قصد الرجوع ثارت عليه ريحٌ هائلةٌ أيضاً ألقته إلى العَرِيْش ، ثم هاجت عليه ريحٌ أخرى أَلْقَته إلى غزَّة ثم هاجت عليه ريحٌ أخرى ألقته إلى الطِّيْنة ، ثم هاجت عليه ريحٌ أخرى ألقته إلى فم البحر بدمياط ، واستمرّ أيّاماً لا يقدر منها على الوصول إلى البرّ ، ثم فرّج الله .

ثم توارَد الواصِلون منهم ، وتبيَّن كذب ما في كتاب الدَّوَيْدار مِن أَنَّ أكثر أكابر أهل الجزيرة أطاعوا ؛ وذلك لِأنه كان أَعْظَم الحاملين للسلطان في أوّل الأمْرِ على نجدة هذا اللعين ، وإرسال العسكر معه ، فاستمرّ لازماً غَلَطه ، وعَابَهُ أهلُ العقل والرأي بأنّه علم أَنَّ أهلَ الحلِّ منهم والعَقْد ، ومَن يُعتمد عليه كلهم دخلوا مع المرأة إلى أَشِرِيْنَهْ ، ووصفوها بأنها مدينة على شاطيء البحر مِن جهة الشمال ، وبعضها شارعٌ في البحر ، ولها خندق ، وهي في أرضٍ بها سِبَاخ ، وهي كثيرة المياه والأشجار والفواكِه ، فأكْثروا مِن أكل الفواكِه على عادة المصريين في تكالبهم على مِثْل ذلك ؛ لِقِلّتِهِ وعدم أكثره في بلادِهم ، مع ما هناك مِن الوَخَم ، فكان ذلك سببَاً لمرض أكثرهم ، واجترأ عليهم أهلُ أَشِرِيْنَهْ ومن تَحَصَّن بها ، وخرجوا إليهم في قوارِب في البحر ، وخَرَج قليـل منهم في البَرّ ، فحصلت مناوشـةٌ وتَرَام بالمكاحِل والكِفْيات [1] ونحوها والسِّهام ، فَجُـرح جمـاعَـةٌ مِـن المسـلمين وقُتِـل منهـم أَرْبَعَـةُ أَنْفُس ، وهـذا بعـد

---

(١) الكفيات : لعل المقصود بها قدور النفط .
راجع معنى الكِفْت في «الآلة والإدارة» (٣٠٠) .

أن راسلوا المسلمين بالصُّلْح على أمورٍ منها أن لا يُوَلَّى عليهم جاكمُو ؛ لِأنه ابن زِنا في دِيْنِهِم ، فلا سبيل إلى ولايته عليهم ؛ لِأنّ عقودهم وفسوخهم تكون حينئذٍ باطِلة ، فلم يوافقوهم إلاّ على الرِّضا به فأبوا . وواجهوه بالفُحْش ، وقالوا له : أنت ابن زنا ، وتحدّد ذلك أن صِرت مُخَنَّثاً[1]، وكلُّ من أتى معك قد فَعَل فيك ما يُفْعل بالنّساء ، فلا تَغْتَرّبهم فإنك لو طلعت لحيتُك تركوك ، ونحو هذا الكلام .

هذا مع أنّ جاكمُو أخبر السلطانَ أنه لو قدم الجزيرة ما تخلّف عنه كبير أحد ، وَحَدَّثني بعضُ الأكابِر أَنَّ السلطانَ ما أرسل معه هذا العسكر إلاّ اعتماداً على ذلك ، فكان ينبغي للدُّوَيْدار أَنْ يَتَعَرَّف هذا الخبر ، ليخبر السلطانَ بحقيقة ذلك ، ولا يترك عنده من ترك مِن المسلمين إلاّ على غلبة ظَنٍّ بسلامتهم .

ثم جاء الخَبَرُ أنّ نائب غزّة بلغه أن مركِباً منهم وَرَد بَرَّ عَسْقلان ، فانكسر بَعْد إرسائه بالبَرِّ ، فلم يغرق به أَحَدٌ فقصده ، فإذا هو مركب سُودُون قَرقش ، فأخرج ما قدر عليه مما فيه ، وكان ذلك مِن العجائب فإن سُودُون لَمَّا كان بدِمْياط في الذّهاب غرق له مركبٌ فيه شيء كثير ، عند الحجر الذي بالقرب مِن برج السلطان بها ، ويسمّى ذلك المكانُ بين البرجين ، وهو مكانٌ خَطِر ، يكون فيه حسٌّ للماء عالٍ ، وفيه في الماء دوائر ، دور كلِّ واحِدَةٍ منها بمقدار الجُحْفَة [2] الصّغيرة ، ثم مات هو كما تقدّم ، ثم انكسر في الرّجوع له مركبان ، وذلك جميع ما كان باسمه مِن

---

(١) مُخَنَّثاً : ليناً متكسّراً في مشيته .
«لسان العرب» (٢/ ٤٥١) .
(٢) الجُحْفَة : الكرة .
«القاموس المحيط» (٣/ ١٢٥، ١٢٦) .

المراكِب ، وسمعت أَنَّ من كان به من الجند خرجوا إلى خان المِجْدَل ، فغصبوا دَوَابّ الناس ، فكان ذلك شُكر سلامتهم ، والله وَلِيّ التوفيق ، وتأخّر منهم مراكِب لم يُعرف لها خبرٌ ، منهم مركب قَانَم (١) نَعْجَه الأشرفي .

وفي هذا الحد (٢) وصل الخَبَرُ بأنَّ الأميرَ جانِبَك نائب إسكندرية ، المعروف بنائب بَعْلَبك مات ، فَوُلِّيَ نيابة إسكندرية كَسْباي نائب قلعة الجبل ، وَوُلِّيَ نيابة القلعة خَيرِ بَك والي القاهِرَة ، وَوُلِّيَ الولاية بالقاهِرة علاء الدين بن الفَيْسي ، الذي كان محتسباً ، وَوُلِّيَ الحسبة تَنَم رصاص أخو جانِبَك شادجُدَّة ، وطلب الحسبة واحدٌ مِن أجلاب السلطان جانِبَك قَرَا ، الذي كان شادّ الشوَن ، فأبى السُّلْطان ذلك أشد الأباء ، وقال لِمَن تكلّم له في ذلك : أتريدون أنِّي أُخْرب القاهِرة ، فإنِّي وَلَّيت هذا على الشون فأفسد غاية الأفساد ، ثم جمع طائفة مِن الأجلاب ، وسألوا المباشرين في الألحاح على السلطان في ذلك ، فدخلوا إليه ، فلما رآهم فهم ذلك ، فقال : ما لكم ؟ فقالوا له . فصاح فيهم :سيروا ، واستمرَّ يكررها بغَيْظ ، فرجعوا هاربين ، فشكره النّاسُ على ذلك ثبَّته الله على ما يرضيه (٣).

وفي يوم الجمعة سابع صفر ، وهـو الموافِق [٢٤٥] لرابـع (٤) عشـري

---

(١) لم يزد (السخاوي) أن قال في ترجمته : « قانم الأشرفي برْسْباي ، وهو قانم نَعّحه » . « الضوء اللامع » (٦/ ١٩٩) ، ولم أجد له ترجمة في المصادر الأخرى المتيسرة .

(٢) في « النجوم الزاهرة » (١٦/ ١٥٣) في يوم الأربعاء ٥ صفر .

(٣) خبر هذه التعيينات في : « النجوم الزاهرة » (١٦/ ١٥٣) ، و « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٨٠) .

(٤) في « النجوم الزاهرة » (١٦/ ١٥٣) خامس عشري .

هتور ، من أشهر القِبط ، لبس السّلطانُ الصَّوفَ[1] فتأخّر عن العـادَةِ في ذلك سبعة أيّام .

وفي يوم الثلاثاء حادي عشر صفر من خمس وستين [2] هذه ، بلغ السلطان أنّ عدة أمراء مِن المجاهدين ، منهم كسبَاي المؤيَّدي وصلوا إلى قرب شبرا ، فأرسل السُّلطانُ مرسومَه إلى الدُّوَيْدَار الكبير يأمره أن يَقْدُم بمن اجتمع معه ولا ينتظر اجتماع الجميع .

وفي يوم السبت خامِس عَشْره ، وصل الأُمراء الذين كانوا في قُبرص إلى الميدان الذي بالناصِريّة قرب قناطِر السِّباع ، ثم بَكَّروا يوم الأَحَدِ سادِس عشره الطلوع إلى السّلْطان ، فخلع عليهم على العادَة في مثل ذلك ، ونزلوا إلى بيوتهم وقَصَدهم الناسُ للسَّلام عليهم ، فحكى أكثرهم أنهم لقوا في البحر في الرجوع مِن شدّة الريح ما يُعْيي الواصِف .

ومِن العجائب أنّ الأمير قَرَاجا [3] رأس نَوْبَة الأعرج ، وهو أحَدُ مماليك السلطان الأقدمين حدَّثني : أَنَّه لم ير شيئاً مما يُحَدِّثون به مِن الأهوال ، حَتَّى أنَّه نَسَبهم إلى الكذب واستشهد ببعض من كان معه فوافقه على أَنَّهم كانوا في خَيْر ولم يروا هذه الرّياح التي يتحدَّث بها غيرهم والله أعلم [4] .

---

(١) الخبر في « النجوم الزاهرة » (١٦/ ١٥٣) وفيه أنه صوف ملوّن يُلبس عادة في الشتاء .

(٢) وثمانمائة .

(٣) هو : قراجا الأشرفي إينال ، المعروف بالطويل ، من سبيْ قُبرس ، وأحد المقدّمين ، ولي نيابة حَلَب ، وعسف وتجبّر ؛ فنُفي إلى القدس ، فأقام به حتى مات في صفر ظناً سنة ٨٨٥هـ .

له ترجمة في : « الضوء اللامع » (٦/ ٢١٤ رقم ٧١٥) ، و « بدائع الزهور » (طبعة بولاق) (٢/ ١٩٤) .

خبر عودة هؤلاء المجاهدين في : « النجوم الزاهرة » (١٦/ ١٥٣ـ ١٥٤) ، و « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٨٠) .

وفي يوم الخميس سابع عشري صفر هذا ، وَلى السّلْطان بِيبْرَس [1] خال العزيز حجوبيَّة الحجّاب ، وأعطى يَلْبَاى المؤيَّدي التَّقْدِمة التي كانت مع سُودُون قرقش [2] .

وفي هذا الشهر [3] تحرك المقام الشهابي الأمير الكبير ابن السلطان للسفر إلى البحيرة والرجوع على الوجه البحري مِن المحلّة وما وَالَاها ، ثم التَّعْدِيَةِ إلى الشَّـرْقِيَّةِ للصيد وما شابهه مِن البَطَالة المؤدِّيَةِ إلى فساد غالِب ما يمر عليه ، وسمعتُ أنّ مشائخ العرب ، لما سمعوا بذلك سألوه أن يجمعوا له ثلاثين أَلف دينار ، ويكف عنه ، فأبى .

وفي هذا الحدّ ، مات بدر الدين [4] محمد بن الإمام بدر الدين حَسَن البَنْبي (بموحّدَتين بينهما نون ساكِنة) الشافِعي ، وكان يقول : أن له تعلِيْقاً على المنهاج [5] ، وسماعاً مِن ابن صديق الرَّسَّام بمكة ، وكان في سِنّ الستين ، وكانت لديه فضيلة في مسائل الأحكام ، يعرف إفْسَاد المكاتيب والدخول في أبواب الزّور ، فاستراح مِنه البلاد والعباد ولله الحمد .

---

(١) هو : بيبرس الأشرفي برْسْباي خال العزيز يوسف ، أحد الأمراء الطبلخانات ، ورأس نوبة ، ثم مُقدّم ألف في الدولة الأشرفية إينال ، ثم حاجب الحجَّاب ، ثم رأس نوبة النوب ، حبس في الإسكندرية في ذي الحجة سنة ٨٦٥ هـ ، ثم أفرج عنه ، وتوجه بطّالاً إلى القدس إلى أن مات في أواخر رمضان أو أول شوال سنة ٨٧٣هـ .

له ترجمة في : « الدليل الشافي » (١/ ٢٠٦) ، و « الضوء اللامع » (٣/ ٢١ رقم ١٠٣) ، و « بدائع الزهور » (طبعة بولاق) (٢/ ١٠٨) .

(٢) خبر هذه التعيينات في : « النجوم الزاهرة » (١٦ / ١٥٤ ـ ١٥٥) ، و « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٨٠) .

(٣) في « النجوم الزاهرة » (١٦/ ١٥٥) سافر في يوم الاثنين ٨ ربيع الأول .

راجع أيضاً : « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٨٠) .

(٤) راجع « هامش ٢ » من (ص ٩) .

(٥) لعله منهاج الطالبين في مختصر المحرر في فروع الشافعية ، للإمام محيي الدين أبي زكريا يحي بن شرف النووي الشافعي ، المتوفي سنة ٧٧٦هـ .

« كشف الظنون » (٢/ ١٨٧٣) .

وفي هذا الحد أيضاً ، ورَدَ الخَبرُ مِن دمشق بأن الشريف نقيب الأشراف بها ، ناصر الدين محمد بن .. [1] مات وأنّه كان شابّاً ، وخلّف ولداً اسمه علي ، فسعى له في النقابة فأعطيها جَبَرَه الله آمين .

شهر ربيع الأول

وفي يوم الجمعة ثامِن عشري الشهر ، ركب قاضِي الشافِعِيّة العَلَمُ البُلْقِيني وكان مريضاً ، فصلّى الجمعة بالسّلطان في القلعة على العادَة ، فأوْهَنَه ذلك ، فلما كان يوم الاثنين مستهل شهر ربيع الأوّل ، لم يقدر على تهنئة السُّلْطان بالشّهر ، واستمرَّ منقطعاً يلاطِفَه الأطباءُ حتى عُمِل المولد يوم الأحَدِ سابع الشهر ، حَضَر المولِد ، ثم سافر ابن السلطان بكرة يوم الاثنين ثامنه ، فجاز مِن القَصَبَةِ ، مِن بين القَصْرين ، ثم مِن سوق مرجوش ، وأمامه الأمراءُ والقضاةُ والمباشرون ، وسافر معه أخوه الناصري محمد ، وابن أخته الناصري محمد بن الأمير بُرْدْ بَك ، وخَلْقٌ كثيرٌ قيْل : أنه اجتمع معه الْفَاعَلِيقَة ، وعابَه النّاسُ ، بأنّه جعل البَزَادِرَة ، وهم أصحاب الطيور التي يُصَادُ بها وراء القضاة ، بَيْنه وبينهم ، وأكثروا الكلامَ فيه ؛ بسبب ذلك ، ونسبوه إلى الاستهانَة بالشرع وَحَمَلَتِهِ وسَقَط مِن عيون كثير مِن الأكابر، ونسبوه إلى عَدَم المعرفة باستجلاب الخواطِر والسَّعْي في أسباب المُلْك ، بإظهار العدْل، بانزال الناس منازِلَهُم ، والله المسؤول في إصْلاَحِهِ .

وفي يوم الخميس [2] حادي عشر الشهر أُلْبِس النور علي بن الحاج محمد بن الأَهْناسي خِلْعَةً بالوزر ، بعد استعفاءٍ كبيرٍ من الصاحب سعد الدِّين فرج من وظيفة الوزَرَ [3] .

---

(١) بياض في الأصل بمقدار كلمتين ، لم نجد ما يصححه في المصادر المتيسرة .

(٢) في « النجوم الزاهرة » (١٦/ ١٥٥) يوم الخميس ١٦ .

(٣) الخبر أيضاً في « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٨١) .

وفي يوم الجمعة ثاني عشره ، اجتمع جَمْعٌ مِن أَهْلِ خانْقَاه سعيد السعداء ، واجتمعوا ببعض الأكابِر ، وشكوا من سوء مباشَرة ناظِرهم أبي السَّعادات البُلْقِيني ؛ بأنه صَغَّر خُبْزَهُم مِن رَطْلٍ إلى ثماني أواق ، وجعله مِن قَمْحٍ عتيق متغيِّر الرائحة ، وقطع مَعْلُومهم ، وشَنَّعوا عليه وعلى من يُسَاعِدَه ، وكانوا قَد ادّعوا كثرة فساد الحجازيين عِنْدَهم ، وكان لهم عادَةٌ بالنزول في الخانقاه ، فمنعهم الشَّرَف الأَنْصاري لمّا كان ناظِراً ، فلمّا شَنَّع أهلُ الخانقاه على أبي السعادات أَذِنَ للحجازيين في الخانقاه فدخلوها في أوائل هذا الشهر ، فاشتدّ الأَمْرُ بينه وبينهم بسبب ذلك .

[٢٤٦] وفي ضَحْوَةِ يوم الأحَد (١) ، حادِي عشري شهر ربيع الأوّل هذا ، رسم السلطانُ بنفي صلاح الدين ، أمير حاج بن بَرَكُوت المَكِيْني ، ربيب قاضِي الشافِعِيَّةِ ، العَلَم صالح ، فَشَفَعَ فيه المباشرون ، فَقَبِل شَفَاعَتَهم ، ثم لما نزلوا أرسل إليه أربعةَ نقباء مِن أتباع نقيب الجيش ليُحْضِروه إليه ، فأخذوه إلى قريبٍ مِن باب زُوَيْلَة ، فلقيهم نقيبُ الجيش نَفْسه ، وأَعْلَمه أنَّ السلطانَ أَمَره أن يضعه في السِّجْن فَرَدّه مِن هنالك إلى سجن الرَّحْبَةِ ، فَلَمّا كان قرب العصْر أُخْرِج وقدّامه نساءٌ وَحَوْله نِساءٌ يصِحْنَ صياحَ السرور الذي يسميه النّاسُ زغاريط (٢) ، واختلف النّاسُ في سبب سجنه ، ثم خَلاصِهِ ، وأقرب ما سمعته ، أنّه كان ليحيى بن النور بن أَقْبَرس عِنْدَه دعوى ، فطال فيها النزاع ، وأيس مِن فصلها في بيت الشافِعِي على الوَجْهِ الذي يختاره ، فأراد نقلها إلى القاضِي المالِكي ، فلم يجب الشافِعِي ، وكان ابن أَقْبَرس يَتَخَـدَّم للأمير بُرْدْ بَـكَ الدُّوَيْـدار

---

(١) في «النجوم الزاهرة» (١٦/ ١٥٥) في يوم السبت ٢١.

(٢) الخبر أيضاً في «بدائع الزهور» (صفحات لم تنشر) (٨١).

وبجانبك حَبيْب أحد أجْلاَب السلطان المقرّبين مِنه ، وربما قيل : أنه كان مملوكَ أبيه ، فكَلّما السلطانَ في أَمْرِه ، ووافق أنه كان قد نُقِل إلى السلطان في ذلك القُرْب كثيرٌ مِن أخْبار صلاح الدين في فسادِه ، وشِدَّةِ فجورِه ، وعِنَادِه مغرقاً في أيّامٍ كثيرة ، فزاد حنقُه عليه ، وأراد أكْلَه بذلك ، فلما سُجِن أرسل إلى عَمِّه العَلَم صالِح ، فأرسل زَوْجَتَه أم ناظِر الجيش بن مُزْهِر إلى خَوَنْد ، فتسبَّبَت في خلاصِهِ على مالٍ يُقالُ : أنَّه فَوْق ألف دينار ، ولم يبق أَحَدٌ مِن نُوَّاب الشافِعِيَّةِ إلاّ دَخَل إليه السِّجن مُتَعَمِّماً له إلاّ أبو السَّعادات بن التاج البُلْقِيني ابن ابن أخي العَلَم وزوج ابنته فَحَنَق عليه ؛ فعزله مِن نيابَةِ نظر وقف السَّيْفي بمقتضى أن شروط الواقِف أن يكون نظره للقاضِي الشافِعِي ، فبذل لكل مِن الأمير بُرْدْ بَك الدُّوَيْدار ، والقاضِي كاتب السّـرّ مَبْلَغاً يُقال : أنّ مجموعه مائة وستون ديناراً ، فأعادا إليه ذلك بقِصَّةٍ أخذا عليها خطَّ السلطان يكْتَب يوم الاثنين ثانِي عشريِّه بمقتضى أنّه في يَدِه ، ويد أبيه وجدِّه ، مِن مدّة تزيد على خمسين سنة ، فبلغ ذلك قاضِي القضاة ، فَعَزَله مِن نيابَة القضاة بطندتا وأَبْيَار[1] وأعمالهما ، ووافق ذلك أنّه كان مِن حِين وُلِّيَ نظر سعيد السعداء ، يتكلّم كلّ قليل في إبدال الطّحَّان الذي وَجَده يَطْحن قَمْحَها ، فكلما تكلّم بذلك رشاه الطحّانُ إلى أن اجتمع مِن تلك الرِّشا اثنا عشر ألف دِرهم فلوساً ، يكون عنها أربعون ديناراً ، ثم منعه وأتى بغيره في هذا القُرْب ، وكان ذلك الطّحّان يعاشِر ناساً مِن أَجْلاَب السلطان ، فشكى إليهم أَمْرَه ، فأتـوا في سـاعَةِ حصـول اليكْتب في يـده إلى بيتـه فـلم يصـادفوه

---

(١) أبيار : بلدة قديمة من مديرية الغربية بقسم محلة منوف ، واقعة على بحر سيف شرقي كفر الزيات بنحو ساعة .

«الخطط التوفيقية» (٨/ ٢٨).

وَوَجدوا شخصاً مِن أتباع البَلاَقِنَةِ سميناً عريضاً خبيثاً فاجِراً ، يُقال له : محمد البثنوني فلم يَبْدأوه إلا بالضَّرب كما قيل : تحيّة بينهم ، ضربٌ وجيع ، وهم يظنونه أبا السعادات ، فحصل له مِن ذلك ما شاء الله ، ثم وصل الطحّانُ ، فقال لهم : ليس هو ذا ، فَكَفُّوا عنه بعدما كاد يهلك ، و ياليته ، ثم أخْبروا أنّ أبا السعادات في بيت كاتِب السرّ فسألوا في قصده هنالك ، فقالوا : لا نضربه إلاّ في محل عزِّه ، ثم أَمَرُوا غلاماً لهم أن يذهب إليه فَيَأتِي به سَحْبَاً في أيّ مكان كان ، فصادَفَه خارِجاً من بيت كاتِب السر قريباً من البيبرْسِيَّةِ ، فَلُعِن وسُبّ ، فَأُشير عليه أن لا يذهب إلي بيته ، فلم يَزَل يلطف بالغلام إلى أن مكّنه مِن النزول بمدرسة قَرَا سُنْقر [(١)] ، فاستغاث بشخصٍ مِن أصحابِهِ لَمَّا كان أَمْرَد يقال له : ابن أبي السعود ، فتردَّدَت الرّسلُ بينهم وبَيْن الغلام والطَّحان إلى أن رضوا أن يُعيد إليه ما أُخذ منه ، وَيُخْلُوا سبيلَه ، فسألوه أَنْ يذهب إلى بيته لِيَقْبِضَه هناك ، فلم يفعل ، وأقْبَضَه في القرا سنْقريه ما عنه أربعون ديناراً فخلّوا سبيله وانصرفوا .

وفي يوم الأَحَدِ الذي سجن فيه صلاحُ الدين ضُرب شخص مِن أكابر جباتهم وهو أعتاهم خَلْقاً وخُلُقاً ، يقال له : المحلّي ، في بيت ناظِر الجيش ضَرْباً مؤلماً ، وَضُرب آخرٌ منهم أخبث مِنْه وأنجس ، يُقال له : علي بن بها ، فكان إبتداء كون دائرة السوء على المفسدين ، وَضَرَب الله [٢٤٧] قلوبَ بعضهم ببعض ، وَوَلّى بعضَ الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون ، وكان المحلِّي الجابي مفرط السِّمَن ، شديد العُتُوِّ ، أكثر الناس عليه حنِقٌ فقال فيه بعض الأدباءُ :

---

(١) مدرسة قراسنقر : تقع تجاه خانْقاه سعيدالسعداء ، فيما بين رحبة باب العيد ، وباب النصر ، أنشأها الأمير شمس الدين قراسنقر المنصوري نائب السلطنة سنة ٧٠٠ هـ ، وبنى بجوارها مسجداً معلّقاً ، ومكتباً لإقراء أيتام المسلمين كتاب الله العزيز .

«خطط المقريزي»(٢/ ٣٨٨) ، و «الخطط التوفيقية» (٦/ ١٣) .

قــل لِلْمَحلـِّي العـريضِ القَفَـا   لـم تَقْبَـلِ النُّصْحَ ولا الْمَعْــذِلَـهْ

مــا زِلْــتَ في بَغْــي ومكْــرٍ إلى   أَنْ نلــت أنـواعـاً مِــن البهـدَلة

شَــتْماً مـع الضَّــرْب على أرجلٍ   كـذا على كَفّــيك والمسْفَــلَـه

فــإن تكن تأنَفُ مـِن عَدّهــا   مَسْــفَلَةً قلنــا هــي المِصْقَــلَه

لانهــا بالصَّقْــل موسُــــومةٌ   وان تَغَضَّــبّت نقــل مَــزْبَلـه

لِأَنهــا بالزَّبْــلِ مَشْحُــونَــة   فالـدَّودُ قـد صـارتْ لـه مأكـله

واعْتَدْ بعـد الـضـرب في قـاعــة   عـادَت بثُقْــلٍ منــك في زلــزله

لمثـله في الحُــوْش تبقـى بــه   مُــدَحْرَجـاً تغنيه عن مَدْحَله[1]

فاحـذر مِــن العَــوْد بوقف لأنْ   تسَــوّف الطــالب أو تمْطـله[2]

كَيْلا ترى صَفْعاً يــدير اللحى   يفتـحُ مِـنْ قُـوَّتِهِ الحـوصلـة[3]

ويــورم الـرَّقْبَــة مـن ثُقْـلِـهِ   حتــى تُــرى حالتُهــا مُشــكلهْ

---

(١) مِدْحَلة : حفرة تكون في الأرض ضَيّقة الأعلى ، وواسعة الأسفل ، وخَرْقٌ في بيوت الأعراب ، يُجْعل لتدخله المرأة إذا ادخل عليهم داخل .

«المعجم الوسيط» (١/ ٢٧٣) .

(٢) تمطله : تؤجل موعد الوفاء به مرّةً بعد الأخرى .

«المعجم الوسيط» (٢/ ٨٧٦) .

(٣) الحوصلة : أسفل البطن إلى العانة .

«المعجم الوسيط» (١/ ٢٠٧) .

وفي هذا الحد ، شكى علاءَ الدِّين عليَّ بن مفلح الحنْبَلي ، قاضِي الحنابلة بدمشق ، وكاتب السرّ بها أَحَدُ من له عليه دَيْن ، فرسم السلطانُ بعزْله والتَّرْسيم عليه حَتَّى يُعطي أربابَ الديون أموالَهم ، ثم بَطَل ذلك بعد يومين ، بواسطة امرأته ، قريبة أمير المؤمنين ، طلعت إلى خَوَنْد ، فكلمّت السلطانَ فاستمر به .

وفي يوم الأربعاء ، رابع عشري الشهر ، نَفَى السلطانُ اثنين مِن مفسدي المماليك ، أحدهما مِن أجلاَبِهِ إلى حلب ليُقيما بها بَطَّالَيْن .

وفي هذا الحد عُيِّن للسَّفر إلى بلاد الصعيد الأمير شَرِباش أمير مجلس ، وبَرْسْباي البَجَاسي أمير آخور ؛ ليقمعا العربَ المفسدين ، ويوطِّنا أهلَ البلاد .

وفي أواخِر هذا الشهر ، أَخَذ قاضي الشافِعِيّة ، العَلَم صالِح النَّظَرَ على وقف السيفى بيكْتب مِن السلطان ، وعَزَل قريبه أبا السَّعادات .

وفي يوم الثلاثاء سلخ هذا الشهر (ثم ثبت في أواخِر الشهر على قاضِي المالكيّة الحُسَام ابن حُرَيز أنَّه مستهله ، ففيه على كلّ حال) أُخِذ شخصٌ قيل : أنّه مِن قطّاع الطريق الذين يفسدون في ناحِيَةِ قناطِر الوز ، فَضُرِب بالمقارِع ، وأُسْلِم إلى الوالِي ، ليقرِّرَه على رِفاقِهِ مِن المفسدين .

وفي هذا الحدّ رُسم على القاضِيَيْن ، الوَلِي محمد بن أحمد الأُسيوطي ، والنور علي ابن [محمد بن محمد بن حسين] [1] البرقي ، مِن قِبَل السلطان عند نقيب الجيش ، ثم انكشف الأَمرُ عَن أن السلطان اشترى

---

(١) ما بين الحاصرتين بياض في الأصل ، والتصحيح من « هامش ١ » من (ص ٣٩٩) من القسم الثاني .

مِن الخواجا علي البرصاوِي خَصِياً فتَبَيَّس عليه في بيعه ، وطالت المراجعةُ في ذلك ، ولم يبعه له إلاّ بألف دينار ، وأخذ مِنْه مماليك وقماشاً سَمُّوراً وغيره بنحو عشرة آلاف دينار ، فشَقّ عليه مراجعته له ، فقيل له : إنّه كان يعامِل ناظِر الخاص الجمال يوسف ، فطلب هذان ليُسْأَلا هل يعرفان أن تحت يَدَه له شيئاً ؟ فأجابا بأنهما لم يعرفا شيئاً ، فأكْثَر السلطانُ سؤالهما عن ذلك ، وهدّدهما ، فأَصَرَّا على إنكار أَنْ يكونا يَعْرِفان شيئاً مِن ذلك فأطلقهما آخِر يوم الأربعاء مستهل شهر ربيع الآخر . وطلب النَّصْراني الذي يُقال له وَلِيُّ الدوْلَةِ ، ثم قِيل إنْ الأمير جانِبَك شادّ جُدَّة يشهد أنّ ناظِر الخاصّ دفع له فلفلا [1] بنحو خمسة آلاف دينار وهديَّة لابن عثمان بنحو ذلك ، وأنّه لم يرجع حتى مات ناظِر الخاص .

وفي أَوّل شهر ربيع الآخِر هذا ورَد الخَبَرُ أنّ زوْجَة الحمْزاوِي الذي كان نائب الشام ماتت ، وكانت جارِية له ، وتزوّجت بَعْده مملوكاً له اسمه تَنِبَك ، وكان يُنْقل عنها عُلُوُّ هِمَّةٍ ومكارِم ، وعمّرَت في دِمشق بيتاً ، شاعَت بمحاسِنه أَخْبَارٌ ، وأنَّه فَرْدٌ في دِمشق ، فَعَيَّن [2] السلطانُ لضبط تركتها شاهِين الخَصي ، الذي يُدْعى غزالِي ، مع أنّ لها زوْجاً ، ولسيّدها الحَمْزاوي ابن عم فيما يُقال وأرسل نائب الأمير جَانَم أخو الأَشرف بَرْسْباي ؛ يطلب بيتها لابنه يحيى ، وكان دُوَيْداره الثاني بَرْسْباي بالقاهِرَة ، فلما بلغ السُّلْطانُ ذلك ، قال : أنا أَعطَيْتَه لابني محمد .

---

(١) فلفلاً : بَهار معروف ، يمنع الغازات ، ويساعد على الهضم ، ويفتح الشهية ، ومنه الأسود والأحمر .

« إحياء التذكرة » (١٣٢ ـ ١٣٣) .

(٢) كان ذلك في يوم الخميس ٢ ربيع الآخر .

« حوادث الدهور » (٣٤٧) ، و « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر (٨١) .

وفي هذا الحدّ ، اشتَدَّ خوفُ أبي السّعادات محمد بن التّاج البُلْقِيني ، مِن عمٍّ أبيه العَلَم صالح ، قاضِي الشافِعِيَّةِ ، وذهب نقيبُ الجَيْشِ إلى بيته فسأل عنه ، فاختفى ثم تبيَّن أنه سافَرَ ، فقيل : إلى المتبولي [(١)] ببِرْكَةِ الحاج ؛ ليختفي عِنْدَه إلى وَقْتٍ ما ، وقيل : إلى ابن السلطان ؛ ليحميه منه أو يساعده على السَّعْي في ولاية القضاء عنه بمالٍ كثير سمّاه ، نقل هذا عنه بَعْضُ مَنْ تجدَّدَت صحْبَتَهُ له ممن لا يصلح لصالحه ويرمي نفسه على كلّ من يتوهّم فيه تقدّماً ، ثم تحقّقَ أنّه كان عند المتبولي ، وأنه توصّل به إلى أنْ سأل ابن السلطان في الخانْكَةِ أن يُجِيْرَه مِن عمّه ، ثم لم يجسر على القدوم إلى القاهِرَة ، بل رَجَع إلى المتبولِي ، ثم سمعنا أنّ المتبولي مَجَّه [(٢)] وتركه في مكانِهِ ، وذهب إلى غَيْرِهِ ، وقال : إنَّ هذا ولَّت عنه دنْيَاهُ ، وهو من آخرته ، على خطر ، فحينئذٍ أتى إلى القاهِرَة وكان ما سُيذكر .

[٢٤٨] وفي يوم الجمعة [ثالث] [(٣)] شهر ربيع الآخِرِ هذا ، بَرَزَ الأمْرُ السلطانِي إلى أعْيان القاهِرَة مِن الأمراء والمباشرين أن يَتَلَقَّوا وَلَدَيْه .

وفي يوم السبت رابعه ، خرجوا لذلك ، ونودِي بتزيين البلد [(٤)] ،

---

(١) وهو إبراهيم بن علي بن عمر ، برهان الدين الأنصاري ، أحد المعتَقدين .
راجع « هامش ٢ » من (ص ٨٠) من القسم الثاني .

(٢) مَجَّه : لفظه .
« المعجم الوسيط » (٢/ ٨٥٤) .

(٣) في الأصل (رابع) ، والتصحيح من « حوادث الدهور » (٣٤٧) ، حيث جاء فيه أن الأربعاء هو أول ربيع الآخر ، وكذلك مما ذكره المؤلف في نفس الصفحة من أن يوم السبت هو رابعه ، ويبدو أن البقاعي كان متردداً في تحديد تأريخ يوم الجمعة ، فبعد أن كتبه (ثالث) شطبه وكتب (رابع) بل ناقض نفسه بعد ذلك وحَدَّد تاريخ يوم السبت برابع الشهر ، ثم عاد وذكر أن يوم الاثنين سابع الشهر على اعتبار أن يوم الجمعة هو رابع الشهر .

(٤) في « النجوم الزاهرة » (١٦/ ١٥٥) في يوم السبت ١٤ ، وراجع أيضاً « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٨١) .

فزّينت ومما نَصَبوه مِن الزِّينة شخصٌ يشبه عَرَب مصر ، عليه لباسهم ، من العمامة والثياب ونحوها ، وسموه أبا سنجر ، وصَنَّفوا فيه أنواع السُّخْرية ، وجعلوا ذلك في كل خط [١]؛ وسببه أنه كان لهم مدّة شهور قد أَخْرَجوا غِنـاءً على وزن « شُـدّ وسطك وأشَمَّرْ » ويختمونها بقـولهم : «يابا سَنْجر » وكانوا يتحاكون أن بعض العُرْبان كانوا يقطعون الطّريق بناحِيَة قناطِر الوز وَمَنْ ظفروا به سلبوه ، ثم أمروه أن يرقص وهم يُغَنّون له: يابا سَنْجر ، وربما قالوا : إنهم فعلوا ذلك ببعض الأَجناد .

وقدم في آخِر يوم السبت هذا القاضِي قطب الدين الخَيْضري .

وفي يوم الاثنين سابعه [٢] ، قدم المقام الشهابي ، الأمير الكبير ، ولد السلطان ومن معه إلى خليج الزّعْفَرَان [٣] ، ونصبوا خيامهم في الرَّيْدَانِيّة بالقرب مِن سبيل بن قيماز ، فخرج النّاسُ للسَّلاَم عليهم .

ثم في ضحوة يوم الثلاثاء ثامنه [٤] دخلوا مِن باب النَّصْرِ وقدّامهم جميع عسكر مصر ، وكانوا على غَيْرِ ترتيب معروفٍ ، فكان الأمراء أولاً وفي خلالهم رمز منطاشي وهذا لا بأس به ، ثم وراءهم القضاةُ ، ووراءهم الدُّوَيْدار الكبير يونُس العلائي وكبكبة فيهم أرباب النَّفير ، ووراءه البَزْدِارَةِ ووراءهم ابنا السلطان ، ووراءه مماليكُه والطَّبَلْخَاناة ، ثم طلعوا إلى السلطان ، فلبسوا خِلَعهم .

---

(١) خط : الطريق الشارع .

« محيط المحيط »(٢٤٢).

(٢) راجع « هامش ٣» من (ص ١٩٤) .

(٣) في « النجوم الزاهرة »(١٦/ ١٥٥) وصلا يوم الثلاثاء ١٨ منه .

(٤) راجع « هامش ٣» من (ص ١٩٤) .

وما انقضى أمرهم في الدخول ، حَتَّى رشقهم الدَّهرُ ببعض سِهامِهِ ، فَسُقي ابنُ خالته محمد بن أَيْتَمُش الخِضْري [١] كأس حِمامه ، فمات [٢] في ظهْرِ يوم الثلاثاء هذا ، عن نحو ثلاثين سنة ، وهو في نحو سن الأمير الكبير الشهابي أحمد بن خالته ، وكان ابن الخِضْري قَد أُخِفَّ ؛ مِمّا كان فيه مِن المجاهَرَةِ بالفجور ، وانقطع قرب الجامِع الأزهر ، وصار في أكثر أَوْقاته يجالِس بعض الفضلاء وينادِمهم ويستنشد منهم ، ويحسن إليهم ، ويحضر مجلس الشيخ شمس الدين محمد الشرواني [٣] ، ويسمع بعضَ دروسه ، ومجلس الشيخ تقي الدين [٤] [ابن] محمد الشُّمُنّي ويسمع عليه دَرْساً في الـرضى شرح الحاجبية [٥] واستمر كذلك حتّى مـات في هــذا

---

(١) راجع « هامش ٢ » من (ص ٦٨) من القسم الثاني .

(٢) راجع « هامش ٣ » من (ص ١٩٤) .

(٣) هو : محمد بن مراهم الدين ، الشمس الشرواني القاهري الشافعي ، ولد تقريباً سنة ٧٨٠هـ اشتغل في العلم بعد العشرين ، وقدم القاهرة بعد سنة ٨٣٠ هـ ، وتقدم في عدة فنون ، مات بالقاهرة ليلة مستهل صفر سنة ٨٧٣هـ .

له ترجمة في « الضوء اللامع » (١٠/ ٤٨ رقم ١٦٥) .

(٤) هو : أحمد بن محمد بن محمد بن حسن بن علي بن يحيى بن محمد بن خلف الله بن خليفة ، التقي أبو العباس بن الكمال ، التميمي الداري القسنطيني الأصل السكندري المولد القاهري المنشأ ، المالكي ثم الحنفي المعروف بالشُّمُنّي ، ولد في العشر الأخير من رمضان سنة ٨٠١ هـ بالاسكندرية ، وقدم القاهرة مع أبيه وسمع على عدد من علمائها في الفرائض ، والحديث ، والفقه ، وأصول الدين ، والعربية ، والحساب ، والهيئة ، والمنطق ، وغيرها من الفنون ، وصنف حاشية على المغني ، وحاشية على الشفا ، وشرح النقاية في الفقه ، وغيرها من المصنفات ، مات في ٢٧ ذي الحجة سنة ٨٧٢هـ .

له ترجمة في : « عنوان الزمان » (مخطوط) (٩٩) ، و « الضوء اللامع » (٢/ ١٧٤ رقم ٤٩٣) ، و « حسن المحاضرة » (١/ ٤٧٤ رقم ٥٦) .

(٥) هي الكافية في النحو ، للشيخ جمال الدين أبي عمر وعثمان بن عمر ، المعروف بابن الحاجب المالكي النحوي المتوفي سنة ٦٤٦هـ .

« كشف الظنون » (٢/ ١٣٧٠) .

في بيت له في المصنع قرب زَاوِيَةِ الشيخ تقي الدين على رأس الرُّمَيْلَةِ ، وصُلِّي الله عليه مِن الغد في سبيل المؤمِنِي ، ولم يتخلَّف عن جِنَازَتِهِ أَحَدٌ مِن الأَعيان ، بل حَضَر أميرُ المؤمنين وجميعُ الأمراء ، والقضاء ، والمباشرون ، وكان الذي قُدِّم عليه إماماً قاضِي الشّافِعِيَّة العَلَم صالِح ، ودُفن في تربة أبيه بالصَّحْراء .

وفي يوم السَّبت ثاني عشر شهر ربيع الآخر هذا ، ضَرَب جماعَةٌ مِن الأجْلاَب الأميرَ ناظِر الخاص ، زين الدين عبد الرّحمن بن العَلَم بن الكُوَيْز في القَلْعَةِ عِند الجامِع ضرباً عظيماً يُظَنّ أن القصد منه القَتْل ، فهرب منهم إلى ناحِيَةِ باب الستارَة وهم يتبعونه ضرباً إلى أنْ وَقَع هنالِك ، فرجعوا عنه ظانين أنه مات ، فحُمل إلى الدَّهِيْشة ، ثم أُنزل إلى بيته ، واستمر به منقطعاً ، يعوده النَّاسُ ، ويعالجه الأَطباءُ إلى آخر هذا الشهر .

موت ابن دويم

وفي هذا الحد ، مات فخر الدين [١] بن دُويم المصري التّاجِر السّفّار الذي كان وكيل قاضي القضاة ابن حَجَر .

وفيه أيْضاً ضَرَب الأَجْلاَبُ الأميرَ علاء الدين على بن امرأة الفَيْسي ضرباً كثيراً ، وشاع أنهم عَرّوه ثيابَه ، وأَخذوا جميعَ ما عليه ، فَقَلَّت بذلك حُرْمتهُ ، وتُحدِّث بأنه لا يصلح للولاية .

وفي يوم الاثنين رابع عشره [٢] ، سافر شاهينُ غزالِي إلى دِمشق ، لِأجْلِ تركة زوجة قانِبَاى الحمزاوي ، ورُسِم له أنْ يأخذ تَسْفيرة ألْفي

(١) هو : فخر الدين أبو بكر بن علي بن محمد التاجر .
« الضوء اللامع » (١١/ ٢٤٧) .
(٢) راجع « هامش ٣ » من (ص ١٩٤) .

دينار ، يباع مِن التَّركة أمتعةٌ عيّنت له ، وَيَسْتَوفِي منها ذلك ، وتُحْمَل بقيّةُ الأمتعة إلى القاهِرَة .

وفي هذا الحد وَرَدت كتبٌ مِن دِمشق ، أنّ قاضِي الشافِعِيَّةِ بها الولي البُلْقيني أحدَث في الرَّكْعَةِ الثانِية مِن صلاة الجمعة وهو يُصَلِّي بالنّاس في الجامِع الأموي بالغائط ، وأنَّ ذلك عُرِف بأنّه ذكره هو لطبيبه ، وشَمَّ منه من كان يليه رائحتَه ، وتواترت بذلك أخبارٌ كثيرةٌ ؛ فخجل من كان يتعصّب له ، وقد كان أنْكر على من قال : أن به سَلَس البول في أوّل ما وَلِيَ ، فلمّا جاءت هذه الأَخبارُ طَمَّت وَعَمَّت وغمَّت وَأَهَمّت ، ولكن لمّا تفاحشت هذه الإشاعات ، وكان ذلك بعد حلول القطب الخَيْضَري أتّهم باختلاقها ، وهو الأغلب على الظّنّ .

وتحدَّثوا أَيْضاً بأنه حصل بينه وبين البدر [(١)] محمد بن شيخنا التقي أبي بكر بن قاضِي شُهْبَة [(٢)] خصومَة وصلوا فيها إلى قبائح ، وزاد مرضه فصار يقول : إنْ متّ فابن قاضِي شُهْبَة قاتِلي إلى غير ذلك مِن أمورٍ لا تليق وقعت بحضرة النائب والأمراء في دار السعَادَة وغيرها ، ثم صحّ أمْرُ الخُصُومَةِ .

وفي ليلة هذا اليوم سافر أبو بكر بن ... [(٣)] الذي في خِدْمَةِ الأمير

---

(١) هو : محمد بن أبي بكر بن أحمد بن محمد بن عمر بن محمد بن عبد الوهاب ، الفقيه البدر أبو الفضل بن فقيه الشام التقي الأسدي الدمشقي الشافعي ، المعروف بابن قاضي شهبة ، ولد فجر الأربعاء ٢ صفر سنة ٧٩٨ هـ نشأ في دمشق وقرأ على علمائها ، وارتحل إلى القاهرة ، وبرع في الفقه ، ودرّس بالظاهرية والناصرية وغيرهما من المدارس ، وناب في القضاء سنة ٨٣٩ هـ مات في دمشق ليلة الخميس ١٢ رمضان سنة ٨٧٤ هـ .

له ترجمة في : «الضوء اللامع» (٧/ ١٥٥ رقم ٣٨٦) ، و «نظم العقيان» (١٤٣ رقم ١٤١) .

(٢) شُهْبَة : جاء في «معجم البلدان» (٣/ ٣٧٤) ، من قرى حَوْران .

(٣) بياض في الأصل ، بمقدار أربع كلمات ، لم نجد ما يصححه في المصادر المتوفرة .

بُرْدْ بَك ، المعروف بالبَشْمَقدار ، وهو رأس نَوْبَة النُّوب الثاني إلى بلاد الشام ، وأبو بكر هذا مِن شياطين الإنس ، بلغني أنّه أخذ على يده مِن المراسيم والمطالعات ما يعسر عده ، فضلاً عن جلّة ، وذلك أنّه قصدَه كلُّ من له حقٌّ ضائِع أو مَظْلمَة عجز عن الانتصار فيها .

موت الجلال الباعوني

وفي هذا الحدّ ، بلغنا أنّ الجلال محمد بن عبد القادِر الباعوني الذي كان آذى ابن عمّه الجمال يوسف ، وسعى عليه في القضاء ، وتكلَّم في عِرْضه ، قُتِل في بلادِ الرّوم ، وقِيل : أن سبب قَتْلِهِ ، أنّ السلْطان محمد بن عثمان أعطاه مالاً كثيراً ، يُقال : أنه ألفا دِينار ، وكان في خِدْمَته شَخْصٌ مِن أنحس النَّاس ، معروفٌ بشهادة الزّور ، والاجتراء على العظائم ، يقال له : الأقساوي ، فقَتَله لِأَجلْها ، ثم أُخذ فَقُتِل به ، ودُفِنا في قَبرْ واحِد ، فاستراح منهما العبادُ والبلادُ . ثم ورَد الخبرُ ، بأنه ما قتله إلاّ بَعْضُ قطاع الطّريق ، ولم يُعرف قاتِلُه ، فذهب دَمُه هدر ، فالله أعلم أى ذلك كان .

وفي يوم الخميس سابع عشره [(١)] ، ضاق على أبي السَّعَادات البُلْقِيني الخناقُ في أَمْر عَمِّ أبيه العَلَم صالِح ، فقصد الشيخَ أمين الدين الأقصرائي ، بَعْدَ أن عجز في السَّعْي عليه ، فكان لا يُبْرم أمْرَاً إلاّ نَقَضَتْه عليه زوْجَةُ العَلَم ، فلم يَزَل يترقَّقُ للشيخ أمين الدين ، حَتَّى أَتَى به إلى العَلَم فأصْلَح بيْنهما ، فتظاهر على خوفٍ من غائلته .

وفي هذا الحد ، وقع بين سالِم [(٢)] الذي وُلِّيَ مَشْيَخَة الفقراء السّطوحية

---

(١) راجع « هامش ٣ » من (ص ١٩٤) .

(٢) هو : سالم بن عبد الوهاب ، المجد بن التاج الدمشقي القاهري ، خليفة المقام الأحمدي بطنتدا ، وليَه في حياة أبيه ، ثم وَلِيَه أبوه ، ثم أعيد بعد وفاة أبيه ، مات قريباً من سنة ٨٨٠هـ .

له ترجمة في : « إنباء المصر » (٢٢١) ، و « الضوء اللامع » (٣/ ٢٤٢ رقم ٩١٠) .

بمقام سيّدي أحمد البَدَوي بطندتا وبين أبيه عبد الوهّاب [١] الرَّمْلي ، وأخيه عبد الرّحيم وهو أكبر منه منازعةٌ أفْضَت إلى سَعْي أبيه في تَوَلِّي ذلك ، وَعَزْلِ وَلَدِه ، وقام لِكلٍّ عِصْبَةٌ مِن الفقراء ، ثم أَطْبَقوا على نُصْرَةِ أبيه ؛ وسبب ذلك أن السِّراج عمر العبادي ، والنور علي [٢] التِّلْوَاني السَّرْسِي بن الفاخراني (وليس صَهْر الونائي) ، كانا قد استطعما مِن مشائخِ قبل سالِمِ بمنافِعَ كثيرة ، وطمعت نَفْسُ كلٍّ في الدّخول في أحوال المقام ؛ لما يحصل مِن أَوْقافِهِ ونذوره وغير ذلك مِن المقاصِد الدُّنْيَوِيَّةِ ، فكان كلٌّ منهم في جانِب ليصير من يتكلم له في قبضته ، فكان الأَمْرُ لا يزال مُزَلْزَلاً ، وأحوال الفقراء في فسادٍ كبير ، فيصير الناظِرُ لذلك مُتَحَيِّراً ، واتفَق في هذه المَرَّةِ أن كان العبادِي مع الأب ، وتحرَّر بعد الاختبار أَنَّ كُلاًّ منهم مِن شياطين الإنس ، وأن سالِماً أَخَفَّهم شَرّاً ، وأنّ الأب أَعْرف با لملق والتَّمْنِيَةِ والغرور فأعان ذلك من يساعده ؛ لكون ذلك طِباع البَلَد ، والنّفوس منقادَة إلى مَن يعانيه للقصور على النَّظر في الحاضِر ، وَعَدم تدبر العواقِب [٢٤٩] ، فَقَدِم سالِمٌ إلى القاهِرَة ، وشكا حالَه إلى النّاظِر عليهم الأمير بُرْدُبَك الدُّوَيْدَار ، فأرسل يَسْتَقْدِم أباه .

---

(١) هو : عبد الوهاب ، التاج الدمشقي القاهري ، خليفة المقام الأحمدي بطنتدا ، مات بها فجأة في جمادي الآخرة سنة ٨٦٦هـ .

له ترجمة في « الضوء اللامع » (٥/ ١١٥ رقم ٤١١) .

(٢) هو : علي بن سليمان بن يوسف بن أحمد بن عبد الملك ، النور الأنصاري الهوريني التِّلْوَاني القاهري الشافعي ، المعروف بالتِّلْوَاني ، ولد في شوال سنة ٨١٤ هـ ، أخذ في عدة فنون عن أبرز علماء عصره ، في القاهرة ، ومكة ، والمدينة ، والقدس ، مات غريقاً في ربيع الأول سنة ٨٧٣هـ .

له ترجمة في : « الضوء اللامع » (٥/ ٢٢٨) .

وفي يوم الأحد العشرين [1] [2] مِن شهر ربيع الآخِر هذا ، سافَر الأميرُ بُرْدْ بَك إلى دِمْيَاط في البحر ، ولم يَسْمع أحَدٌ بسفره إلاّ ساعة سَيْرِه ولا عَلِمَ أحَدٌ سببَه ، ووافق سَفَرُه مِن بولاق حضور عبد الوهّاب الرَّمْلي ، أبي سالم ، فأخَّرَهم إلى حضوره .

ثم سمعنا أنَّ السَّبب في هذا السَّفرِ ، أنَّ السُّلْطان أَرَاد أن يَبْنِي في مُرسَى [3] الطِّيْنَةِ برْجاً يحفظه مِن مراكِب العدو ، فأخَذَ معه المهندسين لذلك ، فرسموه وقدَّرُوا أمْره ، وَعَزموا على نقل آلاتِهِ مِن الفَرَمَا [4] ، وأَخَذ معه عيسى المغرْبِي المقدّم ذِكره ، فكره النّاسُ ذلك مِنْه ، ثم رجع فوصل إلى القاهِرَة ليلة الاثنين [5] خامس جمادَي الأولى .

وفي يوم الاثنين حادي عشريّه منه لبس القاضي قُطب الدين الخَيْضري خِلْعةً بكتابَةِ سِرّ دِمشق ووكالة ببيت المال ، عن علاء الدين علي بن مفلح الدِّمشقي وسمعنا مِن وجْهٍ ثابِت أنه تكلَّف على ذلك أرْبعة آلاف دينار .

---

(١) راجع « هامش ٣» (ص ١٩٤) .

(٢) في « حوادث الدهور » (٣٤٨) يوم الأحد ١٧ منه .

(٣) مُرْسَى : محطّ السفينة بالساحل .

« المعجم الوسيط » (١/ ٣٤٥) .

(٤) الفَرَما : مدينة على شاطىء بحر الروم من بحر القلزم ،وهي أول مدن مصر من جهة الشمال .

« معجم البلدان » (٤ ٢٥٥ ـ ٢٥٦) ، و « الخطط التوفيقية » (١٤ / ٧٣ ـ ٧٤) ، و « أطلس تاريخ الإسلام » (٤٠٠/ خريطة ١٤٠، ١٤١) .

(٥) في « النجوم الزاهرة » (١٦/ ١٥٦) يوم الاثنين خامسه .

وفي يوم السَّبْتِ سادِس[1] عَشْرِي[2] الشهر ، لبس الأميرُ إينال[3] الأشقر خِلعة بولاية القاهِرَة[4] ، عن الأمير علاء الدين الفَيْسي ؛ لما كثر في مدّة ولايته مِن القَتْل والنَّهْب ، وأَنَّه إذا وَقَع له أحَدٌ مِن اللصوص ، تُخَلِّصه منه الأجلابُ إلى غِيْرِ ذلك مما يَنْبَنِي على قِلَّة الحُرْمَة ؛ لكونه ليس مِن التُّرك ، ولا غَرَض له إلاّ التّوصل إلى المال .

وفي هذا اليوم ، وصل مِن قاضِي الشَّافِعِيَّةِ بدمشق الولي البُلْقِيني حَمل برسم الهديَّةِ لناظِر الجيش الذي كان سبب ولايته ، ولغيره مِن الأَعْيان كأنّه خاف مِن القطب الخَيْضري ، فأرسل ذلك رجاء أن لا يُسمع فيه كلامُه .

وأرسل يطلب ما باسم القاضِي جمال الدين الباعوني على الجَوَالِي ، وهو دِيْنار في كل يوم مدَّعيا أنّ ذلك ما رُتّب له إلاّ لِأجْلِ .. [5] وفي وظائف الجلال ابن عَمِّ الباعوني ، فأجيب إلى ذلك ، وَقدْ كان القاضِي جمال الدين أرسل يَسْعى فِيْهَا ، فلم يُلْتَفت إليه ، وشُكِر البُلْقِيني على إهدائِه ، مع قرب العهد بها بَذَل على أَصْلِ الولاَيَة ، والله المستعان .

---

(١) راجع « هامش ٣ » من (ص ١٩٤) .

(٢) في « النجوم الزاهرة » (١٦/ ١٥٦) في يوم الاثنين ٢٥ .

(٣) هو : إينال اليحياوي الظاهري جَقْمَق ، المعروف بالأشقر ، وُلِّيَ عدة وظائف منها : ولاية القاهرة ، ونيابة مَلَطْية ، ونيابة حَلَب ، ورأس نوبة كبير ، وأمرية سلاح ، وكان ظلوماً غشوماً ، مات في رمضان سنة ٨٧٩هـ .

له ترجمة في : « الضوء اللامع » (٢/ ٣٣٠ رقم ١٠٨٤) ، و « بدائع الزهور » (طبعة بولاق) (٢/ ١٥٥) .

(٤) الخبر في : « النجوم الزاهرة » (١٦/ ١٥٦) ، و « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٨٣) .
(٥) كلمة غير واضحة الرسم في الأصل ، لم نجد ما يصححها في المصادر المتوفرة .

وفي هذا الحدّ وَصَل شَمْسُ الدِّين محمد حامِد الصَّفَدي ، الذي يُنسَب إلى اعتقاد كلام ابن عَرَبِي إمام أهل الوحْدَةِ ؛ يسعى في عَوْدِ القاضِي بدر الدين بن القف مِن القدس إلى بلده صَفَد ، فسمع السلطانُ بحضورِه ، فذكره لكاتب السرّ القاضِي محبّ الدين محمّد بن الشِّحْنَة قبل أَنْ يأتي إليه ، وذَمَّه على مجيئِهِ في هذا الغَرَض ، فلمَّا أَتَى إلى كاتِب السِّرّ أخْبَره بكلام السلطان ، وأشار عَلَيْهِ أنْ لا يُوَاجِه السلطانَ بشفاعةٍ في ابن القف .

ثم أُرْسِل يوماً إلى كاتِب السِّرِّ وهو في الحَضْرة من قال له : إنه حضر ، فَأَعْلَم السلطانَ فساءه حضوره ، ثم قال : دَعْه يدخل ، فَلَمَّا دَخَل ، لم يأْذَن له في الجلوس ، فقال له كاتِبُ السرِّ ، ولم يكن يعرف سوءَ اعتقادِه : اجلس ، فشغله السلطانُ بكلام ، فلم يجسر على الجلوس ، ثم إنَّ كاتِب السرّ قال له : اجلس واقرأ الفاتِحَةَ وادْع للسلطان . ففعل ، فلما ذَهَب ناداه السلطانُ فرجع ، فقال له : في أَيِّ شيء جئت ؟ فَتَلَجْلَجَ ، فقال كاتِبُ السِّرِّ : جاء شَوْقاً إلى السلطان . فقال : ما جاء إلاّ لِأجل ابن القف . فقال : يا مَوْلانا ، هو شَيْخٌ كَبِيْرٌ ، (وكأنه أراد أنْ يقول شيئاً يرقّق به السلطان عليه ، ثم لم يجسر) ولكِنِّي ما جئت بسببه ، فشرِع السلطانُ في ذمِّه ، ثم ذهب . قال كاتِبُ السرّ : وكأنّه قَدْ بلغني أنّه هَيَّأ آياتٍ وأحاديث يعظ بها السلطان ، ثم يكلِّمْه في ابن القف ، فلمَّا حقّت الحقيقةُ لم يجسر على شيء مِن ذلك ، فقيل له : كأنَّه شاهدَ في السلطانِ الإلٰهَ الكبيرَ على مُعْتَقَدِه ، فسأل عن ذلك فأُخْبِر بأنَّه يقول باعتقاد ابن عربي ، فَطَبَّق شَكْلَه وكلامَه على ذلك ، ورأى ما هو فيه مِن بشاعَةِ المَنْظَر والغَلاسَة ، فَتَعَجَّبَ وَسَقَط مِن عَيْنِهِ والله المُوَفّق .

وقبض في يوم الأحَدِ ، سابع عشريّة [1] على ستَّةِ أَنفُسٍ مِن العرب المفسدين فَشُنِقُوا ، وشاعَ أَنّ الأميرَ أَيْنَال الأشقر والي القاهِرَة وقع عِنْدَه بعضُ المفسدين بالقاهِرَة ، فجاء ناسٌ مِن الأجْلاَبِ ليخلِّصوه (دأبهم مَعَ مَنْ كان قَبْلَه ، لا سِيَّما ابن الفَيْسِي) فضربه بحضرتهم ضَرْباً كثيراً ؛ غَيْظا على كونه استعان بهم وإهَانَةً لهم ، وتهدَّدَ مَن يفعل مثل فِعْله ويحتمي عليه ، فَذَلَّ بذلك الغِلْمَان .

فإن استمرّ على هذا ، حصل به خَيْرٌ كبير ، فإنّ غالِب الفساد بالأَجْلاَب مِن الغِلْمان ، فسألت عن السَّبَبِ في عَدَم مبالاته بالأجْلاَب ، فقيل : إنه مِن طائفة الظاهرية ، وأَجْلاَب هذا السلطان قِسْمان : قِسْمٌ وجدهم صِغاراً في الطِّباق وهم مِن مشتري الظاهِر ، وقسم باشر هو شِرَاءهم ، وبين القسمين عداوَةٌ ، فَعُلِم مِن هذا أَنَّ نصف الأجْلاَبِ مع هذا الوالي ، فإنْ حَصَل له توفيق فهو يَقْمَع جميعَ المفسدين ويأخذ بمن أطاعَه مَن عصاه من الطائفتين ، والله المسؤول في إصْلاَح الحال ، وقمع أهل الضلال .

وَعُثِر على شخصٍ مِن أعيانِ الأجْلاَب لَيْلاً فقُبِضَ عليه ، وضَرَبه ، وبالجملة فقد أَوْقع وقائع انتجت له هَيْبَةً ، انتشر روعها في قلوب المفسدين أعانَه الله على الخَيْر .

وَحَدّثني في هذا الحدّ ، العلاَّمَةُ ، كمالُ الدين محمد بن أبي شَرِيف القدسي أنّه وَرَد عليه مِن أخيه العلاّمة برهان الدين إبراهيم كتابٌ مِن القُدس ، فيه : أَنّه ذَكَر بحضرة قاضي الشافِعيَّةِ بها البرهان إبراهيم بن

---

(1) راجع « هامش ٣ » من (ص ١٩٤) .

الخطيب جمال الدّين عبد الله بن جماعَة القدسي الشافِعي مسألة جواز تأخِير الاستنجاء إلى بعد الوضوء ، فقال : هذا صحيح ؛ لِأن المقصود إنّما هو جفاف الخارِج ، فإذا جَفّ صَحَّت الصَّلاةُ ، وذَكَر في الكتاب مِن هذا الضَّرْبِ وقائع دالَّةٌ على فَرْطِ الجهل والجُرْأة ، ربما يكون فيها ما هو أعجب من هذا ، لكنه لَمَّا لم يكن ذلك عندي عجباً ؛ لمعرفَتِي بهذا القاضِي وما ينطوي عليه لم أوثِرْ ذِكْرها ، فيالله للإسلام ، قبّح اللهُ مَنْ يُوَلِّي مِثْلَه .

جمادي الأولى

وفي يوم الخميس مستهل [1] جمادي الأولى ، رِكِبَ الأميرُ زين الدِّين بن الكُوَيْز ناظِر الخاص ، وطلع إلى السلْطان ، ويده مُعَلَّقة في عنقه ، فأوْرَد للسلطان مِن ثمن البَهَار ثلاثين ألف دينار .

وفي هذا الحدّ بلغ السلطانَ أن جاكمُوا الذي ملَّكه على قُبْرس ، أرسل إلى أهْلِ شِرِيْنَهْ ، وضيّق عليهم ، وأوقع بهم مَرَّاتٍ ، كان الظَّفرُ له فيها [2] ، فأرسل ناساً مِن عِنده في سفينة ليُعْلِم السلطان بذلك ، ومعهم هدية صوفٍ ونقدٍ ، فأرسل أهلُ شِرِيْنة مركِباً ، فالتقوا ، فوقع بينهم حربٌ كان الظّفَرُ فيها لِأهْلِ شِرِيْنَهْ ، فقتلوا وأسروا ونهبَوا ، فأمر السلطانُ بالاستعداد لغزْوِهم .

وفي يوم السبت ثالِث الشهر مَرِض السلطانُ مَرضَه المعتاد بِرَمْي الدّم والإسهال [٢٥٠] ، وكانت صَدْمته له شديدة على العادَة ، ثم أصبح يوم الأحَدِ أحسن حَالاً [3] .

---

(١) هكذا في « النجوم الزاهرة » (١٦/ ١٥٦) .

(٢) في « حوادث الدهور » (٣٤٨) تفصيلات أخرى عن هذا النصر .

(٣) الخبر في : « النجوم الزاهرة » (١٦/ ١٥٦) ، و « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٨٣) .

وفي ليلة الاثنين [١] خامِس الشهر قدِم الأميرُ بُرْدُ بَك مِن الطِّيْنَةِ [٢] وقد ظهر عليه شؤمُ رِفْقَتِهِ لعيسى المغربي لما سمعوا مِن هذا الخبر ، ولما أخبروا مِن أنّه حصل لهم عِسرٌ شديد في توصلهم إلى الطِّيْنَة ، ثم اجتمع صبيحة الاثنين بالسلطان ، فإذا هو أحسنُ حالاً ، وحَصَل له نشاطٌ بالسرور بقدومِهِ ، فخلع عليه ، وعلى وَلَدِه ونزلا ، فقصدهما الناسُ للسلام .

وفي ليلة الثلاثاء سادِس الشهر ، أصبح اثنان مَذْبوحان في بيوتهما ، أحدهما قرب المَرَسْتان ، وهو جابٍ يُقال له : المُوسْكي ، كان يُظنّ أنّ مالَه الذي يخصُّه ، والذي يجْبِيه في بيته ، فخابَ ظنُّ القاتِل . والثاني عِند جامع الحاكِم وهو شاهِدٌ ولم يمت هذا ، بل أصبح حَيّاً ، وقيل : أنّ الذي ذَبَحه صَبِيٌّ أَمْرَد كان مُتَّهماً به ، فجاء الوالي إلى الرّبع الذي قُتِل فيه الجابي، وقَبَض على الجيران ، لينظر في ذلك ، وكان الذي حَرّكَه لذلك ، أنّ القاضِي ناصر الدين بن أَصِيْل أرسل جماعَةً إلى ذلك الرّبع ؛ لِأنّ له فيه كَلاماً ، فكتبوا محضراً بصورة أمر هذا الجابي ، وَوَجَدوا بابَه مُقْفَلاً بضبَّةٍ [٣] مِن داخل ، وتحرَّر أنّ قَتْله كان في ظهر يوم الاثنين خامِس الشهر ، وأَنّه استغاث ، ثم سكت عن قُرْب ، وسمع نِساءٌ مِن جيرانه ، فصاحوا ونادوا بَعْض المارَّة لينظروا خَبَره ، فلم يلتفت أَحَدٌ إلى ذلك ، وكان الذي جَبَّن الناسَ عن غِياثِه معرفة ذلك الرّبع بالفساد ، وَتَرَدُّدِ الأجْلَاب إليه ، فهذه ثمرة السكوت عن أهل الفساد ، ومساكَنَتهم .

---

(١) في « النجوم الزاهرة » (١٦/ ١٥٦) يوم الاثنين .

(٢) كان سبب قدومه ، أنه لما مرض السلطان أُرسل خلفه للحضور .

« بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٨٣) .

(٣) ضبَّة : حديدة عريضة ، يُضبّ بها الباب ، وغَلَق من الخشب ذو مفتاح يغلق به الباب .

« المعجم الوسيط » (١/ ٥٣٢) .

ولمّا أتى الوالِي قَبَض مع الجيران على الشهود والقاضِي الذين دخلوا عليه بأمْرِ الناصِر بن أصيل ناظِر الجوالِي ، وهم : القاضِي كمال الدين بن القاضِي معين الدِّين بن القاضِي تاج الدين عبد الرَّحيم بن الطَّرَابُلُسي ، وتقي الدين محمد الجعفري ، وشمس الدين محمد النحريري ، فشدّدَ عليهم الوالِي ، فلم يخل سبيل أحد منهم إلاّ بغرامةٍ كثيرة .

وكان الموسكي المذكور صوفِيّاً في سعيد السعداء ، ولم يكن له وارِثٌ ، وكانت العادَة جارِيَةً في مثله أن تكون تركته لِأهل سعيد السعداء ، فأخذ [الوزير] (1) علاء الدين علي بن الأَهْنَاسِي مالَه ، ولم يلتفت إلى الناظِر القاضِي أبي السَّعَادات البُلْقِيني ، ولم يَقْدِر على مقاوَمة الوزير ؛ لسوء سيرته .

وفي يوم الأربعاء ، سابع الشهر ، وصل جماعَةٌ نحو العَشْرَةِ مِن مُفْسدي العرب منهم شخصٌ عليه بَيْضة (2) ودِرْع (3) ، قبض عليهم ابنُ شعبان أمير العرب ، مِن قرية اسمها قَهَا .(4) ، كانوا يُفْسِدون ويجتمعو بها لِأنها مِن تعلق الأمير بُرْدْبَك الدُّوَيْدار الثانِي ، فوضِعوا في سِجْن المَقْشَرة ، وكذا قَبَض الوالِي عَلَى جماعةٍ مِن المماليك يقطعون الطّريق بين مِصر العتيقة والقاهِرَة فأُلْحِقوا بالعَرَب إلى المقشرة إلى أنْ يُعافَى السُّلْطَانُ ، فَيَرى فيهم رأيَه .

---

(1) في الأصل (الويز) ، والتصحيح مما جاء في نفس الصفحة .

(2) بَيْضَة : الخوذة ، وسُميت بَيْضَة ؛ لأنها على شكل بَيْضَة النعام ، تجعل على الرأس . « كتاب السلاح » (29) ، و« المخصص » (6/ 73) ، و« لسان العرب » (8/ 394) ، و« نهاية الأرب » (6/ 240) .

(3) دِرْع : قميصٌ من حلقات من الحديد متشابكة ، يُلبس وقاية من السلاح ، يذكّر ويؤنث . « كتاب السلاح » (28) و « المخصص » (6 / 69) ، « لسان العرب » (6 / 241) ، و« المعجم الوسيط » (1/ 280) .

(4) قَهَا : من أعمال القليوبية ، مساحتها 2743 فداناً ، وعبرتها 8000 دينار وهي وقف مدرسة الناصر حسن بسوق الخيل . =

وفي يوم الخميس ، ثامِن الشهر ، وصل الخَبَرُ بأنّ الأمير بَقَراً بن بَقَر قَبَضَ على شخصٍ مِن أكابِر العرْبان يُقال له : ابن هوازِن كان قد أَغْضَب السلطانَ ، وكان له مدَّة يطلبُ مِن بقرٍ . إحضارَه ، فأُعْلِمَ السلطان بذلك وهو مريضٌ فَسُـرَّ بِهِ .

وفي هذا اليوم اشتدّ سَعْيُ عبد القادِرِ الرَّمْلي على ولده سالم في مشيخة سيّدي أحمد البدوي ، بحيث استمال أكثرَ النَّاسِ ، ولا سِيَّما الأمراء ، وكان أكثرُ ذلك بواسِطَةِ السِّرَاج العبادِي ، كان [يخدع] [١] النّاس بأن [يقول] [٢] : إن أباه لم يرسله مِن دِمشق إلاّ نائباً عنه ، فلمّا جاء هو اسْتَبَدّ بالأمْر وعقَّ أباه ، وكان الأبُ قد تحدَّث بشيء مِن ذلك أوّل ما قَدِم مِن الشام ، ثم أذعن لولاية وَلِدِه ، وأعذر فيها ، واتّصل ذلك ببعض القضاة، وَوُقِّع به حكمٌ ونُفِّذ ، فتوصّل سالِمٌ إلى أنْ أراه خَوَنْد ، وعُرِّفت أَنَّ قولَه مِن أصله لا أصل له ؛ فإنه لم يكن بيده شيء ، حين قدم سالِمٌ ، حَتّى يستنيب فيه أو يُظلم بِنَزْعِهِ منه .

فلَمّا فِهِمت الأمْرَ أظهرت القِيامَ مع سالِمٍ ، وَرَجَّعت صِهْرَها الأمير بُرْدُبَك ، فصار معها ظاهِراً وباطِناً ، وهو ناظِرُ المقام ، وأمّا ولدها الأَمير الكبير ، وصهراها الدُّوَيْدار الكبير يونُس ، وأمير آخور بَرْسْباي البَجَاسي فرجعوا ظاهِراً ، واستمروا مع الأب باطناً ، وصُرف سالِمٌ وأبوه في هذا اليوم ، بَعْدَ أنْ كانا طلعا إلى القَلْعة ، وأغلب الفقراء مع الأب بواسِطة العبادِي ، وقِيل لهم : امضوا حتى يرى السلطانُ في ذلك رأيه .

= «الانتصار» (٢/ ٥٠) ، و «التحفة السنية» (١٢).

(١) في الأصل (يخدعون) ، والتصحيح من مفهوم السياق .

(٢) فى الأصل (يقولون) ، والتصيح من مفهوم السياق .

ثم طُلب سالمٌ يوم الجمعة تاسع الشهر طُلب سالمٌ إلى القلعة ، فأُلْبِس خِلْعةَ الاستمرار على ما بيده ، فدار أبوه على النّاس ، فَوَجَدَهم قد انحلُّوا عنه ، فطلب أن يُصْلِحوا بينه وبين وَلَدِه ؛ فأرسل الأميرُ الكبير إلى سالِمِ لذلك ، فلما حَضَر حمل عليه أبوه ، وتمادَى في ذلك ، فَلَمّا عُلِم أنّه ليس مراده إلاّ شَتْمه صُرِفُوا ، وأُمِرَ سالم بالسَّفرِ إلى المقام ففعل .

وفي آخِرِ يوم الاثنين ثانِي عشر الشَّهْر ، أَرْجَف النَّاسُ بموت السلطان وأَطْبقوا على ذلك ، فلم يختلف فيه اثنان ، بحيث بات النَّاسُ جازِمين بموته ، فلما أَصْبحوا مِن يوم الثلاثاء ، ثالِث عشْرِهِ تَبَيَّن كذب ذلك ؛ وأنّ السّبَبَ فيه أنه كان في حالةٍ صَعْبَةٍ ، ثم ترجّح حالُه قليلاً يوم الثلاثاء المذكور (١) .

ولاية المؤيَّد أبي الفتح أحمد

ثم وَقَع الكلامُ في وِلاية [٢٥١] المقام الشهابِي أحمد ، الأمير الكبير ، فلمّا كان يوم الأربعاء رابع عشره ، الموافِق لِأوّل برمهات ، وخامس عشري شباط ، بعد نزول النّاسِ مِن الخِدْمَةِ ، أُرْسِل إلى المباشرين والأمراء ؛ فشاع أنّ السلطان مات ، فطلع النّاسُ غير شاكّين في ذلك ، وكنت مِمّن طلع ، فَصَلَّيْنا الظهر في جامِع القَلْعة ، وجلسنا ننتظر الجنازَة ، وإذا قاضِي القضاة الحنفي سعد الدين سعد بن الدَّيْرِي قد جاء إلى الجامِع ، فسألنا عن الخَبَرِ ، فأخْبَرَنَا أَنَّ السلطانَ حيٌّ إلى الآن ، ورأوه جالِساً ، وأنّه أشهد على نَفْسه بالتفويض إلى ولده ، بَعْدَ أنْ كانوا أولاً شَهِدوا عليه بأَنّه وَلِيّ الأمْرِ بَعْدَه فروجع حتى نجز ، وذلك بحضرة أمير المؤمنين (٢)

---

(١) الخبر في « النجوم الزاهرة » (١٦/ ١٥٦) ، و « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر)(٨٣) .

(٢) كان في ذلك الوقت المستنجد بالله يوسف بن المتوكل على الله أبي عبد الله محمد العباسي تولى الخلافة يوم الخميس ٣رجب سنة ٨٥٩هـ ، بعد خلع أخيه المستكفي بالله أبي الربيع سليمان .
« النجوم الزاهرة »(١٦/ ٩٠) .

والقضاة والأمراء والمباشرين لما غلب على الظَّنّ مِن أنّ السلطان لا يُرْجى مِن هَذَا المرض (١) .

ومِن أغرب الأمور أنّه شاع في هذا اليوم في مكَّة المشرَّفَة ، أنه مُحْتَضِرٌ ، وسيأتي ذلك في العشر الأَوْسَطِ مِن رَجَب .

ولما شهدوا عليه أنه نجز الأمر لولده ، المقام الشهابِي أحمد ، أتابِك العساكِر سيّد في ذلك ، فَوُلِّيَ أمرَ الناسِ ، وبايعه الخليفَةُ على الحكْم بسنَّةِ الله ورسوله ، والأمر بالمعروف والنهي عَنِ المنكر ، والذَّبّ عِن المسلمين ، وقَمْع المفسدين ، وحلف الأمراءُ على مُنَاصَحَتِه وموالاتِهِ ومؤازرَتِهِ على ذلك ، ولُقّب المؤيَّد ، وهو في ذلك الحين مِن أبناء الثلاثين .

وحدَّثني القاضي كاتِبُ السّـرّ ، محب الدين بن الشِّحْنَة ، أَنَّه دَخَل إليه هو والأمير بُرْدْ بَك الدُّوَيْدار . قال : فقلت له : يا مَوْلانا السلطان ، قد طَلَع أمْرُ أمير المؤمنين والقضاة والأمراء ، وهم منتظرون ما يأمر به . قال : فسكت . فَجَثَا الأميرُ بُرْدْ بَك بين يديه ، ثم قال : يا مولانا السلطان ، إنهم منتظرون أن توصِيهِم بولدك . فقال ابني ابني ابني ، هكذا ثلاثاً ، إلاّ أنّ صَوْته بذلك خافٍ ، وهو مستند إلى شخصٍ جالساً . قال : فخرجنا وأَعْلَمْناهم بأنَّه أَذِنَ في ولاية وَلده ، فأجابَ الكلُّ بالسمع والطّاعَةِ .

فقال ولده : أَنا لا أَقْبل إلاّ نيابَةً عنه . فقال الأمراءُ : لا إلاّ استقلالاً ، أنت استاذُنا ، وابن استاذنا ، ونحن سامِعون . فأصَرّ على الامتناع إلاّ من النيابَةِ عن أبيه ، فدخلنا ثانِياً ، ودخل معنا أميرُ المؤمنين ، فكلَّم الأشرفَ

---

(١) الخبر في : « النجوم الزاهرة » (١٦/ ١٥٦) ،و « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٨٣) .

في ذلك ، ثم قيل له : يلبس وَلَدُك . قال : فَعَضَّ على سَبَّابته ، وأطرق طويلاً ، ثم أَشَار برأسِهِ أَنْ نعم . فقال الخليفَةُ : يكفي هذا . ثم خَرَجْنَا .

فأَخْبرنا بذلك ، فأصرّ ولده على الامتناع ، فقام الامراءُ كلُّهم ، وقالوا : ليس لنا سلطانٌ إلاّ أنت ، وقبّلوا الأرض ، فحينئذٍ قبل الولاية استقلالاً .

وكنت سألت النّور الأنبابي عن جلوسه بَعْدَ السلطنة ، بحضرة الخليفة ، فقال : العادَة أن يجلس على التَّخْت ، ويجلس الخليفةُ تحت التَّخْت ، قال : فاستنكرت ذلك ، فقال : العادَة كذا . قال : فلمّا جلس وأتاه الخليفةُ نَزَل ، فقلنا : العادَة أن تجلس مكانَك ، فأبى وجلسا تحت التَّخت . قال : فسألني البرهانُ [1] الرّقي عن هيْئَة جلوسه ، فأخبرته فقال : نِعْم ما فعل ، ما ترك لِأحَدٍ عليه كَلَاماً ، فقلت : قال لي هذا : إن العادَة كذا ، فقال : فعل ذلك المنصور عثمان ، وأنكر النّاس عليه ، وأما الأشرف إِيْنَال والده ، فما جلس إلاّ مع الخليفة تحت التَّخْت . فقلت : الحمد لله الذي وفّقه . انتهى .

وذلك كُلُّه في قاعة الدَّهِيْشَة ، ثم خرج مِن هناك راكِباً ، وعليه اللباس السّوَاد الخَلِيْفَتِي ، وأمير سلاح خُشْ قَدَم المؤيَّدي حامِل على رأسِهِ القُبَّة والطَّير ، وقُدّامه النَّفِير [2] يزعق بـه ، والشَّبَّابَة [3] السـلطانِيَّة ، والجنائبُ

---

(١) هو : إبراهيم بن أحمد بن عثمان بن علي بن عثمان بن علي بن عثمان بن سعد ابن أبي المعالي ، البرهان بن الشهاب ، الدمشقي القاهري الشافعي الموقّع ، المعروف بالرقي ـ نسبة للرقة من أعمال حَلَب ، ولد في رجب سنة ٨١٢هـ بالقاهرة ، ونشأ بها ، وأخذ عن علمائها ، مات وهو محْرِم عشية عرفة سنة ٨٨٤هـ .

له ترجمة في « الضوء اللامع » (١/ ١٦ـ ١٧) .

(٢) النَّفِير : بوق يُنفخ فيه ، لفظة فارسية .

« صبح الأعشى » (٥/ ١٤٣) ، و « محيط المحيط » (٩٠٧) .

(٣) الشَّبَّابة : آلة متَّخذة من القصب المجوّف ، ويُقال لها : اليراع ؛ لأنها تُتَّخذ من القَصَب ، وربما عُبِّر عنها بالمِزْمار العراقي .

« صبح الأعشى » (٢/ ١٥٢) .

تُقاد بين يديه ، إلى أنْ دَخَل القَصْرَ ، ثم ذَهَبْنَا إلى هناك ، فَسَلَّمنا عليه في القصر الأعلى في الخَرْجة ، فتُلقِّيَ بالرَّحْبِ ، فقرأنا الفاتِحة ، ودعونا له بالتَّوفيق والنَّصْرِ ، وكان إذْ ذاك مِن أبناء الثلاثين .

وحدّثني كاتِبُ السرّ ، أنّه أرسل منادٍ ينادي بولايته ، فقال بعد أنْ نزل: لم تذكروا للمنادِي كنية ، فقلت : ذُهِلْتُ والله فما تريدون مِن الكنى؟ فأطْرَق ، فقال : كلُّ أحدٍ شيئاً ، فقال هو : أبو الفقراء ، فاسْتَثْبَتّه في ذلك ، فَصَمَّمَ عليها ، نسأل الله توفيقه ونَصْرَه آمين .

وعَلَّم على مراسِيم ومنشور ، وكتب على قِصّةٍ يكْتب ، وشكر الناسُ ثباتَه وعدَمَ ارتياعه مِن المنصب ، ثم رُوجِع يوم الجمعة في الكُنْيَةِ ، وأشاروا عليه بتغييرها ، فأجاب فكُنّى بأبي الفَتْح [١] .

وَذَكَروا له ترقِيَةِ الأمراء ، فقال : يُفْعل ذلك بالرُّتبة ، فلما أصبحوا[٢] ، وَلَّى أميرَ سلاح خُشْ قَدَم الأمْرَة الكبرى ، فكان أتابِك العساكِر ، وولى شَرِبَاش أمير مجلس إمْرَة السِّلاح ، وولى قَرْقَماش الجَلَب رأس نَوْبَة النَّوب إمْر المجلس ، وولى قَانَم التّاجِر المؤيّدي ، أحد الأمراء المقدّمين رأس نَوْبَة النُّوب ، وكان جانِبَك الظريف وهو الخَزْنَدار الثانِي ، أحد الأشرفية بَرْسْباي قدْ قبّل الأرْض للسلطان على تَقْدِمَةِ قَانَم ، وأَنعم له بها ، فأفسد عليه الأميرُ يونُس الدُّوَيْـدار الكبير ؛ أراد تحويلها إلى يَشْبُك الفقيه شـادّ

---

(١) للمزيد من معلومات عما صاحب جلوس الملك المؤيَّد أحمد في السلطة من مظاهر واحتفالات ، راجع « النجوم الزاهرة » (١٦/ ٢١٧ـ ٢٢٠) ، و « بـدائع الزهور » (طبعـة بـولاق) (٢/ ٦٥ـ ٦٦) ، و « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٨٦ـ ٨٧) .

(٢) في « النجوم الزاهرة » (١٦/ ٢٢١) صبيحة الخميس ١٥ جمادي الأولى

المؤيَّدية ، فلم يوافِق على ذلك ، فتكلَّم لِيَشْبُك الذي كان دُوَيْدار الأشرف ، لما كان نائِباً في بعض البلاد[1] .

وقيل لما اختلفوا ، ذَكَرَ السلطانُ يَشْبُك ؛ وذلك أنه كان قدم على والِدِه ، وأهدى له هديّةً كثيرةً ، وكان له في نية حسنه ، ثم بتَّ أمرَه ، وأَعطاه ذلك ، وأعطى الأمْرِيَّة الكبرى بحَلَب تِمْراز الأشرفي ، الذي كان نفاه أبوه إلى طرابُلُس ، وأعطى أمْرِيّة تِمْرازِ لاشِينَ الظاهِري ، الذي كان منفّياً بها أيضاً ، وأعطى أمْرِيّة لاشين سُنْقُرَ الظاهِري أيضاً ، فبارزه جانِبَك لذلك ، وأسْمَعه ما يكره .

ونادَى المنادِي عنه قُدَّام الوالِي إيْنال الأشْقَر بالتحذير مِن إظهار المنكر ، أو سُكْنَى أعزب عند مزوجين ، أو بروز أَمْرَدٍ على هيئة منكرة ، أو تسليط مملوك أو غلام على أَحَدٍ مِن النّاس ، ونحو هذا مما الناس في غايَة الضرر إليه ، فدعا له النّاسُ ..

ثم فهموا عن عبد الوهّاب الرّمْلي التَّخْييل على وَلده سالم ، فنادى منادِي أن شيخ السطوحِيَّةِ الشيخ سالم لا أبوه ، ووصل المنادِي بذلك إلى الزَّاوِيَةِ التي للسطوحِيَّةِ ، خارِج باب النَّصْرِ .

لكن مما نقم النَّاس عليهم أَنَّ عيسى المغربي ، وحاله في المجاهرة بالكُفريَّات معروف ، عادَ السلطانَ الأشرفَ في مرضه ، فَرَسم له بمائة دِيْنار ، ولما مات دَعَى ولدُه المؤيَّدُ ، الشَّمْسَ بن حامِد ، ورسم له بتَخْلِيَة سبيل ابن القف ، بَشَرْط أن لا يجتمع بأحدٍ في صَفَد ، ورسم له بثلاثين دِيْنـاراً ،

---

(١) خبر هذه التعيينات في : « النجوم الزاهرة » (١٦ / ٢٢١) ، و « بدائع الزهور » (طبعة بولاق) (٢ / ٦٦) ، و « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٨٧ ـ ٨٨) .

وعكوفِه على كلام أهل الوحدة معروف ، ونُسب ذلك كلّه إلى الأمير بُرْدبَك ، بل شاع أنه اشترى الأشرف مِن عيسى بألف دينارٍ ، أو نحوها ، وكان أشدّ الناس إنكاراً لذلك ، لما سمعه الشيخ أمين الدين الأقصرائي ، وسألني عن ذلك ونحن راجِعون مِن السَّلام على السلطان ، فقلت له : سمعتُ كما سمعت ، ولا أَدْرِي صحّ أم لا . فقال : هَذَا خللٌ في الدِّين ! فقلت : نعم ، لكن عليكم فيه الملامة ، لِأنّي لما أنكرت على عيسى وخاصَّة بالتَّكفّر لم أسمع أَنَّ أَحَدَاً منكم أيّها العلماء لوّح للأمير بُرْدْ بَك ، ولا صَرَّحَ بتصويب إنكاري له ، فربما ظنّ الأميرُ خطأي ، وأنّ لا مُتَابع لي، فينبغي أن تُلَوِّح له إذا اجتمعت به ، بإنكار مثل هذا ، فقال : سأُصَرِّح له أيَّ تصريح .

ثم بلغني أن الأمير بُرْدْ بَك بلغه أَنَّ النّاس أنكروا ذلك ؛ فأنكر وقوعه ، وكَذَب فقد بحثت عن ذلك حَتَّى صحّ عندي مِن طُرقٍ ، منها ما حدَّثني به النّاصِري محمد بن جمال الدين ، عن مجد الدين إسْتَدَّار بُردْبَك ، أن [الأمر] [1] كان بحضوره ، وأنَّ القَدْر كان أَلْفَي دِيْنار ، ولو لم يكن في قلبه مَرَضٌ ما عاشر عيسى بعد ذلك .

موت الأشراف إينال

وفي يوم الخميس نصف شهر جمادي الأولى هذا ، مات الأشرف إِيْنال قُبَيْل العصْرِ ، وصلى عليه ابنُه الملك المؤيّد ، وجميع الأمراء المباشرين ، في السَّاحَةِ التي بين خرائب الطَّطَر ، وجامِع القَلْعة [2] ، وكان مُغَطّى في نَعْشِه بمُرَقَّعَة [3] عتيقة ، وتقـدّم للصـلاة عليه أميرُ المؤمنين ، وحَضَر مِن

---

(١) في الأصل (للأمر) ، والتصحيح من مفهوم السياق .

(٢) في « النجوم الزاهرة » (١٦/ ١٥٧) صُلّي عليه بباب القلّة من قلعة الجبل .

(٣) مُرَقّعَة : من لباس الصوفية ، لما فيها من الرِّقَع .
« المعجم الوسيط » (١/ ٣٦٥) .

القضاةِ المالِكي والحَنْبَلي ، ولم يُدْرك الشافِعي والحنفي وشَيَّعه إلى قَبْره جميعُ من صَلَّى عليه ، غَيْر ولده المؤيَّد ، ولم يتخلَّف بالقاهِرة كبيرُ أحدٍ ، بل خرج الرِّجالُ والنّساءُ ، وَصَفُّوا له مِن القَلْعَةِ إلى تربته قرب قبَّة النَّصر ، فَدُفِن هناك بين العصر والمغرب ، ولعلّه مات عن نحو ثمانين سنة (١) ، وَوَجَد النّاس عليه وجداً شديداً ، وتذكّروا محاسِنَه ، وما كان فيه مِن الجَلَدِ والصَّبْرِ والاحْتمال والكَفّ عن الشرِّ ، والسِّتْرِ [٢٥٢] للزلاّت ، والإقالَةِ للعَثَرات ، حتى أَنَّ تَسَلُّط مماليكه على النّاس ما نشأ إلاّ عن شدَّة كفّه عن الشَّرِّ ، وهو وإن كان أمراً لا يستحسنه أحَدٌ ممن يعتّد به ولكن هو أخفّ شرّاً ممن يَنْشأ الشّـرُّ عن داعِيَةٍ مِن نَفْسِهِ إليه ، ببعثه عليه ومحبته فيه .

وكان عزيزَ العَقْل ، مِن أبْطال المسلمين ، قَلَّ أن رأيت أَشْجَع منه ، مع عَدَمِ التَّكَثُّر بذلك ، وأخبرني لما رافقته في الجهادِ سنة ثمانٍ وأَربعين(٢)، أنّه قطّ ما حارَب السلطانَ أحَدٌ إلاّ كان مع السّلْطان ، ولم يخرج على السلطان قطّ ، ولا كان مع البُغاة ، ولا حَدَّثته نَفْسُه بهذا ، واستمرّ على ذلك إلى أن أُلْزِم بالخروج على المنصور عثمان ، بعد تَحَقُّقِ ما كان عليه مِن الفساد ، واختلّ في أيّامِه مِن أمْرِ البلادِ ، وكان مِن ذوي المروءات ، قليل الكلام ، عديم الفُحْش بالكليَّة ، لا بذاءة عنده .

غير أنه لم يكن مشهوراً بتعظيم العلماء وأهل الخَيرْ؛ لعدم معرفته بهم ، ولا كان [مهتماً] (٣) بإقامة منار الشَّرْع ، وكان يُنْبَز بالأحْدَاث مع تمامِ الانقياد لزوجَتِهِ ، فكانت هي تخبط في أحكامه مِن داخل ، ومِلاَح أجلابِهِ

---

(١) في « النجوم الزاهرة » (١٦/ ١٥٧) . وقد ناهز الثمانين من العمر .

(٢) وثمانمائة .

(٣) إضافة اقتضاها السياق .

مِن خارِج ، فأفسد ذلك جميعَ محاسِنِه ، وأطْبق الناسُ على بُغْض دَوْلَته والدعاءِ عليه .

وكان أكثر الناس وُجْداً عليه صِهْرُه ومَمْلُوكه الأمير بُرْدُ بَك دوَيْدَاره الثاني ، بحيث خِيف عليه انفطار الكبد ، لكنه بالغ ، فشَقَّ ثِيابَه ، وفعل نحو ذلك ، ثم تبيَّن أنّ كلَّ ذلك تَصنُّع ، فأنكَر النّاسُ فِعْله .

ومِن غرائب الاتفاق أني كنت في الميعاد في الجمعة التي كانت تاسع هذا الشهر على قولِه تعالى : ﴿ [و] (١) لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ (٢) ، وخطر في خاطِري أنّ السلطانَ يموتُ ، فإنه قلّ أنْ اتّفَقَت حالةٌ تستحق أنْ تُذْكر إلاّ وكنت واقِفاً في الميعاد على ما يُنَاسِبُها كما هو مُبَيَّن في مواضِعِه ، مع أنّ مَشْيِي في الميعاد في القرآن العظيم على التوالِي ، ومِن برَكَات هذا الميعاد ، أنّه فُتِحَ عليَّ بسببه مناسبات الآيات ، وهو فَنٌّ لم أُسْبَق إليه مع كَوْنه مِن أَجَلّ العلوم وأَدَقِّها ، كما يَعْرِف ذلك مَنْ طالَع كتابي فيه (نظم الدُّرَرِ مِن تناسب الآيِ والسّوَرِ) ، وكانت طريقتي في الميعاد على غير طريقة الوعَّاظ في اعتماد مجرّد القَصَصِ والأخْبَار ، بل كنت أُطالِع الكشّاف (٣) ، وتفسير البَيْضَاوي (٤) ، وأُبَيِّن للحاضِرين ما فهمته منها أحسن بيان

(١) ما بين الحاصرتين غير موجود في الأصل .

(٢) الأعراف / ٣٤ .

(٣) هو كتاب « الكشاف عن حقائق التنزيل » ، لأبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزَّمخشري الخوارزمي المتوفي سنة ٥٣٨ هـ ، فرغ من تأليفه ضحوة يوم الاثنين ٢٣ ربيع الآخر سنة ٥٢٨ هـ .
« كشف الظنون » (٢/ ١٤٧٥) .

(٤) هو كتاب « أنوار التنزيل وأسرار التأويل » في التفسير ، للإمام ناصر الدين أبي سعيد عبد الله بن عمر البيضاوي الشافعي ، المتوفي سنة ٦٨٥ هـ ، وقيل : ٦٩٢ هـ .
« كشف الظنون » (١/ ١٨٦) .

وسهّل الله عليّ إيصال ذلك إلى أَذْهانِ العامَّةِ مع ما أُطرِّز به محفوظي مِن الأحادِيث والسِّيَرِ ونحوها ، ولذلك فتحَ الله عليَّ بما فتح والله الموفّق .

وفي يوم الجمعة ، قال السلطانُ لِأكابر الأَجْلاَب : إنَّه لا يسعني إهمالكم كما كان أبي يفعل ، ولا يسعني إلاّ الانتقام منكم ، فإن رجعتم وأحسنتم كان في ذلك صلاحِي وصلاحكم ، وإن استمرّيْتم على الإساءة كان ذي ذلك خراب ديارِي ، وفي خراب ديارِي خراب دياركم ، فإنّي ان زِلْت لا يَقْنع منكم أحدٌ يأتي بعدي بدون القَتْل ؛ لِما في قلوبهم عليكم مِن الحِنْق .

وفي هذه الأيّام ، أراد السلطان أن يرسل البَهَار الذي جرت العادَةُ بإرساله إلى دِمشق ، فأشار عليه ناظِرُ الجيش البدر بن المزلِّق بتأخِير ذلك إلى أن تستقر الأمور ، ويتحقَّقَ أمْنِ الطرق ، وذلك بعد أن هُيِّئَت الأحمالُ ، فقبل السلطان ذلك ورأى أنّه هو الرأي ، فبلغ الأشرفِيَّةِ أنه حيلةٌ مِن نائب الشام فاشتاطوا لذلك غضباً ، فلما بلغ ابن المزلِّق ذلك ، عَظُمَت مشقَّتُه عنده ، ثم اعتذر إليهم بأنَّ نائب الشام صِهْره ، فلا يتخيّل فيه مثل هذا ، وحلف لهم على مثل ذلك .

ولمّا شدَّد على الأجلابِ ، ظهر عليهم الذّلُّ والانكسارُ ، لكن بقيت فيهم بقايا الجهل ، فنازع شخصٌ منهم ، يُقال له : بَكْ بلاط شخصاً مِن الناس في شيء ليأخذه منه مجّاناً على عادَتهم فمانعه ؛ لما حصل في قلوب العامَّة مِن الاجتراء عليهم ؛ لما سمعوا عن السلطان مِن توعّدهم على الفساد ، فضرب السُّوْقي فجرَحه ، فقام عليه النّاسُ ، فهرب ، فَذُكر له ذلك ،فطلب إحْضاره مِن مقدّم المماليك ، فهرب ، فزادت محبَّةُ الناس له ، فلما خُطِب باسمه على المنابر يوم الجمعة سادِس عشر الشهر ، ضَجّ

الناسُ بالدعاءِ له ضَجَّةٌ يُرْجَى له بها الخير ، ولَهَج الناسُ بالدّعاء له في الأسواق ، حَتَّى سَمِعت بَعْضَ السّوْقَةِ ينادِي على بِضَاعَةٍ : كل كذا بحُدَيّد الله ينصر الملك المؤيّد .

وفي يوم السبت ، سابع عشر الشهر جلس على التّخْت الذي في الحوش ، وأنشده القاضِي كاتِبُ السرّ ، المحب بن الشِّحْنَة لنفسه يمدحه :

أنـت المـؤيَّـد صِـدْقـاً	ووارِثُ المُلْـكِ حَقّـا
وعمـر الأشْـرَف طِبْقـاً	في المُلْـكِ تَبْقـى وتَـرْقَى

وفي هذا اليوم ، وصل إليه أرْبعةٌ مِن العرب قبض عليهم « بنُ شعبان ، وأَخْبر أنهم مفسدون ، فسأل عن حالِهِم ، فأخبره جماعَةٌ مِن الجند أنهم قَتلوا من يستحقّون به القتل ، فاعتمد عليهم ، ثم أمر بهم فَسُمِّروا ، وضُرِبت أوساطُهم في بابِ النَّصْرِ ؛ وبرز النّداءُ بإنكار المنكرات والتشديد في أمرها ، وأن لا يحتمي أحَدٌ بمملوك .

وفي هذا الحدّ ، وصل الخَبرُ أنّ نائِبَ الشّام الأمير جَانَم ، ضرب القاضِي .. [1] ابن علاء الدين علي بن قرقين ، ويعرف أيْضاً بابن النُّقَيِّب (مصغراً مثقلاً) قاضي بعلبك ؛ باغراء الولي البُلْقِيني ، قاضِي الشافعيّة بدمشق ، فكان ذلك مِن غرائب صنع الله ؛ وذلك أنَّ أكبر المزّيِّنين للولِي المذكور للسعي على الباعوني ، العلاء ابن قاضِي بَعْلَبك أراده لقهر الجمال الباعوني للسَّلاَمَةِ مِن أذاهُ لهم ، وما درى أنّ الله تعالى [٢٥٣] يقيم

---

(١) بياض في الأصل ، لم نجد ما يصححه في المصادر المتوفرة .

لردع المُبْطِل أقربَ النّاسِ إليه ، ولـولا ذلك لسَعَّر البـلاد، ، وأبَاد العِبـاد ﴿[وَلَوْلاَ] [١] دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ ﴾ [٢] .

وسبب ذلك أنَّه لما استخلص ابنُ دَنْكُزبُغا الإقطاع الذي تقَدَّم أن العلاء ابن قاضِي بَعْلَبك كان بَغَى عليه فيه ، ووصل إلى دمشق ، طلب النائبَ أن يأمر ابن قاضِي بَعْلَبك برفع يده عنه والإشهاد على نفسه بأنّه لا حَقَّ له فيه ، كما فعل بأبيه في القاهِرة ، فلما وصل ابنُ قاضِي بَعْلَبك إلى دِمشق دار على من يظنّ به مساعدته ، منهم الحاجِب وقاضِي الشافِعِيَّة وغيرهما ، فوعدوه بذلك ، فلما احْتَبَك المجلسُ في دار السّعادَةِ ، حضر ابنُ دَنْكُز بُغَا ، فشكا أمْرَه ، فتقدّم ابنُ قاضِي بَعْلَبك يُدَافِعُه ، فطلب النائبُ مِن القضاة الكلامَ في أمْرِهما ، فبدر الشَّافِعِيُّ وقال : يا مولانا ، هذا وأبوه فَاتَهم التَّوْسِيْطُ من مُدَّةٍ طَوِيْلَةٍ ؛ لما يشتملان عليه مِن الشّرِّ والأذى للمسلمين ، وما شاع عنهم مِن الأمور المُعْضِلة ، التي منها قَتْل النفوس ، فاضْرِبْه بالمقارِع ، وافْعَل ما يَرْدَعَه عن أذى الخَلْق ؛ فَجَبُن من كان وَعَدَه بالمساعدة عن الكلام .

فلما انفصل المجلسُ أراد النائبُ ضَرْبه بالمقارِع ، ثم شُفع فيه من المقارِع ، فَضَربه على مَقَاعِدِه إلى أنْ كادَ يُتْلِفه ، بحيث أنه قيل : أَنّ عِدَّة الضَّرْب ، كانت خمسمائة ، وسُـرّ بذلك أهلُ الخَيْر ، زاد الله سرورَهم .

وفي يوم السبت المذكور ، أُمِر بالقَبْض على شخصٍ مِن أعْتِيَاءِ الأجْلاَبِ ، يُسَمَّى بَرْسْباى الثور ، فَقبض عليه مقدَّمُ المماليك وأَمَر به إلى البُرْج ، فأبدى مِن الذّلّ والانكسارِ ما يفوقُ الوصْفَ ، وتَشَفّع بجماعَةٍ مِن

---

(١) ما بين الحاصرتين ساقط من الأصل.

(٢)البقرة/ ٢٥١.

الأمراءِ كانوا خارِجين مِن عند السلطان ، فشفعوا فيه ، فأبى مقدّم المماليك ، وقال : إنّي أخافُ على نفسي ، فما زال يتذلّل ، وما زالوا هم بمقدّم المماليك إلى أن سَمَح بأنّه يتركه موكلاً به في طبقته ، ولا يذكره للسلطان ، فإن نسيَه تركه ، وإلاّ أحضره إليه .

وفي يوم الأحد ثامِن عشره ، أحضر إليه بَك بلاط [١] ، فضربه ضَرْباً كثيراً ، وأمر بنفيه إلى حَلَب ، فَشُفع فيه ، فبعد جهد سُمِح بأن يتركه في البرج حتى يتأدّب .

وفي هذا اليوم حُسِم شرّ النَّفر [٢] ، وهم خدّام جِمَال السلطان ، وذلك بِأنّهم لا رِزْق لهم على خِدْمَةِ الجِمَال ، وهم راضون في ذلك بأنْ لا يُعاقبوا إذا سَرَقوا ، ومَن عَرَف شَيْأَه عندهم أعطاهم شيئاً ، فردّوه عليه ، وهم أعْرفُ النّاسِ بالاختلاس ، بحيث أنّهم يقدرون على أَخْذِ عِمامَةِ المُسْتَيْقِظِ وهو لا يَشْعُر ، ويشقُّون الجَيْبَ ويأخذون ما فيه ، وتارَة يُدْخِلُ أحدُهم يَدَه فيه فيأخُذُ ما فيه ولا يَدْري به ، وربما كان في الجيب لا شيْئاً غَيْر صرّةِ الدراهِم ، فيأخذُ الصُّرَّةَ فقط ، وربما كانَت تحت تلك الأشْياء .

---

(١) هو الأمير سيف الدين بك بلاط بن عبد الله الأشرفي إينال ، نُفي بعد استاذه إلى طرابُلُس على إمْرة بها إلى أن قُتل في وقعة شاه سوار ، وهو شاب في سنة ٨٧٢هـ .

له ترجمة في : « حوادث الدهور » (٦٦٢) ، و « الضوء اللامع » (٣/ ١٧ رقم ٧٦) ، و « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (١٨٧) .

(٢) النَّفَر : « من ثلاثة إلى عشرة من الرّجال ، ويُقال : هم نَفَر فلان : نافِرَتُه ، والمجمع من النـاس ، والفَرْد من الرجال ، مُحْدَثة » .

« المعجم الوسيط » (٢/ ٩٤٠) .

ولهم في ذلك مِن الحكاياتِ ما هو أشَدُّ مِن العَجَبِ ، بحيث حَدّثني شهابُ الدِّين أحمد [1] الحجازي ، الأديب الشافِعِي ، السَّاكِن بالقَرَاسُنْقرية قال : كان عندنا فِي البيبرسِيَّة شخصٌ عَجمي ، فجاءنا يوماً وهو في غايَةِ العَجَب ، فقلنا : مالَك ؟ فقال : اشتريت فِجْلَةً فإذا هي ، ونظر في كُمِّهِ ، وقال : فِجْلَة ، وظهر عليه الخَجَلُ ، فقلنا : ما هذا ؟ اشتريت فِجْلة فإذا هي فِجْلة ! فماذا كنت تريدها تكون ؟ فسكت ، فقلنا : اخبرنا بِقِصَّتِك ، فقال : أَخشى أن تقولوا أنني جُنِنْت، أو سَكِرْتُ وظَنَنّا أنه اتّفقت له [٢٥٤] مع النَّفَرِ قضِيَّةٌ ، فقلنا : قل لنا وأنت آمِنٌ مِن ذلك ، فقال : شَرَيْتُ هذه الفِجْلَةَ لِأُعْجِبَكُم منها ، فإنّي قطّ ما رأيت أكبر منها ، فمشيت قليلاً ، ونظرت إليها في كمّي فإذا هي أُتْرُجَّة [2] ، والله رأيتها بعيني أُتْرُجَّة فازْدَدت عَجَباً ، فنظرت الآن فإذا هي الفِجْلَة التي اشتريتها ، فقلنا : الأَمْرُ في هذا سهلٌ وما هو عندنا عَجَبٌ ، فتعّجّبَ مِن قَوْلِنا ، فقلنا : في بلدنا هذه قومٌ يُقال لهم : النَّفَرُ ، لهم في مثل هذا عجائب ، رأوا كُمَّكَ ثقيلاً ، فظنُّوا فيه مَحْفَظة [3] فيها نَقْدٌ ، فخافوا أَنْ

---

(١) هو : أحمد بن محمد بن علي بن حسن بن إبراهيم ، الزَّكي ثم الشهاب أبو الطيب ، الأنصاري الخزرجي السعدي العبادي الشافعي ، المعروف بالشهاب الحجازي ، ولد في ٢٧ شعبان سنة ٧٩٠ هـ في الدرب الأصفر قرب باب النصر من القاهرة ، عُني بالأدب كثيراً حتى صار أوحد أهل زمانه ، وله تصانيف منها : « التذكرة » نحو سبعين جزءاً ، و « كتاب النيل » ، و«روض الأدب»، «وحبيب الحبيب ، ونديم الكئيب» ، مات يوم الأربعاء ٧ رمضان سنة ٨٧٥هـ .

له ترجمة في : « عنوان الزمان » (مخطوط) (٨٦ ـ ٨٩) ، و « الضوء اللامع » (٢ / ١٤٧ رقم ٤١٦) ، و « نظم العقيان » (٦٣ رقم ٤٢) ، و « بدائع الزهور » (طبعة بولاق) (٢ / ١٢٥ ـ ١٢٦) ، و « شذرات الذهب » (٧ / ٣١٩) .

(٢) أُترجّة : ثمرة كالليمون الكِبار ، ذهبيّ اللون ، ذكي الرائحة ، حامض الماء .
« المعجم الوسيط » (١/ ٤) .

(٣) مَحْفَظة : كيس يحفظ به النقود ، (مُحْدَثة) .
« المعجم الوسيط » (١/ ١٨٥) .

يأخذوها فتَخُفُّ كُمُّك فتَعْرِف ، فأخذوا ما في كُمِّك ، ووضعوا لك الأُتْرُجَّةَ لذلك ، فلمّا رأوه فِجْلَةً عرفوا أَنَّ صَفْقَتَهُمْ خَسِرت ، فأخذوا أُتْرُجَّهم وأعادوا فِجْلَتَكَ ، فسمع شيئاً ما ظنّه يكون قط ، فصار كالمَبْهُوت .

إذا عُلِم ذلك فَلْيُعلم أنَّ الظاهِر جَقْمَق كان رَزَقَهم في كلِّ شهر خمسة عشر ألف درهم ، واستراح النّاسُ في أيّامِه من فساد الأجْلاَب وغلمانِهم والنَّفَرِ والبَزَادِرَةِ وقطّاعِ الطّريق ، يكون عنها خمسون دِيْناراً ، وأخَذَ عليهم أنْ لا يؤذوا أحَدَاً ، فخفّ شرُّهم ، وذلك أنهم صاروا إذا أخذوا شيْئاً يخافون العقوبَة .

فلما [جاء] [1] الأشرف إيْنال قطعها ، فعادوا إلى الجُرْأةِ ، فلمّا جاء وَلَدُه أعادها بزيادَةِ ألفين ، فجعلها في كل شهر سبْعَة عشر ألف درهم ، وشدَّدَ النكير عليهم ، فزاد الدعاءُ له .

ثم في يوم الاثنين تاسِع عشره برز النّداء عن المقام الشريف ، بأنّه لا يحتمي أَحَدٌ على الشرْع الشريف ، ولا يُعارض مَن يَتَمسَّك به بأبواب قضاة الشرع الشريف ، ومنْ ظُلِم أو قُهِرَ فعليه بالمقام الشريف ، يَنْظُرُ قَضِيتَهُ ، وَيُخَلِّص ظُلاَمَتَه ؛ وسبب ذلك أنّ الوالي إيْنال الأشقر أخذ مِن بيت قاضِي الشّافِعِيَّة العَلَم البُلْقِيني شخصاً كان في دعوى ، فَضَربه ووضعه في المقْشَرةِ سِجْنِ أهلِ الجرائم ، فتكَلَّم ناظِرُ الجيش الزّين ابن مُزْهِر ربيب الشَّافِعِي في ذلك .

---

(١) ما بين الحاصرتين في الأصل (جاف) والتصحيح من مفهوم السياق .

وحدَّثني القاضِي كاتِبُ السرِّ ، أنّ جماعَةً مِن أكابِر الجند كانوا مشتركين في بَلَدٍ فَشَكوا مِن شخصٍ مِن فَلاَّحِيها ، فذكَّر الأميرُ بُرِدْبَك السلطانَ به ، فقال : بحثت عنه فوجدته مظلوماً ، فقال له : أهِنْه لِأَجْلِ المقطعين . فقال : لا أُهين مظلوماً ، فقال : اضربه لِأَجْلهم خمس عشرة عصى . فقال : لا آخذ في ذِمَّتِي ولا عَصَى ، فكثر الدُّعاءُ له بالتوفِيق ، ولرعيّتِهِ بأن يوزعوا شكر هذه النِّعْمَة ، لتدوم ويجعل المقرَّبين منه بطائِن خَيْر ، كما وفّقَه لمثل هذا .

وفي يوم الاثنين هذا ، أرسل السلطانُ إلى أمير المؤمنين ، وإلى بقيَّةِ الأمراء الكبار عادَتهم مِن النَّفَقَة (١) .

وفي يوم الثلاثاء العشرين مِن الشَّهْرِ ابتدأ النَّفَقَة على الأجْلاَب (٢) ، وقَرَّرَ أن كلّ يوم سبتٍ ، أو ثلاثاء لطبقة على ترتيبهم ، ولم يطلب مِن أَحَدٍ مِن المباشرين ولا غيرهم المساعدة بشيء ضدَّ ما فعله المنصور عثمان بن الظاهِر جَقْمَق ، فكثر الدعاء له .

وتأخّرَ النَّجَّابَةُ الذين جرت عادَتُهم بالسَّفَرِ إلى نُوَّاب البلاد ، عِند تجدّد السلطان إلى هـذا اليوم ، فكُتب لهم ما جرت به العادَةُ (٣) ، وسافروا .

---

(١) تفصيل ذلك في : « النجوم الزاهرة » (١٦ / ٢٢٢ ـ ٢٢٣) ، و « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٨٨) .

(٢) في « النجوم الزاهرة » (١٦ / ٢٢٣ ـ ٢٢٤) فأعلى من أخذ مائة دينار ، وأدنى من أخذ ثلاثين ديناراً ، وأعطى لكل مملوك من الكتابية عشرة دنانير . راجع أيضاً « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٨٨) .

(٣) كان ذلك يوم الاثنين ١٩ من جمادى الآخرة ، وكان جميعهم خاصكيّة ، ما عدا مُغُلْباي طاز ، ويبرس الأشقر .

« النجوم الزاهرة » (١٦ / ٢٢٣) ، و « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٨٨) .

وأمّا الترك الذين جَرَت عادَتُهم أَنْ يتوجَّهوا إلى النُّواب بالخِلَعِ ، فبلغني أنه لم يذهب منهم أَحَدٌ ، بل طلب كلُّ مَن رُسِم له بِبَلَدٍ مَنْ وَجَده بالقاهِرَة مِن إلزام نائبها وصَالَحه على ما كان يصل إليه مِن صاحبه ، ودفع إليه خِلعَتَه ؛ وكان ذلك خَوْفاً مِن أن يقع في غَيْبَتِهم تَغَيُّر لا يَحْضُرونَه ، خيَّبَ الله مأمُولَهم ، وأجْرَانا على أجمل عوائِدِه .

ثم بلغ السلطانَ ما فعلوه ، فبرز أمْرُه أنْ يذهبوا بالخِلَعِ بأنفسهم ، ولا يُصالَحَ في القاهِرَة ، وكلَّمهم في ذلك كلاماً حَسَناً ، فقال : إنّ المقصودَ حصولَ الطَّمأنينة لِأهْلِ البلد برؤيَةِ من أُرْسِل مِن عِنْدِ السلطان ، ويخبْرِوا هُمْ عمّا يُشاهِدونه مِن أحْوَال الجند والنَّاس ، وهذا وأَمْثالُه مِن الأغراضِ ، لا يحصل إلاّ بِتَوَجُّهِكم بأنْفُسِكم ففعلوا .

وفي هذا اليوم ، رُفِع إليه بزْدَارٌ ، وهو مِن خدَّام الطّيْرِ التي يُصاد بها في فسادِ أفْسَدَه ، فَجَرَّدَه لِيَضْرِبَه ، فاعْتَرف بالقَتْل ، فأمر بقتله فَقُتِل ، فزاد دعاءُ النّاس له ؛ لِأَنَّهم كانوا ينسبونه قبل السَّلْطَنَةِ إلى حِمايَةِ البَزَادِرة .

وكان قد وَقَع في هذه الأيّام قصَّة غريبة ، وهِيَ أنّ نَصْرَانِيّاً غريباً ، قيل: أنه أرْمَنِي ، وأنّه راهِب [1] تردَّد إلى بيت قاضِي الشافِعِيَّةِ العَلَم البُلْقيني يسألهم أن يجمعوه بالقاضِي ليناظِرَه ، فلم يفعلوا ، ثم ذهب إلى بيت قاضِي المالكيّة الحسام ابن حُرَيْز ، فاجتمع بِبَعْضِ نُوَّابِهِ ، فسأله عن عيسى ، فقال : هو عبدُ الله ورسوله ، فقال : بل هو الله . فَدَخل به إلى مستنيبه ، وشرع يقول لهم : ما فَعَل نبيكم ؟ ولو أنه حقٌّ لأخْبَرَ به عيسى ، ونحو هذا مِن الكلام ، فوضعوه في زِنْجير (وهوالسّلْسلَة) ، ثم ضربوا عنقه

---

(١) رَاهِب : « الرَّاهِب ، المتعبّد في صومعته من النصارى ، يتخلّى عن أشغال الدنيا وملاذّها ، زاهداً فيها ، معتزلاً أهلها » .

« المعجم الوسيط » (١/ ٣٧٧) .

بعد عَصْرِ يوم الأَرْبعاء ، حادِي عشر الشهر ، وَجَرُّوه إلى الكَوْم [1] الذي خارج باب النَّصْرِ فأحْرَقوه هناك .

وَحَدَّثني القاضِي محيي الدين عبد القادِر بن عبد الوارِث ، وهو الحاكِم فيه أنّ ضَرْبَة السَّيَّاف وقعت في قفاه فخرجت مِن فمه ، واستمرّ حَنَكُهُ الأَسْفل مع جثته ، ولم يعجبني كونهم قتلوه ، ولم يوضِّحوا له [٢٥٥] زيْفَ مقالاتِهِ قَبْل ضَرْبِهِ ، وليتهم إذْ عجزوا عن ذلك ، رفعوه إلى مَنْ يَعْرِف ؛ حَتَّى بَيَّن له ذلك وأَوْقَفَه على ما يُكَذِّب قولَه مِن الإنجيل ، وكَشَف له عَمَّا فيه مِن البشائر بنبِّينا ﷺ ، بعد أنْ يُحْضر له مَنْ يثق به مِن النَّصارى ، ويشهد أنّ ذلك كلُّه كَلاَمُ الإنجيل الذي يتناقلونه إلى هذا الزَّمان ، لكن منعهم من ذلك أمورٌ منها تهافت المالِكِي هذا على إراقَةِ الدِّماء ، فلقد ظهر منه ذلك غَيْر مرَّة ، وعُورض في كلِّ منها ، فكأنّه خشى أن يؤخِر هذا ، فيمنعه مِن ضَرْب عنقه مانِعٌ ، ولا قُوَّة إلاّ بالله العلي العظيم .

وشكا شخصٌ طحّانٌ إلى السلطانِ ، أنّ شاذِ بَك آص ، أحَدُ الأجلاب الجبابرة على أيّام أبيه أفْسَدَ جارِيَته ، فأحْضَرَه وكان من رؤوس فجّارِهم ، فَحضَر ومعه لفيفه ، فَسُئِل فأنْكَر ذلك ، وادَّعى أَنَّ الشَّاكي فلاّحه ، وأنه إنّما قال هذا ؛ إرادةِ الخلاص مِن فِلاحَتِهِ ، وساعَدَه بعضُ الأكابر ، وسأل السُّلْطانَ أن يُسَلِّمه إليه ، ليستمر على فِلاَحَتِهِ ، فقال له السلطان : أَحْضر مستنداً بأنّه فلاّحَكَ ، فلم يُوجَد معه له مستند ، فسأله الأميرُ بُرِدْ بَك أن يُسلِّمه له ويوصِيه به ، فقال : لا أفعل ، فتَكَلَّم لَفِيفُهُ

---

(١) الكَوْمُ : كل ما ارتفع من تراب أو رمل أو حجارَة ، والموضع المُشْرِف كالتَّلِّ . «المعجم الوسيط» (٢/ ٥٨٠) .

وكان فيما قالوه أنَّ العامَّةَ قد صاروا يصفعوننا ، فانتهرهم وقال : أتجاهِرون بالعصبية ؟! ونظر إليهم نظرةَ المُغْضَب ، فنكصوا ، ثم ألحّ عليه الأميرُ بُرْدْ بَك في تسليم الطَّحَّانِ لشاذِ بَك لِئلا تكون فتنة ، فلم يفعل ، وقال في آخِر الأمر : خذهم أنت عِنْدَك وحَرِّرْ الأمر بينهما واعْلِمْني بما يتّضح لك فأخذهم إلى بيته ، فضرب الطَّحَّان ضرباً كثيراً ، وأمر بأنْ يُطاف به ويُنَادى عليه ، هذا جزاء من يجترىء على مماليك السلطان، ثم كان خاف أن يطلّع السلطانُ على ذلك ، فلم يزل يتلطَّف بشاذِ بَك وَحِزْ به ، حتى تركوا إطافته فأطلقه ، فَلَمَّا خرج مِن بيته أخذوه إلى إصْطَبل شاذِ بَك وضربوه ،وشَدَّدُوا في إهانته ، بحيث تَبْعد حياتُه ؛ لما فعلوا به مِن أنواع العقوبَة ، فَشَقّ ذلك على النَّاس ، وقالوا : دولة يحكم فيها الفِرَنج في المسلمين لاصلاح فيها ، ثم دعوا بزوالها ، فَشَقَّ ذلك على أهلِ الخير .

وتبيّن أن ما كان بُرْدْ بَك يعتذر به عن الأشرف إِيْنَال في الاستحسان عليهم كان باطِلاً ، وأن لهْجَة إذْ ذاك بتَقْبيح ما يفعلونه كان رياءً وسمْعه ، وكذا كان فعْله دائِماً ، ما هَمَّ السُّلْطانُ المؤيَّد بالإنصاف مِن مملوك إلا خفَضه عن ذلك وخيَّله ، فنجم نفاقُه ، وتبيَّن لَعَمْرِي شِقاقُه .

وفي يوم الجمعة [ثالث] [١] عشري جمادي الأولى هذا ، احتال موسى البدوي رَكاب السلطان على الذي كان يُفْسد بقطع الطريق في ناحِيَةِ كوم الريش[٢] ، وقناطر الوَزّ ، والمنية وما قارب تلك لأراضي ، واسْمه علي ابن شيخ بهتيم ، فَقَبَض عليه ، ثم أحضره إلى السلطان ، فأمره بإتلافِهِ

---

(١) ما بين الحاصرتين في الأصل (حادي) ، والتصحيح من مفهوم السياق ، حيث جاء أن يوم الثلاثاء قبله يوافق العشرين منه ، والأربعاء بعده يوافق ثامن عشري الشهر .

(٢) كوم الريش : بلد فيما بين أرض البعل ، ومنية الشيريج ، كان النيل يمرّ بغربيّها ، كان من أجل متنزهات القاهرة .

«الخطط التوفيقية» (١٥/ ١٣) .

ففعل ، وعُلِّق بعد عصر هذا اليوم على شجرة جُمَّيز [1] في النَّوَاحِي التي كان يقطع الطريق فيها ، وخلع السلطان على موسى ركابِهِ وأكرمه ، وكان هذا المُفْسِد شاباً مشهوراً بالشجاعة ، فارساً معروفاً في الفرسان .

وفي هذا الحدّ وصل كتابٌ مِن جاكمُو الذي قصد تَـمْلِيكَه قبرس أنَّه ظفر بسلُّورَة لِأهل شِرِيْنَهْ فأخذها ومن فيها ، وانكسر لهم أيضاً غِرَاب فأخذ من فيه ، وممن فيه أَمِيْران مِن أكابِر منْ كانَ بها ، وأخذ قلعة الباف ، وهو منتظر أن تأتيه مِن السلطان نجدةٌ ، ليأخذ شِرِيْنهْ ؛ لقَلَّةِ من بقى بها ، فرُسِم بأن يُكتب لنوَّاب بلاد الشّام [أَنْ] [2] يجهزوا إليه مِن العَشِير .

[٢٥٦] وفي هذا الحدّ أيْضاً وصل الخَبرُ بأنّ جُمَيْل بن يوسف ، أمير العرب بالسَّخاوية والبُرُلُّس وما بينهما مات [3] ، وكان مِن عقلاء الرِّجال وشجعانهم ، وكان سنّه نحو السَّبْعين وقَدِم أولادُه للسعي في إمْرَته ، فأُلْزِموا بمالٍ كبير ، ثم ولّى السلطان ابنه عَمِيره بن جُمَيل مكانه [4] .

وفي يوم الأربعاء ، ثامِن عشري الشهر تشكّى منصور الإسْتَدَّار ، فأمره السلطان بعمـل حساب البـلاد ، فعمل ذلك وادّعى أنّ عجزه [5] في كل

---

(١) شجرة جُمَّيْز : أصل هذا الشجر من بلاد النوبة ، وهو يتكاثر بسهولة بواسطة العُقَل زمن حصاد القمح ، متى بدأت أوراقه الحديثة في الظهور ، وإذا بلغت الجمَّيْزة ١٥ عاماً أثمرت ثلاث مرات في السنة ، ثمراً يشبه التين .

« إحياء التذكرة » (٢١٨) ، و « المعجم الوسيط » (١/ ١٣٤) .

(٢) ما بين الحاصرتين ، إضافة اقتضاها السياق .

(٣) راجع (ص ٣٨٢) من القسم الثاني .

(٤) في « النجوم الزاهرة » (١٦/ ٢٢٤) كان ذلك في يوم الأربعاء ٢٨ من جمادى الأولى ، راجع أيضاً « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٨٩) .

(٥) في الأصل « وادعى أنّ عجزه في كل شهر إلى اثنا عشر ألف دينار) ، فصحّحت الجملة ، بحذف كلمة (إلى) حتى يستقيم السياق ، وكان المؤلف قد كتب هذه الجملة كما يلي : « وادعى أنه يحتاج إلى ستة .. » فعدَّ لها عند مراجعته في المرة الثانية لما كتبه في المرة الأولى ، واستبدل كلمة (أنه) بـ (أن) وشطب كلمة (يحتاج) واستبدلها بكلمة (عجزه) ، وشطب كلمة (ستة) ، ويبدو أنَّه غَفَل عن شَطْبِ (إلى) حتى يستقيم سياقه .

شهر اثنا عشر ألف دِيْنار ، فقال : مجد الدين بن البَقَري ، (وكانت بينه وبين منصور شَحْناء شديدة ، وكان يعتضد بالأمير بُرْدَك) : أنه يسدّ ويقنع في كل شهر بستَّةِ آلاف دينار ، فَوُلِّيَ [1] الإسْتَدَّارِيَّة يوم الخميس تاسِع عشري الشهر وعُزِل منصور ، وحوسب ، فبقي عليه اثنان وثلاثون ألف دِيْنار ، فَعُوِّق عليها في القَلْعَةِ لِيحرّر أمرها .

جمادي الآخرة سنة خمس وستين وثمانمائة

وفي يوم السَّبْت ، مستهل جمادي الآخِرَة سلَّمْتُ على السلطان الملك المؤيَّد ، وكان معي الشيخُ نجم الدين محمد بن الشيخ وَلِي الدين عبد الله بن قاضِي عجلون ، والشريف علي القصيري ، وقلت : « إنا نهنئك بمحبَّة الله تعالى لك ، وذلك أنَّه صحّ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ ، أنه قال : « إنّ الله إذا أحَبَّ عَبْدَاً نادى جبريلَ : أنِّي أُحِبُّ فلاناً ، فَيُحِبُّه جِبْرِيلُ عليه السلام ، ثم يُنادي جبريلُ أهْلَ السماءِ : أَنَّ الله يُحِبُّ فُلَانَاً فأحِبُّوه ، فَيُحِبّوه ، ثم يُوْضَعُ له القبولُ في الأرض » [2] . وقد حَصَل لكم مِن القبول عِنْد النّاس ما يَجِلُّ عن الوصْف ، بحيث أنه لا يُرى أَحَدٌ إلاَّ وهو يدعو لكم ، حَتَّى إنَّهم لمّا سمعوا اسمكم يذكر على المنبر في أوَّلِ جمعة ، ضجّوا بالدعاء ضَجَّةً شَمَمْتُ منها رائِحةَ الإجابَةِ، وَبَكَيْتُ، وكان دعاؤهم عندما سمعوا النّداء عنكم بأنّه لا يَحْتمي أَحَدٌ على الشَّرْع أكثر مِن ذلك كلِّه .

فنشتهي أنْ يستمر هذا الدّعاء ؛ بدوام تعظيمكم للشرع ، وثباتكم على الحق ، فإنّ الله تعالى أنزل هذا الشرع لِيُعَظِّمَه النَّاسُ ، فَمَن عَظَّمه ،

---

(١) في « النجوم الزاهرة » (١٦ / ٢٥٥) « ووعد بأنه يلبس خلعة وظيفة الإسْتَدَّاريَّة في يوم السبت أوّل جمادي الآخرة ، فوقع ذلك » ، راجع أيضاً « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٨٩) .

(٢) أخرجه (البخارى) في « صحيحه » (٧٨ ـ كتاب الأدب ـ باب ٤١ المِقَةِ من الله / ج ٧ ص ٨٣) بلفظ « .. إذا أَحَبَّ اللهُ عَبْداً نادى جبْريلَ إنَّ الله يُحِبُّ فُلاناً فَأَحِبَّهُ فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ فَيُنادى جِبْريلُ في أهل السَّماءِ إنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلاناً فأحِبُّوه فَيُحِبُّهُ أهلُ السَّماءِ ثُمَّ يُوضَعُ لهُ القَبُولُ في أهل الأرض » .

عَظّمه الله ، ولا بـد في الوقـوف معـه مِن شدائِد ، فإن الله تعالى يقـول : ﴿ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَآ أَصَابَكَ ﴾ (١). وقال تعالى : ﴿وَالْعَصْرِ إِنَّ الإِنسَٰنَ لَفِي خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ (٢) . فلا بُدّ مِن الصَّبْرِ في عمل الحَقّ ، ولا يُبَالي بإغْضاب أَحَدٍ ، فإنّ الحاكِمَ من حَيْث هو ، فضلاً عن أن يكون مَلِكاً ، لا بُدّ أن يُغْضِب فريقاً مِن النَّاس ، وإذا لم يكن مِن إغضاب بعضهم فَلْيَكُونوا الظالمين ، ولا يَلْتَفِت إلى تَخْييل أحَدٍ ، بأنَّ أحَداً منهم يدعوا ، فإنَّه إنما يُبالي بدعوة المظوم ؛ لِأنّ النَّبِيّ ﷺ قال : واتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ فإنَّه ليس بَيْنَها وَبَيْنَ الله حِجابُ (٣) . وأما دعوة الظالم ، فإنَّ النَّبِيّ ﷺ أخْبَرَ أنه لا تُفْتَح لها أبوابُ السماء ، فإذا لم تجد لها مسلكاً رجَعَت على صاحِبها .

ومن قال لمولانا أنّ الأمر يكون [٢٥٧] بالتَّدْريج فقد صَدَق ، لكن لا بُدّ مع ذلك مِن شِدَّة عنايَةِ السَّلْطان بإزالةِ المفاسِد في جميع أحوالِهِ نَوْماً وَيَقَظَةً ، فإذا كان كذلك أَعَانَه اللهُ وَيَسَّر عَمَلَ ذلك كذلك ، فقد كان عمر بن عبد العزيز كذلك يعمل ، وكانت مدّة ولايته سنتين وخمسة (٤)، وكان المفاسِد قَبْله قد كَثُرَت ، حتى ملأت الأرضَ، ومع ذلك فلم يمت ، ومنها شيء ، بل زالت كلُّها في هذه المدَّة اليسيرة .

---

(١) لقمان/ ١٧.

(٢) العصر .

(٣) أخرجه (البخاري) في « صحيحه » (٤٦ كتاب المظالم ـ باب ٩ الإتقاء والحذر من دعوة المظلوم/ ج ٣ص ٩٩) .

(٤) في « سمط النجوم العوالي » (٣/ ٢٠٨) سنتان وخمسة أشهر وأربعة عشر يوماً .

ومن قال : أَنَّ الزَّمانَ غير قابلٍ لذلك فهو غَيْرُ مصيب ، فلم يزل الله سبحانه يبعث للناس من يَرْحمهم به حتى كان آخرهم أخوكم الملك المؤيَّد شيخ ، وأمره في محبَّةِ العلماء ، وتعظيم الشَّرْعِ غَيْرُ خَفِيّ ، والمرجو مِن الله تعالى أنه كما اختار لكم لَقَبَه أنْ يَمُنّ عليكم مِن سِيرَتِهِ في تعظيم الشريعة وتوقير أهلها ما يعزكم به وينصركم على كلِّ مفسد ، ويثبت به قواعِدَ دولتكم » .

فأظهر القبولَ لذلك والسّرورَ به ، وكان ذلك في خلْوَةٍ ما كُنْت أظنّ أَنَّ مثلها يتيسر في مثل هذه الأيّام ، فالمرجو مِن الذي يَسَّرَها أنْ يُظْهِر ثمرات هذا الوَعْظ بِمَنِّه وَكَرَمِهِ ، ثم قرأنا الفاتِحَةَ ، ودعوْنا له أنّ الله تعالى يُوَفِّقَه لما يُرْضِيهِ عنه ، ويعزّ به الدين ويقْمَع به المفسدين .

وفي هذا اليوم أمر السلطان بتحرير المالِ الذي بَقِيَ على منصور ، فَحُوقِقَ على ذلك في جامِعِ الحَوْش بالقَلْعة ، فأظهر خصوماً لبعض المال، وَبَقِيَ عَليه أحد عشر ألف دينار ، عجز عن إبداء ما يَهْدِمها ، فَسُلِّمللوالي ، ثم ضَمِنَ الأميرُ بُرْدْ بَك إحضاره ، ونقله إلى بيته ليوردها .

وفي يوم الاثنين ثالِث جمادي الآخِرَة هذا ، مات مقدم المماليك ، مَرْجان [1] المحمودي ، وهو زنْجي ، شديد السَّوَاد ، طويلٌ جِدّاً ، سمين كأنّه جاموس، وكان أوّلاً لصاحِب حِصْن كَيْفا [2]، وكان اسمه هناكلآيقا ، وورث السلطانُ عنه مالاً كثيراً ، يُقال : أنّه ثلاثون ألف دِيْنار . وَوُلِّيَ

---

(١) راجع « هامش ٢ » من (ص ٣٦٢) من القسم الأول .

(٢) حِصْنُ كَيْفَا : ويقال (كيْبَا) ، وهي بلدة وقلعة عظيمة مشرفة على دجلة بين آمد وجزيرة ابن عمر من ديار بكر .

« معجم البلدان » (٢/ ٢٦٥) ، و « بلدان الخلافة الشرقية » (١٤٤ـ ١٤٥) .

تَقْدِمةِ المماليك عنه جَوْهر [1] من شرقطلى [2].

وفي هذا اليوم اسْتَبْطَأ السلطانُ عملَ عَهْدِه ، فقال لكاتِب السِّرِّ ما تَنْتَظِرون بالعهد ؟! فانزعج كاتِبُ السرِّ من ذلك كثيراً ، وقال : يوم الخميس يُقْرأ إن شاء الله ، ثم نزل ، وكان قد أعْلَم المُوَقِّعين أنَّه هو الذي يُنْشِئه، وذلك لما تقدّم في جواب ابن عثمان في أواخِر سنة سبع وخمسين [3]، فأخبرهم أنه فرغ ، وأمرهم بكتابته ، فلم يجد عندهم مِن الوَرَقِ الذي جَرَت العادَةُ بأن يُكْتب فيه مثله ، وهو عريضٌ جِدّاً ، فاشْتَدّ انزعاجُهُ مِن ذلك ، وأسرعوا فيه ، ففرغ منه في ثامِن الشهر ، وراموا إقْرَاءه يوم الاثنين عاشِرَه ، فلم يقدر الدُّوَيْدار الكبير يونُس على الرّكوب ؛ لمرضٍ كان به ، فأُخّر إلى يوم الخميس كما يأتي .

وفي هذا الحد بلغنا وفاة شمس الدين محمد [4] بن [أحمد بن على] [5] الدِّيَسْطِي في قريته دِيَسط قرب دِمْياط ، مِن ناحِيَة البُرُلُّس ، وهو ذلك الذي تقدَّم أنّه فَارَ فَوْرَةً قَتَل فيها ذلك الكيماوي بولايةٍ مِن السلطان ، ثم ما لبث أنْ غار غَوْرةً ذهب فيها إلى قريته هذه ، فَعَاد فَلّاحاً كما كان ، وأظنّه كان مِن أبناء الأربعين ، وكان فاضِلاً في الفقه والمنطق والنحو ، وكانَ آيةً في الجُرْأة وقِلَّة العَقْل وسرْعَة التَّقلب ، وأوجب خمولُه عند غالب

---

(١) هو : جوهر النَّورُوزِي نوروز الحافظي صفي الدين الحبشي ، خدم بعد نوروز الحافظي جماعة كالأتابك جار قطلي .

له ترجمة في « الضوء اللامع » (٣ / ٨٢ رقم ٣٢٤) ، راجع أيضاً « النجوم الزاهرة » (١٦ / ٥٢٢) .

(٢) خبر توليته في : « النجوم الزاهرة » (١٥/ ٢٥٥) ، و « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشـر) (٨٩).

(٣) راجع « ص ٤٣٦ » من القسم الأول .

(٤) راجع « هامش ٢ » من (ص ٢٥٥) من القسم الأول .

(٥) ما بين الحاصرتين بياض في الأصل ، والتصحيح من مصادر الهامش السابق .

الناس اعتقاد أَنَّ ذلك الكيماوي كان شريفاً ، وأنّه ظلمه ، وليس كذلك ، فقد تواترت الأخْبارُ عن الكيماوي أنّه كان أرْمَنِيّاً ، وانه كان مُفْسِداً ، حَدَّثني الإمام كمال الدين بن أبي شريف القدسي ، عن العلاّمة القدوَة الشيخ سراج الرُّومي أنّه قال : إنه يوشِكُ أن يُفْسد مملكة مِصر .

وفي هذا الحد ، رَسَم السلطانُ للذين عيَّنهم بِخِلَع النُّوَّاب أن يتوجّهوا بأنفسهم ولا يُصالِح أحَدٌ منهم أحداً مِن أصحاب النّوّاب عن سفرته ؛ لما يحصل بسفرهم من الفوائد ، من الطّمأنينة لِأهل البلاد ومُشَاهَدَةِ أحوالِ الناس ، وغير ذلك فتَوَجَّهوا إلى أنْ كان آخِرهم مُغُلْباي طاز [(١)] ، وهو الذي عُيّن لإمْرَة المِحْمل في هذا العام ، وكان عُيّن لنائب دِمشق ، فتوجّه بخِلْعَته ليلة الثلاثاء حادِي عشر الشهر .

وفي يوم الثلاثاء ، حادِي عشر الشهر ، مات سعد الدين فرج [(٢)] ، الشهير بكاتِب المماليك ، الذي وَلِيَ الإسْتدارِيّة والوزَرَ ، وقد قارَب الستين ، وكان سيء الخلق ، لكنه كان أخفَّ شَـرّاً مِن غَيْرِه ، وكان باسمه وظيفة الاستيفاء [(٣)] في الشيخونية ، فقرَّر السلطانُ فيها شهابَ الدين بن موفّق الذي كان ديوانه قبـل السَّلْطَنَةِ ، وأرسله إلى قَانَم رأس نَوْبَةِ ، وهـو

---

(١) هو : مُغُلْباي طاز الأبو بكري المؤيّدي شيخ ، من صغار مماليكه ، ثم صار بعده خاصكياً ، ثم تأمّر عشرة في أوائل دولة إينال الأشرفي ، ثم أمير طبلخاناة ، ثم أمير حاج المِحْمَل ، ثم مُقَدَّماً ، ثم نُفِيَ إلى دِمْيَاط فاستمر فيها إلى أن مات في العشر الأول من صفر سنة ٨٧٣هـ ، وهو في عشر الثمانين له ترجمة في : « حوادث الدهور » (٧١٧ ـ ٧١٨) ، و « الضوء اللامع » (١٠ / ١٦٤ رقم ٦٦٧)، و « بدائع الزهور » (طبعة بولاق) (٢/ ١٠١) .

(٢) راجع « هامش ٥ » من (ص ٢٤٧) من القسم الأول .

(٣) المستَوْفِي : جاء في « صبح الأعشى » (٥ / ٤٦٦) وهو الذي يَضْبط الديوان وينبّه على ما فيه مصلحته ، من استخراج أمواله ونحو ذلك ، وقد ينقسم إلى مستوفي أصل ، ومستوفي مباشرة . « صبح الأعشى » (٥/ ٤٦٦) .

الناظر على الشَّيْخونيّة ، فقال : قـرّرْت شمس الدين محمـد [1] الجوجري الذي كان مِن الخَانْكة ، فروجع في ذلك ، وقيل له : لا يَنْبَغِي مخالفة السلطانِ ، فصمَّمَ ، وقال : أنا قد فَعَلْتُ ذلك ، فإن كنت ناظِراً ، فقد نَفَذ ، فأُعْلِم السُّلْطانُ ، فأمر ابنَ موفق بالإعْراض عن ذلك ، وقال : أنا أُعَوِّض عليك ، فَعُدّ ذلك مِن عقل السلطان وَحُسْنِ سياسته ، وعِيب على قَانَم بِقِلَّةِ الأدب في ذلك .

وفي يوم الخميس ثالِث عشره ، قُرِىء تقليدُ السلطانِ الملك المؤيَّد أبي الفَتْح أحمد بالعَهْد إليه مِن أمير المؤمنين ، وأهل الحلِّ والعقد ، وذلك بحضرة الجميع : أمير المؤمنين ، والقضاة ، والأمراء ، وغَيْرهم في القَصْر الكبير ، ولما جاء السلطانُ ، سأله أميرُ المؤمنين أن يجلس على تَخْت الملك فأبى ، فألحّ عليه ، فأصَرَّ على الامتناع أدباً معه ، ثم جلس على مقعد هُيّىء له ، وجلس أميرُ المؤمنين إلى جانِبِهِ على بِسَاطٍ صغير ، وكلّ منهما منحرف إلى جهة الآخر قليلاً تأدّباً معه ، والقضاة عن يمين أمير المؤمنين ويسار السلطان ، ثم الأمراء ، وتجاه السلطان وأمير المؤمنين كرسي ، قعد عليه القاضِي كاتِبُ السرّ المحب بن الشِّحْنة [٢٥٨] وهو الذي أنشأه نثراً ونظماً فأوّله : ... [2] ومِن اثنائه نظماً :

أَيَا مَلِكـاً بِالعَـدْلِ أَصْبَح ظـاهِرَا ... وخـادِمُه النَّصْرُ العـزيزُ المجـدّدُ
وأمْسى بأُفْـقِ المُلْكِ بَدْراً مُكَمَّلاً ... وأضْحـىَ شِـهاباً بالسَّـنَا يتـوقَّدُ
لِيَهْنَـك إقْبـالٌ وملكٌ مُخَـلدٌ ... وَسَـعْدٌ وإسْـعَادٌ وعِـزٌّ مؤبَّـدُ
وإنّك منصـورٌ لك الله ناصِـرُ ... عَـدُوّك مقهـورٌ وضِـدُّك مُكْمَـدُ
وإنْ شَيَّد الأعداءُ أبوابَ غَدْرِهِم ... فـأنت أبـو الفتـح المُبِين المـؤيَدُ

---

(١) هو : محمد بن علي بن عبد الله بن إبراهيم بن سليمان ، الشمس الجوجري ، ثم الخانكي الشافعي ، المعروف بالجوجري ، ولد سنة ٨١٣ هـ بجوجر ، ثم تحول مع أبيه إلى خانقاه سرياقوس ، اختص بقَانَم التاجر ، وتكلم عنه في الشيخونية والصرغتمشية والبيمارَسْتَان ، مات في رجب سنة ٨٩٧هـ .

له ترجمة في « الضوء اللامع » (٨/ ١٩٢ رقم ٥٠٠) .

(٢) بياض في الأصل بمقدار ثلثي السطر .

وكان يوماً مشهوداً ، أخبرني من حَضَره أنّه شاهد البِشْرَ والسرورَ في وجوه جميع من حَضَره وسمعه مِن التّرْك وغيرهم ، فكان ذلك مكذِّباً إن شاء الله ما هو شائعٌ على ألْسِنَةِ جميع العامَّةِ ، أنَّ العسكر يريدون البَغْيَ والمنَابَذَة للسلطان [1] .

وخَلَع على الخليفة والقضاة وكاتِب السرّ وابنه [سري] [2] الدين عبد البر ، وحفيده نائبه في كِتابَة السّر ، لسان الدين أحمد بن ابنه قاضِي القضاة أثير الدين محمد ، وخلع أيضاً على ناظِر الجيش ولم تجر بذلك عادة فيما سلف .

وفي هذا اليوم وصل بعضُ الهَجَّانَةِ الذين كانوا تَوَجَّهوا إلى بلادِ الشّام بإذعان النُّوَّاب وسرورهم ، وأخبرني شخصٌ ممن رافقهم مِن أصحابي المقادسة أن النّاس في غايَةِ السرور به ، والدّعاء له ، وأنّه كان في بلادهم ناسٌ يقطَعون الطريقَ ، فانكَفُّوا عن فسادِهم بمجرد سماع ولايته ، ونزل على النّاس الأمْنُ ، وأمطرت بلادُهم حين بلغ خبره سبعة عشر يوماً ولاءً [3][4] .

ثم أخبرني شخصٌ مِن أهل دِمشق بمثل ذلك ، مِن أنّهم كانوا يحتاجون المطر ، فمطروا يوم وصولِ الخبر بسلطنته ، فاشتدّ سرورُهُم به ودعاؤهم له ، وصارت البلاد كلها إلى خير كبير .

وهذا كما وقع في بلاد مصر ، وسارت الرُّكْبانُ بالدعاء له وحسْن الثناءِ عليه ، وجاءت الأخبارُ بذلك مِن كلّ جهة ضد ما وقع لِأبيه أوّل ما وُلّي ،

---

(١) خبر تقليد السلطان في : « النجوم الزاهرة » (١٦/ ٢٢٦) ، « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٨٩ـ ٩٠) .

(٢) ما بين الحاصرتين بياض في الأصل ، والتصحيح من « هامش ٤ » من (ص ١٦٠) .

(٣) ولاءً : أي متتابعة .

« لسان العرب » (٢٠/ ٢٩٤) .

(٤) راجع الخبر في : « النجوم الزاهرة » (١٦/ ٢٢٦) .

وما هو إلاّ لحسن نِيَّتِهِ وجميل طَوِيَّته في تعظيمه للشرع ، وقيامِه في أمر الله ، نسأل الله إدامة ذلك .

وسمعتُ أنَّه لمّا بَلَغه ما يُرْجِفُ به الناسُ مِن الركوب عليه قال : لا تخبروني بشيء مِن ذلك فإنّي لم أفعل شيئاً يَصْلح أنْ يكون سبباً لذلك ، فأَرْجع عنه إذا سمعت فما بقيَ في سماع ذلك إلاّ تعجيل الهَمّ ، فالله المستعان .

وفي يوم الاثنين سابع عشر الشهر ، وصل مَسْنَد البلقاوي البدوي ، أخو القطب الخَيْضِري لِأمه ، وكان قد أرسله يُعْلم بأنّه في كِتابَةِ السرّ ، ويعمل الضروري مِن أمره .

ثم تواترت الأخبارُ مِن جميع البلاد بَرّاً وَبَحْراً أنَّهم لم يسمعوا بولايته إلاّ مقرونَةً بالعدل والخير ، وأنّه حصل في بلادِهم الرّخاءُ والأمْنُ عِند ذلك مِن غير أسبابٍ يعرفونها ، فكان ذلك كلّه دالاًّ على صَلاَحِ نِيَّتِهِ ، مَنَّ اللهُ بإدامَة ذلك .

وفي هذا الحد ، أُرسل إلى حميد الدين ابن قاضِي بغداد المشهور بابن أبي حنيفة أن يحضر إلى القاهرة ، وقيل : إنّه أرسل أيْضاً إلى الحُسام بن بُرَيْطِع ، وذلك أنّ العلاءَ بن قاضِي عجلون كان أرسل هديَّةً والأشرف مريضٌ إلى أركان الدَّوْلَةِ ، وأرسل يطلبُ وظيفةَ النّظر على المدرسة الركنية الشافِعيَّةِ(١) ، وكان أبوه قد نزل عنها لِأخِيه الولِي عبد الله وابنه النجم

---

(١) المدرسة الركنية الشافعية : شمالي الإقباليتين شرقي العزية الجوانية والفلكية غربي المقدمية ، واقفها ركن الدين منكورس عتيق فلك الدين سليمان العادلي ، وهي اليوم في زقاق بني مفلح أمام المقدمية ، وبينهما الطريق ، ويعرف بدخلة بني عبدالهادي في العمارة ، وهي منظمة إلى دار بني العمري، ولم يبق لها أثر .

«الدارس»(١/ ٢٥٣)، و«خطط الشام»(٦/ ٧٨-٧٩) .

محمد بن الولي عبد الله ، والشيخ زين الدِّين خطّاب الغزاوي ، ثم مكر عليهم علي المذكور ، فأغْرى بها ناظِرَ الخاص يوسف .

فَحَضر الشيخ نجم الدين وأرْضاه إلى أنْ أمْضَى لهم نزولهم ، فادّعى عليٌّ هذا الآن أنّ أباه تَوفِّي عنها ، وأنّ عمَّه الولي غصَبَة إيّاها ، فكان لطفُ الله بهم أنْ كان ولده النجم بالقاهِرَة ، فَعَلِم بذلك ، فَبَيَّن للأكابِرِ الأمْرَ ، فعجبوا مِن العلاء المذكور ، واستقلُّوا هدّيتّه مع جَهْله ونحْسه ، وعدم استحقاقه لمنصب القضاء بوجْهٍ مِن الوجوه ، فَرَأوا إحْضَار من كان مُتَوَلِّياً قَبْله مِن أهلِ العلم ؛ ليصلوا بذلك إلى أغراضهم مِنه ، أو منهم ، فَحَسَّنوا للسلطانِ ذلك فأمر به .

وفي يوم الأربعاء ، تاسِع عشر جمادي الآخِرة هذا ، سُلِخ رجلٌ مِن المفسدين وحُشِيَ جلْدُه تِبْناً ، وَطِيْفَ به في القاهِرَة ، ويُقال أَنَّ اسْمَه جريوات أو ابـن جريـوات وأنّه أخو الفضل الـذي مضى أنه فُعل به هكذا .

وكان السلطان قد بلغه عن هوّاره وقتيل وفَزَاره عَرَب الصَّعيد ، ولبيد عرب البُحَيْرة ، أنهم تحرّكوا للفساد ، وكانَ قد ظهر عليه كما تقدَّم أنه في غايَةِ اليقظة للمفسدين ، والإرادة لأصلاح البلاد ، فَعَيَّن لذلك أربعةً مِن الأمراء ، مِن كل طائفةٍ واحد ؛ لئلا يُقال أنّه خَصَّ طائِفةً بالسَّفرِ لِعِلَّةٍ ، فعيّن مِن النّاصِرِيَّةِ شَربَاش أمير سلاح ، ومِن المؤيَّديّة قَانَم رأس نَوْبَة ، ومِن الأشرفِيّة بيبَرْس حاجب الحجاب ، ومِن السَّيْفيَّةِ بَرْسْباي البَجَاسِي أمير آخور صهره ، فأظهروا الطّاعة ، ثم عَيَّن المماليك الذين يصحبونهم ، وكُتبوا في قوائم ، فلما حضر للعرض كان الفارِسُ يذكُر اسمَ المملوك فينادي

به من نُدِب لذلك ، فلا يُجيب ولا يَتَقَدَّم مع حضوره وسماعه للمناداة باسمه ، فحصل بذلك وَهَنٌ ، فلما رأى السلطانُ ذلك أخّر ذلك ، واعتلّ بِعِلَّة .

ثم بلغنا عن شَرِبَاش ، أنه تكلَّم بكلامٍ يدلّ على كراهته للسَّفر ، بل يُفْهم عدم الطّاعة ، فَحَصَل بذلك اضطرابٌ كبير ، لكنه لم يظهر ، لما عِند السلطان مِن العقْل والاحتمال . ثم ثبت عن شَرِبَاش أَنَّه أطوعهم للسَّفر ، وأنّه جَهّزَ جميعَ ما يحتاجه ، وَعَيَّن مَنْ يصحبه ، وتبيّن أنَّ ما أُشيع عنه كَذِب .

ثم قيل : أَنَّه أَتَى الخَبَرُ بأنّ عَرَب البُحَيْرة مُطِيعون ، لم يحصل منهم ما يُوجب فساداً .

ثم نجم نفاقُ أَغْلَبِ الجند ، لا سِيّما الشّرَاكِسة ، وهم الجند ، وكانوا يسمرون غالِب الليل في أنّ المملكة فسدت ، فصار رأسها ابن ناشيء ودُوَيْداراه رومي وفرنجي .

وفي هذا الحدّ قال السلطانُ للمحتسب ، وهو الأمير تَنَم رَصَاص : لا تأخذ مِن السُّوقَةِ شيئاً مما كان يأخذه أمثالُك ، واجتهد في إصلاح البضائع والنّصيحة لجميع الرَّعِيَّةِ ، وإن كان رزقُك ضَعِيْفَاً فأخبرني حتى أزِيْده ، فَكَفَّ عَنْ الأخذ للرِّشى ؛ فانصلح أمْرُ النّاس ، ورخصت جميعُ الأسعار ، وصار الرَّطْل المصري مِن الخُبْز بدرهمٍ مِن الفلوس ، يكون نسبته مِن الدِّرهم الشرعي قيراطاً ، فارتجت الأسواقُ ، وجميع المحالّ بالدعاءِ للسلطانِ ، وسَرَى حُبُّه في دواخِل الأجسام .

[٢٥٩] وفي يوم الأربعاء هذا ، قَدِم بَرْسْباي الدَّوَيْدار الثاني لنائب

الشام جَانَم أخي الأشرف ، وكان معه عبد الرحمن دُوَيْدَار خَزَنْدار نائب الشام الجمال يوسف الصبيبي ، وذلك بَعْدَ أن كانت وصلت مكاتبات نائب الشام مع الهجَّان الذي تَوَجّه إليه وغيره ، أنّه حصل له مِن السُّرور بولاية السلطان ما خَفَّفَ عنه أسَفَه على والِدِه ، وأنّه عتيق والدِه ومملوكه ، وأنّه أمر بالزِّيْنَةِ فَزُيِّنَت دِمشقُ لولايته .

وبلغني أنّ رسول الحميد ابن أبي حنيفة الذي تَوَجَّه بالإذن له في الحضور إلى القاهِرة ، لقى بَرْسْباي هذا في الطريق فأخبره أن مَسْنَدا ، أخا القُطْب الخَيْضري الذي وُلّي كتابة السّرّ في دِمشق تكلّم في نائب الشَّام بكلامٍ يُفْهِم عدم انقيادِه ، فَعَظُمَ ذلك عليه ، وأَرْسل من الطريق إلى النائبِ يُعْلِمْه بذلك ، وشاع أنّ قدوم هذا الدُّوَيْدار لطلب البيت المخلَّف عن امرأةِ الحَمْزاوِي ، وأَنْ تُضاف إليه القُدْس ، وبيروت وحمْص .

وفي هذا الحدّ ، وقع عند الأمير قَانَم ، رأس نَوْبَة قضيَّةٌ فيها شهادَةُ شخصٍ مِن أكابر الفضلاء الأعِفّاء الخيِّرين ، يُقال له : زين الدين عبد القادِر ابن شعبان ، فحصل للأمير رِيْبَةٌ في شهادَتِهِ ، بِحَسَبِ ما أوْصل إلى فهمه بَعْضُ قضاةِ السوء ، فَضَرَبه ، فبلغَ ذلك مِن قلوب أعيان الفقهاء أعْظَمَ مَبْلغ ، وكان ذلك مما عِيْب به قَانَم وَعُدَّ مِن جرْأَتِهِ ، وحقَّقَ ذلك ما كان يُنْقل عنه مِنْ أَنَّه يحتقر الفقهاء .

وذلك مِن أعجب الأمور ؛ فإنه مِن مماليك المؤيَّد شيخ ، ومَرْتَبَتُهُ في حبّ الفقهاءِ واعتقادِ عَظَمَتِهِم لا تُلْحق ، فالله المستعان .

ولمّا وقع ذلك ضَمَّه النّاسُ إلى أمثالِهِ مِن فَتْكِ الظَّلَمَةِ بهذه الطائفة ، بل بذوي الفضائل منهم ، لما يرون من قبائح الأفعال مِن الجهّال

المُتَلَبِّسين بهذا الزّي مِن القِبْطِ وَغيْرِهم ، فأطمعهم ذلك في هذه العصابَة وإرثهم بغضهم ، فصاروا يريدون إهانتهم ولا يمكنهم ذلك إلاّ في مَنْ رأوه رَثَّ الهيْأَةِ زَرِيَّ الحالِ ، ولا يعرفون أنْ هؤلاء هـمُ الفقهاءُ ، وأهْلُ الخَيْرِ ، وهم أبعدُ الناس مِن أولئك ، فأوجب أنْ زيَّن بعضُ مِن في قَلْبه غَيْرة الإسلام أنْ يسأل القضاةُ السلطانَ في أنْ لا يَحْكم في الفقهاءِ ، ومن تَزَيَّا بهم إلاّ قُضاةُ الشرْعِ ، فأجاب إلى ذلك ، وكُتِبَ به مرسومٌ شريف .

وفي هذا الحَدِّ أيْضاً ، بلغنا أنَّ نائب طرابُلُس ، ضرب ابنَ حمادة ، وأهانَه ؛ وذلك أنَّه كان قد سعى في أَنْ ينوب في مدينة طَرابُلُس بنفسه ، ويضاف إليه بَعْضُ جِهاتِها ، يُوَلِّي فيه من يريد ، وأخرج بذلك توقيعاً عن الملك الأشرف إِيْنَال ، وبذل عليه مالاً كبيراً .

فلما وَصل إلى طرابُلُس ، وأظهر ما معه ، عَظُم ذلك على قاضيها تقي الدين ابن عز الدين ، وهو مِن أهل العلم ، ويعلم ما عليه ابنُ حمّاد هذا مِن الجهلِ المُفْرِطِ ، وقِلَّةِ الدِّيْن وسوءِ السِّيْرَةِ في كلِّ مكانٍ تَوَلَّاه ، فقال للنائب : إنّ هذا لا يُحْسِن شيئاً مِن العِلْم . فَعَجِبَ النائبُ مِن ذلك ، وأمَرَه أن يسأله عن شيىء ، فقال : إنّه ليس بأهل أن أسأله أنا ، وإنّما رُتْبَتُه أنْ يَسْأله الأصاغِرُ . وأمر بَعْضَ مَن لا يُشْهرُ بعلمٍ أنْ يسأله ، فلم يَدْرِ ما يُجِيْب به ، ثم سأله ، فكذلك ، فَفَجأ النائبَ أمْرٌ لم يكن يخطر في بالِهِ ، فضَربَه ثم أمر بإحضار المشاعِلي ليضْرَب وسطه فلم يخلّصوه مِن مِن ذلك إلاّ بَعْدَ جهد ، فوقع ذلك في محلِّه ، ولعلّ ذلك يَكُفُّه عن السَّعْي فيما ليس له بأهل .

وفي هذا الحدِّ أيْضاً قَدِم ناسٌ مِن المدينة الشريفة ، وكانت لهم عادَةٌ

أن يأخذوا مِن قاضِي الشافِعِيَّة شيئاً يُسَمّونه قُدُوماً يَرْتَفقون [١] بِهِ ، فلم يعطهم العَلَمُ صَالِحُ ، وهو القاضِي يومئذٍ شيئاً ، فطلعوا إلى القَلْعة وشَكَوا ذلك إلى السلطان ، ورموه بأنّه باع أكثرَ مِن مائة وَقْفٍ مِنأوقافهم ، وسألوا في أمره بعمل حساب المُتَحصَّل مِن أوقافِهم ، والمصروف ؛ ليعلموا حقيقةَ الحالِ في ذلك ، فَشَقَّ ذلك على السلطان ، وكان قَبْل السَّلْطنة معروفاً بالإنكار عليه ؛ لما يبلغه مِن سوء أفعالِه ، ورأى الوقْتَ غير مساعد لما يريده مِنه ، فقال للدُّوَيْدار : قل له : إنَّه لا ينبغي وهو رأس المسلمين أن يَدَع أحداً يشكو منه ، وينبغي أن يُحْسِن إلى هؤلاء الضعفاء ، فأرسل إليه بذلك ، وبلغني أنه أمر مباشري أوقاف الحرمين ، بعمل الحساب ، وأرسل الأميرَ بُرْدْ بَك مِن عِنده إلى الشيخ أمين الدين مالاً يُفرِّق على الحجازيين .

[٢٦٠] وفي هذا الحد بلَغَنا أنّ نائب الشام جَانَم أخا الأشرف بَرْسْباي ، لمَّا أَمَرَ أَنْ تُزَيَّن أسواقُ دمشق سبعةَ أيام ؛ لِأجل ولاية السلطان على العادَة في مِثْل ذلك ، كان يدور ليلاً في ناسٍ قليلٍ في غَيْر زَيِّه ، ويأمرُ الوالِي أَنْ يكون وراءه على بعض البُعْدِ منه ، فكان إذا رأى ناساً مجتمعين على فسادٍ وقف قريباً منهم ، فإذا وَصَل إليه الوالِي أمره بالقَبْض عليهم ، ويأمره بما يراه من تعزيرهم ، فَحَذِرَه الناسُ ، فَقَلّ فسادُهم جِدّاً .

وفي هذا الحد ، سُئل السلطانُ في تعيين أميرٍ لركب الحاج الدِّمشقي ، وآخر للحَلَبي ، فقال : مَن ترون أنْ نُوَلِّي ؟ فقال أَحَدُ دُوَيْدارِيَّةِ بُرِدْبَك ويُونُس : فلاناً . فقال الآخر : لا ، بل فلاناً . وكان هـذا دأبهما في غـالِب

(١) يرتفقون : يستعينون به وينتفعون .
«المعجم الوسيط» (١/ ٣٦٢) .

الأمور ؛ لما بينهما مِن التَّبَاغُض ، نسأل الله أَنْ يقيه شَرَّهما ، وشرَّ كلِّ مَن لا يُريد بكلامِهِ الخير ، فأطرق طويلاً ، ثم قال : نحن نُرْسِلُ ما جَرَت به العادَةُ مِن الرَّسْم ، ويقول لكل مَنْ نائبَي البلدَيْن : إنَّا قد جعلنا تَعْيين ذلك إليـه ، ليُعيِّن مِن إمراء بلده ، مَن يرى فيـه كفاية لذلك ، وشفقةً على المسلمين .

وفي يوم الأربعاء ، سادِس عشري جمادي الآخِرة هذا ، أرسل السلطان إلى أهل الجامِع الأزهر ألفَ دينار ، فَفُرِّقت فيهم ، لكل شَيْخٍ سِتَّة دنانِير ، ولكل طالِبٍ ثلاثة ؛ فكَثُرَ الثَّنَاءُ عليه ، والدعاءُ له ، ثم تَتَبَّع كثيراً مِن الجوامِع والزَّوايا والفقراء بالعطاء ، وشاع أَنَّ ذلك مما كان له في حال الإِمْرة ، لا مِنْ خِزَانة السلطان .

وفي يوم الخميس سابع عَشْرِيَّه ، أَخْرج بَرْسْباي دُوَيْدَار نائب الشَّام جَانَم ، وعبد الرّحمن دُوَيْدَار خَزَنْدَاره الجمال يوسف قِصَّةً على لسان النائب بطلب إضافَةِ نابُلُس والرَّمْلَةِ إليه ، وأَنْ لا يُوَلِّي أحدٌ مِن مشائخ العَشِير بنابُلُس وما والاها ، ولا أمراء العَرَب بتلك النَّوَاحِي كلّها إلاَّ هو ، فلم يُجِب السلطانُ إلى ذلك ، ووافقه يُونُسُ الدُّوَيْدَارُ ، وناظِرُ الجيش ابنُ مُزْهِر ، وشدَّدَ التَّحْذِير مِن ذلك ؛ بسبب ما لَهُ مِن المال ، المتُعلِّق بالذَّخِيْرَةِ السلطانية في بلادِ نابُلُس ، وقال : هذا الأمرُ يكونُ سببَ عِصْيَان إسماعيل شيخ جبل نابُلُس ، وتَخْرب تلك البلاد، ويضِيع المال . وأشار بُرْدْ بَك بإجابَته ، وأشار كاتِبُ السِّرّ المحب بن الشِّحْنَةِ بأمْرٍ وَسَطٍ ، وهو أن يُكتب له : أنّه لا يُلَبِّسُ أحدٌ مِن المشائخ ، وأمراء العَرَب خِلعَةً من السلطان بولايةٍ ولاغَيْرِها ، إلاّ عِنْدَه ، فأَخَّروا ذلك ؛ لينظروا فيه ، فشرع بَرْسْباي ، وعبد الرّحمن يتكلَّمون كلاماً عظيماً غليظاً ، يُشَمُّ مِنه

رائِحَةُ الشَّـرِّ ، وأَنّهما ما أَخَّرَا هذه القِصَّة عن قدومهما إلى هَذَا الحد ، إلاَّ لِيَحْسِبا أَمْرَ الجند ، وأنه ما جَرَّأهما على مثل هذا الكلام إلاّ أنهما اطَّلعا على أَنَّ بواطِنهم سَيّئة وأنّ قصدهم الشّـرّ ، والله المسؤول أَنْ يردَّ كَيْدَ كلّ مفسدٍ في نَحْرِه ، ويجعل الدائرة عليهم آمين .

وفي هذا الحد ، رَفَع إليه مستحقوا مدرسة [1] إيْنال ، التي هي خارِج باب زُوَيْلَة ، بعد المحمودية [2] أنّ محمد بن إينال، تولَّى على الوقْفِ بغير حق ، ومنعهم حُقُوقَهُم مِن مدَّةٍ طويلةٍ ، فَرَسم بإحضاره ، فلما حَضَر أراد التَّرَفُّعَ عليهم في الموقف ، فأمره بمساواتهم ، فادَّعوا عليه ، فسأله ، فقال : هذا وقف أبي . فقال : أَجِب عن قولهم . فاعترف بصحة مُدَّعاهم . فقال : أَعْطِهم حَقَّهم . فقال : ليس معي شيء . وكان قد اتّفَقَ له مثل هذا في أيام الأشْـرَف أبي المؤيَّد هذا ، وأجاب بهذا الجواب ، وَشَفَع له بَعْضُ مَنْ يتعصَّب له مِن الترك منفعة له ، فظن أنّ هذا كذاك ، فقال له : بِعْ ما عِنْدَكَ وأَعْطِهم مالَهم . فقال : ما عِندي شيء ، فقال : تكون في السجن حتى تُرْضِيهم . ثم أَمَر نقيبَ الجيش أن يأخذه إلى أيّ قاضِي أرادوه وكان هذا في الحوش .

---

(١) مدرسة إينال : تقع خارج باب زُوَيْلة بالقرب من باب حارة الهلالية ، بخط القمّاحين عمرّها الأمير الكبير إِيْنال السيفي ، أحد المماليك اليلبغاوية ، وابتدأ في عمارتها سنة ٧٩٤ هـ ، وفرغ منها سنة ٧٩٥ هـ ، عُرفت بجامع إينال ، ثم بالجامع الأبراهيمي ، وهي عامرة إلى الآن ، وتقام فيها الشعائر .

«خطط المقريزي»(٢/ ٤٠١)، و«الخطط التوفيقية»(٢/ ٣٤).

(٢) المدرسة المحمودية : تقع بخط الموازنيين ، خارج باب زُوَيْلة ، تجاه دار القردمية ، أنشأها الأمير جمال الدين محمود بن علي الإسْتَدَّار في سنة ٧٩٧هـ.

«خطط المقريزى»(٢/ ٣٩٥)، و«الخطط التوفيقية»(٢/ ٣٤).

فلما طلع إلى إيوان الدَّهِيْشَة شَفَع فيه الأميرُ بُرْدُ بَك الدُّوَيْدَار صِهْر المؤيَّد ، وجانِبَك شادّ الشَّرْبْخَانه ، وجَمْعٌ مِن الأمراء يزيدون على عشرة ، فكان جوابُه لهم أنْ قال : أَيْن هو ؟ فقالوا : ها هو . فقال لنقيب الجيش : أنا آمرك بحمل أَحَدٍ إلى الشَّرْع فلا تفعل ! والله لئن لم تَحْمِله إلى القاضِي [٢٦١] الذي يريده أَخْصَامُه وهو ماشٍ لأَفْعَلَنّ بك . فجرَّه بيده ، ثم ذهب، وشرع أولئك الأمراء يُلْحِفون [١] عليه في الشّفَاعَةِ فيه ، فقال : لا سبيل إلى ترك حقوق المستحقين . فقالوا : ليس معه شيء وهذا صَدَقة عنْك . فقال : أنَا لا أمْلِك التَّصَدُّقَ عليه بمالِ الْغَيْر . يَسْأَلُ أَخْصَامَه ، فإنْ تصدّقوا عليه فلهم ذلك ، وَأَمّا أنا فلا يَحِلُّ لي منعهم عن حقّهم ، فكان ذلك مِن أَعْظم المناقِب .

وأخذه نقيبُ الجيش ، فَلَمَّا نزل مِن القَلْعة أراد أن يركب فمنعه ورماه عن فرسِهِ ، ثم سألهم فاختاروا المالِكي ، فأَنْهاهُ إليه ما شِيئاً ، فكفَّ يَدَه عنهم ، وجعل النَّظر إلى غَيْرِه ، وثبت لهم في جهته ما يزيد على ثلاثة آلاف دِيْنار ، فصَالَحَهم على دون الخمسمائة .

واستهل شهر رجب مِن سنة خَمْسٍ وستين [٢] هذه ليلة الأحد [٣] ، وفي ذلك اليوم عُرِض المماليك ؛ لِأنه أتهم الكُتَّاب وغيْرِهم في تَسْمِيَةِ أسماء لا حقيقة لها ، وأخرى مُسَمَّياتها غير مماليك، فكان مِن يعرفه أجازه ، ومن لم يعرفه سأله عن اسمه وفي أيِّ جَلبة قَدِم ، ومَنْ كان في الجَلَبة مِن المماليك، فإنْ توقَّفَ عَرَف كَذِبَه ، و إنْ ذَكَر أحداً أحضرهم وسألهم عنه ، فَتَبَيَّنَ بذلك كَذبَهم في شيء كثير فأسقطه .

---

(١) يُلْحفون : يُلِحّون.
« المعجم الوسيط » (٢/ ٨١٨).
(٢) وثمانمائة .
(٣) في « حوادث الدهور » (٣٩٥) أوله الأحد .

وفي هذا العرْض كلَّمه قانصوه الإسحاقي ، (وهو مِن رؤوس فَجَرة الأجْلَاب) بكلام فيه قِلَّةِ أَدَب ، فأَغْضَى عنه ، فأعادَه فَزَجره زَجْرَةً ارْتَعَدَت فرائِصه منها وتأخّر ذليلاً .

وفي هذا اليوم ، كلَّمَ تِمْرَازُ السّاقي أَحَدُ الأشْرَفِيَّة القاضِيَيْنِ المالِكي ، والحنفي بكلامٍ خشن ، نسبهم فيه إلى تعاطِي الأحكام الباطِلة والتّهاون بحدود الله ، واشْتَدَّ غَضَبُ الحنفي لذلك ، ولم يظهر لغضبه أثر .

وفي هذا اليوم أراد أبو السّعادات البُلْقِيني أَنْ يُبَاشِر صَرْف خُبْزَ خانْقاه سعيد السعداء بنفسه ، ولا يُعْطِي أحداً خُبْزَه إلاّ بيده ؛ لاتّهامِهِ لكاتِب الغَيْبَة في اسماء الصُّوفِيَّةِ وعِدَّتهم ، وجلس عِنْد الخُبْز ، فتكاثَف عليه النَّاسُ ، فاشْتَدّ زحامُهم ، فنادَوا : ما يحلّ يا مجنون ، وشرعوا يسبّونَه ، ثم رجَمَه بَعْضُهم ، ورفع بَعْضُهم ورقَةً في رأس عصى كأنها قِصَّة ، ووقف على حافَّةِ الفَسْقِيَّةِ ، وشرع يمدّها إلى ناحِيَتِهِ ، ويقول : هُشت هُشت ، ونحو هذا مِن الهِزْؤ ، وأراد بَعْضُهم قَتْلَه فلم يمكنوه ، وأراد ناسٌ أن يحملوه بسجادته فيرموه في الفَسْقِيَّة ، فحماه بعضهم وأَخذوه وهم محدقون به حتى أغلقوا عليه باباً وتركوه حتى انصرف النَّاسُ ، ثم شيَّعوه وَهُوَ لا يُصَدِّق بالحياة .

ولما وقعت هذه الضجَّةُ ، نهَبَ الأقوياءُ الخُبْزَ ، ولم يَحْصل لكثير مِن أهل الخير ، ولم يَشُقّ ذلك عليهم ؛ بسبب ما حَصَل لهم مِن الرؤيَةِ المُفْرِحَةِ ، وصار سُبَّةً ليس للنّاس كلامٌ إلاّ فيه .

وفي هذا الحدّ ، وصل كتابُ نائب طرابُلُس ، أَنَّ تِمْرَاز الأشرفي استأذنه في أنْ يُقَسّم بِلاداً في ناحِيَة الرَّمْلَةِ بنفسه ، قال : فأذِنْتُ له ، ولم أدرِ ما مُرادَه بذلك ، فأرسل تِمْرازُ مِن هناك يسأله في الحضور ، فسكت السلطانُ عن جوابِهِ ولم يعد .

وفي أواخِرِ جمادي الآخِرَة ، أظهر السلطانُ الإنكارَ على القُطْب الخَيْضري ، كاتب سِرِّ دِمَشق [بسبب][1] تأخره عن السَّفرِ وأرسل إليه من يأمره بالإسراع ، فأجاب بالطّاعَةِ ثم تأخّر إلى عاشِر رَجب .

وفي يوم الاثنين ثاني شهر رجب هذا ، سافر إبراهيم بن البدر حسن بن المزِّلق ، ناظِر الجيش بدمشق ؛ ليجمع مالَ الجَوَالي ، ومالَهم مِن التَّعَلُّقات في بلاد الشام .

وفي يوم الثلاثاء ثالِثه أرسل فيروز الخَزَنْدار يستعفي مِن الخَزَنْدارِيَّة والزِّمَامِيَّة ؛ وذلك أنه كان حَصَل له فالِجٌ ، وطال به المرَضُ ، فخاف على نَفْسِهِ ، فأراد أن يوصِي ، فبلغ السُّلْطانُ ذلك ، فمنع الشهودَ مِن تَحَمُّل الشهادة عليه ، فلما جاء رسولُه بذلك امتنع السلطانُ منه وقال : نحن نَصْبِرُ عليه إلى أنْ يُعَافِيه الله ، فإنه بَرَكَتُنا ، وَزَيْنُ مملكتنا ، وأرسل إليه الأميرَ بُرْدْبَك صهره ، فبلَّغه ذلك .

[٢٦٢] وفي يوم الأرْبعاء ، رَابع شهر رجب هذا ، مات فخر الدين بن الغَنَّام [2] ، ناظِر المواريث[3] .

---

(١) ما بين الحاصرتين إضافة اقتضاها السياق .

(٢) قال عنه (السخاوي) في « الضوء اللامع » (١١/ ١٦٤) : « ابن الغَنَّام القبطي ، مات في جمادي الآخرة سنة خمس وتسعين ، وكان في جهات دينية ، كالتصوف بسعيد السعداء ، والبيبرسية ، مع قراءة الشباك بها ، عفا الله عنه » ، ويبدو أن خطأ طباعياً في تحديد سنة وفاته ، حيث رسمت (تسعين) بدل (ستين) .

(٣) ناظِر المواريث : نَظَر المواريث ، منَ الوظائف الدِّيوانية ، وموضوعها : التحدَّث على ديوان المواريث الحَشْرِيَّة ، ممن يموت ولا وارث له ، أو له وارث لا يستغرق ميراثَه ، مع التحدّث في إطلاق جميع الموتى من المسلمين وغيرهم .

« صبح الأعشى » (٤/ ٣٣) .

وفي هذا اليوم وَصَل تِمْرَاز [1] الأَشْرَفي مِن غير طلب ولا إذن ، بل هجم قبل أن يُعاد إليه جوابُ سؤاله في طلب الحضور ظَنّاً منه أنّ السلطان لا يتمكن مِن مَنْعه مِن ذلك ؛ لقوّة طائفته الأشرفية ، وما جرت به العادَةُ من ضعف الملوك في أوّل الدُّول ، ونزل لمّا وصل في بيت الأمير الكبير خُشْقَدم المؤيَّدي ، فلما سمع بذلك السُّلْطانُ لم يحصل عِنْدَه جُبْنٌ ولا هَلَع ، بل غَضِب غَضَباً شديداً ، ثم أمَرَ به أَنْ يَخْرج في الحال ، فَيَرْجع مِن حيث جاء ، فنزل إليه الأمرُ بذلك ، فلم يجد له مانِعاً ، فما وَسِعَه إلاّ الطّاعة ، فخرج بعد الظهر وجاوز التُّرَب ، لا صَحِبه الله ولا حَيَّاه ؛ فإنّه لم يأتِ إلاّ للفساد وتسعير نار الحرب ، أعاذ الله مِن شَـرِّه .

ثم لمّا طلع الأمراءُ إلى الخِدْمَةِ بالمبيت في القصر في آخر هذا اليوم شفعوا كلُّهم فيه ، في أَنْ يَرْجع فَيُقِيم ثلاثة أيّام فقط ، وَيَلْبس خِلعَةَ السلطان ويخرج مجبور الخاطر ، واعتلّوا كَذِباً بأنّه ما جاء إلاّ لإهانَةٍ وقعت له مِن نائب طرابُلُس ، فاسْتَمَرَّ السلطانُ على المَنْع ، فألَحّوا عليه القريب منهم والبعيد، فلم يَجِدْ بُدّاً مِن الإجابَةِ ؛ لِأنّ الأمْرَ كما قال عَلِيٌّ رضي الله عنه : « لا رأى لِمَنْ لا جماعَةَ له » ، فرجع في صبيحة يوم الخميس ، خامِس الشهر [2] .

---

(1) هو : تمراز بن عبد الله ، الجركسي ، الأينالي الأشرفي ، جلبه الأمير إينال المحمدي ، المعروف بـ (إينال ضُضَعْ) ، فاشتراه المؤيَّد شيخ ، ثم انتقل إلى الأشرف بَرْسْباي فأعتقه ، وجعله زردكاشاً ، ثم صار من حزب الظاهر جَقْمق ، ثم أبعده إلى البلاد الشامية ، وقاسى في أيامه أنواعاً من الذل ، ثم رجع إلى القاهرة وأنعم عليه بإمْرة عشرة ، ثم نقله الأشرف إينال إلى الدَّوَيدارية الثانية ، فساءت سيرته ونفي إلى البلاد الشامية ، مات مقتولاً بسيف الشرع بقلعة المرقب يوم السبت ١٩ جمادي الأولى سنة ٨٧١هـ .

له ترجمة في : « الدليل الشافي » (١/ ٢٢٧) ، و « حوادث الدهور » (٥٩٦ـ٥٩٨) ، و « النجوم الزاهرة » (١٦ / ٣٥٣) ، و « الضوء اللامع » (٣ /٣٦ رقم ١٥١) ، و « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (١٧٢ـ١٧٣) .

(٢) الخبر في : « النجوم الزاهرة » (١٦ / ٢٢٦) ، و « بدائع الزهور » صفحات لم تنشر) (٩٠ـ٩١) .

وفيه سافَرَ بَرْسْباي دُوَيْدَار نائب الشام ، وترك عبد الرحمن دُوَيْدَار الجمال يوسف خَزَنْدار النائب ، وسأل الأمراءُ لِتمْرَاز أن لا يُعاد إلى طرابُلُس فأُجيبوا .

وفي يوم الجمعة سادِسه ، خَلَع السُّلْطان على تِمْرَاز خِلعَةً للرِّضى والسَّفَرِ معاً وقبَّل الأرضَ مِراراً ، فلم يَرْفَع به السلطانُ رأساً ، ثم قبَّل رُكْبَتَهُ فوضع السلطانُ يَدَه على ظهره ، فلما نزل أرسل السلطانُ إليه خمسمائة دينار ، يتَجهَّزُ بها ، وأرسل إليه جِمَالاً وبِغَالاً ، وأمَرَ بالإسْراع في التَّجْهِيز ، وخَيَّرَه في إمْرَتين ، إحْدَيْهما الأمْرَة الكبرى بحلَبَ ، والأخرى إمْرَة في دمشق إعفاءً له مِن العَوْدِ إلى طرابُلُس ، فاختار التي بدمشق ، فأُجيب إلى ذلك وأُمر باللحاق بها [1] .

وفي هذا الحَدّ جاء الخَبَرُ عن جزيرة قُبْرس ، بأنّ جاكمُو ، وَمَن معه مِن عَسْكر الإسلام فتحوا شِرِيْنَهْ والما غوصه ، وغَلبوا عليهما ، وأراح الله مِن إرسال عَسْكرٍ لذلك ، وهذا مِن مَرْكَبٍ جاء مِن هناك ، وأخْبَر أنَّ رسل جاكمُو تَقْدُم بذلك عن قُرْبٍ .

وفي يوم الاثنين تاسِع شهر رَجَب هذا ، سافر القُطْبُ الخَيْضري ، كاتِب سرّ دِمشق بإلْزامٍ مِن السلطان له بذلك ، وذلك أنّه سمع أنه يُفْسد الجند عليه ، وأنّه صالَح بين الظَّاهِريَّةِ والأشْـرَفِيَّة لِيَتَّفِقُوا على إزالة دَوْلته لنائب الشَّام جَانَم .

وفي يوم الثلاثاء عاشِره ، أُلْبِس تِمْـرَاز الأشرفي ، الفاجِر خِلْعةَ السَّفَرِ وأُمر بالخروج عِن القاهرة في ذلك اليوم ، فاعْتَلّ بتوعّكٍ في بَدَنِه فلم يُقْبل ،

---

(١) راجع « النجوم الزاهرة » (١٦/ ٢٢٧) .

فاعتلّ بأنّه لم يجد غِلْماناً للخَيْل والجِمَالِ الّتِي أتته مِن عِند السلطان وغَيْره ، فلم يُقْبل ، فاعتلّ بأنّ غُلْمانه محبوسون في قَطْيا ، وسأل في أَنْ يُؤْذَنَ لهم في القدوم ، فلم يُجَب ، ونزل معه المِهْمَنْدر ؛ ليَعجّل تشييعه ففعل ولم يَبُتْ إلاّ في الخانْكَة ، بعد أَنْ قَلْقَلَ كُلّ مُقَلْقِل ، فلم يجد مَن يخفّ معه ولله الحمد ، واستمر بالخانْكَة يَتَافَضَى ما بَقِيَ مِن احتياجِه إلى يوم السبت ثالِث عشر الشهر (١) .

وفي هذا اليوم ، وقَفَ أهلُ البُرُلُّس للسلطان ، فسألوه في أنْ يحطّ عنهم مَظْلَمةً كانت أُحْدِثَت في أيّام الظّاهِر جَقْمَق ، يوخذ منهم فيها كُلّ سَنَةٍ [ستة] (٢) آلاف دينار ، ثم زِيد عليهم في أَيّام أبيه ألفا دينار ، فَوَضَع عنهم ما حَدَثَ في أيّام أبيه ، ثم اجتمع به ناظِرُ الخاص ، الزين عبد الرّحمن بن الْكُوَيْز ، وهو المتكلّم في هذه الجهة فَخَيَّلَه مِن ذلك حَتَّى أَوْقَفَه عنه ؛ فساءَ الناس ذلك .

وفي آخِر يوم الأربعاء حادِي عشره وَصَل شاهِين غَزَالي الحصني ، بِتَركَةِ امرأة الحَمزْاوي [٢٦٣] ، الذي كان نائب الشام ، وقد كان سافَر لِأجْلها مِن قِبَل الأشرف إِينال (٣) ، فمات وهو في دِمشق ، وأرْجف النّاسُ بأنّ نائب الشام عَوّقَه ومنعه منها ؛ ليكاتِب السلطانَ في أَخْذه إيّاها ، فكَفى الله ذلك ، وَنَام في التُّربة الأشرفِيّة في ليلة الخميس ثانِي عشره (٤) .

---

(١) راجع « النجوم الزاهرة » (١٦/ ٢٢٧) .
(٢) في الأصل (ست) .
(٣) راجع « ص ١٩٧ » .
(٤) الخبر في : « النجوم الزاهرة » (١٦/ ٢٢٧) ، و « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٩١)

وفي هذا الحَدّ وصل إلى القاهِرَة حِجَازِيُّون كثيرٌ مِن مكَّة والمدينة ، منهم إبراهيم وزكي الدِّين ابنا أبي الفتح بن صالِح ، خطيب المسجد النَّبوي الشريف ، ومنهم محمد بن عِيْسى القرشي المكّي ، فأخبرني أَنَّ سَفَره مِن مكّة المشرَّفة كان يوم الخميس ، وكان عندهم رابع عشر جمادي الأولى ، وأَنَّهم سمعوا يوم الأربعاء ثالِث عَشْرِهِ أَنَّ السُّلْطانَ مُحْتَضِرٌ ، قال : وأشار عليَّ بعضُ ذوي العَقْل أَنْ لا أسافِر لجَزْمِهِم بموته ، وهذا الخَبَرُ وصل إلى مكّة الْمُشَرّفة في اليوم الذي كان قد وَصَل إلى حالةٍ أيس معها ، وَوُلِّيَ ابنُه المؤيَّد أبو الفَتْح فيه ، وهذا مِن أَعجب العَجَب ، وكأنه مِن الجِنّ والله أعْلَم .

وفي يوم الخميس ثانِي عشر رجب هذا ، وُلِّيَ الشرفُ موسى الأنْصاري نظر الجوالِي عن النّاصِر بن أَصِيل [1] .

وفيه أَنْشَدت السلطانَ ما نَظَمْته في مَدْحِهِ وورَّيتُ فيه باسمه وأسماء ملوك :

يـا نـاصِـراً لِلــدِّين أنـت مُظَـفَّـرٌ
بالمعتــدين وظــاهِـرٌ وَمُـؤيَّـدُ

لا زِلْـتَ منصـوراً عـزيـزاً قـاهـراً
فَـلأَنْت أَشْـرفُ مِـنْ سِـوَاك وأحمَـدُ

وأيضاً :

أنـت المـؤيَّـدُ أَشْـرَفـاً ومُظَفَّـرا
والقـاهِـرُ المُعْتَـزُّ ثُم الظَّـاهِـرُ

والكـامِـلُ المنصـورُ دُمْـتَ مُعَظَّـماً
يا عـادِلاً أَنْـتَ العـزيـزُ النـاصِـرُ

---

(١) الخبر في : « النجوم الزاهرة » (١٦/ ٢٢٧) .

وفي هذا الحد ، وصل رسولٌ للعلاء بن قاضِي عجلون ؛ يسأل له في الحُضور ، فأُجيب إلى ذلك ، وذلك أنه شاع عنه مِن البَلاَيَا في هذه المدَّة ، وتجدَّد له مِن الأخْصام ما خُشِي عاقِبَتُه ، وعُلِم أنَّ غَيْرَه لا يَسُدُّ فيه مَسَدَّه .

وفي بكرة يوم الجمعة [١] ثالث عشره ، رَكِب السلطانُ ومعه صِهْراه : أَمِيرُ آخور بَرْسْباي البَجَاسي ، وبُرْدْ بَك دُوَيْدَاره الثاني ، فخرجوا مِن باب القَرَافَةِ ، ثم أخذوا نحو الصحراء مِن ناحِيَةِ قبَّة الهَوَى ، ثم رجعوا نحو المَرْستان المؤيَّدي ، فَدَخل السلطانُ إلى القلعة مِن الباب الذي إلى جانِب الحوْض دون باب المدرَّج ، فكان ذلك أعظم مما فعله أبوه ، لمَّا وَلِيَ السَّلْطنةِ ؛ فإنه خرج بَعْد شهرين من سلطنته مِن باب المَيْدان ، ثم دَخَل مِن بابِ السِّلْسِلة ، وهو مدى قريبٌ جِدَّاً ، وما ذاك إلاّ لِشدَّةِ مَحَبَّةِ النَّاسِ لهذا ، حَتّى النساء في البيوت ، والفلاَّحون ، وأهل البلادِ النائِيَة ، حَتَّى أَنِّي سَمِعْتُ أنَّ امرأةً قالت لزوجها : اشْتَـرِ لي سَكِّيْنَاً ؛ حتى أُقَاتِل بها عن السلطان ، إنْ قَصَدَه أَحَدٌ بسوء ، وما ذاك إلاّ لما ظهر منه في هذه المدَّة اليسيرة مِن العَدْل ، والخَيْر ، والشَّفَقَةِ على عِبادِ الله ، والثَّبَات ، والرَّزَانَة ، أدام الله ذلك آمين .

وفي هذا اليوم عُقِد لابن يَشْبُك الفقيه شادّ المؤيَّدية على ابنَةٍ لكاتِب السرّ ، المحب بن الشِّحْنَة .

وفي يوم السَّبْتِ [رابع] [٢] عشر الشهر وَصَل الحميد ، المدْعو بابن أبي حنيفة ، الذي طُلب بمرسوم السلطان .

---

(١) في « النجوم الزاهرة » (١٦/ ٢٢٨) في يوم الجمعة ٢٠ من شهر رجب ، راجع أيضاً « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٩١) .

(٢) في الأصل (ثالث) ، والتصحيح من مفهوم السياق .

وفي آخِر هذا اليوم سافر تِمْرَاز الأشرفي مِن الخانْكَةِ ، وأراح الله مِن شرّه وله الحمد .

[٢٦٤] وفي أواخِر يوم الأحد ، خامِس عشر الشهر ، مات محب الدين محمد [١] بن الشيخ تقي الدين عبد الرحمن بن القطب القَرْقَشَنْدي، عن نحو خمس عشرة سنة وحصل لِأبيه عليه وجدٌ شديد ، وصُلّى عليه بكرة يوم الاثنين سادِس عشره في جامِع الأزْهر ، ودُفِنَ في تربتهم ، خارِج الباب الحديد .

وفي هذا اليوم [٢] لَبِس السلطان الأبيض .

وفي هذه الأيام [٣] تواتَرَت الأخْبَار أنّ العَرَب أفسدوا في بِلاد البُحَيْرَة فأعاد السلطان الكلامَ في التجريَدة ، فاعْتلّوا ، بِقِلّةِ الجِمال ، فرسم لهم بِجِمال ، فلما طُلِبوا لِأخْذِها أساءوا القولَ ، فلما طلع الأمراءُ إلى الخِدْمَة فباتوا في القصر ليلة الخميس تاسع عشر شهر رجب هذا ، قال لهم السلطان : قد علمتم ما بلغنا مِن أَمْرِ العرب بالبُحَيْرة ، وهي بلادُ الإسْلام ، ما مِن أَحَدٍ منكم ، إلاّ وله بها تَعَلُّق ، وكذلك هؤلاء الأجنادُ ، الذين يَتَمنَّعُون ، ويجب علينا الذبّ عن الرّعِيَّةِ ، وأنا واحِد منكم ، فإن لم تعينوني ، لم أقدر على منعهم ، وحينئذٍ يطمع العَرَبُ ، وكأنّا بهم ، وقد تَقَدَّموا حتّى وصلوا إلى الجِيْزَةِ ، وهؤلاء المتمنّعُون إنما يأكلون الإقطاعات للذبّ عَنِ الرَّعِيَّة ، فأنا أطلبهم يوم الجمعة لِأُعْطيهم الجِمَال ، فإن لم يأخذوا

---

(١) ترجم له (السخاوي) في « الضوء اللامع » (٧/ ٢٨٢ رقم ٧٢٩) ، وذكر أنّه مات ظنّاً بعد السبعين [والثمانمائة] .

(٢) في « النجوم الزاهرة » (١٦/ ٢٢٧) في يوم الجمعة ٦ رجب .

(٣) في « النجوم الزاهرة » (١٦/ ٢٢٦) في يوم السبت ١٥ جمادي الآخرة .

جَمَعْتُ أميرَ المؤمنين والقضاةَ يوم السَّبْت واسْتَفْتيتهم عنهم ، ومهما أَفْتَوْني به أنْفَذْتُه فيهم ، والله المستعان .

ثم إنه طلبهم يوم الجمعة العشرين منه ، فلمّا حَضَروا إلى المَيْدَان الذي إلى جانِب باب السِّلْسلة أَغْلَظوا لِأعْوانِ السلطان ، ثم ضَرَبوا شخصاً مِن الطُّوَاشِيَّةِ الذين كانوا هناك ، فأعْلَموا السلطانَ ، فقال : سلوهم ، ما الذي يريدون ؟ فقالوا : نريد أن يُعِّين مَعَنا مماليكَ أبيه الذين لهم الإقطاعات الثِّقّال ، ويكون باشَهم [1] الأميرُ بُرْدْ بَك الدُّوَيْدَار .

فَعُلم أَنَّهم معانِدون ، فَلَمَّا حضر النَّاسُ للجمعة ، وخَطَب الخطباءُ ، زاد ابتهال الناس إلى الله تعالى بنُصْرَته وخِذْلانِهم .

فلما كان يوم السّبت حادِي عشريه ، رأى الدُّوَيْدَارَان ، أنّ استمرار الكلام في هذا السَّفَرِ يفتح بابَ الشَّـرِّ ورأيا إغْلاقه بإبْطال ذلك ، فأشارا على السلطان به فَفَعل .

وفي ليلة هذا اليوم وقَعَ في ناحِيَة القَلْيُوبية ، وبعض الغَرْبِيَّة بَرَدٌ كِبارٌ ، بعضه له شعبتان ، زِنَةُ بعضه أكْثر مِن رِطْلٍ بالمصري ، وذلك نحو مائة وخمسون دِرْهَماً ، فأفسد زروعاً كثيرة ، لم يُبْقِ لها أَثَراً ، وقَتَل بَعْضَ الحيوان كالغَنَم [2] .

وفي هذا الحدّ ، أراد قاضِي القضاة عَلَم الدِّين صالح البُلْقِيني أن يبرز ببيت له في البحر ، ويلزم من بروزه أن يسدّ باب الهواء الطيِّب ، وهو الشـمالِي على مَـن في بيت عبـد الرَّحيم بن البـارزي ، وسـاعَدَه على ذلك

---

(١) باشهم : صاحبهم .

(٢) الخبر في « النجوم الزاهرة » (١٦/ ٢٢٨) ، و « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر)(٩١) .

زوجتُه وابنها ناظِر الجيش الزَّيْنِي أبو بكر بن مُزْهِر ، واعتلُّوا بأنّ ابن البارزي كان برَز على بيتهم في الجانِب الجنوبي ، فقلق مِن ذلك ابنُ البارِزي ، وتَعَصَّب له صِهْرُه الأميرُ يَزْبُك الظاهِري ، فسأل السلطانَ أنْ يكون الحاكِمُ بينهم قاضِي الحنَفِيَّةِ السَّعْد بن الدَّيْرِي ، وأنْ يكون الأمْرُ بحضرته ، فأجابَه إلى [٢٦٥] ذلك ، فاجتمعوا يوم الاثنين ثالِث عشري شهر رجب هذا ، ثم انتظم الحالُ بينهما على أَنْ يستمرَّ بناء ابن البارِزي على حاله ، والتزم ابن مُزْهِر أن لا يقع بُرُوزٌ مِن القاضِي عَلَم الدين ، ونزلوا على ذلك ، ونقلوا عن الشّافِعي ، أنَّه رسم عَلَى ابن البارِزِي عشرة رِجال ، فبلغ السلطانُ ذلك ، فاغتاظ منه ، فأطلقه مِن التَّرْسِيم .

وفي هذا اليوم ، وصل قاصِد مِن عند الحُسَام محمد بن العِماد ، والشهير بابن بُرَيْطِع الغزاوي الحنَفَي ، يخبر أَنَّه وصل إلى الخانْكة ، وأنه يريد مَنْزِلاً ، فهيىء له منزل في ناحيتنا ، برحْبة [1] العيد [2] .

وفي يوم الثلاثاء رابع عشريه وصل ، وفي يوم الخميس سادِس عشريّه سَلَّم على السلطان ، واجتمع بالحميد بن أبي حنيفة ، واصطلحا ، وتعاهَدَا على الاتفاق على ابن قاضِي عجلون .

---

(١) رحْبة : جاء في « خطط المقريزي » (٢ / ٤٧) ، الرَّحْبة بإسكان الحاء وفتحها ، الموضع الواسع ، وجمعها رحاب ، وهي كثيرة لا تتغير إلاّ بأن يبنى فيها ، فتذهب ويبقى اسمها ، أو يبنى فيها ويذهب ويجهل ، وربما انهدم بنيان وصار موضعه رحْبةً أو داراً أو مسجداً .

(٢) رحبة العيد : أو رحْبة باب العيد ، كان أولها من بابِ الريح إلى خزانة البنود ، وهي رحبة واسعة في الطول والعرض ، يقف فيها العساكر في أيام مواكب الأعياد ، ينتظرون ركوب الخليفة ، وخروجه من باب العيد ، ويذهبون في خدمته لصلاة العيد بالمصلّى خارج باب النصر ، ولم تزل هذه الرحْبة خالية من البناء إلى ما بعد سنة ٦٠٠ هـ ، فاختطّ بها الناس ، وبنوا فيها الدور والمساجد ، وصارت خطّة من أجل أخطاط القاهرة .

« خطط المقريزي »(٢/ ٤٧).

وفي هذا الحدّ مرض بعضُ الأمراء ، فطلب بعضُ فَجَرةِ الظاهريَّة جَقْمَق مِن السلطان تعيينهم لِإمْرَتِهِ ، فأبى أَنْ يُعَيِّنَ أحداً لرزق حَيّ ، وقال : إنّي [لا][1] أُوَقِّر أحداً إلاّ باتّفاق الأمراء عليه ، فأرْضى الأمراءَ بذلك ، وَتَنَمَّرَ أولئك الأشرار ، وداروا على أمثالهم ، وشاع أنهم اتفقوا على أنْ يركبوا عليه أوّل شعبان ، ثم أكذبهم الله .

وفي آخِر شهر رجب هذا ، أُكْملت مدرسة الأمير بُرْدُبَك[2] الدُّوَيْدار الثاني ، التي أنشأها برحْبَه الأيْدَمُري[3] .

شعبان

وفي يوم الثلاثاء مستهل شعبان سنة خمس وستين[4] هذه جمع بها أصحابَه ، وطَبخَ أطْعِمةً كثيرة جدّاً ، ودَعَى لقضاةَ والأكابِرَ ، وقُرِىء بها القرآن ، ومُدَّت أسْمِطَة هائلة ، وفُرِّق على الفقراء مِن تلك الأطعمة ، وأوقِدت بها قنادِيل متكاثرة ، وفي الزّقاق الذي على بابها ، أُخْبرت أنَّه كان راتِب الزَّيْت لذلك في كل يوم قِنْطار مِصري .

واجتمع هناك مِن الخَلْق رِجالاً ونِساء ، وكباراً وصِغاراً ، ما يَعْسِر ضَبْطهم ، واستمر هذا دأبه يوم الأربعاء والخميس ، وجَعَل في هذه الأيام مجلس البخاري ، الذي كان في بَيْته بها ، فَلَمَّا كان يوم الجمعة رابعه خَطَب بها القاضِي كاتِبُ السِّـرِّ محب الدين بن الشِّحْنَة الحَلَبي الحنَفي .

---

(١) ما بين الحاصرتين ، غير واضح الرسم في الأصل ، والتصحيح من مفهوم السياق .

(٢) مدرسة بُرْدُبَك : تقع بخط قناطر السباع ، تجاه الجامع الزيني ، فوق الخليج الحاكمي ، وهي جامع المحكمة .

« الخطط التوفيقية » (٦/ ٤) .

(٣) رحْبة الأيْدَمُري : من جملة رحْبة باب قصر الشوق ، عُرفت بالأيْدَمُري ؛ لِأن داره هناك ، وهو مملوك عز الدين أيْدَمُر الحلي نائب السلطنة في أيام الملك الظاهر بيبرس ، وترقّى حتى تأمر في أيام الملك الظاهر بيبرس ، وعلت منزلته في أيام الملك المنصور قلاوون ، ومات سنة ٦٨٧ هـ .

« خطط المقريزي » (٢/ ٤٨) .

(٤) وثمانمائة .

وقيل أن المرقى دعا لواقِف المكان ، فقال : رحمه الله ، وهي في عُرْف النَّاس دَعْوَةٌ تخصُّ الميِّت ، وذُكِر عن الخطيب أنه تَوَقَّفَ في الخطْبَة ، وأنها (مع كونها مناسِبة في نفسها) ليست في البلاغَةِ والمناسَبَةِ لمقتضى الحال ، كما كان يُظَنّ به ، وأنَّه غَلط في القِراءة في الصلاة ؛ وذلك أنه قَرَأ في الركعة الأولى : ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَـٰجِدَ اللهِ مَنْ ءامَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ ٱلآخِرِ ﴾ [1] ، فلما وصل إلى قوله : ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَاجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءامَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ ٱلآخِرِ ﴾ [2] ، فارْتُجَّ عليه ، فرجع إلى ما قَبْلها ، لَعَلَّه يُفْتَح عليه ، فقال شخصٌ ممن وراءه : ﴿ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ ﴾ [3] . فأخطاء ، فظنَّه المحبُّ مُصِيْباً فأخذها مِنه ، فلم تَنْتَظِم له ، فَرَدَّ عليه غَيْرُه الصَّوَاب قائلاً : ﴿ وَجَـٰهَدَ فِي سَبِيلِ اللهِ ﴾ [4]، وشخْصٌ مُخطئاً كالأوّل ، فسبق إليه صوتُ المُخْطىء ، واستمر هكذا مِراراً ، حَتَّى سمع الصَّوَابَ ، فمضى عليه ، وقد انفعل فأكمل الرَّكْعَةَ ، ثم قَرَأ في الثانِيَة : آية النور ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَن تُرْفَعَ﴾ [5] ، وصلَّى ، ثم غالَبَ رؤساءَ البَلَد وَغيْرَ رؤسائها ، واشْتَدّ الزِّحامُ ، حتى لم يتمكن كثيرٌ مِن النّاس من تصحيح صلاتِهِ ، وحكم القاضِي الحَنَفِيُّ السَّعْد بن الدَّيْرِي عَقِب الصَّلاَة ، بِصِحَّةِ التَّجْمِيع بها ، وخلع الأميرُ على الخطيب، خِلْعَةً حَسَنَةً ، فلبسها ثم ألْبَسها ابنه عبد البر .

وفي يوم الأربعاء ثاني الشهر ، لعب السلطانُ بالكُرَةِ على العادَة ، فَحَصل فِي لِجَام فَرَسِهِ ما يَنْبَغِي تَغْيِيره ، فَلَمَّا خُلِعَ حَمَل به قَبْل وَضْعِ اللجام في فَمه ، واستمر يجري إلى طَرَف الحَوْش أشدّ الْجَرْي ، فضربه بالصَّوْلَجان[6] على وَجْهه لِيَنْكَفّ فازداد جَرْياً ، ورجع فُسَّاق مَن كان

(١) التوبة/ ١٨ .
(٢) التوبة/ ١٩.
(٣) التوبة/ ١٨.
(٤) التوبة/ ١٩
(٥) النور/ ٣٦.
(٦) الصَّوْلَجان : عصا معقوف طرفها ، يَضْرب بها الفارس الكُرَة ، ومنه صَوْلَجَان الملك ، وهي عصا يحملها الملكِ ترمز لسلطانه . «المعجم الوسيط» (١/ ٥١٩ـ ٥٢٠) .

حاضِراً لِيَرُدُّوه ، فازْدَادَ ، فَحَضَنَ عُنقَه فَضَعُفَ بَعْضَ الضَّعْفِ ، واجتمعوا عليه ، فضاق عليه المجالُ ، فقام به على رِجْلَيه ، فصاح كلُّ مَن هناك : يا مولانا ، انزل ، فنزل ، ووصل إلى الأرض واقِفاً ؛ فهابه كلُّ مَن حَضَرَ ، ورأوا من فروسِيّته وثبات قَلْبِهِ ما عرَّفهم مِقْدَاره .

[٢٦٦] وفي هذا الحد ذكر [حسن بن علي] (١) بن المرجوشي (٢) التاجر ، لقاضي المالكيّة الحسام بن حُرَيْز ، أنّ له حَقّاً عِند ناصِر الدين الغزّي الشهير بابن غُزّي ، فأرسل إليه لِيَحْضُر ، فعصى على الرُّسِل ، فأَمَرَ بإحضاره غَصْباً فأُحْضِر ، فعزّرَه على امتناعه عن مجلس الشَّرْع ، فيقال أنه ضَرَبه ستمائة عصا ، وعَلَّق خُفَّيْهِ في رقبته ، وأمر به إلى سِجْن الدَّيْلَم (٣) ، فَشُقَّت بِهِ القَصَبَة ، وهو كذلك إلى السجن ، وكان ابن غُزّي هذا يُبَاشِر للسلطانِ قبل السَّلْطَنَةِ على مَالَه في دِمشق مِن التّعَلُّقاتِ ، وكان مُضَحِّكاً ، فكان يتمسخر له فَيُضحكه ، فكان يخف عليه ، فلما وَلِيَ السلطنة أَبْقى تلك التَّعَلُّقات في دِيوانِهِ ؛ لِأنّها لم تكن تَتَعَلَّقُ بالأَمْرَةِ الكُبرى ، وأبقى هذا مباشِراً عليها ، فَقَدِم لذلك ، فلما بلغ السلطانَ ما فُعِل به عَظُم ذلك عليه جِدّاً ، فأُعْلم ابنُ المرجوشِي بذلك فأُخرِج مِن السِّجْن .

---

(١) ما بين الحاصرتين بياضٌ في الأصل ، والتصحيح من « الضوء اللامع » (٣ / ١١٩ رقم ٤٥٨) ، وهو : حسن بن علي البدر المرجوشي ، كان شيخاً تاجراً في الشرب ، ونحوه ، خيِّراً مقرّباً للصالحين وأهل الفضل ، مات عن أزيد من سبعين سنة بعد ٨٥٠هـ .

(٢) نسبة لسوق أمير الجيوش .

« الضوء اللامع » (١١ / ٢٢٦) .

(٣) ذكر (المقريزي) في « خططه » (٢/ ١٨٧) بأنه بقلعة الجبل من مصر .

وفي هذا الحدّ ، بلغنا أنّ الإمام العلاّمَةَ القُدْوَةَ سِراجَ بن مسافر [١] بن زكريّا الرّومِي الحنَفَي مات ، وكان مجاوِراً بالقُدس الشّرِيف مِن مدّة تُقَارِب ثلاثين سَنَة ، وكان عالِماً بالعلوم العقلِيّة والفقه ، وكان وَرِعاً زاهِداً ، في قَلْبِهِ النّار مِن اعتقاد أَهْلِ بِلادِ الرُوم ، لكلام ابن عَرَبِي ، وإقبالِهِم على كتبه ، مهتماً بأمر الدِّين ، مُتَخلِّيَاً عن الناس وكان قد قارب السبعين رحمه الله .

وفي يوم السَّبْت ، ثاني عشر شعبان سنة خَمْس وستين [٢] هذه ، وصل رسولٌ مِن عِند بنت ابن عثمان عَمَّة السلطان محمّد ، صاحِب الرُّوم الآن يُخْبِرُ أَنّها وصلت إلى دِمشق حاجَّةً .

ورسول [٣] مِن عِند ابن قَرَمان الذي كان أَخَذ طَرَسُوس ، وأفسد في هذه المملكة على أيّام الأشْرَف ، يُخْبِرُ أنّه محبٌّ للسلطان ، وراغِبٌ في القرْب مِن خاطِره ، وهذه مِن أسباب السَّعادَة لهذا السلطان ، وهي الخضوع في أوّل سنة ملكه مِمَّن اسْتَخَفَّ بأبيه عند تَمَكُّنِهِ ، والله المسؤول في حسن التّمام .

وفي يوم الثلاثاء [خامس] [٤] عشره ، وقعت البطاقَةُ بوصول يحيى بن جَانَم ، نائب الشّام .

---

(١) هو : سراج بن مسافر بن زكريا بن يحيى بن إسلام بن يوسف ، سراج الدين القيصري الرومي ، ثم المقدسي الحنفي ، ولد سنة ٧٩٠ ، أو ٧٩٥ هـ ، بالمشهد من الروم ، ونشأ هناك ، ثم ارتحل إلى بلاد العجم ، فقرأ بها العلوم العقلية ، وسلك طرق التصوف ، قدم بيت المقدس سنة ٨٢٨هـ فأقبل عليه الناس .

له ترجمة في «الضوء اللامع» (٣/ ٢٤٣ رقم ٩١٨) .

(٢) وثمانمائة .

(٣) جاء في : «النجوم الزاهرة» (١٦/ ٢٢٨) أن قدوم رسل السلطان إبراهيم بن قَرَمان كان في يوم الاثنين ٧ شعبان .

(٤) في الأصل (رابع) ، والتصحيح من مفهوم السياق .

وفي يوم الأربعاء سادِس عشره وَصَل [1] ونزل عِند الأمير قانصوه الأشرفي، زوج أُخْتِهِ، ثم سلّم على السلطان بكرة يوم الخميس، وذكر أنه أتى مِن عند والدِه للشفاعَةِ في الأمِيْرَين : تَنَم المؤيَّدي، وقَانِبَاي الشَّرْكَسِي أحد أتباع الظاهِر جَقْمَق، المسجونَيْن في إسْكَنْدَرِيَّةِ .، فقال : نعم، ولكن اصبروا قليلاً، وعَلِم كلُّ ذي لب أنَّ المقصود مِن هذا، إثارَة فتنة، نسأل الله العافِيَة بخذلان كل خائن ؛ وذلك أنّ الأشْرَفِيَّة لمّا رأوا تَقَاعُسَ الظَّاهِريَّةِ والمؤيَّدِيَّةِ عن الاتّفاق معهم على ما يريدون مِن إثارَة الشّر، أرادوا بهذا تألُّفَ الفريقَيْن، لِيَصِلوا منهما إلى ما يريدون .

وسأله أَيْضاً في أَنْ يُضيف إلى أبيه الرَّمْلَة والقُدُس على العادَة القديمة لنائب الشَّام، وأن يزيد تِمْراز على إقْطاعه زُرَعَ ؛ فإنّ إقطاعه لا يكفيه، فأُجيب عن الأوّل بأنّ له أُسْوَةٌ مَنْ تَقَدَّمه، مِن قانِباى الحَمْزَاوي، وجُلُبّان، وأمثالهما مِن مدَّة طويلة، وعن الثاني بأن تِمْرَاز اختار هذا الإقطاع بعد أن عَرَفه، وَعُرِض عليه في حَلَب ما فيه فوق الكِفَايَةِ فَأبَى، هذا إلى ما ينضم إلى ذلك مِنْ أنّ زُرَع في الذّخِيْرَة السلطانِيّة، وأنّ كلّ أَحَدٍ يعلمُ احتياج الذَّخِيْرَة من سِنين متطاوِله ؛ لكثرة ما عليها مِن الكلف التي يكاد المُتحصِّل يعجز عنها .

وفي يوم الخميس، سابع عشره أَلْبس السلطانُ الحسام بن حُرَيْز قاضِي المالِكِيَّةِ [٢٦٧] خِلعةً ؛ لأنَّه وَفَى ما عليه مِن تَعَلُّق بلادٍ في الصَّعِيد، يباشرها للسلطان، وكانت العادَةُ أن يُرسل إليه الخِلْعَة، ولكِنّه في هذا العام لبسها لِما كان تحدث به مِن غيظ السلطان مما فُعِل بابن غُزِّي، فأزال ما كان ظنَّه بعضُ الناس من تَزَلْزُلِهِ بذلك، والله المسؤول في أنْ يُؤَيِّد به الدِّين، وَيَعِزَّ به المسلمين .

---

(١) في « النجوم الزاهرة » (١٦ / ٢٢٨) أنه وصل في يوم الخميس ١٧ شعبان، راجع أيضاً «بدائع الزهور» (صفحات لم تنشر) (٩١ـ ٩٢) .

وفي هذا الحدّ ، كفى الله شرَّ العَرَب ، وهم لبيد الذين كان السلطانُ أراد تجهيز العسكر إليهم بالْبُحَيْـرَةِ ، فأبى أهلُ الشَّـرِّ ، فطمع العَرَبُ حَتَّى وَصَل أذاهُم إلى الجِيْزَةِ ، فأَلْقَى قَيّومُ السموات والأرض في قلوبهم ما أَوْجَب أنْ طلب كبيرُهم محمد بن سعدان ، الحضورَ إلى السلطان ، فأرسل السلطانُ أَحَدَ الدَّوَيْدَارِيَّةَ ، الأمير كَسْباي المؤيَّدي ، فأَحْضَرَه ، فخلع عليه السلطانُ ، فلما رأى ذلك خَصْمُهُ الأميرُ مؤمن، طلب الحضورَ ، فأُذِن له ، فَحَضر ، وجُبِر ، ثم طلب كلٌّ منهما صلْحَ الآخر ، وكان لهما مُدَدٌ متطاولة على غايَةِ الشّـرِّ والحرْب ، بحيث لا يُطْمع في صلحهما ، فالله المسؤول في إصْلاَح النِّيَّات ، وتمهيد الأمور بغالِب المقدور على أحسن وَجْه .

وفي يوم السَّبْتِ تاسِع عشر الشهر ، تُوفِّيَ أَقْضى القضاة ، الفقيه الفاضِل المُفَنَّن المُفْتِي وَلِي الدّين عبد الله [١] بن الزَّيْن عبد الرَّحْمٰن بن محمد بن محمد بن شرف بن منصور بن محمود بن توفيق بن محمد بن عبد الله الزَّرعي الأصل الدمشقي الشافِعي الشّهير بابن قاضِي عجلون ، عن نحو ستين سنة ، عن مَرَضٍ طويلٍ امتدّ به نحو ثلاثة أشهر .

وكان عَيْن نوَّاب الشافِعِيّة بدِمشق وأكثرهم تَفَنُّناً في العلوم ، وأبْصرهم بالقضاء ، وأعظمهم تَحَرِّياً ، وأحسنهم شَكْلاً ، وأعْلاهم هِمّةً ، وأنقاهم عِرْضا ، وكان رفيقي في الطَّلَبِ على الشيخ تاج الدين بن بَهادِر ، ولم يكن في إخْوَتِهِ وأقارِبِهِ مثله ، وما خلَّف في النُّوَّاب بدمشق مثله في مجموع فضائله . وحفْظِهِ للسانِهِ ، وَقَمْعِه للجبَّارِين ، بعدم المَشْـي في أغْرَاضِهم ، والذَّبّ عن عَرْض مَنْ أُريد تناوُله بحضورهم .

---

(١) له ترجمة في « الضوء اللامع » (٥ / ٢٤ رقم ٨٤) ، وجاء فيه أن مولده كان في رمضان سنة ٨٠٥ هـ بعجلون ، وهي من أعمال دمشق .

وَخلَّف ثلاثَةَ أوْلادٍ ذكوراً رجالاً ، علماء ، مُفَنَّنِين ، أَعْلاهم سِنّاً وَقَدْراً الشيخ نجم الدين أبو الفضل محمد ، وكان غائِباً عنه بالقاهِرَة ، قَدْ أراد اسْتِيطَانها وتَأثَّل [1] بها وَظائف تداريس ، وإفْتَاء دار العدل [2] وذلك برضى والِدِه ، بل بأمْره ، ويليه القاضِي زين الدين عبد الرّحمن [3] ، ثم الشيْخِ تَقِيّ الدِّيْن أبو بكر [4] ، خلَّفه الله فيهم خير الخلف .

وفي يوم الاثنين ، حادِي عَشْرِي الشهر ، أُلْبس الأميرُ يحيى بن جَانَم ، نائب الشّام خِلْعَة السَّفر ، وسافر يوم السَّبْتِ [5] سادِس عشرِيّة ، ولم يُجَب إلى شيء مما جاء فيه ، وأُقيمت الحجَّةُ في المسائل الثلاث الّتي سألَها ، وَمجَّهم أكثرُ النّاس ، وعلموا سوءَ ضميرهم .

---

(١) تأثَّل : تأصَّلَ وثبت .

«المعجم الوسيط» (١/ ٦) .

(٢) دار العدل : هو الإيوان الكبير الذي يجلس فيه السلطان في أيام المواكب ؛ للخدمة العامَّة ، وإقامة العدل في الرعية .

«صبح الأعشى» (٣/ ٣٦٩، و ٤/ ٤٤) .

(٣) هو : عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الرحمن بن محمد بن محمد ، الشرف بن اللؤلؤي الدمشقي الشافعي ، المعروف بابن قاضي عجلون ، ولد سنة ٨٣٩ هـ بدمشق ونشأ بها ، وأخذ عن علمائها ، كما أخذ عن علماء القاهرة ، وناب في القضاء ، ومات في دمشق في ربيع الآخر سنة ٨٧٨هـ .

له ترجمة في «الضوء اللامع» (٤/ ٨٧ رقم ٢٥٠) .

(٤) هو : أبو الصدق أبو بكر بن عبد الله بن عبد الرحمن بن محمد بن محمد ، التقي الدمشقي الشافعي ، المعروف بابن قاضي عجلون ، ولد في شعبان سنة ٨٤١ هـ بدمشق ونشأ بها ، وأخذ عن علمائها ، وقدم القاهرة سنة ٨٦٠ هـ فأخذ عن عدد من علمائها ، وصار رئيس الشام والمشار إليه فيها في الأفتاء ، وتكرر قدومه إلى القاهرة ، وتصدى للإقراء بالأزهر ، مات ضحوة الاثنين ١١ رمضان سنة ٩٢٨هـ .

له ترجمة في : «الضوء اللامع» (١١ / ٣٨ رقم ١٠٣) ، و «شذرات الذهب» (٨ / ١٥٧ - ١٥٨) .

(٥) في «النجوم الزاهرة» (١٦/ ٢٢٩) كان سفره يوم الجمعة ٢٥ شعبان .

وكان مِن لطف الله بالعِباد في تمهيد الله لهذا السُّلْطان أَنَّ جَانَم نائبَ الشّام أساء عِشْرَتَه مع أكْثَرِ أمراء دِمشق ، لا سِيّما الحاجِب ، ومع أهل دمشق ؛ بعدم ولاية ابن شبْل للحسْبَةِ ، مع تفويض الأشْرَف ذلك إليه بسؤالِهِ ، هذا مع ما ألْقَى اللهُ في قلوبِ جميعِ النَّاسِ مِن محبَّةِ السُّلْطان ، فكان أهلُ دِمشق يقولون : مهما خالَفَ نائبُنَا وأَذِنَ السّلْطانُ لنا فِيه كفَيْناه إرسال عسكر ، ولم نُبْقِ له أثَرا .

ومن ذلك أنّه أساء إلى جميع مَن حَوْله مِن شيوخ البلاد ، العَشِيْرِ ، والعرب ؛ وذلك بِأنَّ خَزَنْدَاره مَبْنِيٌّ على اللؤم ، وعِنْده هو غايةُ القابِلِيَّة لذلك ، فَشَنق مِن البِقَاع مقدّم حمارة [1] ، وأفسد أَهْلَ الزَّبَدَانِي ، وشَتَّتَ غالِبهم ، وأغْضَب مقْلد أمير عرب حَوْران ، وابن متروك أمير حارثة ، وابن عبد القادِر ، وابن مشاق ، شَيْخَي جبل نابُلُس ، وألحّ في طلبهم ، وأنْ لا يَلْبِس أحدٌ منهم خِلْعَته السلطانيّة إلاّ من بين يديه ، فأجَابَه السُّلْطانُ لذلك ؛ فَخَافَه كلُّ هؤلاء ، وألْقِي في قلوبهم ، أَنَّ من قابَله قتَله ، فصاروا كلُّهم [أعداؤه] [2] محيطون به ، وكان ذلك مِن الألطاف الخفيَّة ، فإنّه لو أرادَ أَنْ يَعْصِي ، مَنَعَه خوفُ هؤلاء مِن ذلك ، أَو أَخَّرَه إلَى استصلاحِهِم ، فيمضي على ذلك زمانٌ تثبت فيه أوْتادُ السلطان .

وكان السلطان أرسل إليه مالأَمِيْرِ رَكْبِ الشّامي ، للحجّ مِن العادَة ، وجَعَل تَعْيينه إليه ؛ لِأنّه أعـرف بمن يصلح ، فَعَيَّـنَ الأمِيْرِ محمـد [3] بن

---

(١) حمارة : بطن من الإبراهيم ، من الأبي حسن ، من عشيرة السبخة التي تلتحق بالحديديين ، من عشائر الشام .

«معجم قبائل العرب» (١/ ٢٩٣) .

(٢) ما بين الحاصرتين في الأصل (أعداؤهم) ، والتصحيح من مفهوم السياق .

(٣) هو : محمد بن الأمير مبارك شاه الأينالي ، ناصر الدين الدمشقي ، حاجب الحجاب ، المعروف بابن مبارك ، ولد في حدود سنة ٨١٠ هـ ، عمل داوداراً عند زوج اخته سودون النَّوْرُوزي حاجب الحجاب بدمشق ، واستقر في عدة وظائف منها : مشدِّيَّة الأغنام ببلاد الشام ، وحاجب =

مبارك الذي وُكِل إليه أَمْرَ الأغْنَامِ السُّلْطَانِيَّة في كلِّ سَنَةٍ ، فأرسل يشكو مِن ذلك ، ويقول : إمَّا أمير رَكْبٍ ، وإمَّا جَمْع الغَنَم ، فإنهما معاً لا يَتَّفقان ، فإنّ الأضْحَى قد قَرُب ، ولا يمكنني جَمْع الغَنَم مع الاشتغال بالحج .

فبان أَنَّ تَعْيينه له ؛ لسوءِ طَوِيّة يُرَادُ بها تعطيل أمْرٍ مهم مِن أمور السلطان ، يثير تعطيله جميعَ الجند ؛ لما يؤدّي إليه مِن قَطْع عوائدهم في [٢٦٨] الأضحى .

وشاع بين النّاس أنّ هذا إنما هو تكالِبٌ على العصْيان ، طَمَعاً في المُلْك ؛ لِما قَرَّر في ذِهنه أبو الفَضْل النُّوَيْري ، خطيب مكّة ، مِن أنّه لا بُدَّ مِن سَلْطَنَتِهِ ، وزاد رَبْطُه في ذلك بأنْ عاهَدَه أَنَّ ذلك إذا صار يكون المالُ المُتَحَصَّل للخِزَانَةِ ثلاثاً ، بَيْنَه ، وبين خَزَنْدَارِه يوسف ، وبين أبي الفضل ، وهذا دأبه ، مع كلّ من يَصْحبه مِن هذه الطّائِفة ، كدُولات باي المؤيّدي ، وتَمُرْبُغا الظاهِري ، وكذا كان يؤكّد ذلك قاسم المَعْري ، شيخ زاوية ابن داود [1] ، وكان مِن شياطِين المتَصَوِّفَةِ ، قد ضَمَّ إلى مكرهم ، جُرْأة أهل بلاد الشمال على العظائم .

فلما جاءت مكاتبةُ ابن مبارك بذلك، أعْفَاه السلطانُ، وعَيَّن لِأَمْرَة الحجّ

= الحجاب فيها ، ونيابة حَمَاة ، ونيابة طرابُلُس ، مات في رجب سنة ٨٧٩هـ .

له ترجمة في : الضوء اللامع » (٨/ ٢٩٦ رقم ٨٣٢) ، و « الدارس » (١/ ٥٠١ـ ٥٠٢) .

(١) زاوية ابن داود : ويقال لها : الزاوية الداودية ، بسفح قاسيون تحت كهف جبريل ، أنشأها الشيخ زين الدين عبد الرحمن بن أبي بكر بن داود القادري الصوفي ، المولود سنة ٧٨٣ هـ ، والمتوفي ليلة الجمعة ٢٩ ربيع الآخر سنة ٨٥٦هـ ، وقيل أن الذي أنشأها والده أبو بكر المتوفي سنة ٨٠٦هـ ، وكانت من الزوايا التي لا نظير لها بدمشق .

« الدارس » (١/ ٢٠٢ـ ٢٠٣) .

سيِّدي إبراهيم [١] بن مَنْجك وهو أخصُّ أهل دِمشق بنائب الشّام إشارَة إلى أن مَكْرَه قد عُلِم ، فقوبِلَ بمثله بعد إبطاله ، بمرسومٍ لا يُمْكنه ردّه .

وفي هذا الحد شكا سلطان الحرافيش بمصر شخصاً مِن معاملي اللحم له عليه دَيْن ، فرسم له بخلاصِه ، وكان رئيس المعاملين (وهم الذين يحملون لحم الجند للوزير) يُقال له : البَبَائي (بموحّدَتين ومد) وهم قومٌ لا يمكن معارضتهم ؛ لِأنهم يجتمعون ، فينالوا مِمّن شاءوا ، ولا يُقدر أَنْ يُنال منهم ، فإنْ أَعْياهم أمرٌ استعانوا بالمماليك الأجْلاَب ، فلا يُقاومهم أحدٌ ، وإن اشتدّ الخَطْبُ عطّلوا يَوْماً مِن اللحم ، واعْتَلّوا بأنّ غريمهم عاقَهم عن ذلك ، فَيَحِلّ به ، ما يَجِلُّ عن الوَصْف .

وكانت عادة الملوك مداراة هذه الطائِفة والإغْضاء عن مساوِئهم ، وأعتاهم رئيسهم البيائي ، فمنع سلطانَ الحرافيش حَقَّه ، وخَلَّص خَصْمه مِن النُّقَبَاء ، وقيل : إنه ضرب صاحِبَ الحق ، فطلبه السلطانُ ، فأُحْضِر إليه يوم الثلاثاء ثالِث عشري شعبان هذا ، فأحضر معه جميع المعاملين ؛ ليصيحوا قُدَّام السلطان كما هي عادتهم ، فلم يكن إلاّ أَنْ حَضَر ، فأمر بضربه ، فصار يُضرب ، وهو يقول له : عَطّل اللحم غداً ، وتبدّد جندُه مِن المعاملين ، فكان الفائز منهم الذي يرى أنه قد نجا ، فلم يزل يضربه إلى أن سلخ جِلْدَه ، وهو يقول له : أنا لا أضربك إلاّ لتعطيل اللحم غَدَاً على عادَتِك ، حتى ترى ما يكون ، وتعرف إنْ كان اللحم مِن مالِك ، أو مِن مالِي ، فوصل صاحِبُ الحق إلى ما أراد ، وامتلأت القاهِرَة بهذا الحديث ، وحصل لهم بإهانَة هذه الطائفةِ وخصوصاً هذا الرجل مِن السرور ما لا يُوْصَف ، وكان لهم مِن الدعاء للسلطان أمْرٌ عظيمٌ ، زادَه الله مِن فضله .

---

(٢) هو : الأمير العوني الغياثي الهمامي الصارمي إبراهيم بن الأمير سيف الدين منجك اليوسفي الناصري ، قتل بوقعة الأمير نعير سنة ٨٨٨هـ .

له ترجمة في « بدائع الزهور » (طبعة بولاق) (٢/ ٢١٧) ، و « الدارس » (٢/ ٤٤٤) .

وفي يوم الثلاثاء ، ثاني عشري الشهر ، وصل قاضِي الحنَفَيَّةِ بدمشق ، العلاء علي ابن قاضِي عجلون ، الجاهِل ، الفاسِق ، العاقّ ، لا صَحِبه الله .

وفي يوم الخميس رابع عشريّه ، سلَّم على السلطان ، وقد دار على المباشرين والأمراء ، وأرضى الجميع بالمال ، لما يَعْلم مِن أنَّه لا مُرَوِّج له غير ذلك مِن سِنّ ، ولا عِلْم ، ولا دِيْن ، ولا سابِقة خَيْر .

ثم أخرج كِتاباً مِن نائب الشَّام يُثْني عليه فيه بالعِفَّةِ والعِلْم ، هذا مع أنَّه لا يعرف مسألةً مِن المسائِل مطلقاً لا مُتْقنة ولا غير مُتْقنة ، ولا أظنه قط طالع في كتابٍ ، فلا جزى الله الكل خَيْراً ، ولمّا قُرِىء كِتابُ نائب الشام دعمه المباشرون بها سيلقونه يوم تَبْيَضُّ وجوه ، وتَسْوَدُّ وجوه ، وكان متولي كِبرَ [٢٦٩] ذلك كاتِبُ السِّرِّ ، فبان بذلك مضموماً إلى قرائِن أُخرى أنه لا غرض له في تقديم مستحق ، وبان أنهم لم يطلبوا الحميد والحُسَام ؛ إلاّ لِأكل هذا الجاهِل .

وكان مع كتاب نائب الشّام ، وتأييد من أَيَّده ، قد جعل للسلطان أَلْفَي دينار ، فراج حالُه ، وأتقن له ذلك سوءُ تصرّف الحُمَيد والحُسَام ، فانّهما كانا يُظْهران الاتّفاق ، وهما أشدّ شيء تخالفاً ، وكل منهما يلوس (١) الآخر ، وأشدهما في ذلك الحميد ؛ فإنه أَظْهر أوّل ما قَدِم أنه لا غَرَض له في القضاء بوجه مِن الوجوه ، ولو عُرِض عليه ما قَبِلَه ، ثم صار يَغَارُ عليه ممّن يذكر اسمه فقط .

---

(١) يلوس الآخر : ينال من الآخر .
« المعجم الوسيط » (٢/ ٨٤٦) .

وكان الحسام لا يسعى إلاّ في مدارِس بِيَدِ ابن قاضِي عجلون أنظارها ، وتداريسها ، وكانا مع ذلك يجتمعان بالسلطان بغير واسِطَةِ كاتِبِ السِّرِّ ، ولا يسمحان بالتَّرَدُّدِ إليه ، فتَخَيَّل منهما .

ثم طلعا يوم الخميس هذا ؛ ليَسْألاَ السلطانَ في عَقْد مَجْلِسٍ لامتحان ابن قاضِي عجلون ، فصادَفا السلطانَ قد دَخَل ليستريح ، وذلك في حَرٍّ شديد ، فرجعا ، فصادفا كاتب السِّرِّ في القلعة ، فرافقاه ، وتكلَّما في ابن قاضِي عجلون ، فَهَمَّا في ذلك ، وإذا هو قد طَلَع عليهما ، فكذَّبهما ، فكذَّباه ، وصاروا يَتَشاتمون ، فصاروا سُبَّةً .

ثم إنهما طلعا في عصر يوم الخميس هذا مع كاتِب السِّرّ ، فسألا السلطانَ في عَقْد مجلس لما تقدّم ، فأجابهما ، بعد أَنْ عَلِمَ أَنَّ كلامَ الحُميد بهوى نَفْس ، وواجهه بذلك ، وقال في غَيْبَته : إذا كان هذا يتكلّم هكذا بحضرتي ، فكيف يكونُ كلامه في غيرها ؟! ، وعَيَّن للمجلس يوم الأحد ، سابع عشري الشهر .

وكان في ليلة الخميس هذا ، أَعْنِي رابع عشري شعبان ، مات فَيْرُوز النَّيْرُوزِي عن نحو تسعين سنة ، وكان في يده مع الخَزَنْدارِيَّة الزِّمامِيّة ، فسعى فيهما لُؤلُؤ [الرّومي الأشرفي بَرْسْباي الطواشي] [1] بخمسة عشر ألف دينار فأُجيب إلى ذلك .

وكان فَيْرُوز ظالماً ، غاشِماً ، جَمّاعاً ، منّاعاً ، قليل الخَيْرِ جدّاً ، فيُقال : أنّه وُجد له مائة وخمسون ألف دينارٍ ذَهَباً عَيْناً ، وخلَّف مِن الجواهِر ، والقماش ، والخيول ، والغِلال ، والآلات ، ما يَعْسِر ضَبْطه .

---

(١) ما بين الحاصرتين بياض في الأصل ، والتصحيح من « هامش٣ » من (ص ٣٦٢) من القسم الأول .

وفي هذا الحد ، أنكر التّاج إسماعِيل بن الزهري البِقاعِي ، الذي كان إمام المنصور عثمان بن الظاهر جَقْمَق ، على بعض المجترئين مِن الرَّافِضَةِ في المدينة الشّريفة أَمْرَاً ، وكان ذلك الرَّافِضِي مِن بلاد جَبَل عَامِله ، مِن معاملة صَفَد ، وكان يُنْسب إلى عِلْم ، وكان غالِياً في الرَّفْض ، مُعَظّماً عِنْدهم ، فذهب إلى نائبِ أمير المدينة ، فَذَكر له ذلك ، فأحضَر ابنَ الزّهري ، وضَرَبه حتى مات .

وكان ابن الزّهري هذا ، ساكِناً ، كثر الإنْجماع عن النّاس رحمه الله ، وأصله من قرية تُسمى بيت فار ، في بلادِ البِقَاع ، وكان قد انتقل إلى القاهِرَة مِن مدَّةٍ طويلة ، وكان يسكن قلعة الجبل ، ويؤم في جامِع الحوش وأخْبرني مِن أهل المدينة من كان يسمعه في هذه المحاوَرَةِ يقولُ في دعائِهِ: اللهم ارزقِني شهادَة في سبيلك ، وَمَوْتاً في بلد نبّيك ﷺ ، كما كان عمر الفاروق رضى الله عنه يَدْعو ، فاستجيب له ، فعظمت مشقّة ذلك على أهلِ السُّنَّةِ ، ولكن لم تكن لهم يَدٌ ينتصرون بها في المدينة الشريفة ؛ لغلبة الرَّافِضَةِ بها ، فلمَّا حجّ النّاسُ قُتل خَصْمُهُ بمكّة المشرّفَة كما يأتي .

وبلَغَ السلطانَ الظّاهِرَ خُشْقَدم ذلك في وقت توجّه الحاج ، فعزل أمير المدينة زُبَيْري ، وَوَلّى شخصاً مِن آل جَمَّاز يُسَمّى زهِيراً [1] ، وهم يُظْهرون أنّهم مِن السُّنَّةِ ، فقبض زبيري على قضاة المدينة ، وقال : إنْ صَحّ

(١) هو : زهير بن سليمان بن هبة بن جماز بن منصور الحسيني ، أمير المدينة ، وليها بعد زبيري ، واستمر حتى مات في صفر سنة ٨٧٣هـ.

له ترجمة في « الضوء اللامع » (٣/ ٢٣٩ رقم ٨٩٥) ، و « بدائع الزهور » (طبعة بولاق) (٢/ ١١٨).

أنّي عُزلت قتلتكم ، فإنّه لم يُكَاتِب في شأني غيركم ، فاستمرَّت المدينة أيّاماً لم يُصَلّ فيها جماعة ، بل ولا جمعة ، فأتته أُمُّه ، فشفعت فيهم ، فلم يَشْفعها ، فأغْلَظت له ، وحَلَفت أنّه إنْ لم يفعل ، أخرجت ثدياها ، وخرجت بين العَرَب تُشَنِّعُ ، وَوَالاها على ذلك ابنُ عمه ضُغَيم [1] أخو الأمير الذي كان قَبْله ، وقال له : لئن فَعَلْتَ فيهم شيئاً ، ليكونَنّ آخر عهد آل منصور مِن المدينة ، ونحو هذا فأطلقهم .

وفي ليلة السَّبْت ، سادس عشري الشهر ، سافر يحيى بن نائب الشام راجعاً إلى أبيه ، وقد ظُنّ بهم وبجماعتهم الأشْرَفِيّة الظّنون ، ونَفَرت الخواطِرُ منهم .

[٢٧٠] وفيه دار كلامٌ بين بَعْض النَّاس ، بأنَّ أباه نائب الشام عصى على السلطان .

وفيه لم يطلع الأمير بُرْدُ بَك إلى القَلْعة ، ولم يجتمع في بيته بأحَد ، ووكل بالباب ، من يقول : إنه ليس بالبيت ، ولم يُعْرَف سببُ ذلك ، ثم عُرِف أنّ سببَه كان عارِضاً في بَدَنِه ، منعه الرّكوبَ ، وخَشِيَ أَنْ يكْثُر العائدون له .

واستغنم كاتِبُ السرّ غَيْبَته ، فأخّر عَقْدَ المجلِس بين قضاة الشام ؛ تخفيفاً عن ابن قاضِي عجلون ، لما يَعْلم مِن جهله وظُلْمه ، فَعَجّل له على

---

(١) هو : ضُغيم بن خشرم بن نجاد بن ثابت بن نعير بن منصور الحسيني ، أمير المدينة ، وليها في شوال سنة ٨٦٩ هـ ، فأقام نحو أربعة أشهر ثم انفصل بزهير بن سليمان ، ثم أعيد بعد موته في سنة ٨٧٤هـ فاستمر إلى رمضان سنة ٨٨٣هـ ، فانفصل بقسيطل بن زهير بن سليمان .

ترجم له (السخاوي) في : « الضوء اللامع » (٤ / ٢ رقم ١) ، و « التحفة اللطيفة » (٢ / ٢٥٢ رقم ١٨٤٤) ولكنه لم يحدّد تاريخ وفاته إلاّ أنه ذكر بعض أخباره في سنة ٨٩٨هـ .

ذلك مِن العقوبة ، أنه وقف بفرسه عند البيسرية ، ليسلِّم على ناظِر الجيش عِنْدَ افتراقِهما كُلاً إلى بيته ، فوقعت به الفَرَسُ ، فطاح عنها ، فانْصدع زنْدُه ، وطارت عمامتُه عن رأسه إلى مدى بعيد ، وكانت وقعة هائلة .

فذكَّرتُ الأميرَ يوم الأحد سابع عشري الشهر بذلك ، وَبَيَّنْت له أنَّ كاتِب السرّ له غَرَضٌ في تَرْكِه ، وهو ساع في ذلك بأنواعِ الحِيَل ، لِيَتِمَّ أمرُ ابن قاضِي عجلون ؛ لِأغراض ذكرتها له ، وأوضحتُ له ما يثمرُ ذلك مِن فسادِ الصّورَةِ ، وانهدام ما بناه السلطان مِن أوَّل أمْرِه ، إلى هذا الوقت ، مِن طِيْبِ الذِّكْرِ ، واستجلابِ الخواطِر ، والله وليُّ التوفيق .

وذلك لِأن الحميد ، والحسام ، يدوران على النّاس ، ويقولان : نحن عالِما الحنفية بدمشق ، وهذا ابن الإمام ، فأرْسَلوا إلى كلٍّ مِنّا مَرْسوماً لِيَحْضر ، فَيُنْصَف ، فما كان حضورنا إلاّ ليسنوا بنا هذا الجاهِل ، ونحو هذا ، فَعَلِم صحةَ ذلك ، فقام في إبرام المجلس وقبّح على مَن أراد إبطاله .

ثم عُلِم أنَّ ابن قاضِي عجلون وَعَد على إبْقائِه في منصبه للسلطان بألْفَي دينار ، ولكاتِب السرّ بأربعمائة ، ولكل مِن المباشرين بشيء ، فالتزم الحميدُ ، بأنْ يقوم للسلطان بما وَعَدَ به ، فذكر ذلك له ، فأجابه إلى الولاية بذلك .

رمضان

وفي يوم الأربعاء ، مستهل شهر رمضان مِن السَّنَةِ ، وصل الخَبرُ ، بوفاة القاضِي ولِي الدين عبد الله بن قاضِي عجلون الشافِعِي في تاسع عشر شعبان بدمشق ، كما مضى في مَوْضِعه (١) .

---

(١) راجع «ص ٢٥٩».

وفيه وصل المقدّم محمود بن الحاج أبي بكر بن باكِله العامِري ، الذي كان مقدم بلاد الزَّبَدَانِي ، هارِباً مِن خَزَنْدار نائب الشام ، الجمال يوسف الصُّبَيْبِي ؛ فإنه كان يعمل على شَنْقه ، كما فعل بِأَضْرَابِهِ ، فإنَّه صَحّ عَنْه أنّه كانَ يُغْرِي إسماعيل بن يوسف ، رفيقه في التَّقْدِمَةِ على قَتْلِهِ ، وذلك بتحسين قاسم المعَرّي ، شيخ زاوية ابن داود ، فإنَّ إسماعيل كان صاحبَهُ ، وهو مِن شياطين المُتَفَقِّرَةِ ، وكانت له قدرة على الدخول في الظَّلَمَةِ ، والتّقرّب إلى خواطِرِهم ، فكان له عِند جَانَم نائب الشام ، وجميع مَن يلوذُ به وصلة تزيد عن الحدّ ، وهم مع دخوله في مَظَالِمِهم وَحَمْلِهِم على كثيرَ منها وَتَزْيينه لهم ، يعتقدون فيه الخَيْرِ ، بل ومع مشاهدتهم له يُباشِر الظُّلْمَ لِنفسه ، حَتّى لقد بلغني أنّه كان يشتري غَنَماً هَزِيْلاً ، ويذبحه ويرْميه على لَحَّامِي الصالِحِيّة .

فلمّا قَتَل الله المقدّم إسماعِيل علي يد جماعَةِ محمود كما مَضَى ، وَخَرِبَت بلاد الزَّبَدانِي على يَدِ قاسِم ، وَفَرَّ محمودٌ ، فلم يَقْدِروا عليه ، شرع يُظهر الحلْم عنهم ، بإقامة معاذيرهم ، ولم يَزَل حتى وَرَد كلُّ مَنْ كان مع محمود هارِباً ، وزادَ في إكْرامِهم ، وَلاَنَ لمحمود حتى كاد أنْ يقع .

ثم استمر إلى أنْ نَزَل إلى بلادِ الشـام بعضُ أصحـاب شـَرِبَاش أميـر سِلاح ، ومحمودٌ بـن جـارِية خَوَنْـد شقراء بنت الناصِر فَرَج [1] ، زوْجـة

---

(١) جاء في « الضوء اللامع » (١٢/ ٦٨ رقم ٤١٥) شقراء ابنة الناصر فرج بن برقوق وأم محمد بن جَرِبَاش ، زوجها أبوها لمملوكه جَرِبَاش .

وجاء في « بدائع الزهور » (طبعة بولاق) (٢ / ٢١٤) أنها ماتت في جمادي الأولى سنة ٨٨٧هـ ، وقد كانت من مشاهير الخواندات .

شَرِبَاش ، فطلب محموداً إليه في شهر شعبان مِن هذه السَّنَة فأحْضَرَه على نائب الشام وخَزَنْدارِه ، فأظْهرا قبُولَه ، وَأَنّهما يُعِيْدانه إلى التَّقْدِمَةِ كعادَتِهِ ، ثم عَلِم منهما الغَدْر ، فَفَرَّ مِن دِمشق قبل خروج الأمير المذكور ، وانتظره في غَزَّة إلى أَنْ قَدِم ، فَقَدِم معه على أُمّه ، وكانت عِنْد مَوْلاتِها شقراء زَوْجَة شَرِبَاش ، فأحسن تَلَقّيهِ وإكْرَامِه ، واستمرّ مُقِيْماً عِنده .

وفي يوم الجمعة ثالِث شهر رمضان هذا سافر الشيخُ نجم الدين محمد ابن القاضِي وَلِي الدين عبد الله بن قاضِي عجلون ؛ لعمل مصالح ما خلَّفه أبوه ، ومُوَاساة عِيَالِهِ على ما طَرَقهم مِن المُصِيْبَةِ بموته .

ثم بلغنا أنَّه مات في هذا اليوم بدمشق الشيخ المُعْتَقَد أحمد العدَّاس الدِّمَشْقِي القادِري ، وكان أَمَّاراً بالمعروف ، وله زاوِيَةٌ أنشأها بناحِية قناة العوني [1] ، خارِج باب الفراديس مِن دِمشق .

وفي يوم السبت ، رابع الشهر ، وَصَل الأميرُ عبد العزيز بن مغْلاق الرَّمْلي ، ناظِر القدس والخليل ، ومعه شيخ الخليل ، السَّرَاج عمر بن الجعبري ، ومباشِروا أوقاف البلدين ، ونزلوا في مَدْرسة السلطان حسن ، وكان عبد العزيز هذا ، مِن تيوس النّاس العريقين في الجهل والتَّجَبُّر عَلَى مَنْ يَسْتَضْعِفه ، والذِّلَّة لِمَن يَضْعُفْ عنه ، مع بعض خِداع لا يكاد يَتَأَتَّى إلاّ بَعْد مقارَعَة .

كان الشيخ كمال الدين محمد بن الناصر محمد بن أبي شريف القُدْسي ، وأخوه البرهان إبراهيم أوْحَدَيْ أهل القدس في زمانهما ، عِلْماً وديناً وعَقْلاً ، وكـان الشيخ كمال الـدين لما قـدِم القاهِرَة في هذه المرَّة ، سـأل أن يُزاد في

---

(١) قناة العوني : أو ابن العوني ، تقع قرب جامع الجوزة في محلّة القزازين في العمارة البرانية . « الدارس » (١/ ٣٩٦) (هامش ٢) .

معلوم تصديره ، وتصدير أَخيه البرْهَان ما يبلغ مائتي دِرهم في كلّ شهر ، وذلك ، لا يبلغ مقدار معلوم بَعْض مَن لا يُحْسن مسألة ، ولا نفع به مِن أهْلِ البلد .

فلما أُرْسِل المرسوم المربع به ، صَادَف النّاظِر على عَزْمِ السَّفَر ، فوعد أنّه يُمْضيه بالقاهِرَة ، فلما قَدِم أعطاه الكمالُ قِصّةً بذلك ، فأكْثَر الثناءَ عليه ، وأنَّه مُسْتَحِقٌّ لِأضْعافِ ذلك ، وَأَنّه مما يَسُرُّه ، وسأل الإمْهال في إمْضَائِهِ إلى الرّجوع إلى القُدُس ، فانْخَدع له الكمالُ ، ثم ظهر له أنّ ذلك غير صحيح .

فكَّلمتُ الأَمْيرَ بُرْدْ بَك في شأنِهِ ، فأخذ القِصَّةَ ، وَوَعَدَ بقضائِها ، وكان الكمالُ حَضَر عِنده في هذه السَّنةِ مجلسَ البخارِي ، وبحث ، فأجاد وأبْدَى فوائِدَ كثيرةٍ ، فحضرنا يَوْماً ، فإذا الناظِرُ حاضِرٌ ، وشيخ حرم الخليل السَّـرَاج عمر بن الجعبري ، وكان قد نُقل إليّ أنّ الشَّيْخ كمال الدين تَسَبَّبَ في إثبات بلد في بلاد الرَّمْلَةِ ، يُقال لها الأَخْصَاص ، بِوقف الخليل ، شركة لغيره ، بعد أن كان البرهان بن جماعَة أثبت لناس ادَّعوها مَحْضَراً ، وأراد حَسْمَ أمْرها مِن الوَقْفِ .

فسألتُ الأَمير عن القِصَّة ، فرأيته كمن انحلّ عنها انحلالاً عظيماً ؛ بسبب أنَّ الناظِر أثبت في ذِهْنِه أنّ باب الزّيادَة إنْ سُمِحَ بِتَمْشِية قضيةٍ منه ، حَصَل شَـرٌّ كبيرٌ ، وانفتح به بابٌ لا يكاد يُسَدّ ، ونحو هذا مِن الخيالات ، فقلت : إنَّ هذا خَيالٌ فاسِد ، إذا فُتح بابٌ لِأمير المؤمنين ، ثم جاء بعده زَبَّالٌ يريد فَتْحه له كما فُتِح لِأمير المؤمنين أشبعه كل من سمعه صفعاً . سَلِ الحاضرين هل في القُدُس مَن يَعْدِله ، أو [يَعْدل] [1] كلامُه

(١) في الأصل (يعد) ، والتصحيح من مفهوم السياق .

كلامَه ، إنَّه استنفد بَلَدَ الأَخْصَاصِ للوقف ، بَعْدَ أن كانَ ابنُ جماعَة أراد انتزاعها منه ، وأعطاها لناس ادّعَوْها ، وأثبت لهم نَسَباً راج أمرُه على كلّ مَن حَضَر المجلس مِن القُضاة ، والنّاظِر وغيرهم ، فلما عجزوا أرسلوا إلى الشيخ كمال الدين ، فلما حَضَر ، كشف تَلْبِيس المحْضَرَ ، وأَسْكَت ابنَ جماعة ، فأعذر المدّعون ، وهذا شيخ حَرَم الخليل يصدّق على ذلك ، وكذا الناظِر ، سَلْهما . فأما شيخ الخليل ، فقال : نعم ،وأثنى ، وأمّا النّاظِر، فسكت ، فتبيّن مِن ذلك صحّة القضيّة .

وقلت غير هذا مِن الكلام الفَصْل الذي يؤيِّد الله به عِند المعضلات ، فألْزَم الأميرُ الناظِرَ بإمضاءِ ذلك بما لم يَسَعه معه إلا الإجابَة ، فأمْضاه بعد أن كان سأل السلطانَ في إبْطالِ ذلك ، واجتهد كلَّ الاجتهاد . بما في طَبْعه مِن بُغْضِ أهل العِلْم ، وأَغْرَى أمثاله مِن مباشِري الوَقْفِ على ذلك، والله المسؤول في أَمْثال ذلك مِن النُّصْرَةِ عن أَهْلِ الفساد ، وإعلاء أهل الرَّشاد .

وفي يوم الثلاثاء سابع الشهر ، قال السلطانُ ، لكاتب السر :قد طال أمرُ القاضِي حميد الدين . فأَعْلَمه ، أَنّه أدّان مِن النّاس بضائِعَ ، يريد أن يبيعها ، ويُنَفِّذ ما وَعَدَ به ، فقال له : قل له : أنه لا وعْدَ له عِنْدنا ، إنْ لم يُحْضر ذلك غَدَاً ، وقل للحسام : إنْ كان يدفع ما ذَكَر ابنُ قاضِي عجلون ، فلا معدل عنه .

فأما [٢٧١] الحميد ، فقال : لا يمكنني ذلك ، وأَمّا الحُسام فقال : لا أقدر إلاّ على ألف دينار ، فإن قُبلت مِنّي افتديت بها المسلمين ، مِن هذا الجاهل الفاسِق ، وإلاّ فإنّي إن زدت عليها شيئاً دار أمْري بين أنْ

أُحْبَس عليه أو أرتشيه مِن النّاس ، فأكون قد خسرت الدِّيْن والدُّنيا فيما لا أدْرِي عاقِبَته ، فكان أعقلهما ، مع أنَّه طويلٌ ومُفْرِطٌ في طول اللحية ، والحميد قصير ، قصير اللحية .

ولما وَرَد الجوابُ على السّلْطان بذلك ، قال : قل لابن قاضِي عجلون : يَطْلع يوم الخميس ، فَطَلَع يوم الخميس تاسِع الشهر ، فأُلْبِسَ كامِلِيَّة بيضاء بِسَمُّور ، ثم بَانَ أَنَّ السلطانَ كان خُيِّل مِن الحُميد ، بأنّه كثير الشَّـرِّ ، فلا يُؤْمَنُ أَنْ يُثِيْرَ عليه فِتْنَةً ، يَعْجَزُ عن تسكينها ، وهو في أوّلِ دَوْلة ما سَكَن إلى الآن اضطرابُها ، هذا مع ما رأى منه هو مما يصدِّق ذلك، لمّا كَلَّمه في ابن قاضِي عجلون ، ومع ما يُظَنّ به مِن العداوَة لهذه الدَّوْلة ؛ لِأنَّ الملك الأشرف كان نفاه سنة تسع وخمسين إلى بغداد ، ولم يرجع إلاّ بشفاعة جَانَم ، نائب الشّام الآن ، فَبَان أنّه ما أظهر قبولَ سؤالِهِ إلاّ ليُعْجِزَه ، وبان بإيثار أَلْفَي ابن قاضِي عجلون ، على ألف الحسام ، أنّه مع الدّنْيا ، وما عليه مِن عِلْمٍ ولا دِيْنٍ ، ولا هو مفكّرٌ في صَلَاح النّاس ، وأنّ ما كان أَظْهر مِن تعظيم الشّـرْع ، وإقامَةِ منارِ الدِّيْن رِياء وسُمْعة ، ليتمكَّن ، والله المسؤول في صلاح حالِه ، وسداد أمْرِه .

لكنه كان مما بعَّدَ الأمْرَ مِن الحميد خِفَّة حصلت له ، وذلك أنَّه لما عَلِم أَنّ قَضِيَّة ابن قاضِي عجلون انتظمت ، بادَر إلى تحصيل ألف دينار عَيْناً ، ورام إبْلاغ ذلك للسلطان ، فلم يُطَع ؛ لما يَعْلَم من يسأله ، مما لا يُقالُ له . فاتَّهَمَ كاتِبَ السرّ ، فأخذ الذَّهبَ معه ، وطلع إلى السلطان بنفسه ، وقال له : يا مولانا السلطان ، إنّ الذي بَلَّغَك أَنّي عجزتُ كاذِبٌ، وهذه ألْفُ دِيْنارٍ في كُمِّي قد أحضرتها لتأمر مَن يقبضها فقال له

السلطان : مَنْ أمر بإحْضار ذهب ، أو سـأَلَ في شـيء مِن هـذا ؟! وما مَعْنَى هذا الكلام ؟! ثم أشار بيده إلى الإنصراف ، وظهر عليه الغَضَبُ ، فانْصَرَف ، وبه مِن الخِزْي أمْرٌ عظيم .

وفي يوم الخميس هَذَا عُزل محمود بن إبراهيم بن الدَّيْرِي مِن نَظَرِ الإصطَبْل ، بسؤال أمير آخور بِرْسْباى البَجَاسي صهر السلطان ؛لرقاعَته ، وسوءِ معاشَرَتِهِ ، وَجَهْلِهِ ، مع تمعلمه ، ومجاز فته كأبيه ، وَوُلِّيَ عنه الشَّـرَف بن البَقَري ، أخو الأمير الإسْتَدَّار [١] .

مناديالبحر

وفي يوم السبت [٢] حادِي عشر الشهر ، وهو الموافِق لسادِس عَشْرِي بُؤُنه ، دار مُنَادِي البحر في شوارِع القاهِرَة ، للبِشَارَةِ بزيادَة البحر ، وأَخْبَروا أَنّ قاعِدَة المقياس سِتَّة أذْرُع ونصف ذراع ، فهي أعلى منها في العام الماضِي بنصف ذِراع ، ثم نادَى يوم الأحد ثانِي عشْره ، بأنّ الزّيادَة خمس أصابع .

وفي هذا اليوم قبض الوالي على مِنْسَر [٣] نحو عشرين رجلاً كانوا يفسدون في البلاد .

وفي هذا الحدّ ، اشتد سَعْيُ الحجازيين في بيان عَوَار العَلَم صالِح البُلْقِيني بما باع مِن أوقافِهم ، وأنها تُقارِب مائتي وَقْف ، وبرز الأمْرُ بأنْ

---

(١) الخبر في : « النجوم الزاهـرة » (١٦/ ٢٣٠) ، و « بـدائع الزهـور » (صفحـات لم تنشـر) (٩٢-٩٣) .

(٢) في « النجوم الزاهرة » (١٦/ ٢٣١) يوم الجمعة عاشر رمضان .

(٣) مِنْسَر : لصوص .

« المعجم الوسيط » (٢ / ٩١٧) .

يُكْشف عن ذلك ، ويُعْمل حسابهم ، فأمر القاضِي مباشِرِي الحرمين ليكتبوا ما يُبَرِّىء ساحته وساحتهم ، فكتبوا أَنَّ الذي بِيْع مِن ذلك نَيِّفٌ وثمانون وقْفَاً ، وذلك (زعموا) قادِح في إنهاء الحجازيين ، مُكَذِّبٌ لهم ، فرموا أنفسَهم بفضيحةٍ ما سُمِع بمثلِها ، وظهر الحقُّ وزهق الباطِلُ ، ولكن مَنَع السلْطانَ مِن عَزْلِهِ ، أنّه في أوّل دَوْلَتِهِ .

وفي يوم الاثنين ثالث عشر الشهر نزل شَرِبَاش كُرْد مِن القلعة مريضاً مِن قُوْلَنْجٍ [١] كان يعتريه ، فقطع النّاس على العادَة أنّه سُقِي ، ثم تماثل يوم الخميس سادِس عشره .

وفي ليلة الثلاثاء ، رابع عشر شَهْرِ رمضان هذا ، خَسَف القَمَرُ ، فأخذ في ذلك والنَّاسُ في صلاة التَّرَاويح ، واسْتغرق الخسوفُ جميعَ جرْمه عَقِب الفراغ منها ، فصار كأنّه قطعة سحابَةٍ حَمْراء صغيرة ، ثم غابَت تلك الحُمْرَةُ ، وصارَت بلونِ السماء ، وأظْلَم اللَّيْلُ ، فكان كالذي لا قمر فيه واستمرّ مدَّة طَوِيْلَة ، أُخبِرْت أنها خمسون دَرَجَة ، ثم بَدَأ يَنْجَلِي ، فلم يَكْمُل انْجلاؤه إلاّ آخر الليل ، وصلَّى النّاسُ لذلك ، واجتهدوا في الدُّعاء تَقَبَّلَ الله منهم وعفى عَنّا وعنهم [٢] .

واشتدَّت قَلْقَلَةُ مَن لا عِلْم له في ذلك مِن جهة السلطان ، واشتد مكرُ الجند ، وسعى بعضُهم إلى بعض في نقض أمْر السلطان ، رَدَّ الله

---

(١) قُوْلَنْج : مرضٌ معوي مؤلم ، يصعب معه خروج البراز والريح ، وسببه التهاب القولون . «المعجم الوسيط» (٢/ ٧٦٧) .

(٢) الخبر في : «النجوم الزاهرة» (١٦/ ٢٣١) ، و «بدائع الزهور» (صفحات لم تنشر) (٩٣) .

كَيْدَهم في نحْرِهم ،فإنهم لا يفعلون ذلك لصلاح دِيْن ، ولا دنيا ، بل نَفَاسَة على غير مـن وُلِد في الأسلام أَنْ يَلِيَ هذا المنصب ، والـّذي شدّ فسادَهم شفاعةُ نـائب الشـّام في قانِبَاى ، وتَنَم ، وهـو مرادُه ، والله المستعان .

وكان السلطانُ أرسل خِلَع بعض مشائخ البِلاد الشَّامِيَّة ، وأمراء العَرَب إلى جَانَم نائب الشام ، لِيُلَبِّسُوا مِن عِنده ، أو يرسلها إليهم ، فوَصَلت إليه خِلعَةُ طَرَبَاي بن زين أمير عربحارثة ، بناحِيَة بَيْسَان [١] ، وكان البريدي بذلك مَرَّ عَلَيْهِ ، وأَعْلَمه بذلك ، فقال : اسبقني حَتَّى أَصْحَب مَعِي تَقْدِمَةً للنّائب ، فلما وَصَل البَرِيْدِيُّ ، وليس هو معه ، طلب خَصْمه .. [٢] ابن حسين ، فألْبَسَه الخِلْعَةَ ، فلمّا سمع طَرَبَاي ، هَرَب إلى جَبَل نابُلُس ، فنزل عَلَى ابن أبي غازِي بن مشَّاق ، وأرسل يقول: إنْ لم يَحْمِنِي الســلطان سِرْتُ إلى نائب الشّام لِأَحْمِي نَفْسِي وأَهْلِي ، وأرسل إسماعيلُ بن عبد القادِر يقول نحواً مِن ذلك ، ويقول : إِنِّي إنْ ذَهَبْتُ إليه طَلَب مِنِّي المالَ ، فتلفت بلادُ السلطان ، وأرْسل ابن مشّاق يستعفي مِن المَشْيَخَة ؛ لِأَجل ذلك ، وحصل بذلك وهن ظاهِر .

[٢٧٢] وفي يوم الخميس سادِس عشر شهر رمضان هذا ، عُزِل سالِم الرَّمْلِي عَن مشيخة مقام الشيخ أحمد البَدَوي .

---

(١) بَيْسَان : مدينة بالأُردُنّ بالغور الشامي ، ويُقال لها : لسان الأرض . وهي بين حَوْران وفلسطين، توصف بكثرة النخل ، وهي بلدة وبئة حارَّة أهلها سُمْرُ الألوان جُعْدُ الشعور ؛ لشدَّةِ الحرّ . «معجم البلدان»(١/ ٥٢٧) .

(٢) بياض في الأصل بمقدار كلمة .

وفي يوم الجمعة سابع عشره ، وَلِيَ عنه أبوه ؛ لكثرة كذِبه وَسَعْيِه ، ومساعَدَة مَن لا يخاف الله له ، لتقاربهم في خَبَاثَةِ الأرواح ، وكان السَّببُ الآخَرُ فِيه قَرْقَمَاش الجَلَب أمير مجلس ، أَهْدَى له جارِيَةً ومملوكاً ، فكلّم السلطانَ فِيه ، وكان خائفاً مِن إِثَارَةِ شَـرٍّ ، بِعَدَم قبول شفاعاتِهم ، فإنّهم كانوا قد أكثروا عليه القالَ والقيل ، فكان يرتكبُ في شفاعاتِهم أَخَفَّ الضَّرَرين .

ثم لم يُفِدْه ذلك ، بل ما أَصْبَح الصُّبْحُ مِن يوم السَّبْتِ ثامِنَ عَشْرِهِ ، حَتَّى ركبوا عَلْيه مُعتَلِّين بأنه أرسل إلى الأُمراء ، آخِر يوم الخميس مَن يأمرهم بالطّلوع إليه بكرة يوم السَّبت بغير شاشٍ ولا قماشٍ ، ليشاوِرَهم في أَمْرٍ أتَاه عن قُبرس ، وذلك أنّه كان أرسل إلى بلاد الشَّام أن يُغِيثُوهم بالأَسْلحة والرِّجال ، فجمعوا مِن السِّلاح والبارود والمكاحِل وغَيْرِها ما يَعِزّ وجودُ مِثْلِه ، ثم اكترى لها نائبُ طرابُلُس مَرْكِبَ شخْصٍ مِن الفرَنج ، وأرسل معه نحو الثلاثين مِن المسلمين ؛ ليكون آمن له ، فإنّ المعهودَ أنَّ الفَرَنج لا يَغْدِرون ، فَغَدروا ، وذُهب بالمركب كما هو إلى رُودس ، فقال الجندُ : ما أرْسل إلى الأُمراء إلا لِيَقْبِضَ عليهم ، فعاجلوه هم بالرّكوب في صبيحة هذا اليوم .

فأمّا أن يكونوا جعلوا ذلك عُذْراً في الركوب عليه ، وهو الأقرب ، وأمّا أنْ يكونوا ظنّوا ذلك لِما عِنْدَهم مِن الرِّيْبَةِ ، وأمّا هو فلم يكن في شيء مِن ذلك عِند كلِّ مَن له لُبٌّ ، فإنّ مَن يريد الإقْدَام على مِثْل هَذَا لا بُدّ أن يكون قد تأهَّبَ له ، وَالْمُتَأَهِّبُ لِيُصَبِّح قَوْماً شِداداً ، لا يبيت خالِياً مِن الرِّجال .

ولَمَّا كان صُبْح يوم السَّبْت المذكور ، أَتَى جَانِبَك نَاظِر جُـدَّة إلى الأمير

بُرْدْ بَكْ دويدار السلطان الثانِي وَصِهْرِه ، وأَنْصح مَنْ عِنْده له ليركب معه إلى القلعة على ما يظهر ، وكان قد عوَّده بمثل هذه العادَةِ ، لِأَنَّه هو الذي حماه ، حين أزالوا دَوْلَتَهم ، فَلَمَّا تَوَجَّهوا إلى تجاه مدرسة حسن لَقِيَهم طائِفةٌ مِن الجند فأخذوهما إلى بيت الأمير الكبير ، وطلع طائِفَةٌ أخرى مِن باب السِّلْسِلَة ، حين فُتِح إلى صِهْرِه الآخر بَرْسْباى البَجَاسي أمير آخر ، فقبضوا عليه ، وذهبوا بهما إلى بيت الأمير الكبير ، البيت الذي أقام به أبوه الملك الأشرف إِيْنَال أَيَّام ركوبه ، وكان الملك الأشرف قد حسب هذا الحساب ، فَسَدَّ بابَه الذي إلى الرُّمَيْلَةِ ، وأحكم سدّه ، وجعل هناك دكاكِين .

ثم وكلوا بهما من يحفظهما ، وأقام دَاخِل باب السلسلة جَمْعٌ منهم ، وكذا بالأمير الكبير ، وبِقَرَاجَا الطّويل ، وَجَانَم الخَزَنْدار ، ونحوهم مِن نصحاء السلطان .

فَلَمّا سمع السُّلْطانُ بهم رَمى عليهم حَتّى بعدوا عَن الباب الذي فوق باب السلسلة ، ثم نزل إليهم بمن معه مِن مماليكه ، فهزموهم وسبقوهم إلى باب السلسلة فأغْلَقُوه ، فألقوا بأيدهم على عوائدهم عند المضائِق ، فَقُتِل منهم جماعَةٌ ، ولمّا رأوا القَتْل ؛ رَمَى بَعْضُهم نَفْسَه مِن أعلى جدارِ بابِ السلسلة ، وساعَدَه العامَّةَ .

فهزموا من كان في الرُّمَيْلَةِ ، وَلَمَ يقدروا على مُدَاناة القلعة ، بَعْد أَنْ حملوا عليها مِراراً ، كلّما حملوا ردّوهم أقبح رَدّ .

وأُخبِرتُ بَعْدُ أنّه لم يكن مع المؤيَّد مِمّن يصلح للقِتال غَيْر مائة نفس ، كان المباشِر للقتال منهم ، المُحْسِن للرَّمْي ، نحو الخمْسِين ، والباقون كِتَابِيَّة صِغار ، وأمّا أكابر مماليكه ، ومماليك أبيه ، فإنّهم نزلوا مع البُغاة .

ثم أخبرني ناصِرُ الدين بن أبي الفَرَج ، نقيب الجَيْش ، أنّه كانَ قد طَلع إلى القلْعَةِ قبل دَوَرَانِ الجُنْد أبلغَ النّاسَ وكذا كاتِب السّرِّ ، وأَنَّ هذا العَدَدَ مِن المماليك كانَ آخِر النَّهار ، وأمّا أوّلُ النَّهار ، فإنّه كان حاظِراً ، وكان مع المؤيَّد نحو أربعمائة نَفْس ، ثم إنهم انْضَمّوا إلى البُغَاةِ ، في آخر النهار وَخَذَلوه .

وَأَعْجَبَ الأمور قِصّة بَرْسْباي البَجَاسِي في خيانَتِهِ له في باب السلسلة ، وبذل جهده في البَغْي ، وأمر يَشْبُك البَجَاسي الذي وقع الشَّرُ في أوّلِ الدَّوْلَةِ على الإقطاع الذي أَخَذَه ، لما عَزَّت الوظائفُ ، وأراده الظُّرَيِّف ، وعارضَه يونُس الدُّوَيْدَار في سؤاله ليَشْبُك الفقيه ، فَرَأى السلطانُ أن لا يُرَجِّح أحداً منهما ، فَدَفعه ليَشْبُك هذا إصلاحاً بينهما ، وَظَنّـاً للخير فِيه ، فَبَلَغنِي أنّه كان في هذا الحِصار أكبَر المتولِّين له ، وأنّه كان يدور حَوْل القَلْعَةِ ، فلا يَدَع أحَداً يَصِلُ إلى السلطان بشيء ، وضيّق عليه غاية الضِّيق . فَتَبَيَّنَ أَنَّه لو ثَبَتَ معه خمسمائة ، لأبادَهم .

واستدعى الأمراءُ بعد اجتماعهم بَرْسْباي البَجَاسي ، فكان جالِساً معهم في جميع ما هم فيه ، فظنّ النّاسُ أَنّ قَبْضَهم عليه ، ما كان إلاّ برضى مِنه وَتَدْبِيْرِهِ ، لذلك ، وعَجِبَ النّاسُ مِن خِيَانَتِهِ لهم ، وهو صهرهم، وَقَد إئتمنوه على القلعة .

وحُكي بعد ذلك ، أنّه كان ينقل إليهم جميعَ ما كان المؤيّد يقوله وَقْتَ غَضَبِه مِن خِلافِ يخالِف منهم ، ونحو ذلك مِن الخيانات التي يَبْعُد فَلاحُهُ معها ، لكن الذي نقل هذا غير معتمد ، والذي يُبْعده أنّ عِيَالَه كانوا في القَلْعَةِ إلى حين القبض عليه ، وأنهم أُخْرجوا منها مُشَاة ، والعسكر في الرُّمَيْلَة ، وقاسوا جهداً جهيداً ، والعِلْمُ عند الله تعالى ، ولكن

هذا جزاء مَنِ اعتمد على الأسباب وترك مُسَبِّبَها ، فإنّ أباه كان مع سَدِّ باب بيت الأمير الكبير بَنَى سبيل المؤمِني الذي كان سبب نَصْرِهِ إحراقه بالحجر النحيت كلِّه ؛ لِئلاَّ يُحْرَق ، وَصَاهر بَرْسْباي هذا ، ويُونُس الدُّوَيْدَار وَقَيْتْباي الظّاهِري ، ورَفع منازِلَهم ، وجرّأ مماليكَهم على الأمراء وغيرهم ، وأكثر الإحسانَ إليهم ، وهذه أسبابٌ وثيقةٌ لو صَحِبَها طاعَةُ الله، لكنّه لمّا كان لا ينظر إلى جانِب الله ، جعل جميع تلك الأسباب عليه وَأَزال دَوْلَتَه في يَوْمٍ واحِد ، بمن لم يقع قَطُّ في خاطِر أَحَدٍ أنْ يكونَ سلطاناً كما سيأتي .

وما قَرَّب أَنَّه كان مع البُغاةِ باطِناً أَنَّ المؤيَّد قدَّم عليه ابنَ مُرْضِعَتِه في الأصطبل ، بحيث لم يبق له معه كلام ، وقدّم أُخْتَه مِن الرَّضاع على أُمّه ، وأراد طَرْد أُمّه مِن القَلْعة ، وفتَح لِلْبَزَادِرَةِ ، (وهم أصحابُ الطيور الصائِدة) باباً يدخلون مِنْه إلى داخل قاعاتِ الحريم ، وكان النّاسُ يتحدَّثون أنّ به أُبْنَة ، وأنَّ تقريبه لهم على كافَّةِ النّاس لذلك ، فَلَمّا رأى مُدَبِّرو دَوْلَتَه هذه الأفْعَالَ أبغضوه ، فخلوه ورأيه ، والله أعلم بصحّة ذلك .

ولمّا رأى البغاة ذلك ....[1] مِن المؤيَّد ، أرادوا تأليف العامَّة ، فدار الوالِي إِيْنَال الأشْقَر ، يُنادِي بالأمان والدّعاء للملك الظاهِر خُشْقَدم ، وهو الأميرُ الكبير ، ثم تنازعوا فيه ؛ فإنّه رومِي ، وذكروا غَيْرَه مِن الأَشْرَفِيّة فما وافق عليه الظاهرية، وذكر الظاهرية من لم يوافقهم عليه الأشرفية ، فسألوا شَرِباش أمير سِلاح ، فامتنع منهم أشدّ امتناع ، وقال : أنا لِي وَلَدٌ فَلاَ أكُونُ سبب شقَائِه ، فلم يجدوا بُدّاً مِن الأمير الكبير ، فحمله حُبُّ الرِّئاسَةِ على الموافَقَةِ ، ولو تأَمَّلَ ، لَعَلِمَ أنّ القِياس يقتضي أنهم لا يُبْقُونَه ؛

(١) كلمة غير واضحة الرسم لم نجزم بتصحيحها .

فإنّه ليس للمؤيَّد عنهم ذنب إلاّ أنّه غير شَرْكَسِي ، اللهم إلاّ أن يَنَضَمّ إلى ذلك ولادَتُه في الأسلام .

وأرسلوا لى الخليفة [(١)] ، فاختفى ، فلم يقدروا عليه ، وأرسلوا إلى القضاة ، فلم يجبهم منهم أَحَدٌ إلاّ العَلَم صالح قاضِي الشافِعِيَّة على عادَتِهِ في الإسْراع إلى الفساد ، ثم تبين أنَّ الحنفي والمالِكي تَبِعاه ، فلم يتخلَّف غَيْر الحَنْبَلي ، وهو العزُّ بن نصر الله جزاه الله خَيْرَاً .

ثم تبيَّن أنّ ركوبهم كان عن ممالأة مِن أمير آخور ، فإنّهم لما وصلوا به إلى بيت الأمير الكبير أطلقوه ، فكان معهم في جميع ما هم فيه ، وتبيّن أن الأمير الكبير لم يكن عالِماً بركوبهم في هذا اليوم ؛ وذلك أَنَّ الأمير بُرْدْ بَك حدَّثني أنه أتى إليه جانِبَك الظاهري ، المعروف بناظر جُدَّة ، وكان مِن أمكر عبادِ الله ، وأحدهم ، وأعلاهم هِمّة ، وكان بُرْدْ بَك في غاية النَّفْع له ، فلم يدعه يُنْكب ، حين زوال دولتهم ، وولاية الأَشْـرَف ، بل زادَه خَيْرَاً ، ولم يزل يساعِده على الزِّيَادَةِ إلى آخِر وقت ، قال : فأتى إليَّ : فركبت معه ظَنَّاً أنّا نطلع إلى القَلْعة على العادَة ، ثم لقيهم ناسٌ ، فعطفوا بهم إلى بيت الأمير الكبير ، قال : فَلَمّا دَقُّوا عليه البابَ ، طلع بعضُ جماعته على وَجْهِ الباب ، وَرُجِمْنا ، فأتتني رَجْمَةٌ كادَت أن تقتلني ، فإنها مَرَّت عن وجهي ، فكادَت أَنْ تُلاَصِقَه ، ثم سَفَلت فأصابَت لَحْمَ فَخذِي ووقى الله شرّها .

ثم دام الحربُ بين السلطان وبينهم إلى المغرب ، وتبيَّن أنّه ما كان معه إلاَّ جَمْعٌ قليل جِدَّاً ، وأنّ غالِب مماليكه ومماليك أبيه نزولا مع البُغَاة رجاء السَّلاَمة والأَمْن على الأرزاق ، وما أبعدهم مِن ذلك ، ولم يكن معه أميرٌ واحد، ولم تكن شوكتُه إلاَّ بالزُّعْر ، وكان منهم عبدُ ابن إيْنال، فعمل ماتحدَّثَ

---

(١) كان في هذا الوقت المستنجد بالله يوسف بن المتوكل على الله أبي عبد الله محمد العباسي . «النجوم الزاهرة» (١٦/ ٩٠، ١٩٤) .

به الناسُ [٢٧٣] [ورُدّ] (١) البغاةُ غَيْر مَرَّةٍ وأرسل البغاةُ إلى السلطانِ يقولون له : «لا تُطل ، نحن لا نرضى بك أبداً ، فإن كنت تريد السَّلامة فاذهب حيث شئت» فأنت آمِنٌ على نفسك وَمَن معك . فقال : إنّي لا أَفْعل ، وسَلْهم ما سبب ما فعلوا ، إن كان لشيء كرهوه مِنّي أَزَلْتُه ، وإلاّ فَعَفَا الله عمّا سلف ، وأنا أُنْفِقُ عليهم نَفَقَةً يرضون بها ، ويكون كلُّ أحَدٍ على ما هو عليه ، فلم يُجيبوه إلاَّ بالحرب ، وقالوا : إنَّ هذا لا يَصْفوا لنا أبداً ، وقد تأكّدَت الضَّغَائِنُ ، وانتهكوا حُرْمَةَ شهر رمضان ، مع البغي وسفْك الدِّماء بالأكل والشرب نهاراً جهاراً ، ولم يدعوا فِعْلاً يُوجِب الخذلان ، مِن نكْث الأَيمان ، والبَغْي ، وغير ذلك إلا ارتكبوه ، غير أنّ السلطان أيْضاً طرأت منه على ما قِيل أمورٌ أَوْجَبَت خِذْلانه ،فقيل : أنه وَعَد عَبْدَ ابن أَيْنال أن يُعطيه شيئاً سماه ، فلم يفِ له به ، وكان كلَّما أتاه أَحَدٌ مِن العامَّة قد جُرح يعطيه عطاء نزراً ، ورمى أهلُ المدافع فأجادوا ، ووعدهم فلم يُنْجز ، وكان يُمَنِّيهم بالخير إذا وقع النَّصْرُ ، وطلب منه المماليكُ لبوساً من الزَّرْدْخانَةِ ، فلم يجبهم ، وقال : لكل مِنكم لبسٌ ؛ فانْفَلَّ عن النَّاسُ ،

ونزل نائبُ القلعة خَيرِ بَك ، الذي كان والِياً ، فقال للبغاة ما مُكْثكُم ها هنا ؟! قوموا إلى القلعة ، فما دونكم حائل ، وكان المؤيَّد قد حَبَس جماعةً مِمَّن هَجَم على باب السلسلة ، فأطلقهم خَيرِ بَك ، ونزل بهم ، فذكر الناسُ بخيانَتِهِ ، وَفَاء يونُس العلائي لمّا كان إينال العلائي راكِباً ، استمر ثمانية أيّام لا يبدو منه مَيْلٌ لإيْنال ، مع أنه لم يكن يُعْرَف إلاّ بأخيه ،

---

(١) ما بين الحاصرتين لم تكن في أصل المتن ، وإنما ذُيِّل بها آخر الصفحة للدّلالة على الكلمة التي تبدأ بها الصفحة التالية ، فأضفناها إلى الأصل حتى يستقيم السياق .

حتى كان كثيرٌ مِن النّاس يظنّه أخاه حقيقة ، فلمّا وَلِيَ إِيْنالُ ، ولاّه نيابَة إسْكندرية ، فقال له : عَجَباً تَأْتَمِنُني وأنا عدوك أقاتلك ثمانِية أيام . فقال: ولهذا أئتمنتك ؛ لِأنّك نصحت السلطانَ ، ونِعْمَ ما فعلت .

وشاع أن مَوَقِّعَه ، البرهان الأَبْناسي [1] تَزَياً بزيّ العرب الهجَّانَةِ ، وذهب إلى البُغَاة ، فقال للأمير الكبير : أَنَّ نائب الشام جَانَم جاوَزَ الخانْكة ، فقوموا إلى لقائه فكادوا أنْ يضطربوا ، ثم إن شخصاً منهم عَرَفه، فأُهين وأُمر به إلى السّجْن ، ثم تبيّن كَذِب ذلك .

وَحُدِّثْتَ عنه أَنَّ أَصْل ذَلَك ، أنّ المؤيّد أرسله إلى الأمراء ، يسألهم ، ما الموجِب لركوبِهِم ، ويأمرهم بتقوى الله ، والرجوع إلى الطّاعة ، فأهانوه ، وأمروا بتعْوِيْقِه في المكان الذي فيه الأمير بُرْدْ بَك ، وقَرَاجَا الطّويل ومَن معهما مِن جماعَةِ السلطان، وأخْبَر أَنَّ أكبر المُحاجِجين له كانَ الأمير بَرْسْباى أمير آخور ، ونَسَب إلى السلطان أنّه صَنَع قيوداً للأمراء وغير ذلك مما يوغِر الصدورَ ، فزاد العجبُ مِن ذلك ، فإن صَحَّ هذا الخَبَرُ ، دّل على أَنَّ قَبْض البغاةِ عليه إنما كان باتّفاقٍ منه ومنهم وَرِضى ، مع إمكان أنْ يكون قال ذلك يرضيهم به ، ليدفع عن نَفْسِه وصهره .

قال الناقِلُ إليّ : قال البرهانُ : ثم إنّي تَلَطَّفْتُ بمن أعرفه مِن الجند إلى أنْ خَلَصْتُ ، وَرَدَدت على المويَّد الخبرَ .

---

(١) هو : إبراهيم بن على بن أحمد بن محمد بن أحمد بن يزيد ، برهان الدين الطائي الأبناسي الأصل الخُنَاني القاهري الشافعي ، المعروف بالأبناسي ، ولد بأم خُنَان من المنوفية ، وقدم القاهرة ، واهتم بمعرفة الفرائض والحساب ، وجوَّد الخطَّ ، وتكسب بالشهادة ، وباشر التوقيع ، واختص بالتوقيع عند المؤيَّد أحمد ، مات في جمادي الآخرة سنة ٨٧٣هـ ، وقد جاوز الخمسين .

له ترجمة فى « الضوء اللامع » (١ / ٨٢) .

وحدّثني الأميرُ بُرْدُبَك أنَّ سبب اجتماع الكلمة على بُغْضِه أمران : أَعْظَمهما أنَّ أكابِر الأمراء كانوا يقفون بحضرته الزَّمَنَ الطويلَ لا يُكَلِّمهم كلمةً ، ولا يُقيم لهم وَزْناً ، الثاني أَنَّ كلَّ طائِفةٍ مِن الظَّاهِريَّة والأشْرَفِيَّة كانت تريد أَنْ يُرَجِّحَها لتهلك عدواً ، فلم يفعل .

واستمر كاتب السّر في القلعة إلى قِرب العصر لا يَقْدر علي الخلاص ، فلَّما تبيّن له أنَّ المؤيَّدَ مأخوذٌ أَعْمَل الحِيْلَة إلى أَنْ نزل مِن باب المُدَرَّج ، فلما كان قريباً مِن تربة قانِبَاي الشَّرْكَسي ، لقِيته طائِفةٌ مِن الجند ، فضربه أحَدُهم بالسَّيْف على عمامته ، فقطع منها شيئاً ، وصَوَّب له آخر برمحٍ ، فقال لهم : ما الذي فعلت مما يوجب هذا ؟! ، فَرَدَّ بعضُهم بَعْضَاً عنه ، ثم أَتَوا به إلى بيت الأمير الكبير ، فَسَلَّم وجَلَس ، فقال قَانَم طاز : ما تنتظرون بهذا المنافق ؟ اقتلوه . قال : فقلت : على أيِّ شيء ؟! لم أفعل إلاّ ما يجب عليَّ ، طلعت إلى الخِدْمَةِ على عادَتِي ، فَعُوِّقْت ، ثم نزلت حِين قدرت . فقال لي الأمير الكبير : لا تردّ عليه ، فَسَكتُّ وكفَّه الله تعالى وله الحمد .

وأرسل المؤيَّدُ إلى الشَّرفْ الأنصارِي (وكان شديد العَنِايَة بِهِ ، والكفّ للأذى عنه ، لمَّا قصده أبوه وأمُّه بالأذى كما تقدَّم) وَرَقَةً يسأله فيها أنْ يُكَلِّم جانِبَك ناظِر جُدَّة في هذا الأمر ، ويستعطفه . قال : فساءني الدّخول في مثل هذا الأمْر ، فأرسلت إلى جانَبِك وَرَقةً أذكر له فيها ذلك ، فأرسل : بأنَّ هذا الأمر لا يكون ، ولم يبق في رجوع الجند عنه حِيْلَة أَصْلاً ، قال : فأرسلت إلى المؤيَّد بكرة يوم الأحد ، أُعْلِمه بذلك ، فأَخْبَر بعضُ مَن حَضَره أنّه لما قَرَأ الورَقَةَ بكَى ، ثم إنَّه رَكِب فَرَسَه ، وذَهَب كما سيأتي ذلك .

ثم أخبرني القاضِي ، كاتِبُ السّر ، المحب بن الشِّحْنَةِ ، أنّ الشَّرَف هذا ، وعيسى الغندور المغربي ، والأمير بُرْدُبَك ، كانوا مِن أعظم الغارِّين للسلطان عن أَخْذِ الأُهْبَة لِمَن يكيده ؛ فإنّه كان كلَّما سمع خَبَراً يسوؤه عن اتفاقهم عليه يقول له الأميرُ بُرْدُبَك : لا تسمع هذا ، فإنَّه باطِلٌ قطْعَاً ، وكلما يأتِي من الأشْرفِيَّة فهو مِني . ويقول له كل يوم : كنت البارِحة أنا والشيخ عيسى ، والقاضِي شرف ، وقالوا عن الفقير الفلاني ، والمُنَجِّم الفلاني أنّك منصورٌ ، وأنّ مَن بغى عليك قتيل ، وأنّك لاتكترث بهم أَصْلاً ، ونحو هذا الكلام .

قال : ونُقِل إليَّ مِن أوْجه صحيحة أنّ شَرَف الدين كان يقول لأكابر الجند ارْكبوا ، وأَنَا ، والشيخ عيسي نذهب إلى المؤيَّد ، فندعه يسلّم الأمْرَ إليكم ، ونأتيكم بالنمشا ، والتّرسْ [1] . قال : وكذا كان ، فإنّ الشَّرَف هو الذي أتاهم بالنَّمْشَا والتّرس يوم الأَحد المذكور .

فـإن كان الأمير بُرْدُبَك ، كان يقول هذا ، وهو عالِمٌ بخِلافه ، فقد صـَحّ أنّ الكـلَّ أطْبَقُـوا عــلى خـذلان المـؤيَّد ، ولم يثبت أحـدٌ على نصـحـه أصلاً ، وسيعلم الذين ظلموا أيّ منقلبٍ ينقلبون وبات كلٌّ في مكانه ، والنّاس في دعاء ما مثله شيء كلهم على كلمة واحِدة ، حَتى الأطفال والنساء ، ولم أر ضعيفاً إلا يدعو له بالنّصر ، لِما رأوا في أيّامِه مِن الأَمْنِ ، ومِن كَفَّ شَرِّ الجند عنهم ، فـلم أشـك أنه منصورٌ ، لقول النبي

---

(١) التّرس : من السلاح المتوقَّى به .

« كتاب السلاح » (٣٠ ـ ٣١) ، و« المخصص » (٦ / ٧٤ ـ ٧٥) ، و« لسان العرب » (٧ / ٣٣٠) ، و« نهاية الأرب » (٦ / ٢٣٩ ـ ٢٤٠) .

ﷺ : « إنما تُرْزَقُون وتُنْصَرُون بِضُعَفائِكم» [1] . ولأنَّ البغاةَ ليس لهم في بَغْيهم عليه شُبْهة أَصْلاً .

فلما أَصْبح صبحُ يوم الأحد [2] ، زحفوا عليه ، فقاتلهم بمن معه ، فردُّوهم ، ثم تراجعوا يَقْدُمهم عبدُ ابن إيْنال ، ليمحوا ما فَعَل بهم بالأمْسِ ، فلم يكذّب عن باب السلسة ، فأَغلق من كان هناك البابَ ، فأحْرَقه عبدُ ابن إيْنال .

وتبين أن عَدَم إجابة الدّعاء ، لقول النبي ﷺ : « لتأمُرُنَّ با لمعروف ، ولَتَنْهَوُنّ عن المنكر ، أو لَيُسَلِّطَنَّ الله عليكم شِرارَكم ، ثم يدعوا خيارُكُم ، فلا يَسْتَجيبُ له » [3] وذلك أنّهم جعلوا شكر نعمة الأَمانِ على النَّفْسِ والعِرْضِ والمالِ الانهماكَ في المعاصِي والخلاعَةِ ، حتَّي أنّهم كانوا يعملون في هذا الشهر الشريف مِن الفساد في القَصَبَةِ ، بعد العشاءِ مِن الفساد باجتماع النّساء والرّجال والأحْداث ما يزيد عن الوصف .

ولمّا رأى السلطان أَخْذهم للباب على هذا الوَجْه ، رَكِب فَرَساً ، ثم طلع إلى الحوش ، فنزل به ، وَدَخل إلى البَحْرَةِ ، فأرسلوا من توكّلَ به ، وأخذوا أخاه محمداً وسنّه دون العشرين فأتوا به إلى البَحْرَةِ ، فوضعوه عِند أخيه ، فتبعتهما أمهما ، تقول ما بقي إلاَّ العفو ، ويُقال أَنَّها عَثَرت ، فوقعت ، وقـال غالِـبُ الناس طالما تجبَّرتِ عـلى عِباد الله ، وَرَدَت حُكْمَ الحكَّام إليك. وكانت إذا لُـوِّح لها بشيء مِـن العواقِب تقول: نحن لانفعل فِعْلَ مَنْ مَضَى من أولاد الملوك بل نقاتل إلى أن نموت، أو ننتصر،

---

(١) أخرجه (البخاري) في « صحيحه» (٥٦ كتاب الجهاد والسير ـ باب ٧٦ من استعان بالضعفاء والصالحين في الحرب/ ج ٣ ص ٢٢٥) بلفظ : « هل تنصرُون وتُرْزَقون إلاَّ بِضُعَفَائِكُم » .

(٢) تاسع عشر رمضان سنة ٨٦٥ هـ .

(٣) سبق تخريجه في « هامش ٢ » من (ص ٢٤٢) من القسم الثاني .

أو نركب الهجن ونسير في بلاد الله الواسعة ، فلما أتى أمرُ الله ، ذهبت تلك العزائمُ ، ولانت تلك الشكائم [1] ، بعدم التعلّق بالملك القدير ، بانعدام شَرْطِه مِن التعّرف إليه في الرَّخاء .

ثم إنّ بعض خدَّام الظَّاهِر ، يقال له : خُشْ قَدَم ، لا لا المنصور وشاهين غزالي ، قالا : لابُدَّ مِن أنْ نُقَيِّدهما . فقيل لهما : لا تَفْعلا فتصير سُنَّة ، فقالا : أَنَّ أَباهما قيَّد المنصور ، فقيل : ليس كذلك ، فقالا : لابُدّ أن نفعل . فقيَّدَاهما . والحال أن أباهما رَفِق بجميع مَنْ قبض عليه غايَةَ الرِّفْقِ ، وما عنَّف أحداً منهم ، ولا أسمعه كَلِمةً يكرهها ، ثم إنه لم يقتل أحَدَاً ، وفرَّج عنهم عَن قُرْب وخَوَّلهم [2] في النِّعَم ، ولا عامَلَه بالانتقام ، وردَّ كثيراً منهم إلى القاهِرَة ، ولم يدع جهداً في تثبيت دولة ابنه ، فنصَّبَ مِن الأسباب ما يَبْعُد معه نَقْضُها ؛ صاهر بَرْسْباي البَجَاسي ، ويونُس الدُّوَيْدار المؤيَّدي ، المشهور بالبَوّاب ، وقَيتبَاي مِن الظاهريَّة ، وسدّ بابَ الأمير الكبير ، الذي يلي الرُّمَيْلَة ، وأَحْكم سبيل المؤمِني ، فجعله كله بالحجر النحيت ؛ لئلا يُحْرَق وَقْتَ الحِصار ، كما فُعِل له ، ولكنّه لمَّا أغْفَل مراقَبة مُسَبِّب الأسباب خذل ولده .

ولقد كنتُّ أقول هذا في أيَّامِه ، وأنه يوشك أن يُزيَل الله دَوْلَةَ وَلده في أسرع وَقْت لإحْكَامِه الأسْبَاب مع إعْراضِه عن النَّظر إليه سبحانه .

[٢٧٤] ثـم أحضـروا القضـاةَ ، وخلعـوه ، وبايَعـوا الأمير الكبـير خُشْقَدم ، وسمـعت أنَّ المُسْتَـنَد في خلـعه شهـادَةُ بعـضهم بـأن البلادَ

---

(١) الشكائم : شدة القلب ، والأنَفَةُ والإباءُ .
« المعجم الوسيط » (١ / ٤٩٢) .

(٢) خَوّلهم : أي أعطاهم إياها متفضّلاً .
« المعجم الوسيط » (١ / ٢٦٢)

فَسَدَت في أيَّامه ، وأنّه كان عاجزاً عن تصريف الجند ، وذلك مِن أبْيَن الكَذِب ؛ فإنّي لم أر الجندَ أكفَّ منهم عن الفساد في أيَّامِه ، فلم يكن أحَدٌ منهم يَعْرِض لأحدٍ مِن النَّاسِ بشيء مِن الفساد ، وأكثر البلاد صَلُح في أيَّامِه ، بغير أسْبابٍ مِنْه ، وما حَدَث فيه شيء ندبهم إلى إزالته فلم يسمعوا له ، فما كان الفسادُ إلاّ منهم .

ولقَّبُوه الظاهِر ، وكَنَّوه بـأبي السَّعَادات ، بَعْد اختلاف منهم ، وَفِعْل ما يدل على خُبْث البواطِن ، وذلك جانِبَك الظاهري ناظر جُدَّة ، وجانِبَك شادّ الشَّرَبْخَانَةِ [١] وجانِبَك الظُّرَيِّف الأشْرَفِّيان ، نزلوا إلى بيوتهم ، قبل البَيْعَةِ ، فَعُرِض عليه الأَمْر ، فأبي أن تَقْبَل إلاّ بحضرتهم ، فأُرْسِل إليهم ، فلم يأتوا إلاّ بعد جهد ، وَصَرَّح بعضُ الجند بالخلاف ، وقال بعضهم دعوا الإِمْرَة الكُبْري ، حَتَّى يأتِي نائبُ الشَّام جَانَم ، فَيَلِيهَا، فإنّ الجميعَ كاتبوه ليأتِي ، فأبى السلطانُ ذلك ، وَوَلَّى أَمْرَها لشَرِبَاش ، وترك غيرها .

وكان سِنُّ المؤيَّد إذْ ذَاك ثلاثين سَنَة ، تزيد قليلاً ، فإنّ صِهْرَه الأميرَ بُرْدْبَك أَخْبَرني أنه وُلِد بِغَزَّة ، لمَّا كان أبوه نائبها ، قبل توجُّه الأشرف سنة ستّ وثلاثين [٢] إلى آمِد [٣] ، وكان ذا بَسْطَةٍ في الجسم ، طويلاً ، قَلَّ

---

(١) الشَّرَبْخَانَة : بيت يشتمل على أنواع المشروب ، من المياه وخلافها ، والسّكّر ، والحلوى ، والفواكه، والعقاقير ، ولها مِهْتَارٌ وعِدَّةُ شرابداريَّة . وكانت عادتها طبلخاناة ، ثم استقرَّت تقدمة ألف .

« نهاية الأرب » (٨ / ٢٢٤ ـ ٢٢٥) ، و« صبح الأعشى » (٤ / ٢١) ، و«زبدة كشف الممالك » (١٢٤) .

(٢) وثمانمائة .

(٣) آمِد : من أعظم مدن ديار بكر ، وأشهرها ذِكراً ، تقع علي جبل من غربي دجلة مطلّ عليها من نحو خمسين قامة .

« سفر نامة » (٤٢ ـ ٤٣) ، و«صورة الأرض » (٢٠١ ـ ٢٠٢) . و«معجم البلدان » (١ / ٥٦) ، و«بلدان الخلافة الشرقية » (١٤٠ ـ ١٤٣) .

أنْ يكون في الجند مـن يساويه في الطُّول ، عـلى أنَّه في طولـه حَسَنٌ ممتلىء الجِسْم ابْيض بسُمْرَةٍ ، أقْنَي (١) الأنْف ، حسن الوجه ، حلو الحديث ، ثاقب الفَهْم، يغلب عليه التأنِّي في الأمور ، وله مع ذلك مهابَةٌ ظاهِرَة (٢).

وبسط الجندُ أَيْدِيَهم في العامَّةِ ، وقطع السلطانُ يَدَ واحدٍ منهم ، وأمر به إلى المقْشَرةِ ، يُنادى عليه ، هذا جزاء من يَمُدُّ يَدَه إلى الجند .

وترك الأمير بَرْسْباي البَجَاسي على وظيفته ، وتَسَلَّم صِهرُه الأمير بُرْدْبَك ، فجعله في قاعتِهِ في باب السلسلة ، وكذا قَرَاجا الطويل ، ووعدوهما بخير ، واتهم النَّاسُ حينئذٍ بَرْسْباي ، بأنه كان مُباطِناً للبغاة ، وأنّهم ما تمكَّنوا مِن القبض عليه إلاَّ عَن مُوَاعَدة بينهم ، وذَمَّه النَّاسُ لذلك ، وقالَ بَعْض من له خِبْرَة : أنَّ سلامَتَه ، إنما هي لكونه شركسِيّاً ، وله منهم أصدِقاء ذَبُّوا عنه .

وأسِفَ النّاس على ما كان يفعل بُرِدْ بَك مِن الخيْر : مِنه لجامع الأزْهَر ، في كلّ ليلة ألف رغيف غير الطبيخ ، ومنه للحُبُوس ، ومنه مجلس سماع البخاري في بيته كان يجتمع به مِن الفضلاءِ مَن يحصل به إثارَة فوائِد ، يفتح الله فيها بما لم يُوجد في غَيْرِهِ ، فإن كان ذلك لله ، فَقَد فاز ، لكن الذي يَرْشَح ، أنّه رِياء وسمعة ؛ إنه قطُّ ما أقام على صَدَقَةٍ مِن ذلك أميناً صالِحاً ، بل كان الذي يُقِيمهم مِن شَرِّ العباد ، وكذلك خواصُّه الذين يألفهم ويأنَس بهم ، وأحَبُّهم إليه مَن لَوْ رآه يكفر ما نَهاهُ عن كُفْره إلى غير ذلك مما يبدو عَلَى فلتات لسانِهِ وصفحات أفعاله .

---

(١) أقنى الأنف : ارتفع أعلاه ، واحدودب وسَطَهُ ، وسبغ طرفُه وسط قصبته وضاق منخراه . « محيط المحيط » (٧٦٠)، و « المعجم الوسيط » (٢/ ٧٦٤).

(٢) راجع تفاصيل هذه الأحداث في : « حوادث الدهور » (٣٩٥ ـ ٣٩٧) ، و « النجوم الزاهرة » (١٦ / ٢٣١ ـ ٢٥٢) ، و « بدائع الزهور » (طبعة بولاق) (٢ / ٦٩) ، و « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٩٣ـ ٩٤).

وحصل الأسف أَيْضاً على أنّه لم يُكْمل أمْرَ مدرسته الّتِي برحبة الأَيْدَمُري ، والرّباط الملاصِق لها ، والعمارة التي تليها ، وتتعَلَّق بهما ، غَيْر أنهم كانوا يذمّونه ويتمنون زوالَه ؛ لتقريب عيسى المغربي ، المشهور عِند المغاربة بالغندور ، لما يَظْهر مِنه مِن الزَّنْدَقة وغيرها مِن أنواع الفساد ، ومِن ذلك أنه زيَّن لبعض الناس أنه يربي الأَيْتَام لله ، فأحْضروا له بناتٍ إلى أنْ اجتمع عنده نحو العشرة ، فشاع عنه إلى أن سد الأُسْمَاع أنه يُحكِّك لهنّ ، ويأتِي بَعْضَهُنّ مِن ورائِها ، ثم أنّه افْتَضَّ واحِدَةً مِنْهنّ ، قبل الرُّكوب بيومٍ أو نحوه ، ثم أَرْضى أهْلَها ببعض الدُّنيا التي كان يعطيه إيّاها بُرْدْ بَك ، ثم افتض أخرى كما ذُكِر لي عن ابنة عيسى ، ثم صَحِبَه بواسطته جندٌ ، منهم جانِبَك ناظر جُدَّة ، وقصدوا بذلك أموراً ، منها الاطِّلاع على سِرِّه منه ، فَزَيَّن لناظِر جُدَّة السَّلْطَنَة ، وَوَعَدَه بها ، فدخل في ذِهنه مِن ذلك ما حمله على أنْ كان أعْظمَ الأسبابِ في هذا الرّكوب ، مع أنَّ الأميرَ بُرْدْ بَك نُصِح في هذا غَيْرَ مَرَّة ، وقيل له : ما يفعل مع جانِبَك وأمثالِه فلم ينته ، مع حُسْنِ عَقْلِه ، وأصالَةِ رأيه ، وثُقُوب فِكْره ، فما ذاك إلاَّ لِأنّ العليم القدير قضى بأن كُلَّ عِبادِه مقهورون تحت مُرَادِه ، ولا يزالون مختلفين إلاّ مَن رَحِمَ ربُّك ، ولذلك خلقهم .

وفي يوم الاثنين تاسِع عشر الشهر ، وقع الكلامُ في الإقطاعات والنِّزاع وكثر الخِلَافُ ، حَتّى كاد يكون شرٌّ .

وفيه ذهَبَ يَشْبُك خَزَنْدار المؤيَّد ، حين كان أتابك العساكِر إلى الأمير يَزْبُك ، فاستجار به ؛ خَوْفاً مِن أنْ [٢٧٥] يُضرَب ، لِيُقِرَّ على أموال

المؤيَّد ، وأخْبَره أنّه لا يَعْرِف له إلاّ حاصِلاً واحداً ، ودلَّهم عليه فإذا فيه مِن النّقد ما يقارب مائة ألف دينار ، ومِن الصِّيني والأمْتِعة شيء كثير (١).

ونمَّ بعضُهم على إمامَيْه : حسن السنباطِي الكتبي (٢) ، وعبد القادِر بن أبي الفتح (٣) بن الشيخ شمس الدين محمد الحجازِي ، وعَلَى التّاج الإخْميمي (٤) ، وكان انضمّ إليه في حجته بالمزح والسُّخْرِيًا ، فقيل : أَنَّ عِنْدَهم مالٌ ، فأُخِذُوا به ، فإذا هو ثلاثون ألف دِيْنار ، عِند كلٍّ منهم عشرة ، ثم قِيل أن عِند الإخْميمي أكثر ، فَرُسِم عليه ، فَحَلفَ أنّه ليس عِنده غير ذلك ، وأنّه كان عِنده غيْرَه ، فَرَدَّه وأشهد على المؤيَّد ، فأفْلَت .
وقُبض على يوسِف بن رسْلان ، وعلى ناصِر الدين بن أصيل ، فقيل لهما :

---

(١) راجع «النجوم الزاهرة» (١٦/ ٢٤٨).

(٢) هو : حسن بن علي بن معين ، البدر السنباطي ثم القاهري الكتبي الشافعي ، إمام المؤيَّد أحمد . ولد سنة ٨٣٧هـ تقريباً ، حفظ كتباً كثيرة ، وقرأ القراءات ، خدَمَ إينال وحظيَ عنده ، انجمع بعد موت الأشرف ثم زوال دولة ابنه المؤيَّد ، ولزم الذكرَ والتّلاوة ، مات في العشر الأخير من ربيع الأول سنة ٨٨٥هـ .

له ترجمة في «الضوء اللامع» (٣/ ١١٨ رقم ٤٥٢).

(٣) هو : عبد القادر بن محمد بن محمد بن محمد بن أحمد محيي الدين بن أبي الفتح بن الشمس الأنصاري الحجازي الأصل القاهري ، المعروف بابن الحجازي . ولد بعد صلاة الجمعة في العشر الأخير من ذي القعدة سنة ٨٣٩ هـ ، وحفظ القرآن ، وأخذ من عدة فنون : الفقه ، والنحو ، والأدب نظماً ونثراً ، وكتب الخطَّ الحسن ، وباشر التوقيع ، أمَّ بالمؤيَّد أحمد في سلطنته ، كما أمّ بوالده الأشرف إينال في إمرَته ، مات في دمشق بخلوته من زاوية الشيخ خليل القَلْعي في ١٢ ربيع الأول سنة ٨٩٣هـ .

له ترجمة في «الضوء اللامع» (٤/ ٢٩٤ رقم ٧٨٣).

(٤) هو : محمد بن إبراهيم بن التاج عبد الوهاب ، عَلَى الأكثر ، أو الجمال عبد الله ، تاج الدين الأخميمي الأصل القاهري الشافعي ، المعرف بالتاج الأخميمي ، ولد يوم عاشوراء سنة ٨٠٤هـ بالقرب من بركة الرطلي من القاهرة . أخذ عن عدد من علماء مصر في عدة فنون . ناب في الحسبة والقضاء ، وجمع ثروةً كبيرةً ، ومات يوم الخميس ٢٩ رمضان سنة ٨٩١هـ بالقاهرة .

له ترجمة في : «الضوء اللامع» (٦/ ٢٥٨ رقم ٨٩٣).

ساعدا السلطان في النَّفَقَة ، وقيل : أنه كان يسيء مرافقة خُشْقَدم في نظر المَرْسْتان وأنَّه أمر بنهب خَيْلِهِ ، وكان يقتني الخيلَ الجياد ، والظاهر صِحّةُ ذلك ؛ لِأنَّ ذلك كان دأبه مع كلِّ مَن يرافِقه في شيء ، فهو ثقيلُ العِشْرَة ، كما أنَّه ثقيل البَدَن ، فإنّه مفرط في السِّمَن . ثم قُرِّرَ على ابن أصِيل ثلاثة آلاف دِيْنَار ، وعَلَى ابن رسلان ألف وأُطْلِقا .

واختفى علي بن خليل بن خَصْبَك ابن خال السلطان المؤيَّد ، وكان أقربهم إلى الفِتْنة ، فإنّه كان يُتّهم بأنَّ جميع مال الأشْرَف وزوْجته في بيوتِهِ ؛ فإنها مع كَوْنِها أوطانهم قديماً في غايَةِ الحصَانَةِ عِند المدرسة السابقية داخل دروب كثيرة ، وفي ظهرها قصر بشتك والحجازية ، ثم أصلح أمره صِهْرُه الأميرُ قَيتْبَاي الظاهري ، ثم كان كلَّما أُغْرِيَ السلطانُ عليه ، فأراده بسوء ، طلع معه قَيتْبَاي ؛ فيكف عنه .

وَرُسِم للأميرين قانِبَاي الشَّرْكَسي ، وتَنَم المؤيَّدي أن يُطْلَقا إلى دمْياط ، وشاع أنَّه رُسِم بإطلاق العزيز يوسف بن بَرْسْباي (١) ، والمنصور عثمان بن جَقْمَق مِن محبسهما إلى منازل ينزلان بها في المدينة (مدينة إسْكندرية)

---

(١) هو : يوسف بن برْسْباي العزيز الجمال أبو المحاسن بن الأشرف الدقماقي الظاهري الأصل القاهري . ولد بقلعة الجبل في إحدى الجماديين سنة ٨٢٧ هـ ، وتسلطن بالديار المصرية بعد موت والده في آخر نهار السبت ١٣ ذي الحجة سنة ٨٤١ هـ ، ولم تطل أيّامُه وخُلِع بالظاهر جقمق العلائي في يوم الأربعاء ١٩ ربيع الأول سنة ٨٤٢ هـ ، ثم وقعت له أمورٌ ومحن ، وفرّ واختفى حتى ظُفِر به وحَبَسه الظاهر جَقْمَق بالدور السلطانية ، ثم بعثه إلى سجن إسكندرية ، وحُبس بها إلى أن أطلقه الملك الظاهر خُشْقَدم ، وسكن بدارٍ في الأسكندرية إلى أن مات بها يوم الاثنين ١٩ محرم سنة ٨٦٨هـ.

له ترجمة في : « الدليل الشافي » (٢ / ٧٩٩ رقم ٢٦٩١) ، و « النجوم الزاهرة » (١٦ / ٣٢٦ - ٣٢٨) ، و « الضوء اللامع » (١٠ / ٣٠٣ رقم ١١٧٤) ، و « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (١٣٤).

يتصرّفان في أرجاءِ البَلَدِ ، كيف أرادوا ، ولا يخرجان منها ، ولم يثبت ذلك إلى الآن ، ثم ثبت وعمل كما يأتي .

وفي بكرة يوم الثلاثاء العشرين [١] مِن الشهر ، لبس الجندُ السّلاح ، ونزلوا بالمؤيّد أحمد وأخيه محمد ، وقَرَاجَا الطويل ، مقيّدين إلى بولاق ، فأنزلوهم إلى المراكِب ، وجَهَّزوا معهم مَن يحفظهم إلى إسكندرِيَّة ، ورجع العامَّةُ يقولون : الملك المؤيَّد راح وهو مُقَيَّد . وكان الجند الذين معه يقولون للعامّة : هذا أبوكم الذي كنتم تَدْعون بنصره ، قولوا : الله ينصره ، ويتهَدَّدونهم ، وحُكي أنه كان نفى شخْصاً مِن مفسدي الغِلْمان (أيّ خدَّام الجند في الخيل) ، فَرُدَّ مِن الخانْكة لما سَمِع بالرّكوب عليه ، فلمَّا نزل به ، صار يشتمه شَتْماً فاحِشاً ، فأمر شخصاً ممن معه أن يرفع ذلك إلى الظّاهِر ، ويقول : أيُعْجِبُك هذا ؟! ، فغضِب السلطانُ ، وأمر بقطع لسانِ ذلك الغلام ويدِه ، فهرب ولم يُمْعِنوا في طلبه .

وسمعت أَن عيال يَزْبُك وهم خَوَنْد البارِزِيَّة وبنتها مِن الظاهِر جَقْمَق ، أظهروا الشماتَةَ بهم ، وأرسلوا مِن حين النُّصرة عليه إلى المنصور عثمان بإسكندرية مَن يُبَشِّرَه بالقَبْضِ عليه ، فسبحان مَن يُعِزُّ وَيُذِل .

وقلَّ أنْ وقعت قَضِيَّةٌ ، تستحق أَنْ تُذْكر إلاَّ كنت في ميعادِي فيما يُشْبِهها شَبَهاً ظاهِراً إلاّ هذه ، فإنّي كنت يوم الجمعة سابع عشر الشهر في تفسير قَوْلِهِ تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌ ﴾ [٢] إلى قَوْله : ﴿ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴾ [٣] ،

---

(١) في « النجوم الزاهرة » (١٦/ ٢٥٥) يوم الثلاثاء ٢١ منه .

(٢) هود/ ١٠٢.

(٣) هود/ ١٠٩.

والّذي يلي هذا أيْضاً شديد المناسَبَةِ له إلى أن قال : ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَـٰفِـلٍ عَـمَّا تَعْمَـلُونَ (١) ﴾ (٢) ، فإمَّا أن يكون الظالِم جند أبيه بما كانوا يعملون مِن انتهاك الحُرُمَات التي لا يمكِن بشراً أنْ يشرحها على ما هِيَ عليه ، فأراد الله إهْلاَكَهم ؛ بأنْ زَيَّنَ لهم لمّا أخَذَ المؤيَّدُ على أَيْدِيهم أَنْ رَكِبوا عليه، ليُمْكِن منهم .

وإمّا أنْ يكون هو كان على ما كان عليه وهو أتابِكُ العساكِر ، فإنّه كان قد أفسَدَ غالِبَ البلاد ، وَعَمَّ ظُلْمُه التُّجّارَ ، وكثيراً مِن غَيْرِهم ، وكان قبل الرّكوب عليه قد بدأ فيما يُشابه ذلك ، مِن تقديم الجهّالِ بالرِّشْوَةِ مجاهرةً ، والعمل بالأغراض .

وإمّا أن يكون المقصودُ مَن بَغَى عليه أزاله الله عنهم سالِماً لِيُلْقِي بأسَهم بَيْنَهم ، وَيُوَلِّي بَعْضَهُم بَعْضًا .

وهذا هو الظاهِر ، فإنِّي كُنْت أكتبُ في مُسْوَدَّتِ كتابي (المناسبات بين الآيات) وإذا شخصٌ قد جاء مِن نحو القَلْعَةِ آخِر يوم السبت وهو يحكي أنهم قد أضعفوه ، ويوشك أن لا يناموا إلاّ وقد ملكوا القلعَة ، وإذا أنا أكتُبُ في قوله تعالى : ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (٣) .

وإمّا أن يكون ذلك للنَّاس عامَّة ؛ فإنّهم قابلوا نِعْمَةَ الأَمْن التي أتاهموها الله على يَدِه بالتّوَسّع في الفساد ، فلا قُوَّة إلاّ بالله .

وفي أواخِر يوم الثلاثاء هذا ، مات يونُس الدَّوَيْدار (٤) الكبير ، فاسْتراح مِنه البِلادُ والعِبادُ ، وكان رومِيّاً ، فلو عاش ، لكان يُظَنُّ أنه

---

(١) في الأصل يعملون .

(٢) هـود/ ١٢٣.

(٣) هـود/ ١٢٣.

(٤) راجع « هامش ١ » من (ص ٢٩١) من القسم الأول .

يكون عَضُداً للسلطان ، ولم يكن مِن الأمراء رومِيٌّ غَيْره ، ولكِنّه كان شديد القِيام في حَظّ نَفْسِه ، لا يتوقّف أن يتوصل إليه بالكَذِب البحت ، ولو أنَّ فِيه إذْهَاب الرُّوح ، وكان يجمع القضاة عِنده كلّ يوم ، ليقال : أنّه لا يحكم إلاّ بالشَّرْع ، وهو لا يحكم به إلاّ إذا وافق هواه كسائرهم ، وكان سنه نحو سبعين .

وعُيِّنَت الهُجَّانَةُ إلى البِلَاد بالبِشارَة بولاية الظاهِر ، وكُتِب إلى نائب الشّام مرسومان ، أحدهما بالبِشَارَةِ ، وقيل للهجَّان إنْ وَجَدته في دِمشق ساكِناً عن الحرَكَةِ فاقتصر على دَفْعِه إليه ، والثاني يأمُرُه بأنْ يَلْزَم بَلَدَه ، ولا يَقْدُم إلى القاهِرة ، لانفصال الأمْرِ ، وأُمر الهجَّانُ بأن لا يدفعه إليه إلاّ إنْ وَجَدَه متحرّكاً للمجيء .

وفي أواخِر ليلة الأربعاء ثانِي عشريه ، دَقَّت المناسِرُ مِن اللصوص على بعض أطراف البلد وصاحَ النَّاسُ ، فلم يُغِثْهم أَحَدٌ ، فتبيّن صِدْقُ ما قال الجندُ ، مِن أنّ المؤيَّد كان عاجِزاً عن كفِّ أهْلِ الفساد ، وقبل القضاةُ قَوْلَهم هذا ، فيا ليت شعري أَعَن قُوَّةٍ منهم هذا أو عَجْزٍ .

وفي هذا اليوم ، شاع أنَّ عَرَب لَبِيدٍ استنقذوا المؤيَّد مِن أيدي الموكّلين به بالبحر ، وذهبوا به معهم ؛ فبادَر السلطانُ إلى الكِتابَةِ إلى مُرْزا [1] ، كاشِف البُحَيْرَة بالتَّحَفُّظِ من ذلك ، وملاقاة المؤيَّد ، والتَّوكّلِ بِهِ إلى أن يوصِلَه إسكندرية ، وكان المؤيَّدُ قريبَ عهدٍ بالإحسان إليه ؛ دفع إليه ألْفَ دِينار ، قال كاتبُ السّـرّ : فلم يكن بأسْرع مِن أَنْ أرسل بخبرٍ ، أنّه امتثل المرسُومَ الشريف ، وأوصله مقيَّداً إلى إسْكندريَّة .

---

(١) جاء في « اضوء اللامع » (١١/ ١٧٩) مرزا التركماني ، كان كاشفاً بالوجه القبلي ، ثم انتقل لنيابة الكرك ، وهو من الأحياء .

وفي هذا اليوم شرعت خَوَنْدُ في نقل مالَها بالقلعةِ مِن القماش والأثاث ، فإذا هو شيء كثير ، وحكى بعض الأكابِر أنها ما كانت تجد من ينقُل لها إلاّ بعسر ، وأنها في بعْض هذه الأيّام طلبت من يشتري لها ولِأتباعها عَشَاءً ، فلم تجد ، فخرجت بعضُ عجائزُها ، فاشترت بَطِّيْخَتَين ، وقليلاً مِن الجُبْن ، فوجَدْن البَطِّيْخَتَيْن غير صالِحتين للأكل ، فاقتصرن على الجبن ، وأصبحن صُوَّاماً عليه ، إنَّ في ذَلك لعِبْرَة .

وفي هذا اليوم وقع الكلامُ فيما كان الأشرفُ أخَذَه مِن النّاس ظُلْماً مِن البيوت والعقارات ، فَرُدَّت جهاتُ ناظر الخاص الجمال يوسف على أربابها ، وجهاتُ الشَّرَف الأنصاري عليه ، وكان الزينُ الإسْتَدَّار تكلّم في أشياء اشتراها الأميرُ بُرْدْ بَك مِنه ، فأجاب الأميرُ بُرْدْ بَك أنه ما اشتراها إلاّ في دَوْلَةِ المنصور ، وهو يصادِره ، كما اشترى منه غَيْرُه مِن النّاس ، وهذه تواريخُ المكاتبات شاهِدَة بأنَّ ذلك قَبْل دولة استاذه ، فلم يُسْمَع لِلإسْتَدَّار ، وعُلِم كَذِبُه [1] .

وفي هذا اليوم طلبوا مِن محمد بن إينال إحْضارَ عبْدِه ؛ ليُوَسَّط ، فأجاب : بأنه ليس عِنده ، ولا يَقْدِر على تَحْصِيْلِهِ ، وأنّه عتيقٌ مِن مُدَّةِ سنين ، فاشْتَدَّ الْزامُهُم له به ، فدار على بعض الأمراء الظّاهِريّة ؛ يستغيثُ بهم في ذلك .

[٢٧٦] وفي يوم الخميس ثالِث عَشْري شهر رمضان هذا خُلع على الأمير الكبير شَرِبَاش بها لِلإمْرَةِ الكُبْرى مِن الوظائف ، وعَلَى جانِبَك ناظِر جُـدَّة بالدُّوَيْدَار يَّةِ الكبـرى ، وعلى جانِبَـك الظُّرَيِّـف بالدُّوَيْدَارِيَّةِ

---

(١) خبر القبض على بُرْدْبَك ومصادرته في «بدائع الزهور» (صفحات لم تنشر) (٩٨) .

الثانِيَة ، وعلى قَانَم طاز بالخَزَنْدارِيَّةِ الصُّغرى عن الظُّرَيِّف ، وعلى قَيْتْباي الظاهِري بِشَدِّ الشَّرَبْخَانَةِ ، وقَانَم طاز الأشرفي بالخَزَنْدَارِية الثانِية التي كانت بيد جانِبَك الظُّرَيِّف ، وجعل قَرْقَماش الجَلَب أمير السِّلاح ، وَوَلَّى عنه إِمْرَةَ المجلس قَانَم التاجِر ، وأخذ عنه إِمْرَةَ رأس نَوْبَة النَّوب ، حاجب الحجاب بِيبَرس خال العَزيز ، وأَخذ الحجوبيّة يَلَبَاي أحد المؤيَّدية [1] .

وفي أَوَاخِرَه ، أُفْرِج عِن الأمير بُرْدْ بَك ، على أَنْ يَبْذل ثلاثين ألف دِيْنار، فنزل بعد عشاء الآخِرة مِن ليلة الجمعة رابع عشريِّه إلى بيته بقصر الحجازية .

وكان قد رُسِم على خَوَنْد الكبرى زينب بنت ابن خصبك ، امرأة الأشرف إِيْنَال ؛ لتبذل ما عِنْدها مِن مال السلطان ، فأنكرت أن يكون تحت يدها شيء مِن ذلك ، فُوكِل بها شاهِين ، المعروف بغزالِي ، وسرور الطَّيَّارِي ، وكانت تُحْسِن إليهما ، فكانا أشدّ النَّاس عليها ، ثم زيدت آخِر يوم الخميس هذا .

فلمَّا كان يوم الجمعة ، رابع عشريّه رجع الهجَّانَةُ الذين توجّهوا بالبِشَارَةِ بولاية السلطان، ومعهم هجّانٌ مِن قِبَل جَانَم نائب الشّام ، أنه آتٍ ، وأنَّه فارَقه قُرْب العَرِيش ؛ فاضطرب السلطانُ وأُفْرِج عن خَوَنْد ، فنزلت إلى بيتهم بجوار السَّابقية ، وأرسل السلطانُ إلى الخليفةِ والأمراءِ والمباشرين والقُضَاةِ ، فطلعوا واستمرّوا في القَلْعَةِ ، وشرع في تَحْصِينها بآلاتِ الحِصار ، وفي نقل البُقْسُماط إليها والماء والسُّكَّر وأنواع المأكولات

---

(١) خبر هذه التعيينات في : « النجوم الزاهرة » (١٦/ ٢٥٦) ، و « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٩٨-٩٩) .

ونحوها ، واضطرب النّاسُ اضطراباً شديداً ، وغلا بعضُ الحبوب ، فكثر دعاءُ النَّاسِ على الظّالِمين ، ولمَّا خطبَ الخطباءُ للجمعة ووصلوا إلى ذِكْر السلطان زاد تأسُّفُهم على المؤيَّد ، وكَثُرَ ضَجِيْجُهُم بالحوْقَلَةِ (١) ، وَضَرْبُ الأيْدِي بَعْضها على بَعْض ، حَتَّى سُمِع لها صوتٌ شديدٌ ، وكانت ساعةً مشهودَةً (٢) .

واستشار السلطانُ مَنْ جَمَعَهم مِن أهْل الحلِّ والعَقْد ، فاجتمع رأيُهُم على طاعَتِهِ ، وأَنْ يُرْسل إلى جَانَم مَن يُعْلِمه بذلك وأنّ الإرسال إليه ما كان إلاّ لِأجل المؤيَّد ، وقد فات ، فَكُتِب إليه بذلك ، وعُيّن للرسالة ثلاثةٌ مِن طوائف مُفرّقة : جانِبَك كوهيه من المؤيَّدية ، وَجَكَم خال العزيز من الأشرفِيَّة ، وتَنَم رصاص مِن الظاهِريّة ، وشاع أنَّ بعْض الجند تَخَرَّج للقائه ، فبات الوالي خارِجَ باب النصر ، يردّ مَن يجدْ منهم .

وفي يوم السبت خامِس عشريّه ، عُيّن إقطاع الأمير يونُس الدُّوَيْدَار للأمير يَزْبُك صهر الظاهِر ، وإقطاع قَرْقَماش الجَلَبَ لجانِبَك شادّ الشَّرْبْخَانَة ، وإقطاع الأمير بُرْدْ بَك لجانِبَك الظَّرَيِّف الدُّوَيْدَار الثانِي ، وذلك زِيادَة على إقطاع كل منهم ، وكلُّ إقطاع منهم إقطاع تَقْدمة ، وعُيّن إقطاعُ ابن الأمير بُرْدْ بَك لابن الأمير شَرِبَاش ، وبلغني أنهم لَمَّا تكلَّموا للدُّوَيْدَار الثانِي في التَّقْدِمة ، قال السلطانُ : هـذان أمـران متنـافِيان ؛

---

(١) الحَوْقَلَة : قول : لا حَوْل ولا قُوّة إلا بالله .
«المعجم الوسيط» (١/ ٢٠٨) .

(٢) راجع هذه الأخبار في : «حوادث الدهور» (٣٩٩ـ٤٠٠) ، و«النجوم الزاهرة» (١٦/ ٢٥٦ـ٢٥٧) ، و«بدائع الزهور» (صفحات لم تنشر) (٩٩) .

الدُّوَيْدَاريَّة تقتضي القِيام ، والتَّقْدِمَة تقتضي الجلوس . فقال جانِبَك ، ناظر جُدَّة : افعل هذا ودعه يجلس ، ويجلس فوقي [١] .

وفي ليلة الأحد سادِس عشريّه ، رجع الذين توجّهوا إلى نائب الشام ، ومعهم كتابُه ، أنّه حين ورد عليه المرسومُ الشريفُ في البير البيضاء [٢] ، بين بِلْبِيس والخَانكة ، قبَّل الأرْض ، وحصل له السرور التّام ، وأنَّه ما كان جائِياً ، إلاّ لما كان ورد إليه من المكاتبات باتِّفاق الكلمةِ على استقدامِهِ ؛ لأزالة المؤيَّد ، فحيث وصل الأمْرُ إلى الظاهر ، فقد وقع لِأَهْلِه وفي مَحَلِّهِ ، ولو وَرَد عليه المرسومُ ، وهو قبل الصَّالِحِيَّة [٣] ، رجع مِن حيث جاء ، وهو الآن مقيمٌ بمنزله ذلك ، ينتظر المرسومَ الشريف بالإِذن في دخول القاهِرَة ، أو الانصرافِ ، فيمتثل ما يُرْسم به ، وتظلَّم مِن سُودُون نائب قلعة دمشق ، وجانِبَك حاجِب الحجّاب بها في أنّهم لم يزالوا يؤذونَه ، ويعارِضُونَه في أمورِه ، وأنهم رَمَوا عليه مِن القلعة بالمدافِع والسِّهام ، وأغْرَوا به العامَّةَ ، فرجموه واشتدّ انتهاكهم لحرمته ، وأرادوا قَتْله فما خلص إلاّ بنقب مِن إصطبل البِغال في ظَهْرِ دار السعادَة ، وأخرج أعزّ عياله ، فهَجَم العامَّةُ بعد خروجِهِ على بيته ، فنهبوا ما وجدوا مِن نَقْدٍ وعَرْض ، وهَتَكوا الحُرْمة

---

(١) جاء في « حوادث الدهور » (٣٩٩) في ٢٥ رمضان جدَّدَ السلطانُ خُشْقَدم الوظائف ، حتى تجاوزت عدّة الدُّوَيْدَاريَّة على العشرين بعد عشرة ، وكذا السُّقاة بعد ستة واليجمقداريَّة بعد أربعة ، وكذا البوَّابين بعد أربعة .

وراجع أيضاً خبر هذه التعيينات في « النجوم الزاهرة » (١٦/ ٢٥٧ـ ٢٥٨) .

(٢) البيضاء : تُطلق على أربعة قرى بمصر .

راجع : « معجم البلدان » (١/ ٥٣٠) ، و « الخطط التوفيقية » (١٠/ ٢٥) .

(٣) الصالِحيَّة : يوجد بهذا الاسم ثلاث قرى بمصر ، والمقصودة هنا بلدة بمديرية الشرقية من مركز العرين في نهاية بلاد الشرقية بشمالها الشرقي ، واقعة بجزيرة من الرمال ، وهي جملة كفور ذوات نخيل كثير أنشأها الملكُ الصالح نجمُ الدين أيوب بن الكامل محمد بأرض السباخ على طرف الرمل سنة ٦٤٤ هـ « خطط المقريزى » (١/ ٢٢٧) ، و« الخطط التوفيقية » (٣/ ٦ـ ٨) .

واسْتَحلُّوا مِنه ما لم يكن يُظَنّ أنّ كافِراً يفعله [١] ؛ فرسَمَ السلطانُ بِعَزْل المذكورَيْنِ ، وأنْ يُنْقل عنه الحاجِب إلى حَمَاة نائِباً بها ، ويكون نائب حَمَاة ، جانبَك التّاجِي نائِباً لطرابُلُس ، وأنَّ إياس الطَّويل نائب طرابُلُس يُسْجن ؛ لما تكرَّر فيه مِن الشكايَةِ ، مِن ظلمه وظلم وَلَدِه ، وَرَسم بقدوم نائب الشام إلى القاهِرَة ، لينظر السلطانَ ، وأن ينزل في المَيْدان ، ورسم له بثلاثة آلاف دينار ، وبَبَرْك [٢] يونُس الدَّوَيْدَار كُلِّه ، يَعْنِي خَيْلَه وجِمَالَه وبِغَاله ، وجميع ما يتبع ذلك مما يكون في السَّفر ، فقيل إنّه يساوي عشرين ألْف دِيْنار ؛ فسكن الأمْرُ قلِيلاً ، واستمرّ الأمراءُ ، ومن ذُكِر مقيمين بالقلْعَةِ ، وظهر أنَّ غَيْر الأَشْرَفِيَّةِ مع السلطان قَطْعاً وتألَّف أجْلاَبَ الأشرف إيْنال ، وجميع حواشيه ، فَرَسم لهم بالطّلُوعِ إلى أطْباقِهِم بالقلعة على أرزاقهم .

ثم شاع أنّ سبب ما اتّفق لنائبِ الشام مع مَن بها ، أنّ جانِبَك ناظِر جُدَّة ، لمَّا دار بين جماعته ، وبين الظَّاهِرِيَّة ، حتى اجتمعوا على قَلْبِ رجل واحد في نَقْضِ دَوْلة المؤيَّد ، وكاتبوا نائبَ الشام بالقدوم لذلك ، وَلِيُمَلِّكُواه عليهم ، طلع إلى المؤيَّد فأخْبَرَه بأنهم كاتبوه ، وكان هو لم يكتب شيئاً ، وأشار على المؤيَّد بأن يُرْسل إلى الحاجِب ، ونائِب القلعة بدمشق أنْ يركبوا عليه ويجرِّئوا عليه العوامّ ففعل ، فكان ما ذُكِر ، وقصد بإظهار الرِّضى لجانَم ، جَمْع الأشرفِيَّة على رأيه في إزالة المؤيَّد ، وبما أشار به على السلطان قتل جَانَم والاسْتراحَةِ مِن سلطنته ، فإنّ الأشْرَفِيَّةِ أعداء الظّاهِرِيَّة ، وأعداؤهم [٣] ... [٤] .

---

(١) راجع « حوادث الدهور » (٤٠٢) .

(٢) بَرْك : إبل أهل الحِواءِ كلّها ، أو جماعة الأبل الباركة أو الكثيرة .
« محيط المحيط » (٣٧) ، و « المعجم الوسيط » (١/ ٥١) .

(٣) راجع هذه الأخبار وتفاصيل أخرى في : « حوادث الدهور » (٣٩٩ ـ ٤٠٠) ، « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٩٩ـ ١٠٠) .

(٤) ما يقارب أربع كلمات غير واضحة الرّسْم في الأصل ، ولم نجزم بتصحيحها .

وفي يوم [٢٧٧] الأحد هذا ، خُتِم البخارِي الذي يُقْرأ بالقَلْعَةِ للسلطان ؛ فَخُلِع على القُضاةِ على العادَةِ ، ورُسِم لهم أنْ يمكثوا في البَحْرَةِ التي بحوش القلعة ،

وفي أواخِره ، وَصَل بَعْضُ مَن رافق نائب الشّام فأيّدوا ما أَخْبر أَنَّه حَلَّ به مِن أَهْل دِمشق ، وأنّ الحاجب ، ونائب القلعة رَمَيا عَليهِ مِن القلعة ، وأنّ دُوَيْدارَه الكبير مُغُلْباي البَجَاسي أصابه سَهْمٌ ، فمات مِنْه بصالحيَّة القاهِرَة ، وأَنَّ مَقْلداً أمير حَوْرَان لمّا سمع بخروجه ، رَكِب عليه في سبعمائة فارِس ، فلم يدركوه ، وأنّه أتَى في نحو ثلاثمائة فارِس ، وأنّه نهب قَفْلاً [(١)] مِن المسافرين في ناحِيَة حَلْحُولية [(٢)] ، فأخذ منه ما يزيد على أربعة آلاف دينار ، ونهب بلداً مِن بلاد الحاجِب في بلاد الرَّمْلَةِ ، وأنّه لمّا أَتَى غَزَّة وَضَع نائبها في زِنْجِير ، وَوَجد زينَ الدين ناظِر جَيْشِها قَدْ هَرَب منه ، فنهب دارَه ودار أخيه .

ثمَّ حَدَّثني العلاَّمَةُ كمالُ الدين ابن أبي شريف القدسي عن شخص مِن فقهاء حَلَب يُقال له حسين ، أعْرِفُه بالجلادَةِ والجُرْأة قال : سافرت إلى بلادي ، فلاقَيْنا نائِبَ الشَّام بالزعقة دون غَزّة ، وكُنَّا مع قَصّاد ابن قَرَمان ، ومُتَسَفرِّي علي جوكي ، نائِب المِهْمَنْدار ، ومعهم ما أهـداه الملك

---

(١) قَفْلاً : جاء في « لسان العرب » (٤/ ٧٨) القُفُول الرجوع من السّفر ، وقيل : القُفُول رجوع الجُنْد بعد الغَزْو ، قَفَل القومُ يَقْفُلون بالضم قُفُولا وقَفْلاً ، وسميت القافِلةُ قافِلَةً تفاؤلاً بقُفُولها عن سفرها الذي ابتدأت به ، والقافِلة الرُّفْقة الراجعة من السفر .

(٢) حَلْحُولية : قرية بين بيت المقدس ، وقبر إبراهيم الخليل ، وبها قبر يونس بن متّى عليهما السلام .

« معجم البلدان » (٢/ ٢٩٠) .

المؤيَّد لابن قَرَمان ، ومع علي جوكي هدايا لنفسه يريد أن يهديها إلى النواب ، وإلى ابن قرمان وغَيْرِهم ، ليستفيد منهم بذلك ما يؤمّله ، فنهب نائبُ الشام جميعَ ما مع القضاة ، وما مع علي جوكي ، ورَسَم بشنقه . قال : فقصدته في جماعةٍ مِن الرَّكْب ، وكان بيني وبينه معرفةٌ مِن حَلَب وأنْسٌ كبير ، فَشَفَعْنَا فِيه ، وأطلنا الكلامَ بالتُّرْكِي والعَرَبِي ، وضرعنا إليه ، فما أعْفاه مِن الشَّنْق إلاَّ بَعْدَ جهد شديد ، ولم يُظْهِر أنّه يَعْرِفُنِي أَصْلاً ، فتواقَحْتُ ولم أزَلْ أُعَرِّفه بنفسي حَتَّى أَظْهر المعرِفَةَ ، ثم رجعنا معه فحدّثنا مَن كان معه ، أنّه ما مرَّ بقَفْلٍ إلاَّ نهبَه ، وأنَّه لما بلغ المِجْدَل أرسل جريدة [١] مِمَّن معه فِيْها ابنهُ ، فطرقوا نائبَ غَزَّةٍ لَيْلاً ، فكسروا عليه بابَ دار السَّعادَةِ ودخلوا عليه ، فربطوه ، ونهبوا جميعَ ما يحويه بَيْته ، مِن صامِتٍ وَحَيوان ، ونهبوا بيتَ ناظِر الجيش وَمَن يتبعه ، وبيت الحاجب بها ، وصادَرُوا بعض أعْيانِها ووعد الأمير الكبير بها وهو حزمان نيابتها ، واستقدمه معه ؛ لِأنّه مِن طائفة الأشرفِيَّة ، وكان في رجوعنا أيضاً كلمّا رأى رَكْباً نَهَبَهم ، وأَخَذَ جِمالَهم ، ثم وصل إلى قَطْيا فأحْرَق الدَّكَّة بها (وهي الموضِع الذي يمكثون فيه النّاس) ، وأحْرَق بيت المتولي بها وَوَجده قد هَرَب مِنْه إلى ناحِيَةِ الطِّيْنَة ، فولّى بها مملوكاً مِن مماليكه ثم سار ، قال : فسايَرته [٢] ، وقلت : يا مولانا ، أنت ذاهِبٌ تروم [٣] المملكة وهذه الأفْعَال لا تصلح ، إنما يحسن بمن يُرِيْدُ ما تُرِيْدُ ، إظهار العَدْل والخَيْر ، فاعْتَذَر بأنَّ الشاميين نهبوا مَالَه ، ولم يَدَعوا له ما يَتَقَوَّى به ، فَهُو لا يفعل هذا إلاّ ضرورة [٤] .

---

(١) جريدة : خَيْل لا رَجَّالة فيها .
« المعجم الوسيط » (١/ ١١٦) .

(٢) في « حوادث الدهور » (٤٠٣) إشارة إلى أعمال السلب والنهب التي قام بها نائب الشام وهو في طريقه إلى القاهرة .

(٣) تروم : تطلب .
« المعجم الوسيط » (١/ ٣٨٣، ٣٨٤) .

(٤) يذكر (ابن تغري بردي) في « حوادث الدهور » (٤٠٣ـ ٤٠٤) أن نائب الشام امْتحن =

وكان مُحَقَّقاً أنّه يَتَسَلْطن ، وشاع أنه يُوَلِّي تِمْراز الأَمْرَة الكُبْرى بالقاهِرة ، ويجمع إلى خَزَنْدارِه يوسف الصُّبَيْبِي مع الخَزَنْدارِيَّةِ نظر الجيش والخاص ، ولا يدع [مع] (١) مُتَعَمِّم إقطاعاً .

فلمّا وصل إلى بِلْبِيس ، وجاءه الثلاثة الذين مِن قِبَلِ السلطان الظّاهِر، وأَعلموه بولايته ، وجميع الأمراء مِن الأشرفِيَّةِ وغَيْرِهم بالقلعة ، واجتماعهم على كلمة واحِدة في طاعته ، وقَرَأَ المرسومَ بالرجوع ، رعَبَه ذلك ؛ لِأَنّه ليس معه إلاّ نحو ثلاثمائة فارِس ، ليس منهم مِن مماليكه إلاّ نحو مائة ، والباقِي مُلَفَّقُون ، ما بين خدّامة ، وتركمان ، وَعَشِير .

قال : ومن هناك تقدّمنا عنه . قال : فلما كُنّا عِند الخانْكة إذا ثلاثة مِن أعيان الأشرفيّة مُلثَّمون ، فاستوقفوني ، وسألوني عنه ، فارتبت منهم ، ثم مشيت في هواهم ، فإذا هم يهوون تعظيم أَمْرِه ، ثم سألوني هل معه نُوّاب بلاد الشام ؟ [٢٧٨] قال : فَتَحَيَّرْت في الجواب عن ذلك ، فأدركوا ذلك مِنّي ، ثم قُلْت لهم : أُخْبِرَكم بالحق ؟ فقالوا : نَعَم ، فأَخْبَرتهم بِقِلَّةِ مَن معه ، وضَعْف أَمْرِه ، وأنه ما خَرَج مِن دِمشق إلاّ هارِباً ، ولم يَكَد يَفْلت . قال : فارتاعوا ، وقصدوا الرجوعَ ، فخيَّلهم منه أكبرهم سِنّاً ، وصار يُشجِّعهم على لقائِه ، فلم يجيباه ، وغلبا عليه ، فرجعوا . انتهى .

وأرسل السلطانُ الوزيرَ ؛ ليطْبَخَ لنائب الشام بالخانْكَة ، فلما وصل أُعلم بذلك ، فقال : لست محتاجاً إلى طعامِه ، اذهب فانصب مطبخك

= في ماله ودينه ، ووقعت منه أمور كان يُستبعد وقوعها منه ؛ لِأنه كان ديناً عفيفاً ، محبّاً في الفقراء والفقهاء وأهل الصلاح .

(١) ما بين الحاصرتين غير واضح الرسم في الأصل ، والتصحيح من مفهوم السياق .

في قُبَّة النَّصْرِ هناك أكل . فحمل المطبخَ ورجع به ، ثم تواصل إليه ممن يثق به ، وأَعلموه أنَّ هذا خطأ ، فإنّ السلطان قد جمع القُضَاة والأُمراءَ بالقلعة ، وشَقّ العَصى غير مُمْكِن فأرسل مَنْ ردّه .

وفي هذا الحدّ رجع الذين شيّعوا المؤيَّد أحمد إلى إسكندرية ، ومدحوه بالإحسان إليهم ، وتبيّن كَذِب ما شاع عن لبيد مِن إنقاذِه ، وأشاع الذين كانوا معه ، ومنهم بِيبَرس الطويل ، وهو من رؤوس الأشرفيّة أَنَّ الأميرَ تَنَم قال : أما وجدتم غَيْر هذا الخَرَا تُوَلُّونه عليكم سلطاناً ! وكأنهم أرادوا بهذا توغير قلب السلطان عليه لئلا يُحْضِرَه إلى القاهِرَة ، فيصير عَضداً له ، فإنّه مِن إخْوَتِهِ المؤيّديّة ، فَيَقْوَى جانِبُه ، فتصعب عليهم إزالته ، والله أَعْلم .

وفى يوم الاثنين ، سابع عَشْرِى الشهر ، تواصَل إرسْال السلطان إليه بالأمْوال والتُّحَفِ والأطعمة والخِيام ، لِيرْجِع ، فأصَرّ على إرادَةِ القُدُوم ، فأرسل يَشْبُك الفقيه مِن المؤيَّديَّة ، فلم يُفِد ، فأرسل إليه يوم الثلاثاء ثامِن عَشْرِى الشهر مِن النَّقْدِ ماوَفَى أربعة عشر ألف دِيْنار ، وأرْسل إليه ثلاثة رؤوس مِن الخيول المسَوَّمَةِ بآلاف الذَّهب ، واحِداً له ، وآخر لولده، وآخر لِتمرَاز ، ومع ذلك سبعة بغير الآت [1] ، ثم لم يُفد شىء مِن ذلك، فكلَّم السلطانُ وَبَعْضُ الظاهِريَّةِ مَن بالقلعة مِن الأشْرَفيَّةِ فى استرجاعه ، فأظهروا أنه لا يسمع منهم ، وأَنَّه غير مُنتَظم المِزَاج ، ولا يرجع إلى أحد ، فَنَسب بَعْضُ الظّاهِريَّة جانِبَك المعروف بالمِشَدِّ إلى أنَّه لو أراد لرجع نائب الشام ، فبلغه هذا ، فدخل إلى السلطان ، فقال : من يَنْسبني إلى كذا ؟! ، أنا لا أَنا مملوكك ، ولا مملوك جَانَم ، ومالكم عِندي إلا الإمْرَة التي أعطيتموني ، لا حاجَة لي بها ، ونحو هذا مِن الكَلام الغليظ ، ثم خرج مِن عِنْدِه غضبان .

ونزل مِن القلعةَ ماشياً ، وربما قيل حافِياً ، فارْتاع النّاسُ لذلك ، وأشاعوا أنَّ السلطانَ قبض على الأشْرَفِيَّةِ ، وانْضَمَّ إلى ذلك أَنَّ كاتِب السر لمّا نزل مِن الخِدمَةِ ، لم يَسْتَقِرّ في بيته حَتّى جاء مَنْ ردّه إلى القلعة ، فأُغْلِقت بعضُ أسواقِ البَلَد ، وصار النّاسُ في كَرْبٍ ، ثم شاع أنَّ السلطانَ أرسْل كاتِبَ السّر إلى جَانَم ليحُلِّفَه في مُناصَحة السلطان ، ويردّه إذا حَلَف ، ثم بان أنَّ ذلك لاحقيقة له ، والله المسؤول في إصْلاح الحال .

---

(١) راجع « حوادث الدهور » (٤٠٠)

وأظهر بَعْضُ مَن ينظرُ في الملاحِم ، وخُرَافات المُنَجِّمين أنَّ مّدة هذا السلطان إنما هى أيَّامٌ معدودَة ، وأن الذي يلي بعده شخصٌ أوّل اسمه (جيم) وأنه مُكَحَّل ، فقضى الناسُ بذلك ، وبأنّه جَانَم، فإنه لا يزال يتكَحَّل ، ويَظْهَر عليه أثرُ الكُحِل ، وكثر الارتجاج بسبب ذلك ، ثم ترادَف الإرسالُ إليه بالمَنْع مِن الإقَامَةِ ، والعزيْمَةِ في الرّجوع ، والشّام له ثلاث سنين ، ومَن أراده مِن المشائخ ، فهو باقٍ على حاله ، وَمَن كرهه ، فليراجع فيه ليُفْعل ما يُريد ، فأبى ذلك ، وقال : أَنَا أَرْضى مِن ذلك بأن أُعْطَى أربع قرى زُرَع [١] ، وطَفْس [٢] والطُّرَّة [٣] ، وَلِدٌ . فأجيب إلى ذلك، وزيد مِن المالِ ، ما بَلَغ ثمانِيَةَ عشر ألف دينار ، عَشَرةٌ له ، واثنان لولده ، وسِتّةٌ لنسائِه ، عِوَض ما نُهِب له ، وأُرسل إلى تِمْرَاز ألفان وَوُلِّيَ نِيابَة صَفَد ، وأُرسل لهم مِن الخيول شيء كثير ، وَكَذا مِن الهدايا ، وحصل الوِفاقُ على أنْ يرجع ليلة الجمعة ثاني شوَّال مِن الخانكة ، وكان الوزير في طول هذه الأيام في الخانكة ، يطبخ له مِن مال السلطان .

ولمَّا اسْتَقَرّ الحالُ على الرجوع أذِن لجماعته ، فَقَدِم منهم من أراد إلى القاهِرَة لضروراتِهم ، فكان منهم عثمان بن الحاج محمد بن بَاكُلُهُ الزّبداني [٢٧٩] كان قد انضّم إلى خَزَنْداره واختص بـه ؛ لِيَحْمِي نَفْسه

---

(١) زُرَع : بلدة كانت من أعمال دمشق ، من بلاد حَوْران .
« مسالك الأبصار ـ دولة المالك الأولى » (١٩٠) ، و« المصطلح الشريف » (٢٢٨) .
(٢) طَفْس : يفهم مما جاء في « التعريف » (٢٤٩ ، ٢٥١ ، ٢٥٥ ، ٢٥٧) أنها بلدة من أعمال غزَّة مما يلي دمشق ، بعد بلدة إِرْبِد .
(٣) الطُّرَّة : بلدة من قرى حَوْرَان .
« الدارس » (١/ ٣٥٨ هامش ٦) .

مِن جماعة إسماعيل ، فَحدَّثني : أنّ أصلَ بُغْض الشاميين لـه ، وزيـادَة حنْقهم عليه ، أنّه نادى بأنْ لا يتفرّج أحَدٌ في الرَّبْوَةِ والجبَهَةَ ، فانْتَهوا ثم أتوا إلى خَزَنْداره وجمعوا له ثلاثمائة دينار على أن يدعهم وعادتهم ، فاخذها وفعل ، ونادى لهم بالأمان في فعل ذلك ، بشرط أن لا يُظْهِروا مُنكراً ، وربما قال : إنّ ذلك كان على يَد قاسِم الحَلَبي المَعَرِّي القادِري ، شيخ زاوية ابن دواد ، فلّما كان ذلك شرعوا فى التّبسّط في ذلك على عادَتِهم ، فحسّن قاسمٌ للنائِب أَنْ يُغير عليهم ، فأطْلع إلى زاويته خَيْلاً ، وأغارَت عليهم مِن هناك ؛ ليكون أستر لهم ، ففعلوا في من لقوه هناكَ ، من سَلْبِ ما معهم ، حَتَّى ما في آذان النّساء ، وربما قيل أنهم قطعوا بعض آذانهن ، ومِن الفسق في النساء ، وافتضاض الأبْكارِ ما يجلُّ عن الوصْف ، ولا يُظَنّ أنّه يرتضيه كافِرٌ ، فضلاً عن مسلم ، فَعَلِم النَّاسُ أنَّ ذلك كلّه بصنْعِ من قاسم ، لِما انضمّ إليه مِن قرائِن دخوله معه في أبواب الظلم ، وتناوُلِ الرّشا ، كما تقدَّم ، حتى كانوا لا يُسَمّونه إلاّ قاسِماً البُرْدَدار (والبُـرْددار هو المقام فى بيوت أرباب الشَّوْكة لتصريف الأعوان في المظالم) فهجم النَّاسُ على قاسِم في زاويته ، فلم يقدروا عليه ، ثم توعّدُوه ، وكان ذلك في شعبان هذه السَّنَةِ ، فلم يَقْدِر بعدها أن يجتمع بالنّائب .

فلمّا قَدِم يحيى ابنُ النائب إلى القاهرة ، ورَجع بخطوط جند القاهِرة بالرِّضى بأبيه كان الجمال يوسف الخَزَنْدار في بلاد نابُلُس ، فأرسل إليه أنْ يَلْحَقَه سريعاً ، لأنّ الأمْرَ انتـظم لإبيه ، وهُمْ سائرون إلى القاهرة ، فدخل ابنُ النائب في ثامِن شهر رمضان على هيئة فيها بعض النَّكرة ، ثم لحِقه الخَزَنْدار ، ولم يكن أكْمل ما تَوَجّه له ، فأنْكر الأمراءُ ذلك ، فدخل

جانِبك حاجِب الحجّاب إلى القلعة لَيْلاً فارتاع النائبُ بذلك ، فأرسل إلى الأمراء والقضاة ، فجمعهم ، وقال : ما لِهذا دخل القلعة ، وهذا لايكون إلاّ لعصْيان مِثْلِي ، ما الذي رابَكم مِنِّي ؟! أنا مطيعٌ للسلطان فاكتبوا بذلك مَحْضَراً ، فكُتِب له به ، وَوَضعَ مَن حَضَر مِن الأمراءِ خطوطهم بالشّهادة له بالطّاعة إلاّ قَنِبَك ، رأس المَيْسَرة ، وهو أَحَدُ المؤيَّدِيّه ، فامتنع مِن الكتابَة ، فقام إليه تمِرْاز فلكَمه ، فقام هو إلى تمِرْاز فلكَمه فجاء مماليك النائِب لمعاوَنَة تمرْاز ، فخاف الأمراء على أنفسهم ، فسألوا النائبَ في تسكين الفتنة ، بِأَنْ يَخْلَع على قنِبَك ففعل ، ثم خرجوا فاستمُّروا مِن فَوْرِهم طالِعين إلى القلعة كُلُّهم ، ثم رَمَوا عليه منها بالمدافع والنَّبْل ، وأَغْروا به العَوَام ، وهم في غاية الحنق ، فما أَلْبَثُوه أنْ دخلوا عليه . قال : فلّما هَرَب مِن الباب الذي نُقب له في ظهر دار السَّعَادَةِ ، وفرغوا مِن نَهْبِ داره ، تَبعوه ، فأتَوْا إلى بيت الخَزَنْدار . قال : فَظَهَرْتُ أنا وجماعةٌ معي ، فَرَدَدْناهم بالنَّشَّاب ، فغابوا وأتونا بأبواب يزحفون وراءها ، ومعهم المقاليع [1] وغَيْرِها مما يقدرون عليه ، فما كِدْنا أن نخْلَص منهم .

ثم رَكِبْنا على الصَّعْبَة والذَّلُول ، وخَرَجْنا مِن دِمشق هارِبين ، ثم كان ما تَقَدَّم مِن نَهْب كُلِّ مَن مَرُّوا به مِن المسافرين ، وكان خروجهم رابع عشر الشَّهْرِ أو خامِس عَشْرِهِ ، وَوَجدوا الشيخَ نجم الدين ابن قاضِي عجلون في وعرة سعسع في ناس [٢٨٠] فانتهبوا ما معهم .

هذا ما كان مِنْ خروجهم على غَيْرِ مُرَادِهم بتدبير الله ، وأماتدبيرهم

---

(١) المقاليع : ما يُرمى بها الحجر « المعجم الوسيط » (٢/ ٧٥٥) .

فإنه كان غير هذا ؛ كانوا عَزَموا أنْ يُعَيِّدوا عِيدَ الفِطْرِ ، ثم يقولوا لِلأمراء أَنَّ إسماعيل بن عبد القادر شَيْخ جبل نابُلُس قَدْ عَصَى وأنا أريد أن أقصده فتَجّهزُوا لذلك ، فإذا سار بهم إلى قُرْب بِلاده قَبَضَ على مَن خَافَ مِنْه وسار بالْبَاقِين إلى القاهرة ، لأنّ الذين كاتَبوه وافقوا على الرّكوب على السلطان بعد العِيد ، ففعل الله غير ما دبروه فى البلدين لأمر يريد سبحانه ، نسأله أن يجعل عاقبته لنا خَيْراً ، قال : هذا ما كان مِن عوامّ الشَّام في بُغْضِ النائِب ، وقاسِم لِتَفْتيقهِ الظُّلْمَ عليهم ، وأمّا جماعَة النائب فإنّه لم يكن منهم أحَدٌ إلاّ يقول : هذا كلُّه فِعْل قاسم ذاك الشَّيطان والله لئن رأيناه دَخَل إلى النائِب لَنَقْتُلَنَهُ . نسألُ الله أنْ يجعل الدائِرة عليه قريباً وعلى أشباهه مِن آكِلِي الدُّنْيا بدعوى الدِّيْن آمين .

ثم إنّ الأمير قَنِبَك الذي تقدّم أنّه كان سبب الدائِرة على نائِب الشام، قَدِم يوم الأربعاء سلخ شهر رمضان ، وقيل إن على يَدِه محاضر بما فعله نائب الشّام [1] .

وفي يوم الأربعاء هذا ، رَسَم السَّلْطان لقاضِي الحنفيَّة ، السَّعْدِ بن الدَّيْرِي أن ينزل إلى بيته إنْ شاء ، ثم يطلع فى يوم العِيد ، لِيَلْبس خِلْعَته ، وإنما خصَّه مِن بين القضاة ، لِإنّه أعلاهم سِنًّا ، عمره يومئذٍ سَبْع وتسعون سنة وشىء ، مائة إلاّ نحو ثلاث سِنِين ، فاسْتَصْعَب الحَرَكَةَ ، فاستمر ذلك اليوم ، فرُوِىء الهلالُ لَيْلَة الخميس ، فصَلَّى في جامِع القلعة، وَلَبِسَ الخِلعَة ، ونـزل إلى بيته ، فـاستأذن بقيَّة القـضاة ، فـلم يُوذَن لهـم ، واستمروا مع الأمـراء فى الجـامِع وكان أطوعهم وأعقلهم الأمير الكبير شَـرِباش ، حُكِيَ لي أنّ الأمراء كانوا في حَرَكَةٍ زائدة يذهبُ

(١) راجع خبر جَنِبَك مع جَانَم نائب الشام في « حوادث الدهور » (٤٠٢) .

بعضُهم إلى بَعْضٍ ، ويتحدَّثون ، [وأمّا هو فلم يكن يذهب إلى أحد ، وإن جاءه أحدٌ وأطال عِنده] [1] ، وضَع رأسه على وسَادَتِه ، واضطجع، يُظْهر أنه نَامَ ، فعَدَّ الناسُ ذلك مِن عَقْله وضمُّوه إلى امتناعِه مِن قبول السَّلْطَنَةِ .

وفي يوم الخميس مستهل شَوَّال ، نُودِيَ لأَتْباع جَانَم بالخروج مِن القاهِرَة للسَّفِر ، وأرسل إليه حاجِبُ الحجَّاب بيبَرس خال العزيز ، ليُسَفِّرَه .

وفي ليلة الجمعة ثانية ، رحل نائب الشام جَانَم من الخَانْكَة ، فنزل في حَوض قَراجا ، ثم رحل ليلة السَّبْتِ إلى بِلْبِيس ، فوجع حاجب الحجاب، وتَرَكَ عِنده دوُلات [2] باي النَّجِمْي يُسَفِّرَه ، كَفَى الله الناسَ شَرَّه [3] .

ولما أَمَّنَهم الله مِن شَرِّه جعلوا شُكْرَهم أن تَتَبَّعوا مَنْ لهم عليه شُبْهةٌ ، فرَسَّمُوا عليهم ، وأَلْزَمُوهم بما قَدِروا عَلَيْهِ مِن المال ، وهم وإنْ كان فيهم مَن يستحق النَّكال ، فهم مسيؤون في وَجْهِ تَنْكِيْلِهِ لا في أصْلِه ، فمنهم : ناظِر جيش دِمشق البدر بن المزلّق ، وناظِر جيش غَزَّة الزين الفنطي ،. وقاضِي الحنفيَّة بدمشق العلاء ابن قاضِي عجلون ، والعز عبد العزيز بن

---

(١) ما بين الحاصرتين في الأصل (وأما هو فلم يكن يذهب إلى أحد وإن جاءه إلى أحدٍ وأطال عنده ..) فحذُفت إلى الثانية حتى يستقيم السياق .

(٢) هو : دولات باي النَّجمي الأشرفي برسباي ، أحد العشرات ، ورؤس النُّوب ، ثم أحد المقدَّمين بالشام وحاجب الحجاب بها ، وفرَّ إلى بلاد ابن عثمان ، وحضر معه بعض الوقَعَات ، ثم عاد إلى القاهرة ؛ بعد أن راسله السلطانُ ، وطيَّب خاطِرَه ، ومات بالطاعون سنة ٨٨٢ هـ. له ترجمة في «الضوء اللامع» (٣/ ٢٢١ رقم ٨٢٩) .

(٣) راجع خبر سفره في « النجوم الزاهرة » (١٦/ ٢٥٨) ، و«بدائع الزهور» (صفحات لم تنشر) .(١٠٠)

معلاق الرَّمْلي ناظِر القدس ، والبَدْر حسن الكتبْي السنباطِي إمام المؤيَّد وغيرهم فبعضهم أخذوا منه ألف دينار ، وبعضهم ألفين وبعضهم ثلاثة، وجُعل على خَوَنْد أمّ المويَّد ثلاثون ألف دينار ، فأما ابن قاضِي عجلون ، فالَّذي حَرَّك عليه [٢٨١] ذلك ، أنّه دفع في أنْظَار مَدَارِس وتداريسها مع حُسَام الدين مالاً ليأخذها هو ، فَفَتَقَ عليه الحُسَامُ فُتُوقاً أَوْ جَبَت ذلك ، وأُخْرِجَ عنه إقطاعٌ كان في يَدِه ، وَجُعِل عليه مالٌ كبير ، بعضهم يقولُ : ألفاً دِيْنار ، وبعضهم يقول : أكثر [١] ، ثم تبيّن أنّ السَّبَبَ أنَّه كان ذهب إلي الدُّوَيْدَار الثاني جانِبَك الظُّرَيِّف الأشْرَفِي ، فوعَدَه على وظائِف حُسام الدين ونَفْيِه ، ونَفْي حميد الدين بخمسمائة ألف دِيْنَار له وألف للسلطان ، فَذَهب حُسامُ الدين إلَيْه ، فقال له : هذا جاهِلٌ ، جَعَل في وظائفي للسلطان ألف دينار ، فأنا أَدْفَعُ في وظائفه ألف دِيْنار مع كوني عالِماً فلم يُقْبل ذلك منه بواسِطة شخْصٍ مِن رؤوس النوُّب من الأشرفِيَّة يُقال له تَنَم ، صديق ابن قاضي عجلون ، فسمع بذلك جانِبَك ناظِر جُدّة الظَّاهِري ، فقال له جماعَتُه إنْ تَمَّت هذه القضية علي يَد الظّرَيّف لم تكن لك كلمة في بلاد الشَّام مع ما يَهِن مِن أمْرِك هنا فقال للسلطان : ابن قاضِي عجلون جاهِلٌ ، ومَتَي أَجَبْتُه إلى ما سأل كَثُرَة الشَّنَاعَةُ عليك ، والذي ينبغى أَنْ ترسم عليه ؛ فإنَّ في جهته مالاً كَثِيْراً يزيد على عَشْرَة آلاف دينار ، فَرَسم عليه على ذلك ، وأُخْرج إقْطاعٌ في يَدِه، فَسَمع الحسامُ والحميدُ ، فذهبا إليه ، واثْخنا جِرَاحَاته ، فقال لابن

---

(١) في « حوادث الدهور » (٤٠٤ ، ٤٠٥) ، و« بدائع الزلاهور » (صفحات لم تنشر (١٠١) إشارات مقضبية إلى هذه المصادرات .

قاضِي عجلون : كَيْفَ تتولّى القضاء وأنت جاهِل ؟! فقال: ياخَوند، يجوز في مذهبنا ولاية القاضي الجاهل ، فقال له : قبحك الله وترضى بالإقْرار على نَفْسِك بالجهل ؟!

وأمّا ناظِر القُدُس ، فَجُعِل عليه ألفا دينار ، فقام في تَحْصِيلها ، بشرط أن يلزم بمباشرة النَّظر ولا وظيفة غَيْره .

وشرع يتكلَّم مِن غَيْظه بما هو كُفْرٌ ، فإنَّه في غايَة الحُمْق والجَهْل ، وصار يَقُلْ : الرَّحْمَة على الأشْرَف إيْنَال في توليته لهذه الوظيفة ، ثم سعى كما يأتي في النَّظَر .

وفي يوم الاثنين خامِس الشهر خُلِع على الشمس بن المُرَخِّم بنظر المَرَسْتان عن الناصِر بن أصيل [١] .

ورسم للقضاة والأمراء بالنزول مِن القلعة إلى بيوتهم ، وأَنْ يَسْتَمِرّ أَمِيْرُ المؤمنين في القلعة [٢] ؛ لأن السلطان كان يخاف مِن عَوْدِ جَانَم لمساعَدة حِزبه الأشرفية .

وكانت ولاية ابن المُرْخِّم للمَرَسْتَان بواسِطَة الأمير الكبير [٣] ، وكان لـه

---

(١) في « حوادث الدهور » (٤٠٤) « وأمعن في تَفْرِقَةِ الإقطاعات مصراً وشاماً ، وصار لا يكلّ من ذلك ولا يملّ ، وهو سامع لما يطلّبه الجند منه » .

وفي « النجوم الزاهرة » (١٦ / ٢٥٩) ، « ولما كان يوم الاثنين خامس شوال أنعم السلطان بالخِلَع على جميع أمراء الألوف ، وأنعم على كلّ واحدٍ بفرس بسرج وكُنْبُوش زَرْكش». راجع أيضاً ماجاء فى «بدائع الزهور» (صفحات لم تنشر) (١٠٠، ١٠١) حول تفرقة تلك الإقطاعات ، وتوزيع الخلع .؟.

(٢) في « النجوم الزاهرة » (١٦ / ٢٥٩) ، « فنزل الجميع إلا الخليفة ، فإنه دام بقلعة الجبل إلى يوم تاريخه ، وأظن ذلك صار عادة ممَّن يلي المُلْكَ بعده » .

كما جاء في « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (١٠١) « وصارت هذه عادة من بعده من الخلفاء » .

(٣) وهو شَرِبَاش (جَرِباش) كرد .

راجع « ص ٣٠٩ »

إليه تردد ، فَلَمَّا نزل إلى بيته أرسل إليه الدويدار الكبير جانِبَك ناظر جُدَّة من أحضره إليه وأهانَه ؛ لكونه ما سعى من بابه .

وكان الملك المؤيَّد أرسل مع الذين تَوَجّهوا بِهِ إلى إسْكَنْدريَّة أَنّ قَيْدَه شديدُ الأذى له مِن ضِيْقِهِ وغَيْر ذلك ، بحيث أنَّه لا يتمكّن معه مِن السجود ، وأرسل نائبُ اسكندريَّة الأمير كسْبَاي أيضاً في ذلك ، وبأنه لم تجر عادةٌ بقيد الملوك في إسكندرية ، فكُلِّم السلطان فى هذا الأمر ، فأبَى، ثم رُوْجِعَ ، وسُئِلَ في إطلاق العزيز يوسف بن الأشرف بَرْ سْباي ، والمنصور عثمان بن الظاهر جَقْمَق ، فأجاب وأرسل محمداً [1] النِّشابي بِأَمر المؤيَّد ، واثنان مِن الخَدَم في شأن العزيز ، والمنصور ، في إسكانهما في المدينة ، والإِذْنِ لهما في الرّكوب يوم الجمعة إلى الجامِع ، ونحو ذلك داخِل البلد [2] .

وفي هذه الأَيَّام بث الزَّيْنُ بن الكُوَيْز الإِسْتَدَّار رُسَلَه في البلد ، فَحَشروا له كلَّ مَنْ يَتَّجرُ في البَهَار ، فرمى عليهم فلفلاً ، وتَعَدَّى الضَّرَرُ إلى غيرهم حَتَّى قِيل أَنَّهم يرمون على المدارِس ، ويأخذون ماها مِن مال ، وَمَدَّ الجندُ أطماعهم إلى الأَوْقافِ ، فأخذوا شيْئاً كثيراً مِن ذلك ، وأَمَّا أوقاف الأشرف وأتباعه فلم يُبْقُوا منها شيئاً ، والله المسؤول أَنْ يكفى شرهم .

وفي يوم الثلاثاء سادس الشهر ، وَصَل دُولات باي النَّجْمي مِن عِند نائب الشّام جَانَم ، وكان قد أُمر أن يكون معه مُسَفِّرَاً له ، فأخبر أنّـه في بِلْبَيس ، وأن ابـن شعبـان منعـــه مِـن السَّيْر ، وحصل بينهما حَرَكَـةٌ قُـتِل

---

(١) جاء فى « الضوء اللامع » (١١/ ٢٣٠ ـ ٢٣١) ، الشمس محمد بن صاحب الزمام.

(٢) الخبر في : « النجوم الزاهرة » (١٦ / ٢٥٩) ، و«بدائع الزهور» (صفحات لم تنشر) (١٠١).

فيها اثنان مِن جماعَةِ جَانَم ؛ وسبب ذلك أنَّ السُّلطانَ كان أرسل إلى ابن شعبان وغَيْرِه مِن العَرَب ، أن يمنعوا نائبَ الشام مِن القدوم ، فكأنَّه لَّما فاتهم ذلك أرادُوا أَنْ يُرُوهُ بعضَ ما كانوا يفعلَونَه ، وأرسل يقول : إنَّه عَبْد السلطان ، وأنَّه يَمْتثل ما يأمُر بهِ ، ولو أمَرَ بأنْ يُحْبس في إسْكندرية أطاع.

وفي هذا اليوم قُبض على عيسى الغندور المغربي ، وسُحِبَ إلى بيت الحُسام بن حُرَيْز قاضي المالكيَّةِ ؛ وسبب ذلك ، ما تحرَّرَ بَعْد أيّام ،، وهو أَنَّ الأمير بُرْدْبَك كان أوْدَع عِنْدَه عشرين ألْفَ دِيْنار ، فأراد أَنْ يَغْلِبهَ عليها ، فقال له عِندما أُطْلِق مِن التّرْسِيم ينبغي أنْ تَتَصَدَّق لهذا الفَرَج العظيم بمالٍ كبير . فقال له : تَصَّدق مما عِنْدَك بمائة دينار . فقال له : ما وقع له أمْرٌ عظيم لا يُقابل بهذا النّزْر . فقال : مائة وخمسين . ولم يَسْمَح له بأكْثَرِ ، وكان كما تقدَّم مِن شياطين الإنس ، وكان الأنْصاري مثله في الشَّيْطنة ، وكان بينه وبين بُرْدْبَك عَدَاوة كبيرة ، فَلمَّا وَلِيَ استاذه السَّلْطَنَة ، وسعى الأنصارِيُّ في مصاهَرَة يونُس الدُّوَيْدَار لهم ؛ ليحميه مِن بُرْدْبَك، لَفّه بُرْدْبَك فانتهزها الأنصارِي ، وكان كلُّ منهما يَمْكُر بصاحِبه، فَغَلبه الأنصارِيُّ . فأوثقه إلى أنْ امتحن بعد نظره للجيش من الأشرف بما تَقَدَّم، فبذل بُرْدْبَك جهدَه في الذّبّ عنه ، وساعَدَه بخمسمائة دينار ، ثم رَتَّب له بعد أن خَلَص ـ وكان لا زِماً بيته ـ في كلّ شهر عشرة آلاف دينار ، فصار إليه في غايَة الأمْن ، وكان يُطْلعه على أسْرارِه ، والأمر كما قيل :

لا تــأمَنَن امـْرَأً أسكـنت مُهْجـتَه
غَيْظاً وإنْ قلـت إنَّ الجـرحَ يندَمِـلُ

فلما انحرف عيسى مِن كونه لم يطعمه ما أودعه أو أكثره استشار الأنصاري فيما يفعل ، فوقع مكرهما على فَتْح باب الشَّرِّ عليه بها ، فأرسل

بُرْدَداره إلى الوالي فأحضر جبْلِيَّيْنِ مِن أَعوانِه ، فأُمِرَا بالقبض على صهر عيسى زوج ابنته ، وأن يُدَّعى عليه عِند الوالي بأنه سرق ثمانمائة دينار مِن اثني عشر ألف دينار هي عنده في ستة أكياس في كلّ كيس ألفا دينار [٢٨٢] ، وهي وديعة للأمير تِمْرَاز الساقِي الأشرفِي الذي تلمّذ له ، فَسُئل تِمْرَاز ، فأنكر ، فقال : هي للأمير بُرْدْبَك ، وسُجِن صِهْرُه في تُهْمَتِهِ ، فتعصَّب بعضُ المغارِ بهَ لِصْهِرِه ، ورفعوا أمْرَه إلى المالِكي ، وكان يسمع عنه ما يتعمده من الأمور المؤذِنَة بالزَّنْدَقَة ، مع ما شاع عنه مِن قرب أَنَّه جمع عنده بناتٍ أبكاراً نحو عشر لِيُرَبِيُهنّ ، ثم إِنَّه افْتَضّ منهن عِدّة ، ولاط ببعضهن ، وذكرَت ابنتهُ أنّه يراودها عن نفسها .

وكان عيسى قد تزوّج قبل ذلك امرأة البدر محمود العيني ، ثم اطّلعت على أنّه ما تزوّجها إلاّ ليأخذ مالها ، فتسبَّبت في فراقِه ، بعد العْلِم بعدم دِيْنِهِ ، وكانت خَوَنْد امرأة الظّاهِر هذا مِن ألْزَامِها ، فأتت ابنةُ عيسى إلى امرأة أبيها ، زوْجَةَ العَيْني ، فَشَكت إليها ما حَلّ بزوجها مِن أبيها ، وذكرت لها قبائحه ، فأوصلتها إلى زوجةِ السلطان ، وأخبرتها بذلك ، ولما أحضر إلى بيت المالِكي ، كان غائِباً في مِصْر ، فلّما أُخبر أرسل يَمْنع نُوَّابَه مِن سماع الدّعْوى عليه ؛ ليكون هو المتُولِّي لذلك ، فجاء تِمْراز إليهم ، وتهدَّدَهم عن القَبْضِ عليه ، وقال : إنّه هو الذي سجن صِهْرَه ، وأَنَّه هو الغريم .

وكان إبراهيم أخو الأنْصاري ، والقاضي عبد الغفَّار ، والشيخ [1]

---

(١) هو: إبراهيم بن محمد بن محمد بن عمر بن يوسف بن عطية (أو عطية بن يوسف) ، القاضي برهان الدين ، الَّلقاني ثم القاهري الأزهري المالكي ، ولد في أوائل سنة ٨١٧ هـ في بالقهوقية من أعمال لقّانة ونشأ بها ، ثم تحول إلى القاهرة ، وانتفع بعدد من علمائها فى فنون مختلفة : =

برهان الدين اللَّقَّاني ، وشَخْصٌ يُقال له : ابنُ عبد الحميد مِن أصحاب الأنْصاري ، قد ذهبوا إلى بيت المالِكي ليُثْخِنُوا جِرَاحَ عيسى ، وَيَشْهدوا عليه بما سمعوه منه ، فذهب الأنصاري إلي بيت المالِكي، فَخشَّن لجماعته القولَ ، وَسَبَّهم ، وقال : من شَهِد منهم على عيسى بشيء فأنا أَشْهَد أَنَّ بَيْنه وبَيْنَه عَدَاوةٌ تمنع قَبُولَ الشهادَةِ فَجَبُن المالكي لذلك ، ثم أوصلوا الأمْرَ بالسلْطان ، وتبيَّن بَعْدُ أن عيْسى هو الذي أوصل ذلك بالسلطان ؛ وذلك أنه أمر امرأةً أَنْ تُخْبر السلطانَ أَنَّ عِنده لبُرْدْبَك عشرة آلاف دينار ففعلت ، فطلبه السلطانُ ، بسبب المال ، وسأله عمّا قالت المرأةُ ، فقال : هي عشرون ألف دينار لا عشرة ، فأَعْجب السلطانَ ذلك منه ، وَرسَّم عليه في طبقة الخَزَنْدار ، وتلطَّف بهم إلى أنْ مُكِّن مِن النزول إلى بَيْته بغير تَرْسِيم ، فأخذ منها ستة آلاف دينار ، وأَحضرها إلى الأمير بُرْدْبَك إلى المكان الذي سكن به بقصر الحجازيه ، جوار خَانِهِ ، ونام عِنده ؛ ينفي بذلك التُّهْمة عن نفسه عنده ثم في بكرة يوم الأربعاء سابع الشهر ، نزل الخَزَنْدار بمن يَتْبَعه ، فاحتاطوا على بيته ، وضبطوا ما وَجَدوا فيه ، فإذا هو ثلاثة عشر ألف دينار ومائة دينار ، فطالبوه بالباقي ، فقال : كان صاحِبه قد أَخَذهُ مِنِّي ، فطلعوا به وبا لمال بعد أن فَرَّق عليهم ذهباً وفضة ، وَقَلَ زلابِيَة ، وفَرَّق على بَعْض النَّاس ، ولم يُظهر الاكتراث بذلك فَلَمَّا أعْلموا السلطان بذلك أمر بقَبْضِ المالِ وإطلاق عيسى .

= في الأصلين ، والفقه ، والعربية ، وناب في الإفتاء والتدريس، مات في آخر يوم الاثنين ٩ محرّم سنة ٨٩٦هـ .

له ترجمة في : « الضوء اللامع » (١/ ١٦٠) ، و«نظم العقيان» (٢٩ رقم ١٤) .

وسمعتُ أنه كان رُسِم أن يُعاد إلى المالكي بعد فراغِه من المال ، فتقدَّم إليه وسارَرَه بشيء ، فرَسَمَ بإطلاقِه مُكرَّماً ، فكأنَّه تنصَّح له بشيء من جهة بُرِدْبَك أيْضاً فأثمر ذلك ما سيأتي .

ثم سمعتُ أنَّ الذي قال له : أنكم غافِلون عن بُرِدْبَك ، فإنّ عِنْده مِن المال العَيْن ما يَسَعُ نَفَقَةَ العسكر ، مع أنّه يعرف جميع حواصِل الأشرف وزوْجته وَوَلده فرصُّوه وانظروا .

وأمّا الأميرُ بُرِدْبَك ، فإنَّه كان في هذا اليوم في حكم الأمْوات ، بل المجانين، لا يَعِي ما يقول ، وذلك أنهم كانوا قَرَّروا عليه للسلطان ثلاثين ألف دينار لِيعْفيه مِن النَّفْي ، فكان يوردها لهم قليلاً قليلاً ، إظهاراً للفقر، منها نقدٌ ، أو أنّه يبيع ما عِنده مِن الأمْتِعة ، فَهُتِك بها كان عِند عيسى ، وظُنّ أنّ له أضعاف ذلك عِند غَيْره سوى ما في حواصِله ، مع ما تكلّم الناسُ به في موجب مصاحبته له ، بعد طول تحذيره منْه ببيان زَنْدَقَته ، فكان يعتذر بأن يقول : إنَّه خبيرٌ بأحْوال الدُّنيا فلم يَطُلِ الزَّمانُ حتَّى أُذْهبت خبرتهُ بدنياه ، دنيا المغرور به وَدِيْنِه ، فحقّ له أن يتلو لَعَمْري إن كان عاقِلاً ﴿ يَـٰوَيْلَـتَىٰ(١) لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاناً خَلِيلاً ﴾ (٢)
وسمعت أنه إلى الآن يُتكلَّم بها يدل على استصحابه الغرور به ، فلا أدْرِي هل ذلك تَصَنُّع ، أو أَنَّه على حقيقته ؟! وهو الأقْرَب ؛ لأنَّ أهلَ الدُّنْيا وإنْ اشتدّ ذكاؤهم مطبوع على قلوبهم في كلّ أمر يباعد مِن الله .

وفي يوم الأربعاء هذا اجتمع المماليكُ السَّيْفِيَّة ، وذهبوا إلى الأمير

---

(١) في الأصل (يا ليتنى لم اتخذ فلاناً خليلاً) .

(٢) الفرقان / ٢٨

قَانَم رأس نَوْبَة النُوب ، فسألوه أن يُنْفق السلطان عليهم ، كما يُنْفق على مماليك السلاطين ، فلطف بهم إلى أنْ دفعهم إلى الدُّوَيْدَار الكبير [1] ، فذهبوا إليه ، ووقع بينه وبينهم مخاشنة ، فيقالُ : أنَّه هَرَب منهم .

وفي يوم الخميس ثامِنه ، جاء إلى الأمير بُرْدْبَك بَعْضُ الخدَّام ، فاجتمع به . وأَطَال المُكْث عِنْده ثم خرج مُغْضباً .

وفي ضَحوة يوم الجمعة تاسِع شهر شوال هذا ، أمر السلْطانُ بإحْضار بُرْدْبَك ؛ للتوكيل به [٢٨٣] واستخلاص ماله ؛ وذلك أنّه قال: إنّ بُرْدْبَك حَلَف له ، لمّا أَلْزَمه بالثلاثين ألْفا ، أنَّه ليس معه نَقْد ، ولكنَّه يبيع ما عِنْدَه مِن خَيْل وما يتبعها وأثاث وبَهَار ، ونحو ذلك فَصَدَّقه ، فلما ظهر ما عِنْد عيسى قال : هذا يدلُّ على أَنَّ معه مِن النَّقْدِ مالا يُحْصَى فإنَّ مَن يُودع عِند فقير غَريب عشرين الفاً ، يكون المظنون به أنَّ وَدَائِعَه عند خواصِّه مِن أَهْل البلَدِ وغَيْرِهم وحواصِله ودفائنه لا تُحْصَى ، وكان يتحرَّقُ عليه .

فأتاه المحتسب ، وهو الأمير تَنَم رَصاص ، ومعه جَمْعٌ مِن إخوته مِن مماليك الظّاهِر فأخذوه مِن قَصْرِ الحجازيَّة أَخْذاً عَنِيْفاً ، ثم وُكِلَ به في مكانٍ ضيّق مِن البَحْرَة التي بالقلعة [2] .

وفي يوم الجمعة تاسعه ، أُلْبِس الزَّيْن يحيى الإسْتَدَّار خِلْعَةً بالرِّضى ، ثم أُذن له في الإسْتَدّارِيَّة ، ثم أُلْبسَ خِلْعتها بعدُ ، وكان مِن أكابر

---

(١) وهو جانِبَك الظاهري نائب جُدَّة .

(٢) الخبر في « حوادث الدهور » (٤٠٥) . و«بدائع الزهور» (صفحات لم تنشر) (١٠١ - ١٠٢)، وفيها أنَّ السلطان قرر عليه مائة ألف دينار يردّها إلى الخزائن الشريفة .

القائمين على الأمير بُرْدْبَك[1].

وفي يوم السَّبْتِ عاشِره ، طُلِب مِن الأمير بُرْدْبَك مائتا أَلَفْ دينار ، وهُدِّدَ إنْ لم يَفْعَل ، فلم يُجب إلى شيء ، فأَحْضر له الوالي بآلات ، العقوبة، وَدَخل ، وأُغْلَق البابُ ، فلمّا لم يَبْق إلاّ الفِعْل ، حَضَر بَعْضُ الخدَّام يأمرُ بالكفّ عنه ؛ لأنّ خَوَنْد شقراء بنت النّاصِر فَرَج ، امرأة شَرِبَاش ، الأمير الكبير ، طلعت إلى السلطان ، فشفعت فيه ، وقالت : مَهْمَا طُلب منه ، أنا أبيع أمْتِعَتِي وأَزِنْه عنه . فقال السلطانُ : يعُطي مائتي ألف ، ولم تَزَل تُرَاجِعَه حَتَّي أنْزلَتْه إلى سبعين ألف دِيْنار ، أوْرد مِنها عِشْرين يتأخّر خمسون .

وشرع الأميرُ بُرْدْبَك يسألُ في نزولِه إلى بيت جانِبَك الدُّوَيْدَار الكبير ، ليحتال في أنْ يكفّ عَنْه شرَّه ، فإنّه عَلِم أنّ ذلك كله صُنْعه ، وكان المذكُور مِمَّن لا يُخْدَع .

فعلمت أَنَّ ذلك غَلَط ، وذُكِر له ذلك فلم يَنْفَعْه ، واستمَّر على عادَته مِن الاسْتبداد بعَقْله إلى أنْ أُجيب ، فوضعه في رُواق له يشرف على بستان وعمل معه ما كان يُظنّ ، فلم ينفع فيه شيء ، وكان كلَّ يَوْم تأتيه شَدّةٌ جديدةٌ ، حَتَّى أكلَ يَدَيهْ، ؛ نَدَماً على النزول إليه ، وكان الدُّوَيْدَار الكبير، والشَّرَف الأنْصاري يترادَفَان على أذَاه ، مع إظْهار النَّفْع ، وطابَق الواقِعُ حينئذٍ قولَ الشَّاعِر :

لا تـأمَـنَن امـْرأً أَسْكَـنْتَ مُهْجَتَـه

غيـظاً وإنْ قـُلْتَ إنَّ الجـُرْحَ يَنـْدَمِـلُ

---

(١) الخبر في : « حوادث الدهور » (٤٠٦) ، و«بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر). (١٠٢) .

وكنتُ إذا حَذَّرته مِن الأنْصاري يقول : ستنظر وتكتب في تاريخك ، يُشِيْر إلى أنّه هو الذي يَغْلِب ، فغُلب وانْقَلب صاغِراً ، لتقريبه العَدُوَّ ، فَيطَّلِع على عَوْراتِه ويأخذهُ مِن المأمَنِ ، ثم صار بعد نَكْبَة الأشرف له ، ومساعدته إيّاه إذا حُذِّر منه قال : أَنا ساعدته ، وأرسلتُ له خمسمائة دينار ، وَرتَّبْتُ له كُلَّ شَهْرٍ عَشْرَةِ آلاف دِرهم ، وذلك قيمة نَيِّفٍ وثلاثين دِيْناراً ، ولم يزل الأمْرُ به يتزايدُ إلى أنْ كان آخِر ما قال السلْطانُ : أنّه لابُدّ مِن بَذْلِه مائة ألف دِينار ، خارِجاً عَمَّا أُخِذ مِن عِنْد عِيْسى ، وإنْ لم يفعل، ولم يُبَادِر ويُعْطِي مِن المدفون تحت الأرْضِ أسْلَمه للوالي ليعاقِبَه .

وكان النَّاسُ يرحمونه ، ويدعون له ، فَلَمَّا نَّفَقت قِصَّةُ عِيْسى ، قَسَت عليه القلوبُ ، ومِن أَغْرَب الأمور أنَّ كاتب السر حدثني : أنه كلما وقع تحذير المؤيَّد من أمْرٍ من الأمور وَهَّى له بُرِدْبَك ذلك الأمْر ، وسعى في غروره بكل ممكن ، ويقول : مهما أَتَى مِن الأشرَفِيَّة مِن ضَرَرٍ كان مِنّي ، مع أنَّه كان في غايَة التَّعْظِيم لبُرِدْبَك ، بحيث أنّه لا يُسَمِّيه إلاّ أغا [1] ، ولايَقْطع أمْراً دُونَه ، فإنْ وافقه فَذَاك ، وإلاَّ رَجَع عَن رأيِهِ إلى رأي بُرِدْبَك، وأنّه مِن أغرَب ما اطُّلِع عليه في ذلك أنّ جانِبَك حاجِب الحجَّاب بدمشق أرسل دُوَيْدَارَه إلى السلْطان برسالة وحَمَّلَه مشافهة بأنَّ جَانَم خارِجٌ عَن الطَّاعَةِ ، فَليَبْرُز أَمْرُه فيه بما أرادَ فإنّه وأمراءُ دِمشق يصيرون إليه، فمنعه مِن إيصال هـذا ، فشكا ذلك إلى كـاتب السِّرِّ ، ثم إلى الدُّوَيْدَار الكبير يونُس وهو مريض ، فأرْسـل إلى كاتِب السـّر ، وأمَرَه أن

(١) أغا : في اللغة التركية الشرقية الأخ الأكبر ، ويعنى بها أيضاً الأب أو الجد أو العم ، ومعنى أغا في التركية العثمانية الرئيس أو الشيخ أو السيد ، وكان يحمل هذا اللقب صغار الضبّاط إلى رتبة يوزباش، كما يطلق هذا اللقب على خصيان القصور السلطانية ، كما كان قائد الإنكشارية يطلق عليه أغا ، «الموسوعة العربية الميسرة» (١٧٤) .

يُبَلِّغ السلطان عن أمر الرسول ، قال : ففعلتُ ذلك ، فكان كلَّما طَلَع يَزْجُرُه بُرْدُبَك ، ولا يَدَعُه يصل إلى السلطان . قال : وَحَدَّثني ناظِرُ الجيش عن دُولات باي المعروف بسَكْسَن[1] ، وهو مِن رؤوس الأشْـرَفِيّة أنّ بُرْدُبَك قال لما ضَيَّقوا عليه بعد أمر عيسى : هكذا يُفْعَل بي ، ولولا أنا لم تَصِلوا إلى مُرَادِكم، ونحو هذا مما هو صريح في أنَّه هو الذي غَرَّ المؤيِّد .

وأخْبَرني عنه قاضِي القضاة ، عز الدين الحنبلي ، أنّه قال : عاشرت استاذي الأشرف خَمْساً وثلاثين سنة ، فكانَت فيه أربعُ خِصال هي مِن أقْبَح الخِصَال ، وهي : البُخْلُ والفِسْقُ ، والجُبْنُ . قال : ونسيتُ الرَّابِعة . ورأيت المُشَار إليه يتعجَّبُ مِن ذلك ، ولا سيماً مع شِدَّةِ إكْرام الأشرف له، فقلت له : على أنّه والله كاذِبٌ في أمْر الجُبْنِ ، فإنِي والله عاشَرْت الشُّجْعَان مِن أكثر أَصْنَافِ النَّاس وما رأَيْتُ في زمانِنا أشْجَعَ مِن الأشْرَف ، ولقد خَبِرْت هذا غايَة الخَبَر في وَقْعَةِ رُودُس .

وصـول تَمُرْبُغا

وفي أواخِر يوم السبت[2] هذا ، وصل الأمير تَمُرْ بُغا ، أحَدُ الظاهِريّة مِن مكّة المشرّفَة ، وكان منفياً بها ، فنزل في تربَةِ الملك الظاهِر بَرْقُوق بالصحْراء ، وسلَّم الناسُ عليه هُنالِك ، ثم طلع إلى السُّلْطان بكرة يوم الأَحَدِ ، حِادي عشْره ، فألْبسه كامِلِيَّة ، ثم نزل إلى بيته الذي بين مَدْرَسة حسن ، ومدرسة الجائي[3] ، في جانِب مدرسة حسن ، الذي كان

---

(١) هو : دولات باي سكسكان الأشرفي بَرْسْباي ، توفي في شعبان سنة ٨٨٣هـ بَحَماة ، وكان أتابك العساكر بها ، وكان من أعيان الأشرفية ، ولا بأس به « بدائع الزهور (طبعة بولاق) (٢/ ١٨٤)

(٢) «في النجوم الزاهرة » (١٦/ ٢٦٠) في يوم الأحد ١١ منه .

(٣) مدرسة الجائي : تقع في سويقة العزى من سوق السلاح على يسرة الذاهب من الدَّرْب الأحمر يريد جامع السلطان حسن ، أنشأها الأمير سيف الدين الجائى في سنة ٧٦٨ هـ ، وتعرف اليوم بجامع الجائي .

« خطط المقريزى » (٢/ ٣٩٩) ، و«الخطط التوفيقية » (٤/ ٧١ـ ٧٢ ، و٥/ ٥) .

[لِبُرْدُبَك] [1] دُوَيْدَار الأَشرف ، وترددَ الناسُ للسلام عليه ، فسبحان المُذِلّ المعِزّ [2].

وبلغني أنّ الجند كانوا أرسلوا إليه حين اتّفَقُوا على إزالة المؤيَّد في أواخِرِ شعبان فوصَل الخَبَرُ إليه في نصف رمضان ، ثم سافَرَ هو في ثامِن عَشْرِهِ .

وفي هذا الحد ، رُسِم بأن يخرج القاضِيان الحنَفِيّان ، الحميُد بن قاضِي بغداد ، والحُسَام بن بُرَيْطِع ، بأنْ يُسافِرا مِن القاهِرَة لإجل العلاء بن قاضِي عجلون ، قاضِي الحنفية بدمشق ، فإنّه لما أورد لهم ما ألزموه به ، وهو زيادَةٌ على أربعة آلاف دِيْنار للسلطان وغيره ، سأل في ذلك ، فأجيب بمساعَدَة تَنَم الأشْرَفي ، أحد رؤوس النُّوب .

وفي يوم الاثنين ثانِي عشرِ الشهر أُلْبِس الزين يحيي الإسْتَدَّار ، خِلْعَة بالإسْتَدَّارِية ، وجانِبَك الظُّرَيِّف الدُّوَيْدَار الثاني خِلْعَة بنظر الخانْقاه الصَّلاَحِيَّة ، المعروفة بسعيد السعداء ، وجُعِل الأميرُ قَرَاجَا الذي كان والياً رأس نَوْبَة ثانياً ، وقُرِىء تقليد السلطان [3] .

وفي يـوم الثلاثاء ثـالِث عشره ، خُلِع عـلى الزَّيْن نـاظِر جيش غـزَّة ، وأخيه السَّعْد ، وكان [لهما] [4] في ذلك أمـر عظيم ، [وتبعهما] [5] خـلق

---

(١) في الأصل (بُرْدُبَك) والتصحيح من مفهوم السياق .

(٢) الخبر في : « النجوم الزاهرة » (١٦ / ٢٦٠) ، و«بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (١٠٢).

(٣) الخبر في « حوادث الدهور » (٤٠٦) ، و«بدائع الزهور» (صفحات لم تنشر) (١٠٢) .

(٤) في الأصل (لهم) والتصحيح من مفهوم السياق .

(٥) في الأصل (وتبعهم) والتصحيح من مفهوم السياق .

كثيرٌ ، يطلبون رفدهما ، وكانا مشهورَيْن ، بالمكارِم ، وبلغني أنهما تكّلفا خمسة عشر ألف دينار .

وفي هذا اليوم [1] وَلَّى السلطانُ ، الأنْصَاري وكالَتَه الخاصَّة ، وهي وظيفة الظُّلم التي كان النَّحَّاسُ يعملها ، فذهب إلي خَوَنْد امرأة الأشرف، وأخْبَرها أن السلطانَ ، يطلبُ منها مالاً ، وأَسْمَعها مالم يكن في حِسَابِها مِن الكلام الغليظ ، وشَفى بعضَ غَلِيْله مِنْها ؛ فإِنَّها هي التي كانت سبب محنته لحَظٍّ نَفْسي كان بينها وبين زوجته خَوَنْد بنت شَرِبَاش التي كانت زوجة الظاهر ، وشرعت تعاملها معاملة مَن ليس في قَلْبِه رَحْمَةٌ ، ولا يَحْسِب زوال النِّعْمَةِ ، فلهذا باشر خِطَابها بالإساءة وتهديدها إنْ لم تُوْرِدْ ما قُرِّر عَليها الضَّرب والسِّجْنِ وأنواع الإهانات ، ولقد كانت جديرةً بهذا ؛ فإنها ما أبقت شيئاً مِن أمور المُلْك إلاّ دَخَّلَتْ نَفْسَها فيه ، بحيث أَنَّها كانَت هي السلطان لا إيْنَال .

وبلغني مِن غير طريق أنها كانت قليلةَ الصلاة جِدًّا ، تتشاغَل عنها إلى أنْ تفوت ، وَصَحّ عَنْ ابن أخِيْها علي بن خليل بن خَصْبك أنه لا يُصَلِّ شيئا حتَّى أنَّه لا يصلي الجمعَة إلاّ قليلاً ، ولقد صحّ أَنَّ غلمانه يفرشون سجادته في بعض أيّام الجُمَع في الجامع ، فلا تزال كذلك ، حَتّى يفرغ الناسُ مِن الصَّلاة ، فيأتي الغلمان فيَطْوُونها ، فلا يكون في ذلك إلاَّ تعطيل البُقْعَةِ مِن مصّل وثبوت فضيحته ، بعدم الصَّلاة.

وبلغني عن ابن الأمير برُدْبَك ، وهو ابن بنت خَوَنْد أنَّه قليل الصلاة، قال القائل ، وهم كلُّهم (يَعْني بني خَصْبَك) أهلُ بيت معروفون بِقِلَّة الصَّلاةِ ، نسأل الله العافِيَة .

---

(١) في « حوادث الدهور » (٤٠٦) في يوم الأحد ١١ شوال .

وفي يوم الأربعاء ، رابع عشره ، اختفى ناظِرُ الخاص ، الأمير زين الدِّين عبد الرَّحمن بن العَلَم بن الكُوَيْز ، ورمى السلطانُ على المَرَسْتَان المنصوري فلفلاً [(١)] ، فأبي الأميرُ الكبير شَرِباش ، فقال : إمَّا تأخُذُوا الفلفل ، وإمَّا أن تُقْرِضونا مِن المَرَسْتان ألفي دينار ، وصَمَّمَ على ذلك ، فرأى ابنُ الجيْعَان ، وهو أَحَدُ المباشرين به أنَّ أَخْذَ الفلفل بالثَّمَنِ أَوْلى ، فأَخَذَه ، فَعَلِمَ الناسُ أن ابن الكُوَيْز كان في رَمْي الفلفلِ على التَّجار مُكْرَهًا ، وأن ذلك إنما هو مِن السلطان نَفْسِه .

وعيّن الشرف موسى الأنصاري لنظر الخاص ، وختم على بيوت الزَّيْن ابن الكُوَيْز وحواصله [(٢)] .

وفي يوم الخميس ، خامِس عشره لَبِس الشَّرَف الأنصارِي خِلْعَةً بنظر الخاص والكسوة للكعبة الشريفة ، ووكالة بيت المال ، وابنه البدر محمد خِلعَة بنظر الجوالي ، ولبس الدُّوَيْدار الكبير جانِبَك ناظِر جُدَّة بأَنَّه صندفاً في جانِب المحَلةِ الكُبْري .

وفي يوم الخميس هذا ، سَافَر الحميد بن قاضِي بغداد ، الشهير بابن أَبي حنيفة .

وفي يوم الأربعاء رابع عشره ذهب خادِم المدرسة الجمالِيَّة محمد بن عبد الدائم أبن اخت مَدْين ؛ ليزور قَبْر [٢٨٦] خالِه في زاويته ، وأَخَذَ معه ناساً كانوا التفوا عليه ، فعمل فتنةً كبيرَة ، وذلك أَنَّه لمَّا مات خالُه أراد أَنْ يقومَ مُقَامَه في الزَّاوية ، فلم يمكّنه أصحابُ الشيخ ، وأقاموا

(١) في « حوادث الدهور » (٤٠٦) البَهَار .

(٢) راجع الخبر في : « حوادث الدهور » (٤٠٦) ، و«النجوم الزاهرة » (١٦/ ٢٦٠) ، و«بدائع الزهور» (صفحات لم تنشر) (١٠٢) .

وَلده، لما يعملون مِن هذا مِن الخِزْي والمكْرْ مع إظهار المسْكَنَةِ والاستماتَة، ووضْع الذِّقْنِ على الصَّدْر ، فجاء إلى الجمالِيّة ، وفَتح فيها بابَ ذِكْر ، فالتفَّ عليه ناسٌ ، وكثروا ، ثم انْفَضُّوا عنه ، ثم لم يزل يتألَّف بَعْضَهم حتى لازموه وتَلْمذوا له ، ثم انتقل إلى مدرسة استحدثتها خَوَنْد زينب في ناحِيَةِ الكافوري ، ولم تكملها ، ولم يزل حَتَّى ظَنَّ أنَّ أصحابَه اشتَّد ارتباطُهم عليه ، ثم ذَهَب بهم في هذا اليوم إلى الزَّاوِية ، مُظْهِراً الزِّيارة ، فتَبَيَّنَ على ما نُقَل عن أهل الزَّاوِيَةِ أنَّه ما جاء إلاَّ للانتقام ممن كانوا منعوه، فإنَّه ضَربَ واحِداً منهم يُقال له : عبدُ رِّبنا ، وبالغ في ذلك، فأعَانَه بعْضُ الفقراءِ ، فضَرَبَه أتباعُه ، فَتَجَّمع الفريقان ، فإذا أتباعه متسلِّحون بِعِصي وقبا قيب [1] وسكاكين ، فوقع بين الفريقين ضَرْبٌ كبير أَفْضَى إلى جِراحِ وشِجَاج ، ثم أَغَلق أهلُ الزَّاوِيَة بِابَ الدَّرْب وأبواب الزّاوية ، فأَحَسّ هو قبل ذلك فهرب ، فلما رأى أَصْحابُه أَنَّهم قد حُصِرُوا تَجَمَّعوا وعالجوا بابَ الدَّرْب ، ففكُّوا مسامِير صبَّتِهِ ، وذهبوا .

فأرْسل الفقراءُ إلى النَّاظِر وهو سيّدي عبد الرحيم بن البارِزي ، فَحَضر ، فَقَصُّوا عليه ذلك ، فَذَهب إلى صِهْرِه الأمير يَزْبُك ، وكان يعتقـد الشيخ محمد الشويمي ، وهـو مِن أَكـابِر فقـراء الشْيـخ مـَدْيَن ، فأرسل إلى ابن اخته ، فَغَيَّب وظفروا ببعض أتباعِه ، فضربهم الأميرُ يَزْبُك ضرباً كثيراً .

هذا ما أخْبَر بِهِ أَهْلُ الزَّاوِية عن سبب الفتنة ، وأمّا هو وأتْباعُه ، فأخْبروا أنهم دخلوا ، فسلَّموا وتأدَّبوا مع أهل الزّاوِية ، فأجابوهم بالكلام

---

(١) قباقيب : نِعال تتخذ من خشب .
« محيط المحيط » (٢/ ٧١٢) .

القبيح ودار الكلام حتى قَبَض ابنُ أخت الشيخ على لِحْيَة عَبْد رَبِّنا ، فجاء أصحابُه فضربوا ابنَ أخت الشيخ ، وأصحابه ، والعلم عند الله . ولمَّا هرب واتَّفَق لِأصحابهِ مِن الضَّرْب في بيت الأمير يَزْبُك ما اتَّفق ذهب هو إلى بيت المالكي فكان جهد المالكي أن لا طف الأمير يَزْبُك حتى أطلقهم مِن سِجنٍ كان سجنهم به ، واستمر هو مختفياً خَوفاً مِن الأمير يَزْبُك .

وفي هذا الحد ، أَتَى الخَبَرُ إلى القاهِرَة أَنّ إسماعيل بن عبد القادر ، شيخ جَبَل نابُلُس بيَّتَ ابنَ الجَيُّوسي (بفتح الجيم ، وتشديد التَّحْتَانِيَّةِ وبعد الواو سين مهملة) وهو شيخ بعض الجبل ، فَقَتل مِن جماعَتِه نحو أربعين نَفْسَاً وهرب كلٌّ منهما مِن بلادِه ؛ وسبب ذلك أنّ ابن الجَيُّوسِي ، كان يُظهرُ فِي أَوّل أمْرِه الجَودَة ، ثم أبَان عن مكْرٍ وحَرَكَة كبيرة تَدُلّ على أَنَّه يريد العلوَّ ، فأحْدَث على تلك البلاد مَظْلَمةً وجَبَاها ، ثم غار لذلك الشَّيْخُ كمالُ الدين بن أبي شريف عالِم القدس في زمنه ، وكان بالقاهِرة ، فأخرج مرسوماً مربَّعاً بإبْطال ذلك ، ثم لما استحكمت الفِتَنُ بين أهْل الدَّوْلة ، وتمرَّد نائِبُ الشَّام ، وأراد إذلال بني عُبيد المشهورين الآن بِبني عبد القادر ، لم يطعه إسماعيلُ ، وحذَّر منه ، وخاف غائلته ، فخطّ ابن الجَيُّوسي إلى نائب الشَّام ، وصَاحَب خَزَنْداره ، واستمال مِن أعيان بني عُبيد شخصاً يُقال له صَعْب ، فجمعهُ بنائب الشام ، فخلع عليه خِلعَة المشيخة لمَّا تحرَّك إلى نحوَ القاهِرة ، فَلَمَّا عَلِم إسماعيلُ أنّهم قد ولَّوا بِلادَه ظُهُورَهم صَبَر حتَّى ظَنَّ أنهم اشتغلوا بفِتْنَتهم ، ثم طَرَق ابنَ الجَيُّوسِي ، فكان ما ذُكِر ، وهرب ابنُ الجيوسي إلى الرَّمْلَة ، وغاب إسماعيل عن البلاد.

ثم حَدَّثني من كان في تلك البلاد أَنَّ البيَات لم يكن لابن الجَيُّوسي ؛ وذلك أنَّه أظْهر لإسْماعيل الوِدَّ والرِّقَّةَ ، وإنما المبيت لإهْل وادِي بني زيد (بين نابُلس وبين القدس) ، وأنهم هربوا منهم ، فأفْسَدوا بلادَهم ، وقتلوا منهم اثنين مِن أكابِرهم ، ولم يزالوا يطردونهم إلى قُرْب القُدُس ، فخرج نائبُ القُدس في أهل القدس ، وكان يُبْغِض إسماعيلَ ، فقال لهم : هذا يريد بلدكم ، فهزموه ، وشَذَّت مِن جماعة إسماعيل فِرْقَةٌ ، فَقُتِل منهم ما بين عشرين إلى سبعين ؛ وسبب ذلك أنّ الجمال يوسف الصُّبَيْبي خَزَنْدار نائب الشام كان دار في تلك البلاد في شعبان فَوَلَّى شَخْصاً يقال له : علي بن حسن مِن وادِي بني زيد شَيْخاً على الوادِي ، وكان مِن جبال نابُلُس جماعات مفرقون في لُدِّ والرَّمْلَة وغيْرها ، فنادى لهم : من أراد الجماعة والرِّعايَة والنُصْرَة ، فعليه بوادِي بني زيد ، فقصد إليه كلُّ مَن كان مَطْرُوداً مِن بِلادِه ، ثم قصدوا بَعْضَ أعْدائهم في جبل نابُلُس ، فقاتلوهم، فأراد إسماعيل قتالهم ، ثم خشي عواقب السلطان ، فصبر ليرفع الأمر إليه ، فلما سار نائب الشّام إلى مِصْرَ أراد هو وخليل بن أبي غازي بن مشّاق بيَاتَه، ثم خافوا عواقب الأمر ، ولم يكن بلغهم أمر المصريين ، فكفُّوا . [فلمَّا] [1] جاز غَزَّة سائِراً إلى مِصر ، بيَّت اسماعيل هؤلاء ؛ بما كانوا أفسدوا في بلادِه ، ثم هَرَب هو وخليل ابنُ مشّاق ، لأنّهما كانا يخافان نائِب الشَّام ، وكان لا يَرْضى مِن أَحَدٍ إلاّ بالوفود عليه ، ولو أرسل له من المالِ ما يملأ الأفاق .

وفي هذا الحّد ، عُيّن خَيرِبَك الذي كان والي القاهِرة ، ثم نائِب القَلْعَةِ

---

(١) ما بين الحاصرتين إضافة إقتفاها السياق .

لِنيَابَةِ غَزَّة ، وَعُيِّنَت نيابة قلعة الجبل لسودُون [1] القَصْرَوي .

[٢٨٥] وفي هذا الحد ، بلغنا أنّ جَانَم ، نائب الشام كان يُفسِد في رجوعه ، بقطع الطريق ، وإخافة السابلة ، حتى أنه لقى جماعةً مِن كَرْك الشَّوْبك قاصِدين إلى القاهِرَة ، فأمرهم أنْ يخدموا معه ، فاعْتلُّوا بأنّ لهم أشغالاً هم متوجهون [إليها] [2] فاستلبهم . وبلغنا أن إسماعيل بن عبد القادِر جَمَع عليه أَهْلَ جبل نابُلُس ليُحارِبَه .

وفي هذا الحد ، جَدَّد السلطانُ مِن العوائد أنْ يرسل إلى كاتِب السّر ، وناظِر الجيش في كلّ جمعة مرتين يَطْلب حَلْوى ، فَيُرْسل إليه بما يكون ثمنه نحو خمسة وثلاثين ديناراً ، فعظمت مَشَقَّة ذلك جِدًّا ، وَعُرِف مِنْ فعْلِه هذا ، ولم يتمكن مقدارُ غرامه بالظلم وَعِشْقِه له ، فالله المسؤول في كِفايَةِ شَرِّه وحَسْم مادَّةِ أَمْرِه . ثم قِيل : إنَّ ذلك لَيْسَ مِنه وإنّما هو ممَّن ينامون عِنده ، يحرسونه ، وهو مغلوب معهم .

وفي يوم الاثنين تاسِع عشر شوال هذا ، خَرَج المِحْمَل مِن القاهِرَة إلى البركة ، ورَكِب قُدَّامه القضاةُ والأمراء والفقراءُ على العادة [3] .

وفي ليلة الأربعاء حادِي عشريّه ، سافر الرَّكْبُ الأوّل مِن البِرْكَة

---

(١) هو : سودون القصروي قصروه من تمراز نائب الشام ، كان خاصكيا ، ثم من الدُّوَيْدَارِيَّة الصِّغَار ، ثم أمير عشرة ، ثم نائباً لقلعة الجبل ، ثم رأس نَوْبة النُّوب ، وكان في تجريدة سوار ، فجرح في الوَقْعة ، وحُمِل إلى حلب فمات بها سنة ٨٧٣هـ ، وقد قارب السبعين.

له ترجمة في : « الضوء اللامع » (٣/ ٢٨٥ رقم ١٠٨٠) ، و«بدائع الزهور » (طبعة بولاق) (١١١/٢) .

(٢) ما بين الحاصرتين غير واضحة الرسم في الأصل ، والتصحيح من مفهوم السياق .

(٣) الخبر في « حوادث الدهور » (٤٠٧) .

وأميرهم تِنبَك [الأشرفي [1] البوّاب [2]] .

وفى يوم الأربعاء هذا ، سافَر الحُسام بن بُرَيْطع الغَزِّي ، الذي كان قاضِي الحنفيَّة بدمشق ، بَعْد أن أراد أن يدَّعي على الأمير بُرْدُبَك بمالٍ أُهْدِي إليه ، وشاعت له أخْبَار عجيبة مِن مِثْل هذا ، وشكى على حقوقٍ عليه ، وَعُوِّق عن السَّفَرِ أيَّاماً ، وتبَيَّن أنَّه ذو مَطْل للحقوق ، ثم إنّ العلاء ابن قاضِي عجلون مطل بما تأخَّر عِنده مِن المال الذي أُلْزِم به حتى يخرج الحُسَام مِن القاهِرَة ، فرُسِم بإخراجه ، فأتاه دُوَيْدَارُ نقيب الجيش، ورأس نَوْبَةِ النُّقَباء عنده ونقيباً فأخرجوه ، وتوكّلوا به إلى الخانْكَةِ، فتَسَلَّمه خَفِيرُها وَهَلُمَّ جرا إلى أنْ يجوز قَطْياً .

وفي ليلة الخميس ثانِي عشريّه ، سافَر المِحْمَلُ وأميرُه مُغُلْباي طاز ، وقُسِّم المماليكُ الذين يُسَافرون للإقامَةِ بمكَّة سُنَّةً بين الرَّكبين الأوَّل والثاني ؛ لضعف الأميرين .

وفي هذا الحد ، وُلِّيَ القطبُ الخَيْضَري ، كاتِب السر بدمشق قضاءَ الشّافِعِيَّة بها عن الولي أحمد البُلْقِيني ، المشهور بابن تقيِّ الدِّين ، وكُتِبَ له أنهّ على قاعِدة الونائي ، أيّ أنَّ جميع ما كان يتصَّرف فيه الونـائي فهو لـه،

---

(١) ما بين الحاصرتين بياضٌ في الأصل ، والتصحيح من مصادر الهامش التالي .

(٢) هو : سيف الدين تِنبَك بن عبد الله الأشرفي برْسْباي المعروف بالصَّغيرّ أو البواب ، كان في دولة استاذه خاصكياً ، ثم في أيام ولده دواداراً ، ثم نكب بعده ، وأُخرج إلي البلاد الشامية ، ثم تأمّر عشرة في أيام الأشرف إينال ، وصار من جملة رؤوس النُّوب ، واستمر كذلك إلى أن ندبه الظاهر خُشقدم إلى تجريدة البحيرة مع من نَدب من الأمراء والجند فقتل هناك بيد عرب الطاعة في ذي القعدة سنة ٨٦٦هـ .

له ترجمة في : « حوادث الدهور » (٧٩٢) ، و«النجوم الزاهرة » (١٦/ ٣١٧) ، و«إنباء الهصر » (١٣٥) ، و«الضوء اللامع» (٣/ ٤٢ رقم ١٧٢)

مِن الرَّمْلَة وبَعْلَبَكَ ونحوهما ، وذلك مضافٌ إلى كِتابَةِ السِّرِّ ، ووكالةِ بيت المال ، وبَذَل على ذلك ألف دينار ، وكان قَدْ بَذَل على أيَّام المؤيَّد ثلاثةً فلم يُقْبل .

عزل صالح البلقينى شوال ثاني عشرية سنة ٨٦٥

وفي يوم الخميس هذا وُلِّي ، الشرف يحيى بن محمد المناوي قضاءَ الشَّافِعِيَّة بالدِّيار المصريَّةِ[1] ، ولُبِّس خِلْعَة بذلك ، ورَكِب معه كاتِبُ السِّرِّ ، المحب بن الشحْنَةِ ، وناظِر الجيش التَّقِي بن مُزْهر ، وبقية قضاة الشافِعِيَّة ، السعد الدَّيْرِي الحنفي ، والحُسَام ابن حُريز المالكي ، والعز بن نصر الله الحنبلي ، إلى الصَّالِحِيَّة ، ومِن الخلائق غيرهم مالا يحصى ، وسُرَّ الناسُ بولايته ، وعَزْلِ العَلَم البُلْقِيني ، وكان هذا الأمْر قد دُبِّر مِن حين ولاية الظاهِر خُشْقَدم ، وإنما أُخِّرَ ليَصُر البُلْقيني صُرَرَ الحرمين ، ولمّا أحس البُلْقِيني بذلك ، طلع إلى السلطان يشكو مِن أمْر الصَّرّ ؛ أنه لا يُوَفِّي المُتَحَصَّل مِن الأوقاف به ، ويطلب منه أن يَرْسم بصرف ما استُحق قبضُه مِن المستأجِر للذَّخِيْرَةِ السلطانيَّة ، مِن أوْقاف الحَرمين ، وكان الحجازيون قد أثبتوا فى ذهن كل كبير فى مصر خيانتَه ، وأنه باع نَيِّفاً ومائة وقْفٍ مِن أوْقافِهم ، فقال له السلطانُ : صُرّ لهم من مالِك .

ثم حدثني القاضِي كاتِبُ السرّ ، ابنُ الشِّحْنَة أنَّ الأنصاري ، وعَد عن المناوِي بخمسة آلاف دينار ناجزة ، وثلاثةٍ نسيئة ، ووَعد أنْ يُحصِّل مِن البلاقِنَة عشرة آلاف دينار ، وأنّ الخليفةَ أرسل إلى السلطان يشفعُ عِنْدَه في العَلَم على أنْ يخدم بخمسة آلاف دِينار ، وكان الخليفةُ في البَحْرة بالقلعة ، مِن حين جاء نائبُ الشَّام لم يُؤذَن له في بَيْتِه ، فأجابَه السلطانُ ، وأرْسل إلى المناوي يأمره بالكشْف عن ذلك .

فَلَّما كان يَوْم الخميس هذا ، وسمع الدُّوَيْدَار الكبير ، شقّ عليه أنْ

---

(١) الخبر في : « حوادث الدهور » (٤٠٧) ، و«بدائع الزهور» (صفحات لم تنشر) (١٠٣) .

يُقْطَع أمرٌ دونَه ، فأظهر الغيظَ مِن ذلك ، وقال : يَلْزم منه أن أصير عند الناس كذَّاباً ، فانزعج السلطانُ لانزعاجه ، وكان ضعيفاً ، لا أَمْر له مع الظَّاهِريَّة، فَقَدَّم رِضاه علي رِضى الخليفة ، وأرسل إلى المناوي فَتَمَّم أمره.

ثم أخبرني غَيْرُ كاتِب السر ، أَنَّ الذي سُمّي للسلطان مِن جهة المناوي إنَّما هو الفان فقط ، وليس ببعيد ؛ فإنّ كاتِبَ السرّ مُبْغضٌ للمناوي ، فلعلَّه اعتمد في الذي ذُكِر أموراً غير مُحَرَّرَة .

وكانَ هذا خاتِماً لدولة البلاقنة ، فعُزل العَلَم من قضاء مصر ، والولي من قضاء الشام ، وأبو السعادات مِن نَظَر سعيد السعداء ، في عشرة أيام، ولم يبق لهم رأسٌ قائمٌ ، أدام الله ذلك ، فإنَّهم خَرّبوا ، فلم يوجد فيهم صالحٌ .

لقد، أخبرني قاضـي القُضاة عـز الـدين أحمـد بن نصر الله الحنبلي ، أنّ العَلمَ هذا أُريد منه تنفيذ مكتوب لجماعَةِ ناظِر الخاص الجمال بن كاتِب شكم ، ليلة الأربعاء هذه ليلة عزله ، فَحَلَف أَنَّه لا يفعل إلاّ بثلاثين ديناراً ، فأعطيها ، وكان له مِن مثل هذا أمورٌ يَقْبحُ ذِكْرُها ، وله مع نُوَّابه حكايات في طلب الرِّشى لا يرضى بها الحجّاب ، وكذا جميع أقارِبِهِ .

وفي هذا اليوم نُقل الأمير بُرْدْبَك مِن بَيْتِ الدويدار الكبير جانِبَك ناظِر جُدَّة إلى القَلْعة مع الوالي إِيْنَال الأشقر ، والمحتسب تَنَم رصاص ، فاعتبر بما في هذا الأمر مِن العِبَر ، فإنه كان يرفع عيسى المغربي ، وينَوِّه بذكْرِه ، ويجتهد في تشييد أمْرِه وإعْلاء قَدْرِه ، مع مَعْرفَته بزندقته ، وتكرير نِسْبَة أهل الدِّين له إلى ذلك بحضرته ، وكذا كل من كان قبيح السِّيْرَة ، وكلما كانت سيرته أَقْبحَ كان إليه أَمْيَل ، مع أَنَّه يفعل في أصحابِهِ

الأقدمين مِمَّن لا يَشُك هو في علمه ودِينْه وحسْن سيرته ، وأَنَّ فِعْل الجميل معه شَرَفٌ ، والإخْلال به عار ، ضِدَّ ذلك ، مِن السَّعْي في إخماد ذِكْره ، وسفُول أمْره ، والأخْذ علي يده إذا أراد الانتصار ممن آذاه ، فَدَانَه الدَّيَّانُ ، بأنْ أَدْخَل عليه مِن الخِزْي والضّرَرِ أَضْعافَ ما كان يُدْخِله على ذلك الزِّنْدِيق وأمثاله من السرور ، وكذا كان يفعل استاذه ، فلقاه الله في وَلَده وعياله .

[٢٨٦] ولقد كان عيسى يُسَمِّي بُرْدْبَك البَهْلُول ، وهو في عُرْف أهل الزّمان المُغَفَّل الذي لا فِطْنة له ، ولا دِرْبَة بالأمور ، فهو الأبْلَه ، وكان هو يصف عيسى بالدَّهاء ، وغَزارَةِ المعْرِفةِ بأمور دنياه ، فتبيَّن بأمر العشرين ألف دينار قَوْل كلّ منهما ، وكان ينبز كلَّ مَن يصحَبه ويعتقده بلقب ، فكان يُلَقِّب ناظِر جُدَّة (الشُّكَيِّل) (بمعجمة مصغراً مُثقلاً) ، وخَوَنْد امرأة الأشرف (القاروشه) ، ولم تكن تعتقده ، والأنصاري (الزعفراني) ، ثم لمّا اشتهرت سماه (السالِك) إشارَة إلى اعتقاده له ، ويُسَمِّي نَفْسَه (الجَذْبَة) .

وفي هذا اليوم أيضاً ، رافع بعضُ المفسدين حَسَناً السُّنْباطِي إمام المؤيَّد ؛ بِأنّ عِنْده مالاً كبيراً للمؤيَّد ، فأُخذ إلى القَلْعَة وأُهين وقِيل أنَّه وضُع في عنقه زنْجِير .

وفي هذا الحد ، ذهبت خَوَنْد زينب إلى بيت الدَّوَيْدَار الكبير ، وبالغَت في التَّذَلُّلِ له ، والترقّق والخضوع ، حَتَّى أنها أمسكت ذَيْلَة ، ووضعته على رأسها ، فلما رأى ذلك ، قام لها وقبّل الأرض بين يديها ، ثم لم يُغْنِها ذلك شيئاً ، بل استمر عليها طلبُ ما أُلْزِمت به .

وفي هذا الحد ، رَسَم السلطانُ أن يُكتب إلى حاجِب الحجاب بدمشق، والأمير الكبير بها ، ونائب القلعة ، وبقية الأمراء أن يُلاقوا جَانَم

نائب الشام عِند قدومهِ إليهم ، ويمشوا في خِدْمَتِه ، ويُطيْعوا أَمْرَه ، وهذا بواسِطَة الدُّوَيْدَار الثاني جانِبك الظُّرَيِّف ، أحد رؤوس الأَشْرَفِيَّةِ ، مع أَنَّ نائبَ الشَّامِ وَلَّى على الرَّمْلَة ونابُلُس كاشِفاً مِن جهته ، يُقال له : خضر الكردي ، وَوَلَّى صَعْباً [1] بن عبد القادر على جبل نابُلُس ، مكان إسماعيل الشيخ ، كان مِن جهة السلْطان ، وشبانة بن مشَّاق مكان خليل، وحسين بن حسين عَلَى عَرَب حارِثة ، مكان طَرَباي ، وأوْهن كلَّ من كان مِن جهة السلطان ، وطَرَدَهم عن بِلادِهم ، ولم يُكْفِه ذلك ، حَتّى أرسْل ابْنَه في جمع كثيفٍ في طلب إسماعيل أين كان ، فوصلوا إلى كفر يَهُود في بلاد الصَّلْت ، وكان فيها ، فَعزم أهلُها على قتالهم عنه ، ثم رأوا الدَّفْع بالتي هي أحسن ، فخرجوا إلى يحيى بن النائب فتَلَقَّوه ، وضَيَّفُوه ، وجمعوا له نحو ثلاثمائة دينار ، وحلفوا أنَّ إسماعيل ليس عِندهم ، فَرَجع عنهم ، فدلّ هذا المرسوم مِن السلطان بعد هذا كله على غايَة الضّعْف ، فإنّ الذي يُظنُّ بنائب الشام أنه يصير مَلِك الشام كلّها، ولايعطيه سمْعاً ولا طاعَةً بغير هذا المرسوم ، فصار بهذا المرسوم آمناً من المُعَارِض وله الحجةّ .

وأخبرني بعضُ خَواصّ السلطانِ أَنَّه ربما أراد خلوّه ببعض أَصْحَابِهِ، فلا يَقْدِر ، فيأمر بإغلاق باب القاعَة التي بالدَّهِيْشَة فيُدَقّ عليه البابُ ، فإنْ أبطأوا بالفَتح دُقّ البابُ دَقًّا عنيفاً ، فلا يسعه إلاَّ الفَتْح ، قال : فسمعته يدعو على نفسه بالموت .

وفي هذا الحدَّ ، رجـع محمد بن النُّشَّابي مِـن سـفر إطلاق المؤيَّد مِـن

---

(١) في « الضوء اللامع » (٣/ ٣٢٢ رقم ١٢٣٨) صعب بن أحمد بن حسن بن علي بن عبد القادر ، شيخ جبل نابُلُس .

قَيْدِه ، والخادِمان اللّذان سافَرَا باطلاق العزيز والمنصور ، وشاع أنّ المؤيَّد لم يجد معه إلاّ ثلاثمائة دينار فأوسع الحِيْلَةَ في مائتين ، ودفع الخمسمائة إلى النُّشَّابي ، فأبَى أن يأخذها ؛ استقلالاً لها ، فأرسلها إلى المنصور عثمان ، وسأله أن يشفع له إلى النُّشَّابي في الرِّضى بها ، واعتذر له ففعل ذلك ، وأعطى النُّشَّابي مِن عِنْده ألف دينار .

وسمعنا أن العزيزَ والمنصورَ اجتمعا ، فقال العزيزُ للمنصور : جزاك الله عنّي خَيْراً يا أخِي ، فإنِّي في فضلك بيَّض الله وجوه مماليك أبيك ، فإنهّم سعوا في إطلاقِك ، فَكنت أنا في ذلك تَبَعاً ، وسوَّدّ الله وجُوْهَ مماليك أبي فإنّ لي نَيِّفاً وعشرين سنة في السجن ما فعلوا معي ما فعل مماليكُ أبيك .

وفي هذا الحد ، سافر ناظِرُ القُدُس والخليل عبد العزيز بن معلاق ، ثم أرسل له الأميرُ قَلَمْطاي أحدُ الأشرفِيَّة هجَّاناً ليَرُدَّه ؛ بسبب أمر ادعاه عليه مِن أجْلِ سَكَنِهِ في بيت الست بالقدس ، ولم يثبت له شيء ، لمّا كان بالقاهِرَة ، فَلَمَّا أُرسِل له الهجّانَ لِيَرُدَّه دفع إليه مائة دِيْنار ، فرجع بها وخَلَّى سبيلَه .

وفي هذا الحد ، استخلص الدُّوَيْدار الكبير ، جانِبَك ناظِر جُدَّة ، مِن البدر محمد بن الشهاب أحمد المحَلِّي قاضِي إسكندريَّة ثلاثة آلاف دِيْنار بسبب أنّه كان مستأجراً شيئاً مِن تَعَلُّقِ خانْقَاه سِرْيا قوس في إسكندرية وكان يُعْطي فيه دون أُجرة المِثْل ، هذا السبب الظاهر ، وأمّا الباطِن [٢٨٧] فإنه كان مقدَّماً عِند الأشرف وولده المؤيَّد ، وكان بذلك يَنكى[١] ناظِرَ الخاص ، الجمالَ يوسف، وكان ناظِرُ الخاص شديدَ المَيْل

---

(١) يَنْكَي : يُوقِع به .
« المعجم الوسيط » (٢ / ٩٥٣) .

إلى الظَّاهِريَّةِ ، وكان ابن المحلِّي قد سعى في قضاء القاهِرة في مَرْضَةٍ مِن مَرْضَات العَلَم البُلْقِني ، بسبب أنَّه رأى أنّ السلطانَ غير مُسَائلٍ في القضاء ولا غَيْره ، عن غير المال ، من عِلْم ولا دِيْن ، فاشْتَدَّت نكايةُ الناس مِن ذلك ، وعَمَّر لنفسه بَيْتاً في ناحية خان الخليلي ، شاعت الأحاديث بأخْباره فيما هو عليه مِن الإحْكَام والسَّعَةِ والحُسْن ، وكان يسير بأضعاف مُضاعَفَةٍ فوْق ما يستحقه ، مع قَبَاحَةِ الشَّكْل ، وعَدَم المعانِي مِن عِلْمٍ ، أوْ فَصَاحَةٍ ، أو مكارِمٍ ، أو حلاوَة مَنْظَرٍ ، أو سببٍ من أسباب التَّقَدُّم ، فَلَمَّا وَقَع لجانِبَك بهذا السبب أو سَعَه شرّاً وذلاً ، وضَربه ثلاث مرَّات ، وبكَّته بجميع ذلك ﴿ وكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّـٰلِمِينَ بَعْضاً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾[1] .

ثم إنّه لم يزل ، حتَّى تخلّص ، فاختفى ، ثم أرْضى جانِبَك ، وسعى له عِند السلطان في قضاء إسكندرية ، ونظرها ، ومضى إليها .

وفي يوم الاثنين سادِس عشري شوال هذا ، شفع الأميرُ قـانَم التَّاجِر المؤيَّدي أمير مجلس في الأمير بُرْدْبَك ليأخذه عِنْده ، حتّي يورد ما بقي عليه مِن المائة ألْف الدينار التي أُلْزِم بها ، فَقُبل ، فنزل إلى بَيْتِهِ فأخْلىَ له مِنْه قاعةً ، وأمِن بذلك على نَفْسِه ؛ فإنَّ المذكورَ مِن أكابر أتباع المؤيَّد شيخ ، وهو ممن يُذكر للسَّلْطَنَة ، وله عقلٌ وافِرٌ ، وحُرْمةٌ ومروءةٌ يُرجَع إليْها .

وحَدَّثني أَنَّه حصل عليه في هذه الأيَّام الأربعة التي كانَ بها بالقَلْعة مِن الشِّدَّةِ ، ما يَجِلُّ عَنْ الوَصْف .

---

(١) الأنعام / ١٢٩ .

وكانت خَوَنْد قد ورَّدَت ما أُلزمت به [١] ، ثم عَزَمت في هذه الأيّام أن تتوجّه إلى ابْنَتَيْها إلى إسْكندرية ، فَعُوِّقت ، وطُلب منها شيء آخر .

وفي هذا الحد [٢] ، وصل مِن نائب الشام كتابٌ ، بأنّه مطيعٌ للسلطان، وأنّ الذي بلغ المسامِع الشريفة أنه عَزَل ابنَ عبد القادِر ، وخليل [بن] [٣] أبي غازي ، وَوَلَّى غيرهما كَذِبٌ ، ولكنَّ المذكورَيْن أفسدا في البلاد ، وتركاها ، فَخَلَعْتُ على من يحفظ البِلادَ إلى حِين تأتيه خِلعَةُ السلطانِ ونحو هذا الكلام ، مِن الخِداع بتسمية ما يتوصّل به إلى مقاصدِه غيْر الأسماء التي هي عِنده .

واللذان وّلاهما صعب مِن بني عبد القادر ، وطُوْغان بن شبانة مِن بني مشّاق ، هذان في جبل نا بُلُس ، وَوَلىّ حسين بن حسين إمْرَة عرب حارثة عن طَرَباي ، وولىّ شخصاً على عرب حَوْرَان ، عن مَقْلد ، فلما وقف السلطانُ على هذا ، عَلِم هو ونصحاؤه مُرَادَه ، ثم أرسل خِلَعاً لمن أَخْبَرَ أنّهم عصاةٌ ، وهم : إسماعيل ، وخليل بن مشّاق ، وَطَرباي ، ومَقْلد، بتوليتهم على ما كانوا عليه [٤] .

وحدَّثني بعضُ المسافِرين أنّ الدَّرْبَ إلى الشّام في غاية الخَرَاب ، وَأنّ المسافرين محبوسون بِغزَّة وغيرها مِن البلاد الكبار ، لا يَجْتَرِ ئون على التَّوَجّه إلى مقاصِدِهم مِن القُطَّاع ، منهم أم العلاء بن الأهْناسي وزير

---

(١) في « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) « ١٠٢ ـ ١٠٣ » خمسين ألف دينار .

(٢) في « حوادث الدهور » (٤٠٧) في يوم الأحد ٢٥ من شوال .

(٣) في الأصل (س) والتصحيح مما جاء في « ص ٣٢٧ » .

(٤) الخبر في « حوادث الدهور » (٤٠٧) وجاء فيه أن هذه الفعلة أوّل معاكسة لجانَم .

السلطان في غَزَّة ، وأنّ نائب الشام أفسَدَ في كلِّ بَلَدٍ مَرَّ بهِ ، وأنّه نهبَ في الرَّمْلَةِ بيتَ ابن معلاق ، وصادر ووضع قاضِيْها العلاء بن السّائح في زنْجير ، وكذا البُرْهان بن جماعة ، قاضِي القُدُس ، وَوَلّى كاشِفاً في الرَّمْلَةِ والقُدُس وأعمالهما يُقالُ له خضر الكردي .

وأغْرى الخلقَ بالخلقِ ، فكلُّ مَن نَهبَ شيئاً فازَ بهِ ، وإنْ رُفع إليه لم يأخذ بيد المظلوم ، وهو يتصرَّف في جميع بلاد الشَّام ، تصرّف مَن لا يخاف الله ، ولا يرى فوقه أحدٌ مِن الناس والأمر في غاية الاختلال ، والله المسؤول في صلاح الحال .

وسببُ أَمْر ابن جماعة ، أنّه كان في بلاد القُدُس ، بلدٌ قد استأجرها هو مِن تِمْراز لمَّا كان دُوَيْدَاراً بمبلغٍ معروفٍ ، فلمّا نُفِيَ تِمْراز كما مضى ، وَوُلّي بُرُدْبَك عنه أرسل البرهانُ بن جماعة يتَّخِذُ عِنْد بُرُدْبَك يَدَاً ، فسأله أَن يكتب له مرسوماً مِن السلطان ؛ ليدفع له ريْعْها ، وكان بُرُدْبَك معروفاً بالطَّمع ففعل ، فلّما أُطلق تِمْرَازٌ مِن السجن إلى القُدُس ، طالبَ ابنَ جماعة ، فلم يلتفت إليه ، فأعْلَمه أنَّ ذلك لازِمٌ له بالشَّرْعِ ، وأنّ دَفْعَه إلى بُرُدْبَك وغَيْرِه لا يُغنيه ، فلم يسمع ، فسكت عنه ، فلّما رَجَع هو ونائبُ الشام هذه المَرَّة ، أعْلَمه بهذا ، فدبَّرا في الحِيْلَة على القَبْض عليه إنْ أَرْسَل نائبُ الشام إلى النائب يسأله أنْ يحضُر له قضاة القدس كلّهم ، ليكتبوا له مَحْضَراً بأمْرٍ يريده ، فَلَم يسعهم إلاّ الحضور ، وجَوَّز ابنُ جماعة أن يَذْكُر له تِمْرَازُ شيئاً مِن ذلك ، فأخذَ المرسومَ معه ، فلما حَضَروا عنِدهم ، طلب تَمْرازُ منه مالَه ، فأخْرَج المرسومَ ، فقال تِمرازُ ، اختر لك أَحَدَاً مِن رفاقك يَحْكُم بينى وبيَنْك . فاختار ابنَ تاج الدين بن الدَّيْرِي قرابته ، فأخْرج له تِمْرَازُ الإجارة ، فقال : كما هو الحق أنَّ هذا المرسوم لا يَدْفع هذه الإجارة .

فأجابَ إلى دَفْع المالِ ، وأراد الذَّهاب إلى القُدس لذلك ، فلم يمكّنه تِمْرَازُ، وأخذه معه ، فلما ركبوا إذا فرسه سابِقٌ ، فقال له : لو هربْتَ لأتعبت مَن يُردك ، فأَنْزَله عن الفرس ، وكانت عادته أنْ يلف على رأسه شاشَيْنِ ، فانتزع منهما واحِداً وأبقى واحِداً ، وأرْكبه إكْدِيْشا[1] ، وَوَضع في عنقه سلسلة ، وأخذه على هذه الحالة إلى صفد .

فرجع ابنهُ إلى القُدُس ، ليجمع المالَ ، وهو أكثر مِن ألْف دِيْنار ، فأفكروا في أن يطلبوها مِن بُرْدْبَك مادام في هذا الضَّيْق ، فأتى رسولهُم لذلك ، وكان بُرْدْبَك في بيت قَانَم أمير مجلس ، فكلَّمه في ذلك ، فأَذِن له في طلب ذلك منه ، وكان بُرْدْبَك قد صارَ أضعف قَلْباً مِن صافر ، فبادَر إلى الإجابة إلى ذلك ، فدفع لهم نحو خمسمائة دينار .

واستمر تِمْرَازُ متوجِّهاً مع نائب الشّام إلى دِمشق ، وأرسل ابنَ جماعة بزِنْجيرِهِ مُوكَلاً بِهِ إلى صَفَد .

وحدَّثني من أثق به أن [2]... الدين [3].. بن قاضِي الحنفية بالقُدُس تاج الدين عبد الوهّاب بن السعد بن الدَّيْرِي ، وكان نائبَ أبيه وملازماً للفِسْق ، مِن إدمان الخَمْر واللواط مِن خلْفِه وقُدامِه ، وغالب القبائح ، قد فعل بعضَ مصائبه في حارَة المغارِبَة ، وخرج وهو ثَمِلٌ ، فوجَدَ ناساً مِن أعيان المغارِبَة ، فهاش عليهم بسيف ، فتكاثروا عليه ، فقبضوا

---

(١) إكْدِيْشاً : فرس غير أصيل .

« المعجم الوسيط » (٢/ ٧٧٩)

(٢) بياض في الأصل بمقدار كلمة .

(٣) بياض فى الأصل بمقدار كلمة .

عليه، وضربوه ، واستغاثوا بأهل الخير مِن طول ما يفعل هذا مِن مُحَادَّةِ الله ورسوله وكان ملاذ الناس يومئذ هناك في الأمر بالمعروف ، الشيخ عبد القادر (١) النَّووي ، وهو مِن أهل العلم والزهد والورع والعقل الوافِر ، فجلس في بعض النَّواحِي مِن المكشوف مِن المسجد ، وجلس معه جَمْعٌ مِن العامَّةِ ، فجاء البرهانُ ابنُ جماعَة المذكور إليهم ، وهو ابنُ عَمَّةِ ابن الدَّيْرِي ، فقال للعامَّةِ : كأنِّي بكم وقد وردت مراسِيمُ مِن مِصْر بِقَطْعِ أيْديكم ، وتشريم مناخِركم ، ونحو هذا مِن العقوبة ، فَفَتَّ ذلك في أعْضادِهم ، فافْترقوا . ثم قال للشيخ عبد القادر : وأنت يا عبد القـادِر صار مِـن أمـْرِك أنَّك تجمع لك جَمْعـاً وتتكلمون في الأمـور العِظام ونحو هذا مِن الكلام الفاحِش . فقال له : ينتقم الله مِنْك . وقام ، قال الحاكِي : فلم يمض على ذلك خمسة أيَّام حتّي طُلِبوا إلى الرَّمْلة ، ووقعت له هذه المحنة .

وأرسل المغارِبَةُ إلى القاهِرَة بالقَضية ، وأرادوا مُطَالَعَةَ السلطان بذلك، فبلغ السَّعْدُ ، فأرسل إليهم مَن سَكَّنهم ، وضَمِن لهم سداد الحال، ومنْعِهِ من الحكْم . بيْن الناس ، فسكتوا .

ثم حَدَّثنى العَلاَمَة البرهانُ بنُ أَبى شريف أنّ الضَّرْب ما كان إلاّ بَعْدَ الانفصال عن مجلس الشَّرَاب ، وأنَّ سَبَبَه أَنَّه أرسـل جماعَته لِيُحْضِروا لـه

---

(١) هو : عبد القادر بن محمد بن حسن ، الزَّين النووي الأصل المقدسي الشافعي ، المعروف بالنووي ، ولد في أول القرن التاسع تقريباً ببيت المقدس ، ونشأ به ، وأخذ عن علمائه في العربية ، والفقة ، وعلوم القرآن ، وتصدَّى لإقراء الطلبة فانتفعوا به ، مات في شعبان سنة ٨٧١هـ ببيت المقدس، له ترجمة في « الضوء اللامع » (٤ / ٧٦٤) .

أمْرَد مِن حارَة المغارِبَة ، فلم يُطِعْهُم ، واستجار بابن [١] الشيخ خليفة [٢]، شيخ المغاربة وابن شيخهم فأجارَه وكان شجاعاً ، ثابتاً ، كثير التّلاوة لكتاب الله ، مُظْهِراً للتبرىء مِن ابن عَرَبي ، خِلافاً لما كان عليه أبوه ، فَرَدَّ أصحابُ الدَّيْرِي إليه فأعادَهم ثانياً ، فقالوا : إنّ شخصاً له عليه دَعْوى، ولابد مِن حضوره بين يَدَيْ القاضِي ، فمنعه ابن خليفة، فلما بلغ ابن الدَّيْرِي ، حَمَلَتْه الشَّهْوَةُ ، وحُمْق الشباب ، وجهل الغِرّ [٣] على أَنْ ركب فرسه ، وجاء بنفسه ، فقال له ابنُ خليفة : لي معك كلامٌ ، ثم دَنا مِنْه فقبض عليه ، وَجَذبَه عَنْ فَرَسِه ، فرماه ، ثم وَقَع فيه يضربه ويجرّه ، واجتمع عليهم جَمْعٌ كبيرٌ مِن المغارِبة ، فضربوه إلى أن كادوا يُتْلِفونَه ، وكان يجرُّه وهو يتقيَّأ الخمْرَ إلى أنْ ملأ تلك البُقْعة .

وجاء الصَّرِيخ إلى أبيه ، فقامت قيامتهُ ، وأزْبَد وأرْغى ، ولم يجسر على شيء ، غَيْر أنَّه أرسل إلى النَّاصر محمد بن الهمَّام ، وهو أخوه لإمّه ، وإلى

---

(١) هو : محمد بن عبد الرحمن ، المدعو خليفة بن مسعود بن محمد بن موسى ، الشمس أبو عبدالله المغربي الجابري ـ نسبة لبني جابر قبيلة من المغرب ـ المقدسي المالكي، المعروف بابن خليفة ، ولد في ١١ رمضان سنة ٨٠١ هـ ببيت المقدس ونشأ بها ، وأخذ تلاوة القرآن ، والحديث عن بعض علمائها، وولى مشيخة المغاربة ببيت المقدس ، ومشيخة الفقراء المتسبين لأبي مَدْيَن ، مات ليلة الخميس منتصف جمادى الثانية سنة ٨٨٩ هـ .

له ترجمة في « الضوء اللامع » (٨/ ٤٤) .

(٢) هو : خليفة بن مسعود بن موسى المغربي الجابري المالكي ، ويسمى عبد الرحمن أيضاً ، ولكنه بخليفة أشهر ، وقيل : خليفة بن مسعود بن محمد بن عبد الرحمن بن علي ، ولي مشيخة المغاربة ببيت المقدس ، وصارت له وجاهة ، وتزايد اعتقاد الناس فيه ، وكان يقرىء كلام ابن عربي ، مات ليلة السبت مستهل ذي القعدة سنة ٨٣٣هـ ببيت المقدس .

له ترجمة في « الضوء اللامع » (٣/ ١٨٧) .

(٣) الغِرُّ : من ينخدع إذا خُدع .

« المعجم الوسيط » (٢/ ٦٤٨) .

ابن جماعة ، فأتَوْه وقد حلّ به ما كفاه ، فأخذوه على تلك الحالة ، ووضعوه في بعض الأماكِن حَتّى زال خُمَارُه ، واجتمع الجَمْع الذي تقدَّم ذِكرهم ، ثم تهدَّدَه ابنُ الشيخ خليفة والمغارِبَة بالقَتْل ، إنْ حكَمَ بين اثنين ، فلم يجْسُر بعد ذلك على حُكْم ، ثم سافر إلى القاهِرَة كما سيأتي ، قطع الله دابِره آمين .

[٢٨٨] وفي هذا الحدّ ، وصل الخبرُ ، بأنّ عَرَب لبيد أفسدوا في البحيرة ، فوقع اتّفاق السلطان ومَن يليه مِن أوتاد الدَّوْلَةِ على أنْ يجُهِّزَ لذلك مِن الخَوَنةِ ، مماليك الأشرف إِيْنَال جَمْعاً كبيراً نحو الألف مع أمير آخور بَرْسْباي البجاسِي ، ورأس نَوْبَةِ النُّوب ، وبِيْبَرس خال العزيز وغَيْرِهم مِن الأمراء العشروات ، فأجاب الكلُّ خاضعين (١) .

وفي هذا الحد ، هُجم على بيت صلاح الدين ، أمير حاج بـن بَرَكُوت المكيني ابن امرأة العَلَم صالِح البُلْقِيني بطواشي ؛ مِن أجل بنت (٢) السِّنْبِرِبَاي (٣)، زوجة الأمير بُرْدْبَك التَّاجي التى كانت فُسِخ نِكاحُه منها، بحكم أنـه أَبْرَص ، وتزوجها ، وكـان زوْجها غائِباً بالحجاز ، ثـم قـَدِم فإذا ليس به بَرَصٌ ظاهِرٌ ، وقيل : إنّه أثبت أنـّه لا بـرص به ، وأثبت عـلى

---

(١) الخبر في : « حوادث الدهور » (٤٠٨) ، و«بدائع الزهور» (صفحات لم تنشر)(١٠٣) .

(٢) هي : سعادات ابنة البدر محمد بن الزين عبد الرحمن ابنة السبرباي القاهري ، تزوجها بُرْدْبَك التاجي ناظر الحرم ، ثم فسخ عليها وتزوجها الصلاح المكيني ، وحصلت قلاقل ، وفتكت معه، وأتلفت أموالاً جزيلة ، وسارت سيرة شهيرة .

ترجم لها (السخاوى) في « الضوء اللامع » (١٢ / ٦٣ رقم ٣٧٩) ولم يذكر تاريخ وفاتها .

(٣) في الضوء اللامع » (١١/ ٢٥١) ابن السِّمِرْبَاي (بكسر أوله وثانيه ، ثم راء ساكنة، بعدها موحدة مفتوحة) .

تقدير أنَّ الذي به برص ، أنها كانت معه زماناً وهو به ، وسافرت معه إلى الحجاز وهي راضية ، بل وأنها أسقطت حقّها مِن الفَسْخ بالبَرص ، كذا شاع ، ثم لم يَثْبُت ذلك وكان الذي صدَّه عن ذلك في أَيَّام الأشرف إِيْنال، أنّه كان فيها غير مقدّم ، وكان البُلْقِيني ومن يلوذ به رائجين ، وكان المرأة حسناً فكان صلاح الدين يَرْضَى بالمال ، فلّما كانت هذه الأَيّام ثار بُرِدْبَك، فلم يَتِمَ له أمْرٌ حتَّى عُزِل العَلَم ، فأحسَّ الصَّلاَحُ بالفساد فاختفى ، فلّما هُجم عليه بيته لم يوجَد غَيْر المرأة فأُخِذت لِيعْمَل فيها حكمُ الله ، وهي لعُمري مِن أغْرَبِ القضايا ، لعلّه ما سُمِع بمثلها ، أنَّ مَن يكون بزيِّ الفقهاء ، وفي عِدادِهم يجتريء على مثل هذا في حقّ أمير، ولم يزل الأمْرُ يَتَمادى إلى نصف ذي الحجَّة ، فقُضي بما يتضّمنُ بطلان نكاح صلاح الدين كما يأتي .

شهر ذي القعدة

وفي يوم السَّبْت ، مستهل ذي القعدة سنة خَمْسٍ وستين [1] هذه ، حدّثني ناصِرُ الدين محمد بن نور الدين بن هلال الدولة الزَّبَدَاني ، أنَّه رافقه مِن ناحيةِ غزّة غلامٌ ، فحدَّثه أنّ مخدومه مِن الخاصكيَّة ، وأنّه أُرسل إلى نائب الشام لما كان بالخانكة ، ومعه مَراسيم السلطان الظاهِر إليه ، ليستخلص مِن علي بن الصُّوْفِي نحو ثلاثين ألف دينار عِنْدَه مِن مال الذَّخِيْرة ، فقال : ذلك بالسمع والطاعَة ، وأمره بالسفر معه ليخلِّص له ذلك . قال : فلّما كان بالرَّمْلَةِ أراد الجمالُ يوسف خَزَنْداره التعجّل إلى دِمشق . قال : فجاء الخاصَكيُّ إلى النائب ، فقال له : يبرز أمرُكم إلى الأمير الخَزَنْدار بأنْ أتوجّه معه ، فيقضي شُغْلي . قال : فزَجَرني ، وقال : أَنَا أَخَذْت بلادَ الشام أحكم فيها بما أريد ، فقلت : ياَمولانا، لكم المستقبل ، وهذا مال قديم عند ابن الصُوْفِي . فقال : أحْضِر المرسومَ،

---

(١) وثمانمائة .

فأحضرته إليه فأخذه في يده ، وشرع بِقَطْعه بسكين معه سيوراً سيوراً ، وهو يشتم السلطان ، ويقول : « مِرَاتركماني قوَّاد » إلى أن تَرَكه قِدداً ، ثم زَجَرني ، قال: فقمت مِن عنده ، وأنا لا أُصَدِّق أنّي تجوتُ منه . قال : ثم ركِب هَجِيْناً معه ، وتوجَّه وهو لا يأمَنُ أَنْ يلحقه من يردَّه ، قال : وتركني على هذه الخيل لإِلْحَقَه بها .

وفي أوائل هذا الشهر ، وصل نائبُ الشام إليها ، فلاقاه مَن بها من الأمراء ، فأظهر العفو عنهم ، ونادى بدمشق بالأَمان ، وأَنَّه قد عَفَى عَمَّا سَلَف ، ووصَل معه تِمْرَازُ إلى دِمشق ، واستمّر مقيماً بها كما يأتي ، ونزل نائبُ الشام ببيت الأمير جانِبَك حاجب الحُجَّاب ؛ لإنه وجَدَه قد هَرَب منه ، ودار السعادة خَرَابٌ .

ولمَّا زالت الدولةُ الأشرفِيَّة . تزلزل غالِبُ المباشِرين وغيرهم مِن أَهْلِ الدَّوْلَة ولاسيما الزين أبو بكر مُزْهِر ناظر الجيش ، فإنه لم يكن يروّجه إلاَّ أمُّه وعمُّه العَلَمُ زوجها ، وأما هو فليس فيه ما يُقَدِّمه لا مِن كرمٍ ، ولا مِن عُصْبَةٍ ، ولا دِيْنٍ ولاثَبَاتٍ على أمْرٍ مِن الأمور ، وهو مع ذلك كله فاقِدُ ما يفارِق به الإنسانُ بقيَّة الحيوانات العُجْم ، وهو اللسان ، فإنَّ صِدْقَه عَزيزُ الوجود ، فكان أوّل زلزلته العُظْمىَ مُصَاوَلَتِهِ للأمير يَزْبُك؛ مِن أجْل إرادة البروز في بناء البيت المقدَّم ذِكْره (١) ، بما يؤذي جارَه عبد الرَّحيم بن البارزي ، صهر يَزْبُك ، كما تقدّم ، ثم ازداد وَهْنهُ بزوال المؤيَّد ، ثم قُطِع ظَهْرُه بِعَزْلِ زَوْجِ أمِّه [٢٨٩] ، ثم قَدِم دُوَيْدَارُه يونُس مِن جبل نابُلُس بخبر ذَهاب إسماعيل هارِباً مِن نائب الشام ، وله في جهته نحو ستة آلاف دِينار ، وكان يرجو وصولها إليه لِيُوَفِّي بها ما عَلَيْهِ مما استدانَهَ ؛

---

(١) راجع « ص ٢٥٢ » .

لأجِل النّقْدَة التي وضُعتِ عليه للوَزير ، وهي كل يوم سبعون دِيْنارًا؛ فخارت قُوَاهُ ، وضَعُف قَلْبُه ، فاستقال مِن نظر الجيش ، وبالَغ في ذلك ، فَعُرِضت الوظيفةُ على الزَّيْن أبي بكر بن عبد الباسِط لِيَلِيها ، ويُعْطي السلْطانَ ثلاثةَ آلاف دينار فأبى ، ووعد أنّه يبذلُ للسلطان على إعفائه مِن ذلك ألفَ دينار ، فألح عليه ، فكأنَّه أَلاَنَ الكلامَ ، ثم أَصَرَّ على الامتناع ، فقال السلطانُ : كيف يليق هذا التّلوُّنُ ، تارَةً يَرضَى ، وتارَة يأبَى ، إمَّا أنْ يَلي ويَبْذُل الثلاثة الآلاف مجَّانًا ، وإمَّا أن يمتنع فَيَبْذُلها فَرضاً . فقال بعضُ مَن حَضر مِن الأمراء يُخَفِّف عَلىَ ابن عبد الباسط : مَوْلانا السلطانُ ، لا يَهْتَمُّ بذلك ، فإنّ سيّدي يحيى بن حجي يلي ، ويُعْطِي ثلاثة آلاف كما أراد السلطانُ . فقال : احْضِروه ، فطلع يوم الاثنين ثالِث ذي القعدة هذا ، فأُلْبِس خِلعةً لذلك ، وجمع له الشَّرفُ المناوي جميعَ النواب ، لينزلوا معه ، كما فعل العَلَمُ مع رَبيْبِه الزَّيْن المُزْهِري ، وركب معه أيضاً الأمير يَزْبُك ومن لافَّه والمباشرون وقضاة القُضاة وغيْرِهم مِن الأعْيانِ [1] .

ثم بلغني أَنّه دار في عَصْرِ هذا اليوم على الأمراءِ والمباشرين الذين رَكِبوا معه ، ليَسلِّم عليهم ، ويشكر لهم جَبْرَهم له، فلما دخل إلى الدويدار الكبير جانِبَك ناظر جُدّة، إذا عِنْده كاتِب السرّ ، وابن مُزْهِر ، فذهب مِن الجانِب الذي فيه ابن مُزْهِر ، ودخل بينه وبين الدُّوَيْدَار بغايَة الجُرْأة ، بحيث أنَّه كاد أن يَجْلِس عَلَى ابن مُزْهِر ، وهو أقوى مِن ابن مُزْهِر ، فإنه طويل شثن [2] الأعضاء ، وله قُوَّة عَظِيمة ، وهو فاقِد قُوَّةَ الجِماع ، فكان ما فَقَده مِن هذه القُوَّة كان سبباً في مضاعَفَةِ قُوَّتِه .

---

(١) راجع الخبر في « النجوم الزاهرة » (١٦ / ٢٦١) ، و«بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر ١٠٣) ، وقد ورد فيهما موجزاً .

(٢) شثن الأعضاء : غليظ خشن « المعجم الوسيط » (١/ ٤٧٢) .

وكان ابنُ مُزْهِر مربوعاً إلى القِصَرِ وإلى الضَّآلَةِ ، وكانت بَيْنَهما مُبَاغَضَة عظيمة ، على أَنَّ ابنَ مُزْهِر زوْج أخت النَّجم يحيى ، فلما جلس على هذه الكَيْفِيَّة زادت نكايَةُ ابن مُزْهِر ، ولم يتزحْزح له ، فقال كاتِبُ السرّ : أحدكما يأتي إلى جانبي ولا تَزدحِما . فقام ابن مُزْهِر فجلس إلى جانِبه ، ثم ذكر الدُّوَيْدَار كلاماً فيه نَقَده الوزير ، فقال ابنُ مُزْهِر : لولا نَقْده الوزير ما وصل النَّاسُ إلى ما وَصلوا إليه ، فَدَلّ ذلك على عِظَمِ نكايته مما وقع .

وثبت ابنُ حجّي ، فلم يُظْهِر لذلك انْزِعاجاً ، ولا أَجَابَ عنْه جَوَابا ، وكان ثابتاً فاضِلاً في فنون مِن العلم ، دار على المشائخ وحَصَّل مع مالَهُ مِن الأَصَالَةِ مِن الطَّرفَين .

وقد كان بَعْضُ مَن نَصَح ابنَ مُزْهِر في دنياه أشار عليه بالتَّجلُّد ، وأنْ لا يستعفي ، وحذَّره عواقِبَ ذلك ، فلم يتدبَّر ذلك ، ولا ذاق طَعْمه إلاَّ في هذا المجلس ، ثم ذَهَبَ كاتِبُ السّرّ وتركهما على تلك الحال .

فلّما رأى الدُّوَيْدَار أنَّ ابن حجّي لا يتكلّمُ بحضرة ابن مُزْهِر قال له : قم إلى تلك الطاق فاجلس هناك حتّى نتحدّث ففعل .

وفي يوم الاثنين هذا ، سَافر خَيربَك نائب غَزَّة إلى محَلّ ولايته ، وسافر معه ناسٌ كثيرٌ ، كانوا محبوسين عن السَّفَر بالقاهِرة ، يخشون من قطْع الطريق .

وفي هذا [1] الحد ، سافَر المعَيَّنُون إلى عَرَب البحيرة مع أمير آخور

(١) في « حوادث الدهور » (٤٠٨) في يوم الأحد ثاني ذي القعدة ، راجع أيضاً « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (١٠٣) .

بَرْسْباي البَجَاسي ، ورأس نَوْبَةِ النُّوب بيبُرس خال العزيز .

[٢٩٠] وأقام السلطانُ في باب السلسلة في مقام أمير آخور حاجِب الحجَّاب يَلَبَاي ، فغضب أمير آخور الثاني وهو بُرْدُبَك الهجَين ؛ لأن العادَة أن يكون الثاني نائباً عن الكبير ، وَغَضِبَ له طائفتهُ ظاهِرِيَّةُ جَقْمَق، فعتب على السلطان ، فقال السلطان : هذا أمرٌ يرجع إلى نظر السلطان من رآه أهْلاً لذلك أقَامه . فقال بُرْدُبَك : فهل عَلِم السلطانُ مِنِّي ضَعْفاً أو خِيانةً ؟ فقال : لا ، ولكنيِّ اخترتُ ذلك ، فَسَكَت .

وفي هذا الحدّ [١] ، تُكُلِّم في تعيين أربعمائة مِن أشْرَفِيَّة إِيْنَال إلى قُبْرُس؛ ليحفظوها وَيُعينوا مَن بها مِن المسلمين ، فعلم أشرفِيَّة بَرْسْباي أنَّ مُرَاد الظَّاهِريَّةِ الاستراحَةِ مِن أشرفِيَّة إِيْنَال ؛ لأنهم أعدَى النّاس لهم ، خَوْفاً مِن أن يكونوا مع مَن يناوِؤنه ، فَعُلم أَنَّ مرادَهم شَرٌّ ، فازدادات القلوبُ تنافُراً ، والله تعالى المسؤول في أَنْ يدبّرنا بأحسن تدبير .

وفي يوم الأربعاء ، خامِس ذي القعدة هذا ، وهو الموافِق لتاسِع عشر مسري من أشهرُ القِبْط أُعْلِم السلطانُ أنّ البَحْرَ أَوْفَى زيادة ست عشرة ذِراعاً ، وزاد أربعةَ أصابع مِن الذراع السابعة عشرة ، فرسم للأمير الكبير شَرِباش كرد بأن ينزل فيفتح السَّدَّ ، ليجري الماءُ في خُلْجان الْبَلد ، ثم يَسْقِي أراضِي الشَّرقِيَّة في مواقيته المعروفة ، ففعل ذلك ، وازدحم الناسُ عِند السَّدِّ ؛ حتَّى قُتِل منهم اثنان [٢] .

وفي هذا الحدّ ، غلَّق الأميرُ بُرْدُبَك ما ضُرِب عليه ، وهو مائة ألف دِيْنَار ، فرأى أَنَّه يستّمر في بيت الأمير قَانَم ؛ يحتمي به مِن أَنْ يفتحوا عليه

---

(١) في « النجوم الزاهرة » (١٦/ ٢٦١) في ١٥ ذي القعدة عين السلطان تجريدة إلى قُبْرُس نجدةً لمن بها من العساكر الإسلامية ، ثم بطل ذلك بعد أيّام .

(٢) راجع الخبر في « حوادث الدهور » (٤٠٨) ، « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (١٠٣)

باباً آخر مِن الظّلْمِ ، فاستمرَّ فيه إلى عِيْد الأضْحَى ، فعيَّد في بيْتِهِ الذي بقصر الحجازيَّة ، واستمر به مدَّة ، فأرسل إليه الأميرُ يَزْبُك ، أنْ يُرْسِل مملوكاً كان أهْداه إليه ، وهو في القُدُس ، بمقتضى أنَّه كان أعْتَقَه قبل أن يهديه إليه ، وأرسل إليه وَرَقَةَ العِتْق ليقف عليها فأحضر شهوداً وأشهدهم عليه ، أنّه لا دافِع له ولا مَطْعن في إعْتَاق الأمير يَزْبُك له وردَّه إليه .

وفي يوم السبت ، ثامِن الشهر غَلّقت النَّفَقَةُ مِن جهة السلطان على الجند وخُلِع على من جرت العادَة بالخلْع عليه ، مِن كاتِب المماليك وغَيْره مِن الدواوين ، والكتَبَةِ ، وأخبرني القاضِي كاتِبُ السرّ ، المحب بن الشِّحْنَة أنّ منها مِن الملك المؤيَّد نحو مائة وسبعين ألف دينار ، ومِن أمِّه نحو ستين ألف ، ومِن صهرهم الأمير بُرْدبَك مائة ألف سواء [1] .

وفي هذا الحد ، بلغ الخبَرُ أنَّ الأمير جانِبَك حاجب الحجّاب بدمشق لمّا سَمِعَ بإقبال جَانَم نائب الشَّام خرج مِن دِمشق فلم يُعْلَم اينَ وَجَّه ، ثم تحرَّر أنّه صار إلى مدينة طرابُلُس ، ثم انتقل إلى حَمَاة ؛ لأنّ نائبها له حرمٌ ، وأشهم ، وجانِبه أمْنع .

وفيه أُخرجَت بلدُ المدرسة الشَّرِيفيّة المجاورَة لجامِع عمرو ، وهي مِن وقْف المِلك صلاح الدين يوسف [2] بن أيَّوب ، رحمه الله ، فأُعْطيت

---

(١) راجع : « حوادث الدهور » (٤٠٨ ـ ٤٠٩) و«بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (١٠٣)

(٢) هو : أبو المظفر يوسف بن أيوب بن شاذي ، الملقب الملك الناصر صلاح الدين ، صاحب الديار المصرية والبلاد الشامية والفراتية واليمنية ، ولد في سنة ٥٣٢ هـ ، واتفق أهل التاريخ على أن أباه وأهله من (دُوين) بلدة في آخر عمل آذربيجان من جهة أرَّان وبلاد الكرج ، ، وأنهم أكراد رَوَادية، كان من خيار الملوك وأشجعهم ، فتح الفتوحات ودحر الصليبيين ، وعلى يده سقطت الدولة الفاطمية في مصر سنة (٥٦٧هـ) مات ليلة الأربعاء ٢٧ صفر سنة ٥٨٩ هـ وله من العمر ٥٧ سنة تقريبا =

لشخصٍ مِن الجند ، فقيل للسلطان : إنَّ واقف هذه كان مِن خِيار المسلمين .. فقال: لم أعرف أنها وَقْفٌ ، ثم قال : وبلغني أنها خَرَابٌ ، فَعُلِم مِن كلامِه المتناقضِ فسادَ طَوِيَّته ، وكان نظرها إلى العَلَم صالح البُلْقِيْني ، فاجتمع بالأكابِر ، ثم أرسل من بها مِن الفقهاء ، فوقفوا للسلطان يوم السَّبْتِ هذا ، فسألهم عن حالِها ، فأخبروه أنها عامِرَة ، فَكَذَّبهم في ذلك ، وقال : الفقهاءُ يأكلون الحَرام ، مَع أنَّه كان قَدْ أَرْسَلَ إليها مِن نَظَرَها ، وأخبروه أنها عامِرةٌ، ثم كلَّمه مَنْ في مجلسه في ذلك فَرَسَم بَرَدِّها على ما كانت عليه ، وَعُلِم بذلك ، أنّه لو تمكّن لم يسترح به أحَدٌ ، فالله المسؤول في حسن العاقبة .

وكان قد بلغ السلطانَ أنَّ نائبَ القُدُس ، حسن بن أيوب التركماني حَضَر على نائب الشَّام ، وأَهْدى إليه وحالَفَه ، وأرسل نائبُ الشام يطلب أن يُضاف إليه نَظَرُ القُدُس والخليل ، فأعمل السلطانُ الحِيْلَةِ في حضوره إلى القاهِرَة ليعاقبه ، ثم طلب مَنْ يولِّيه مكانَه بالقُدُس ، فلم يجسر على ذلك أحَدٌ خَوْفاً مِن نائب الشام ، فاضطرّ إلى تبقيته ، وأرسل محمد النُّشّابي إلى تلك البلاد، ليوطِّن[1] إسماعيل بن عبد القادر شيخ جبل نابُلُس في بلاده ، وينفيَ صَعْباً الذي وّلاه نائبُ الشَّام ، وذلك لصحبة أكيدة كانت بين محمد النُّشَّابي ، وبين إسماعيل ، وأرسل معه إلى نائب القُدُس ما يُوطِن[2] خاطِرَه .

= من المتعذر حصر جميع المصادر التى تحدَّثت عنه ، وعن أخباره ، فهي تفوق الحصر ، ويكفي الإشارة إلى « الكامل في التاريخ » ، و « سيرة بن شداد » ، و«كتاب الروضتين» ، و«وفيات الأعيان» (٧/ ١٣٩ رقم ٨٤٦) ، و«سير أعلام النبلاء » (٢١/ ٢٧٨ رقم ١٥١)، و«سمط النجوم العوالي » (٤/ ٨ـ ١) .

(١) يُوطِّن : وطَّنَ بالبلد ، اتخذه محَلاً وسكناً يُقيم فيه .

« المعجم الوسيط » (٢ / ١٠٤٢).

(٢) يُوطِن : أَوْطَنَ نَفْسَه على كذا ، مَهَّدَ هاله ورضَاها به .

« المعجم الوسيط » (٢/ ١٠٤٢) .

وفي هذا الحد ، سافر العلاء بن قاضي عجلون ، قاضي الحنفية بدمشق ، وقد زادت غرامته ؛ بسبب القضاء ، وبسبب إقطاع كان معه أُخْرِج عنه فاستعاده ، وما ضاعفوا غرامته إلاّ لطمعهم فيه ، لجهله وقِلَّة دِيْنِهِ ، وأُخِذَ لكثرة ما بذل للنظر والتدريس بمدرستين كانتا بيد القاضِي حُسَام الدين محمد بن بُرَيْطع ، فلمّا سافر أخرجوا إقطاعه لاثنين مِن طائِفة الأشْرَفِيَّة مماليك بَرْسْباي ، لأن الأمير تَنَم الذي يساعِده منهم ، ثم أُعِيْدَ إلى الحُسَام وظيفتاه كما يأتي .

[٢٩١] وفي هذا الحد ، أرسل ناصِر الدين بن الهمَّام القُدُسي ، ناظِر مقام سيدي شعيب ، يسعى في نظر القُدُس والخليل ، فأُجيب إلى ذلك ، وأُمِر بأن يُرْسل الذَّهبَ لِتُجهَّزَ له الخِلْعَةُ ، ولم يَعْتبروا ما أخذوا مِن عبدالعزيز بن معلاق على قُرْب العهد ، فَعُلِـم بذلك مـع قِلَّة الدِّين قلة الشَّفقَةِ وَعَدم المُسْكَةِ وسوء التدبير ، بسرعة التقلُّب ، ثم أرسل في أواخر ذي القعدة هذا ، وقَطَع عليه خمسة آلاف دينار ، والمعجّل منها ألفان .

وفي يوم الثلاثاء حادِي عشر ذي القعدة هذا ، وَصَل مملوكُ نائب الشام يُخْبِرُ أنه وصل إلى دِمشق سامِعاً مطيعاً ، ولَبس خِلعة السلطان ، ونادَى للنّاس بالأمان ولاقاه يوم دخوله نائبُ القلعة وغيره مِن الأُمراء ، غير الحاجب ، فإنَّه غاب قبل وصوله .

وفي هذا الحد ، وصل رسولٌ من قُبْرُص ، يُخبرُ أنّ المِلِكَة جمعت الكَيَتْلان وأتت إلى الجزيرة ، فلقيها جاكُمو بِمَن عِنْده مِن المسلمين والنصارَى ، فهزمها ، وقتل مِن جمعها قتلى مستكثرة ، وسأل في نجدةٍ ، فشاع أنَّ السلطان عيَّن الأميرَ قَرْقَماش أمير سِلاح مِن الأشْرَفيَّةِ ، فقال : سَمْعًا وطاعَةً ، بشرط أن يكون معي جانِبَك الدُّوَيْدار الكبير مِن الظاهِريَّة ثم أرسل السلطانُ إلى نائب طرابلس يجمع من قدر عليه من الجند والعشير، وأنْ يتوجّه بهم بنفسه لِيُنْجِدَهم .

وفي يوم السبت نصف ذي القعدة هذا ، أَرسل ناظِر الخاص الزّين

عبد الرحمن الكُوَيْر يسأَلُ الأمانَ ، ليَحْضُر ، فأرسل له السلطانُ الأمانَ فَحَضَر ، فَوَكَل به في البَحْرَة التي في القَلْعة ليُحَاسَب على ما كان تحت يَده مِن مال السلطان ، واستمروا يعالجونه يوم الأحد سادس عَشَر ذي القعدة ، وهو آخر السَّنة القبطية ، ويوم الاثنين سابع عشره ، وأوّل أَيَّام النسيء وآخرها الجمعة ثم نُقِل إلى بيت الأمير قانَم التَّاجِر أمير مجلس ، واستمرّ مدّة يبيع تَعَلُّقاتِهِ ويورد مالاً ، ثم أَفْرج عنه في نصف محرَّم [١] سنة ستّ وستين[٢] ، وسكن في بيت ابن نصر الله بقرب جامِع المغربي[٣] .

آخر السنة القبطية

وفي هذا الحد ، شاع أنَّه وُجِد في أوراق الجمال يوسف بن كاتب شكم ورقةٌ . على العَلَم صالِح البُلْقِيني بخمسة آلاف دينار ، فُطلِب بها، وجمع القاضِي الشافعي الشرف المناوي مِن الأوقْاف التي باعَها العَلَم نحو ثلاثين وقْفَاً وأخرج مرسوماً مربّعاً مِن السلطان أنها على ما كانت عليه مِن الوقْفِيَّة بجهاتِها ، وأنَّ مَن كان وَضَع يَدَه عليها يرجع بما أعطاه على من دفعه إليه ، فضوعِف على العَلَم البلاءُ ، فما أحسن طاعة الله وأعزَّها .

وفي يوم الأربعاء ، تاسع عشر ذي القعدة هذا ، وردَ الخَبَرُ بموت [٤] ولي الدين أحمد بن تقى الدين محمد بن بدر الدين محمد بن السراج عمر البلقيني الشافعِي ، الـذي عـُزل عـن قضاء الشافعِيَّة بـدمشق بالقـطب

---

(١) في «حوادث الدهور» (٤٠٩) في يوم الأحد أول ذي الحجة .

(٢) وثمانمائة .

(٣) جامع المغربي : يقع ببولاق القاهرة في شارع درب الكرشة بقرب الجوابر ، وهو مقام الشعائر تام المنافع ، يفصل بينه وبين مطهرته الطريق .

«الخطط التوفيقية» (٥/ ١٢٢) .

(١) راجع «هامش ٤» من (ص ١٨٥) من القسم الأول .

محمد الخَيْضري البلقاوي الشافِعي ، فكأنه مات في العشر الأول مِن الشهر ، ثم تبيَّن أنه مات عاشِر الشهر . وكان قَدْ أراد السفر لما بلغه العَزْلُ ، فأدركته منيّتُه قبل ذلك .

وكان مِن أبناء الخمسين أو .. يزيد عليها قليلاً ، وكان فاضِلاً في الفقه والأصول والنحو ، وكان ذهنه جيِّداً ، له بعض سَرَيان في الدَّقائِق ، بخلافِ أهل بَيْته ، فإن الغالبِ عليهم الخمود ، وكان أيْضاً يخالفهم في أنه خفيفُ الروْح ، حُلْوُ الكلام ، مع الكرم وحسن الكِتابَة والصوت ، لذيذُ النغمة مطربها ، غَيْر أنه يَغْلِب عليه جنونُ أهل بيته ، فلا يكاد يثبت على حالِة ، وكان مِمَّن حاول العُلوَّ في الأرض بكـل طريق ممكن إلاّ طريقَ الصِّدْق ، فلم ينل مِن [٢٩٢] ذلك ما يُريد ، عالجه بعد موت أبيه بطريقة مِن المجون والتَّمَسْخر والدُّخول في الأكابِر بنحو هذه الطُّرق ، فَراج عند ناظِر الجيش عبد الباسط ، وبعده الجمال ناظِر الخاص يوسف، والكمال محمد البارزي كاتب السرّ ، وقارعَ بِجاههم الأكابرَ ، شيخنا قاضي القضاة ابن حَجَر وغيره ، فبلغ مِن أذاهم ؛ لإنه كانَ خبيراً بطرق الأذى .

ثم لم يعجبه التَّقَدُّم بمثل ذلك ؛ لأنَّه كان مُزْدَرى عِند غَيْرِهم وعِنْدَهم إذا حُقِّق الأمرُ ، فانقطع عنهم وتصوَّف ، وسلك على يد الشيخ مَدْين لما رأى الكُلَّ مُقْبلين عليه ، مُعَظِّمين له .

ثم لم يبلغ به ذلك إلى جميع ما يريد ، فانْسَلّ مِنه ورجع إلى قريبٍ مِن حاله الأول ، ثم بنى مدرسـة بجوار بَيته مـِن حـارة [1] بهـاء الديـن [2] ،

---

(١) جاء في « خطط المقريزي » (٢/٢) الحارة كل محلّة دَنَت مناز لُها ، والمحلَّة منزل القوم ، وبالقاهرة وظواهرها عدة حارات .

(٢) حارة بهاء الدين : كانت قديماً خارج باب الفتوح الذي وضعه القائد جوهر عندما بني القاهرة ثم أصبحت داخل باب الفتوح الذي وضعه أمير الجيوش بدر الجمالي ، وكانت تعرف بحارة=

وفتح بابها إلى ظهر زُقَاقِهم ، وحصل بيْنه وبينهم مقاطعة ، ونَاوَأه صلاحُ الدين أمير حاج بن بَرَكَوُت المكِيني ابن زوْجة العَلَم صالح بن السراج البُلْقِيني ، عم أبيه ، فراج عليه بانضمامه إلى العَلَم ، وانقطاع هذا عنه ، فحاولَ هذا الرِّفْعَةَ بالانقطاع في مدرسته والإقبال على عمل الميعاد ، وإظهار الزُّهد والصلاح ، فطال عليه الأَمَدُ ، فرأى أن يجمع الطَّلبةَ عليه ويُشْغِلهم بالعِلْم ، فعمل بذلك مدَّةً ، وبذل لجماعةٍ منهم دُنْيَاه ، وكان ينظر لنفسه فاضِلاً منهم فَيَسْتَجْلِبَه بالدُّنيا ويدعه يقرأ عليه ، وإذا حُقِّق الأمرُ كان هو القارىء .

فلَّما طال عليه الأَمْرُ ، وسبقَه الصلاحُ أمير حاج ، بأنْ وُلِّيَ الحسبة بالقاهِرة وتَموَّل بحيث يسعي في المناصَب الكِبَار ، سَعَي في قضاءِ دِمشق، فصادَف الزَّينَ أبا بكر بن مُزْهِر غضبان على قاضِيها الجمال الباعونِي ، وكان المذكور في غايَة الرَّواج بأَمِّه وزوجها العَلَم صالِح قاضِي الشافِعيَّة وغَيْر ذلك ، فسعى له في ذلك كما تقدَّم فبادر إليه ، وقدَّر في نفسه أن يجعله مقدِّمَةً لقضاء مِصْرَ .

فلّما قَدِم دِمشق أظهر العِفَّة والتَّواضُعَ والسِّيْرَة الحَسَنَة ، وكان يُلازم الميعاد ثم طال عليه الأَمْرُ ، فمدَّ يَدَه ، وعاد إلى طَبْعِهِ ، وطَبْع غالبِ آل بيته ، حتى لم يكن أَحَدٌ يأمنه على تَعَلُّقِهِ وما بيده مِن وظائف ، وغير ذلك، وحُفِظَ عنه في الرِّشى أَشْياء كثيرة .

= الريحانية والوزيرية ، وهما طائفتان من طوائف عسكر الخلفاء الفاطميين ، كانت بها مساكنهم، وقيل لها أيضاً بين الحارتين ، وبقيت بها هاتان الطائفتان حتى تولى صلاح الدين ، وسميت بحارة بهاء الدين ، لأنه لما تولى صلاح الدين سكن بها بهاءُ الدين قراقوش ، فسميت به .

« خطط المقريزي » (٢/ ٢) ، و« الخطط التوفيقية » (٣/ ٢١) .

ثم أرسل يستعفي مِن قضاء دِمشق لمّا سمع أنَّ عم أبيه قاضِي الشافِعَية بمصر مريضاً ، فتمادى به الحالُ إلى أنْ عُزِل عن قضاء دِمشق، ثم مات كما شُرح ، الحقَ الله به أَقارِبَه ، فإني لا اعْلَم منهم أحَداً فيه نَفْعٌ للإسلام ، والله الموّفق .

ثم صُلِّي عليه في يوم الجمعة حادِي عشري ذي القعدة هذا في جامِع الأزْهر والحاكِم .

وفي هذا اليوم ، يوم الجمعة هذا ، سافرت خَوَنْدَ زينبُ بنت خصبك في البحر إلى إسكندرية ؛ إلى ولديها المؤيَّد أحمد ، وأخيه محمد ، بَعْدَ أن صُودِرَت غير مرّة وأُهينت إهانَة قَلَّ أن سُمِع بمثلها أَلْجأتها إلى أن دارت على الأمراء وتشفّعت بهم ، وقلّ راحِمها ، لإنها كانت كثيرة الفضول في الدخول في أمور النّاس الجليلة والقليلة ، وغالب الفساد كان منسوباً إليْها .

ثم شاع أنّ الولي بن تقي الدين لم يمت ، وأنه طيّب ، وكان خبرُ الموت مستنداً إلى كتابٍ عَن القطب الخَيْضري إلى الأمير يَزْبُك ، ومنه أنه مات وصار تحت أطباق الثَّرى ، فكان هذا التناقض مِن العجائب .

ثم تبين كَذِب هذه الإشاعَةِ ، وأنه مات ضحى يوم الاثنين عاشر ذي القعدة ، وهو يوم لبس الخَيْضَري خْلِعَةَ القضاءِ ، وكان الخَبَرُ قَدْ بلغه من يوم الجمعة سابِعه قبل وصول الخبر إلى المتولِّي ؛ وذلك أنَّ جماعَةَ الولي بالقاهِرة استأجروا يوم ولاية الخَيضري بالقاهِرَة مَن يُسْرع السَّيْرَ ليصل قبل بشير الخَيْضري ، ليخرج من دمشق مُظْهِراً أنه أُذن له في القدوم إلى القاهِرَة ففعل ، فإذا هو لما به مِن المرض فَزَادَه مرضاً ، فمات في اليوم المذكور .

أول السَّنة القبطية

[٢٩٣] وفي يوم السبت ثاني عشري ذي القعدة هذا ، كان أوّل توت أول السَّنة القبطية .

وفي يوم الأحد ثالِث عشري ذي القعدة هذا ، كان ثاني شهر توت أوّل شهور سَنَة القِبْط ، ووافق أنْ نودِي أنَّ زيادَة البحر إصْبع ، وَفَت إحْدى وعشرين إصْبَعاً ، مِن ثماني عشرة ذِراعاً .

وفي هذا اليوم اشتدّ البلاءُ على العَلَم صالح وذويه مِن جهة الأوْقاف التي باعوها ، وأوردوا مِن أثمانِها لِمَن بيعت له جملةً ؛ لأنها رجعت إلى ما كانَت عليه مِن الوَقْف ، ورفعت أيديهم عنها .

وفي هذا الحد ، قدم الخبَـرُ أَنَّ خِضْرَاً الكردي الذي أَقامَه نائبُ الشَّام كاشَفاً في الرَّمْلَةِ ونابُلُس جمع جمعاً كبيراً مِن تلك البلاد مع ابن الجَيُّوسي وغَيْره مِمَّن يبغض إسماعيل بن عبد القادر ، ثم ساروا إليه ، وقد كان بلغهم أَنَّه كان في كفر يهودا ، لمَّا قصدوه مع يحيى بن نائِب الشَّام ، وأنهم خدعوهم عنه ، فلَّما تحرّكوا له ، صادَف أنه كان قد وصل إلى إسماعيل ما جُهِّزَ له مِن الخِلْعَة والمرسوم مِن السلطان ، أَنَّه على عادَته ، فَقَوِيَ بذلك، فجمع من قَدِر عليه ولقيهم وهم في خمسة آلاف ، وهو في دون ألفين ، فكان الظّفَرُ له ، فَقَتَل منهم جَمْعاً ، نحو مائة مِن خيارهم ، منهم : خضر الكردي ، وابن الجَيُّوسي ، وكُتب إلى السلطان بذلك .

وقال : إنْ رَسَم السلطانُ لِي كفيته كلَّ من يتحَّرك إليه بسوءٍ مِن بلاد الشام أنا وَمَن لافَنِي ، من مَقْلد وابن أبي غازي ، وطَرَباي ، ومَن انضمّ إلينا فأعجبَ السلطان ذلك ، وكذا من يكره نائبَ الشام ، مِن الظّاهِريَّة وأشباهِهم ، وَعَظُمت مَشَقَّتهُ على الأشرفِيّة ، وأخذ السلطانُ وَمَن شايَعه يَنْصِبون لنائِب الشام مِن حبائل المُكْرْ ما يشرع هلاكه ، وبلغهم أنَّه آذى بعض الأمراء الذين بدمشق ، وأنَّ تِمْرَاز وصل معه إلى دِمشق ولم يطلْع إلى محل ولايته مدينة صَفَد ؛ فكُتب له مرسومٌ بإكْرَام مَن عِنْدَه مِن الأمراء ،

والتعجّب مِن التعرّض لهم ، وأمره باحتمال حاجِب الحجاب جانِبَك ، وأَنَّ الذي ينبغي له العفو عنه ولو وقع منه ما وقع ؛ للعِلْم بأنّه مناصِحٌ للسلطان ، وأنّه أحَدُ أعيانِ مَن يثق به ، وأنَّ تمراز إن لم يُبَادر إلى محّل ولايته ولّى السلطانُ غَيْرَه .

ولادة ابني أبو اللطف أحمد يوم الأربعاء سادس عشري ذي القعدة سنة خمس وستين وثمانمائة وهو الموافق الخامس توت من أشهر القبط وهو ثاني أيلول من أشهر السريان

وفي يوم الأربعاء سادِس عشري ذي القعدة هذا ، عَقِب صلاة العصر مِنْه ، الموافِق لخامِس توت وثاني أَيْلول مِن أشهر السُّرْيان ، وُلِد ابني أبو اللطف أحمد الثاني مِن فتاتِي حَسْبِيَ الله الزُّنْجِيَّة المَسَلاَتيّة بنت سلطانهم خَلِصَه (بفتح المعجمة وكسر اللام ، ثم صاد مهملة) وكان حملها بهذا أربعة عشر شهْراً وقد تقدَّم أنها حملت بأخيه تسع سنين وزيادة .

وكانَ ميعادي في الجمعة الماضِية في قوله تعالى في سورة يوسف : ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ﴾ [1] إلى قوله : ﴿ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾ [2] . وفي الجمعة التي تليه مِن قوله تعالي : ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ ﴾ [3] إلى قَوْله : ﴿ وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ [4] . أسأل الله أنْ يجعل طلعَتَه مقرونة بالسَّعادَة واليُمْن والبرَكَةِ في الدُّنْيا والآخِرَة .

وكانت ولادته مِن أسْهَل ما سمعت به ، لعلَّها كانت في دون عشر درج وكان اشتدادها دون درجتين ، فأذَّنْتُ في أذْنِه اليمنى ، وأَقَمْتُ في اليُسْري ، وحَنَّكته بِتَمْرَةٍ حجازِيَّة لكتها ، وأَضفت إليها ماءَ زَمْزَم

(١) يوسف / ٤٣
(٢) يوسف / ٤٩
(٣) يوسف / ٥٠
(٤) يوسف / ٥٧

رجاء البرَكَةِ والخَيْر ممن لا يخيب راجِيه ، وهو عِند ظن عبده به ، وهو المسؤول في إبلاغ المأمول .

ثم عملت عقيقتَهُ يوم الأربعاء ، رابع ذي الحجّة مِن السَّنة ، وفرَّقْتُ على جميع أَهْلِ حِارَتِنا ، فقراء وأغْنِياء مَرَّة ، ثم أَعَدْنا التَّفْرِقَة ثانياً مع خَيْرٍ وفضل، بعد أكل من أتى من غير دعوة بُكْرة وعشيّا ما وسع أهل سجن الرحبة خُبزًا وطَبِيْخاً ، وَحلقتُ رأسَه في هـذا اليوم ، وفعلت فيه السُّنَة وخَتَنْته بكـرة يوم الخميس ، خامِس ذي الحجّة المذكور ، نشَّأه الله نشأة حسنة ، وأحْياه حياة طيِّبَة آمين [1] .

[٢٩٤] وفي هذا الحد ، وَصَل الخَبَرُ أنّ السلطانَ محمد بن عثمان ، قارَب هذه البلاد ؛ وذلك أنه لما تغلغل في بلاد الكفر وأبادَهم ، وفرّق جموعهم ، وقتَل ملوكَهم ، واستباح ممالِكهم ، سألوه في صلح ولم يزالوا به حتَّى فَعَل ، وهـادَن بني الأصْفر [2] والأَفْلاق [3] على مـدَّة معلومـة ، ثـم رجع إلى بلاد الإسلام بعد أن استناب في حَدّ أرضهم من أصحابه من يثق بـه ، وضم إليه مـن الجند مَنْ يكفيه على تقدير الصـلح ، فلم يشـعروا إلا والأفـلاق قد دَهَمُوهم ، فحصل بينهم قتال كـبير ، ثم نصـر الله أهـل

(١) في هامش الأصل الأيسر ، وضع المؤلف حاشية عن ابنه أبو اللطف نصها : « لم يمش حتى جاوز السنتين وكذا ابتداؤه بالكلام ، لكنه كان يفهم ما يُقال له ، ولا يقدر على الكلام ، وكانت له قوة عظيمة ، ولا يجسر على المشي ، ومشى قليلاً بعد فطامه ، بعد السنتين ، واستمر كذلك حتى جاوز ثلاثة أشهر وهو يمشي وحده خطوات يسيرة ولا يجسر على الإطالة ، لكنه كان كثير الأمراض لاسيّما بقروح نبتت في وجهه وبعض بدنه » .

(٢) بنو الأصفر : جاء في « صبح الأعشى » (٥/ ٣٨٢ ، و٦/ ٨٧) أنه من الألقاب التي تصلح لملوك الروم والفَرَنج بالممالك العِظام ، والمراد ببني الأصفر الروم ، فإنهم من ولد صوفر بن العيص بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام ، والمؤرّخون يعبّرون عن صوفر بالأصفر .

(٣) الأفلاق : ويقال : (الفلاخ) إمارة بسهل الدانوب الأدنى من أهم مدنها بوخارست ، تشتهر بالزراعة وبها آبار بترول غنية ، وكانت تؤلف جزءاً من فالشيا الرومانية ، وخضعت لغزاة كثيرين ، وأصبحت منذ سنة ١٣٩٦ م تابعة للدولة العثمانية ، استقلت سنة ١٨٥٦ م واتحدت مع مولدافيا سنة ١٨٥٨ م ، وكونتا معاً الدولة الرومانية الحاضرة .

« الموسوعة العربية الميسرة » (١٨٢) ، و«تاريخ الدولة العلية العثمانية » (١٣٠ ـ ١٣١ هامش ٤)

الإسلام نَصْراً مُؤزَّراً ، وقُتِل مِن الكفَّار خَلْقٌ كثير ، وقُبِض على جماعـة مِن عظمائهم ، فسئلوا ما حملكم على الغَدْرِ ؟ فقالوا : هذا الكتاب ، فإذا هو مِن ابن قَرَمان يحثّهم على قتالِهم والمَشْي على البلادِ العثمانِيَّة مِن ناحِيَتِه ، ليمشى هو عليها مِن ناحيته ، فيأخذوهم وسطاً .

فأُبْلِغَ ابنُ عثمان هذا الخَبَـرُ فاستشاطَ غَضَباً ، وحَلف لَيَمْشِيَنَّ عَلَى ابن قَرَمان حتى يَسْتَأصِلَه أوْ يَهْلَك دونَه ، ثم جاء لهذا السبب ، وقيل : إنّه لا يتمكَّن مِن بِلاده إلاّ مِن ناحِية مَلَطْيَة ، لوُعُورةِ الجِبال الذي في بلاد القَرَمانية مِن ناحِيَة بلاده .

ثم قِيل : إنّ السبب إنما هو أنّ حسن بك بن قرالوك آذى في بلادِه ، فقصد محارَبتَه ، وحطّ على آمِد يحاصرها ، فَفَرَّ منه حسنُ بك ، وشاع أنه أخذ مَلَطْيَه ، لإنها كانت مع بعض أسلافِه .

فاضطرب مَلِكُ مِصْرَ لهذا الخبر ، واستشار امراءه ، فمن قائل : نرسل إليه هديّةً ، وكتاباً يُسْتعطف به ، ومِن قائل : هذا ذِلٌّ . ثم حطّ أمرُهم على إرسال بلاط دُوَيْدَار نائب حلب بهديَّة لأَنَّ ذِلَّهم عنه ظاهِر ولاسيماً الآن ، فإنهم يردُّونَ يَدَ لامِس ؛ لاختلافهم وقِلّتهم ، وتَعَوُّدِهم الرّفاهِيَّة .

وأما ابن عثمان ، فَرَجلٌ ما نشأ إلاّ في الحرب ، ولا تَرَكه سنة ، بل ولانصف سنة ، ورجَالُه كلُّهم مُقَتَّلُون [1] في ذلك ، فحربهم دائِماً الحرب العوان [2] ، ولهـم في اللقاء حِيَلٌ وصنائِعٌ ، لا تَنْحصر ، منها أنَّ المشـاةَ

---

(١) مُقَتَّلُون : مجرّبون .

« المعجم الوسيط » (٢/ ٧١٥) .

(٢) الحرب العوان : التيَّ قوتل فيها مرة بعد أخري .

« المعجم الوسيط » (٢ / ٦٣٨) .

الذين معه ، وهم عشرون ألفاً مع كلّ منهم خاروق (وهو عصى طويلة ممدَّدَة الرأس) فإذا لاقوا غَرَزَ كلٌّ منهم خاروقَة أمَامه ، فصاروا وراء سور مِن خواريق ، ثم يَرْمون مِن ورائِه ، وهم رماةُ [1] الحَدَق ، فلا يقوم لهم عسكرٌ ، ولا يُقْدم على ذلك السور فَرَسٌ ولا غَيْـرُها .

وفي يوم الأربعاء المذكور ، وهو سادِس عشري ذي القعدة هذا وَصَل الخَبَرُ أن الجَمال عبد الله بن جماعة شيخ الصَّلاحِيَّة بالقُدُس مات بالرَّمْلَة بكرة يوم الجمعة حادي عشري ذي القعدة هذا ، ونُقِل إلى القدُس ، فَدُفِن بها [2] ، وكان شَيْخاً كبيراً ، لعلَّه جاوَز الثمانين ، وكان معيداً بالصَّلاحِيَّة لمّا كنتُ مقيماً بها وُلِّي مشيختها ، ولم يكن فيه أهْلِيَّة للإعادَة ، فضلاً عن المشيخة ، وولي قضاء القدس ، وكان ينسب عند الأتراك ونحوهم مِن المباشرين إلى دِيْنٍ ، ولم يكن كذلك ، فإنّ ابنه أتْلَف الصلاحيَّة على زمنه ، ولو شاء لمنَعه ، وزاد في بيتهم مِن المسجد الأقصى ، ولو شاء لمنعه ، إلى غير ذلك مِن المصائب .

وسبب موته في الرَّمْلَة أنَّه كان ذهب إلى دِمشق ؛ لأَجل ابنه لمَّا أخذه تِمْراز ، وتوجَّه مع نائب الشَّام إلى دِمشق على ما كان ادَّعى له مِن المال قِبَلَهُ ، فدارت جماعَتُه في القدس ، فسألوا النَّاسَ القرْضَ والمعونَةَ ، فجمعوا منهم نحو أربعمائة دِيْنار معونَة ، وبقية المال قَرضاً ، ثم ذهبوا فافَتكُّوه ، وعادوا ، فلمّا كانوا بالرَّمْلَةِ مات الأبُ ، فأرسل البرهانُ ابنهُ شَخْصَاً للسَّعْي في مشيخة المدرسة الصَّلاحِيَّة ونظرها .

---

(١) رماة الحَدَق : الحَدَق ، السواد المستدير وسط العين ، ويُقال : هو من رماة الحَدَق : حاذِقٌ ماهِرٌ في النّضال .

(٢) راجع « هامش ٥ » من (ص ١٤٥) من القسم الأول .

فوصل في اليوم المُسَمَّى ، ثم توصّل إلى الأمير قانم ، فاعْطاه القِصّة ، وفيها أنّ الجمالَ كان نزل له عنها ، فأخَذَ له قانَم عليها يَكْتب مِن السلطان .

والحالُ أَنَّ البرهانَ هذا ، لا يُـحْسِن شيْئاً مِن العِلْم ، ولاله إليه قابلِيَّة بوَجْهٍ ، ولو أنَّه مِن أهْل العِلْم ، ما شاع إعطاؤه إيّاها ، لما هو عليه مِن الفساد ، وقِلَّة الدِّيْن ، والجُرْأة المُفْرِطة ، فإنه أفسد الصَّلاحِيَّة في حياةِ أبيه حَتَّى لم يبق بها ساكِنٌ بَعْدَ أنْ كان الاثنان والثلاثة مِن الطَّلَبةِ يشتركون في الخَلْوة الواحِدة ، وأنا أدركتها بعد سَنَةِ ثلاثين وثمانمائة وأكثر خلاوِيها مسكون وبلغني أنها الآن مع ذلك مُغْلَقة مُسَكَّرَة مِن الخارِج ، ليس بها بَوَّاب .

ولقد بلغني مِن بَعْض ثقات أقارِبه ، وهو أحدُ الوجهاء في القدس ، وهو أبو الوفاء بن أبي الوفاء ، أن البرهان هذا يُسَـرُّ إذا قِيْل : إنّه جَبَّار . وأَنَّ شخصاً مِن ثقات الفقراء بالقُدُس أخبره أنه اضطرّ إليه في أَمْرٍ ، فدفع إليه سبعَ دنانير ، وقال له : هذا أمرٌ بيني وبيْنَك ، والله لا أذكره لأحَدٍ وأعْنِي في كيت وكيت . فقال : سأفْعل ، وأَمّا أنت فلا تُخْفِ هذا الأمر ، بل أَظْهِرْ لكل أحدٍ ، ولكن لا تقل : أنه سبع دنانير ، لئِلاَّ أُسْتهان بأخْذِ القليل ، بل قُلْ إنّه عشرون أو ثلاثون ، أو نحو ذلك . والأَخْبار مِن مثل هذا كثيرة ، وتواتر بالثّقات أَنَّه أَخذ قطعةً مِن المسجد الأقصى فحوّط عليها وأَدْخَلها في بيت الخَطَابة الذي هم ساكِنون به ، بحيث صار مِن المسكن الذي تدخله الحائضُ والنُّفَساءُ ، ومن في بيتهم ، ويُمْنع منه غيرهم .

هذا مع أنّ تزويره على السلطان الملك الظَّاهِر جَقْمَق ، ومحاكاتِه لخطّه مذكور في تاريخ شيخنا الحافِظ بن حَجَر سنة ست وأربعين ، أو خمْس[1]، وله مِن المخازي مالا تسعه الدَّفاترُ .

ثم إنّ بَعْضَ أهلَ العلم استغاث مِن وصول هَذَا الحمار الجرىء الجبَّار إلى هذا الأمْر ، فأبلغوا الأمير قَانَم أنه لا يَصْلح لشىء مِن ذلك ، وتواردت عليه الأخْبارُ ، فَنَدِم .

ثم سعى قاصِدُه بخالَيْه ، ابن الشمس الدَّيْرِي سعد الدين قاضِي الحَنَفِيَّة ، وبرهان الدين ناظِر الجيش بها كان ، فأرسل السّعد وهو في السابعة والتسعين مِن عمره ، ولم يبق منه إلاّ الرُّسُوم[2] يخبر أنَّه أهل مكابرة للمحسوس ، وهو والله لا يَعْرِف شيئاً مِن العلم ، وكان إذا لامَه من يعرفُ المذكورَ ، يقول معتذِراً : وأين [٢٩٥] الأهل في هذا الزَّمان ، يريد أنَّ أكثَر الوظائف مع غير أهْلِها ، فله بهم أسوَة ، ولا يحسب مع قربه مِن الأجَل بحسب العادَة أَنَّ هذا الأمر لا يُخَلِّصه عِند الله ، فيالله العجب، ولمّا رأوا توقُّفَ الأمير قَانَم قوَّوا أمْرَهم بالذَّهب ، فبذلوا للسلطان خمسمائة دِيْنَار ، ولقَانَم وغَيْره ما يُقار بها .

وَرَكِب السَّعـد إلى قـانَم ، وشِهَدَ عِنْدَه أنَّ البرهـانَ أهـلٌ للتدريس ،

---

(١) أشار (إبنُ حَجَر) في كتابه « إنْباء الغُمر » (٩ / ١٢٢) إلى ذلك في حوادث سنة ٨٤٤ هـ وقال : « وفيها كائنةُ إبراهيم بن خطيب القُدُس وقاضيه جمال الدين بن جماعة، رُفِع إلى السلطان : أنه زوّر عليه مرسوماً بمرتَّب ، فأُحْضر إلى القُدُس ، وصُرف أبوه عن القضاء وحوقق على ذلك » .

(٢) الرُّسُوم : الرَّسْمُ ، الأثر الباقي من الدار بعد أن عَفَت .

« المعجم الوسيط » (١ / ٣٤٥) .

وأنّه مِن كبار أَهْلِ العلم ، وكان مِمَّن أُثِير عَلَى ابنِ جماعة الأمينُ الأقصرائي، وكان مقبول الكلام ، فاجتمع به السَّعْدُ ، وقال له : هذا مِن بيتٍ كبيرٍ ، وهو ابن أختي وصِهْري ، فيرعى للْعُلى .. وقال له : إنَّه أَهْلٌ للتدريس ، وأنّ له أخاً أهل للتَّصْنِيف . فقال له : فأخوه يَقْرب لك؟ فقال : لا . فقال : لا شَكّ أَنّ الذي هو أَهْلٌ للتَّصْنِيف أَعْلى مِن أَهْلِ التدريس ، فساعِدْه دون ابن أُخْتِك ، لتنتفي عنك الرِّيْبَةُ . قال : فلم يردّ إليّ عن هذا جَوَاباً ، ولا أظهرَ أنَّه سَمِعه . فيالله العجبُ مِمّن ناهَزَ المائة ، وهو يسعى فى إهانة الدِّيْن في ثالث المساجِد ، وذلك أنَّ أَهْل القُدُس ، يغلبُ فيهم الشّرُّ والباطِلُ ، وما هناك مَنْ يُرْجعُ إليه عِند التَّنَازُعِ إلاّ شيخ الصَّلاَحِيَّة ، فإذا كان شيخها هو اللِّص ، فما ظَنُّك !

فَكَفّ الأَمينُ خَوْفاً مِن أن يُقال له : أهليَّة هذا لهذا الأَمْر ، مثل أَهْلِيَّة ابنك لتدريس الجماليَّة بالقاهِرَة ، والله الموفق .

وفي هذا الحد ، نقص البحرُ ، بَعْد وصولِهِ إلى إحْدى وعشرين إصْبعاً مِن الذِّراع الثامِنَة عَشَرة ، فوصل نَقْصُه في عِدَّة أيّام ، إلى تسع عشرة إصبعاً ، وذلك أنَّه فُتِحَ كل سَدٍّ في برِّ الشرق ، سدّ الأميرية ، وبني منجا وغيرهما ، فَهُلِع الناسُ ، فارتفع سعرُ الحبوب ، فكان القمْحُ يُباع الإردَبّ منه بمائة وعشرين ونحوها ، فارْتفع إلى مائة وسبعين ، وعليه قِياسُ البقيَّة، ثم زاد الأَرْبعاء ، رابع ذي الحجَّة ثلاث أصابع مِن النَّقْصِ ، وفي كّلٍ من يوم الخميس والجمعة إصْبعان ، فاطْمأنَّ النّاسُ إلى ذلك ، ولم يزل يُنَادَى عليه بالزّيادَةِ مِن النَّقْص في كلّ قليل إلى أنْ كانت آخِر زيادَته في آخِر يوم مِن توت ، وهو الموافِق ليوم الاثنين ثالث عشري ذي الحجَّة المذكور.

ولمَّا أرسل ابنُ جماعه رسولةَ بما تقدَّم عَلِم أنَّ الناس ينعون عليه الجهل، لمعرفتهم ببعده عن العِلْم ، وكان له ابنٌ يُسَمَّى محمداً [١] ، ويُلَقَّب نجم الدين ، يفوقُهُ بأنه ينظر في الكتب ، ويضم إليه بعضَ الطلَبة الفقراء ، فيقرأون في بَعْضِها ، مع أنَّه لم يقرأ على شيخ مِن المشائخ إلاّ أنّه سمع بقراءة أخ له يُسمَّى إسماعيل [٢] شرْحَ الجلال المحلِّي على جَمْع الجوامِع ، قرأه رواية في مجالِس يسيره ، وكتب لهما على آخره أنه أَجاز لهما رواية الكتاب ورواية جميع ما يجوز له روايته ، فرأى أنه أقرب إلى الإجابة مِنْه، فَقَدِم يوم الخميس خامِس ذي الحجّة .

ذو الحجة

فأخبرني العلاّمةُ ، كمال الدين محمد بن أبي شريف القدسي ، وكانوا يقطعون بأنّ المتكلِّمين في جَهْل البرْهان إنَّما أرادوا بتأخِيْرِه تقديم ابن أبي شريف، فأراد النَّجم أنْ يُظهر له عِلْماً ؛ لِيَصُدهّ عَنِ الكلام في ذلك، فقال لـه : رأيت لمّا قَدِمْنا دِمشق تَصْنيفاً للبدر بـن قاضي شُهْبَة ، فتوجَّه لي عليه اعـــتراضٌ ، وذلك أنّ الأصحـابَ قالـوا : أَنّ الطُّحْلُبَ [٣] لايـضرُّ

---

(١) هو : محمد بن إبراهيم بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن ، النجم بن البرهان المقدسي الشافعي ابن جماعة ، ولد في صفر أو آخر ربيع سنة ٨٣٣هـ ببيت القدس ، وتَفَقَّه بجده قليلاً ثم ارتحل إلى القاهرة وأخذ عن علمائها وأجازوا له في التدريس ، واستقر في مشيخة الصلاحية ببيت المقدس ، وحدّث بالمسجد الأقصى وخطب ودرَّس وأفتى ، مات سنة ٩٠١هـ .

له ترجمة في « الضوء اللامع » (٦/ ٢٥٥ رقم ٨٨٨) ، و«شذرات الذهب » (٨/ ٩ـ١٠) .

(٢) راجع « الضوء اللامع » (٦/ ٢٥٦) .

(٣) الطُّحْلُب : « خُضْرَةٌ تعلو الماءَ الآسِن ، وهي نباتات بسيطة لا زهرية غيرْ مُمَيَّزة إلى سوق ، أو أوراق ، أو جذور ، منها الأخضر ، والأصفر ، والبني ، والأحمر ، والأزرق ، تعيش في الماء العذب والملح، وفي الأرض الرّطبة » .

« المعجم الوسيط » (٢ / ٥٥٢) .

الماءَ الذي نبت فِيه ، فإذا نُزِع مِنْه ثم أُعِيْدَ إِلَيْهِ ضَرَّ ، فزاد ابنُ قاضِي شُهْبَة عليهم أَنْ قال : إنَّ صُوْرَة ذلك أَنْ يُدَقّ الطُّحْلُب ناعِماً ، ويُطْرح فيه فَيُغَيِّره ، وهذا كما ترى مخالِفٌ لكلام الأَصْحاب ، فانظر ، وتعجَّب ممن يسعى في تدريس الصَّلاحِيَّة التي هي أجلُّ مدارِس الشَّافِعيَّة بالدّنيا، وهو يظنُّ أنَّ مُجرَّدَ إعادة الطُّحْلُب إلى الماءِ تَسْلب طَهوريّته مِن غير مُخالَطَةٍ ولا تَغْيير ، وما يُكْفِهِ جَهْله ، حتّى أنّه يعترض على المصَنِّفين ، ثم ما يَكْفِهِ ذلك حتى يُخْبِر به مَن أَهَّلَه الناسُ للمدرسة المذكوَرة ، يريد أن يصدّه بذلك عَنْها ، فإنا لله ، وإِنّا إِليه راجعون ، ثم ادَّعي أنّ هَذَا الوَلَد لانِزَاع في أَهْلِيَّته .

وأخبرت عن الأَمين الأَقصرائي أنه قال : أنَّ النَّجْمَ هذا ، اجتمع به وقال له : إنّه يدرس ، وله تلامِيذ ، وأَنَّ منهم الشيخ زين الدين ماهر . فلم يَدَع للفجور والبُهْت موضِعاً فَسل نَفْسَك أَيّها الآتِي بَعْدنا إذا نَزَلت بِك نازِلةٌ ، فإنّ الزّينَ المذكور أحدُ النَّوابغ مِن المشائخ بالقدس مِن قَبْل أَنْ يولد هذا بعشرين سَنَة ، ثم إنّه الآن يَجِلّ عَنْ أَنْ يُقَال : أنّه ليس بالقُدُس مِثله ، بل العَدْل فيه أن يُقَال : أنه لَيْس بالمملكة شافِعي مثله في السِّنّ والعِلْم والتَّفنن في غالب الفنون والزّهد والوَرَع .

ثم إن القِصَّة حُوِّلَت باسم النَّجم هذا ، فكان ذلك إقراراً بجهل أَبيه المشهود له ، وقُرِّرَت الوظيفةُ له : ثم سافَر في نِصْف ذي الحجّة هذا لا أوصَلَه الله ، ولا أَنْجح له قصداً .

وفي هذا الحدّ أو قَبْله ، وصل دُوَيْدَار جَانَم ، نائب الشَّام ، ومعه كِتاب استاذه إلى السلطان . [٢٩٦] ، يستغيث مِن أمر إسماعيل بن عبد القادِر ، وأنّ أمْره إن دام انْكسرت حُرْمَتُه ، وانْحطَّت منزلته ، وتَضَعْضع

أمْرُه ، ولا يَقْدر على كفاية أمور دِمشق وأَعْمَالِها ، وأنَّه ما كان فارَق السُّلْطان على ذلك ، بل على أنَّ أمرَ مشائخ البلاد إليه ، فلمَّا فعل ما أَذن له السلطانُ إليه ، نقض عَلَيْهِ بما يَهْدِم مكانتَه ، فإنْ كان بدأ للسلطان فيه بَدْءاً ، فهو مملوك السلطان ، فلْيَرْسم به إلى حيث أراد مِن سجنٍ وغَيْرِهِ مِن القُدُس ومكّة وغيرهما ، وإنْ كان عِنَده في مناصحته شكٌّ واقتضى رأيُه الشريفُ أنْ يُرسل مَنْ يثق به لِيُحَلِّفَه على ما يُريد مِن الإخلاص للسلطان والوقوف عِندما يرسم به ، والقصْدُ أَن يكون ملحوظاً بِنَظرِ السلطان ، مشمولاً بِظَلالِه وصدقاتِه ؛ لتقوى حُرْمَتُه ، وتَنْفُذ كَلِمتُه فيما إليه مِن السياسة ، ونحو هذا مِن الكلام .

وقوله : إنَّ هذا السلطان أَذِن له في عَزْل المشائخ ، وَوِلايَتهم تَدْلِيس ، إنّما رَسَم له أَنَّ الشّام له ثلاث سنين ، بِمَعْنَى أنه على عادَةِ مَنْ تَقَدَّمه ، إلاَّ أنَّه لا كُلْفَة عليه بِتَقْدِمَةٍ ولا غيرها .

فَلّما وقف دُوَيْدَارُهُ للسلطان ، قال له : ما لإِسْتَادِك يسر سَيْر أمثالِه ، مِن الحَمْزاوي وجُلُبّان ، وغَيْرِهما مِن نُوَّاب الشَّام ؟ فقال : يا مَوْلانا السلطان ، بل يكون أَقَلَّ منهما . فقال : لا ، بل مثلهما .

وأرسل جَانَمُ كِتاباً لإخوانه مِن الأَشْرَفِيَّة يثيرهم للغضب له ، بأنْ قال: إنَّ أمراءَ دِمشق أهانوه ، وآذَوه غايَة الأذى ، وَأَوْهَنُوا كلمتَه ، وأنَّ نائِبَ القلعة رمى عليه بالمِدْفَع ، بَعْد رجوعِهِ إلى دِمَشق ، وأنَّه لا يَقْدِر على الإِقامَةِ بدمشق على هذا الحال .

ووصل الخَبَرُ مع هذا الدُّوَيْدَار أَنَّ السلطانَ محمد بن عثمان أرسل إلى نائِب حَلَب ، يقول له : إنّي عازِمٌ على زيارة القُدُس ، ولا طريق إلاَّ مِن

بلادِكم ، فإنْ كانت الطّريقُ للمسلمين فأنا منهم ، ولا يحلّ مَنْعها ، فَلْيُؤذن لي ، وإن لم يؤذن لى قَدِمْتُ بالسَّيْف، فراعهم هذا ، واضطربوا له .

ثم وَرَد كِتابٌ في عِيد الأَضْحى مِن نائب مَلَطْيَة أَنَّ ابن قرالوك ، لم يزل يَتَلطَّفُ بابن عثمان ، ويترقّقُ له ، إلى أنْ عَفَى عنه ، ورَحَل إلى ناحِيَة بلادِ بَعْض الكفَّار المجاوِرين للبحر ، بالقرب مِن بلاد ابن قَرَمان .

وفي عيد الأَضْحى ، أُجيب نائبُ الشّام بأنّه ليس في وِدِّهِ ونُصْحِهِ شكٌّ ، وأمّا أمر إسماعيل وَغَيْرِهِ مِن المشائخ ، فإنّ للسلطان قِبَلهم أموالٌ فما أُعِيْدوا إلاّ لذلك ، وأمّا أمر الْحَلْف ، فالسلطانُ غَيرْ محتاجٍ إلي الإرْسال بسببه ؛ لأنّه لا شكَّ عِنْده في النَّصيحَةِ وإنْ كان لا بدَّ للجنَابِ مِن ذلك فليفعل ذلَك بِحَضْرَة مَنْ يريد مِن القضاة والأمراء ، ويرسل صورة ذلك ، وأَنَّه جَبَر أمره بِفَرس ، أُرسل إليه بِسْرج ذهب وكُنْبوش وخلْعَة بِطُرِز عريض له ، وأعْطَى دُوَيْدَارَه مائةَ دِيْنار وخَلَع عليه ، وأُكْرِم بِأنواع الإكرام ، ونحو هذا مِن الكلام .

وكان قد رُفِع إلى قاضي الشّافِعية ، الشّرف يحيى المناوي ؛ أن الشريف [محمد] [1] بن أبي المكارم بن قاسِم ، تزوّج امرأةً مِن أهْلِ المحَلَّة الكُبْرى[2] ، وأولدها وَلَداً هو الآن مراهِقٌ ، وأنّه أنْكر الآن أنْ يكون تزوّج بالمرأة المذكورة، فَضْلاً عَنْ أنْ يكون هـذا ولـده، وشـاع أنَّ ذلك مراعـاة

---

(١) بياض في الأصل بمقدار كلمة ، والتصحيح من « هامش ٥ » (ص ١٤١) .

(٢) المحَلَّة الكبرى : ويُقال لها في مشترك البلدان : مَحَلَّة الدَّقلا ، وهي قصبة كورة الغربية وأكبر مدنها ، تقع علي ترعة الملاح فرع من فروع بحر شبيين .

« الخطط التوفيقية » (١٥ / ١٨) .

لخاطِر امرأته التي هي معه الآن ، وهي أخت الأوْحَد محمد بن الشهاب العجيمي البُلْقِيني ، قاضِي المَحَلَّةِ ، وذكر أهلُ الخَيْر بالمحلَّة أنّ عليه بالزّواج شهوداً ، غَيْر أنهم يخافونه ، ويخافون صِهْره أوحد الدين البُلْقيني قاضي المحلَّة ، الشهير بابن العجيمي ، وأَنَّ لهم أتْباعاً يُخيفُون النَّاس ، وأنه لا قِبَل لأحدٍ بهم .

وكان الأوحد لما بلغه عَزله مِن إسْكندرية ، قَدِم القاهِرَة ، والتجأ إلى الدُّوَيْدَار الكبير جانِبَك ناظِر جُدَّة كما هي عادَة المفسدين في زماننا ، فأظهر الشرفُ المناوي عَدَمَ المبالاة بذلك ، وولّى شخصاً يسمى.. (١) الدين بن الكبير [٢٩٧] وهو مِن أَهْل تلك البلاد ومِن أكبر المناحيس ، وأهل الشَّرِّ ، لكن قصد بذلك رَفْع ما يَخْشاه الشهودُ عَلَى ابن القاسِم ، لأَنّ ابنَ الكبير مُبْغِضٌ له ولأَتْباعِهِ .

وَرَسم الشافِعيُّ على الأوحد ، فخلَّصه الدُّوَيْدَارَ ، ثم لم يمكث ابنُ الكبير جُمْعَةً في الولايَةِ حَتَّى عُمِلت مصلحةُ الأَوْحد وَرُضي عنه فَوُلِّيَ قضاءَ المحلَّةِ ، وأسرع ابنُ قاسم إبلاغ الخَبَر قبل وقوع الولاية ، فرجع خوفُ الشهودِ كما كان وأشد ، وطالت القَضِيَّةُ ، ثم أَقْدَم جماعة مِن الشهود ، فشهدوا ، فقام الأَخْصَامُ واجتهدوا في التخييل منهم ، وكان القاضِي الذي نُدِب لذلك نور الدين البلبيسي الشافعِي ، فتوقَّف في قبولهم ، ونُسب في ذلك إلى الغَرَضِ ، فإنهم ما أقدموا مع الخَطَرِ الشّديد إلاَّ إرادَة الحقّ ، مع ما هناكَ مِن القرائن الدَّالَّةِ على صِدْقِهم ، وَشُبِّه الصّبِيُّ بالشَّرفَ المذكور ، حَتَّى بَلَغني عَنْ كثير [مِن] (٢) الأفاضل

---

(١) بياض في الأصل بمقدار كلمة ، لم نجد ما يصححه في المصادرة المتوفرة .

(٢) ما بين الحاصرتين إضافة اقتضاها السياق .

أنّهم قالوا : لو كُنّا قافَةٍ [1] ألحقناه به ، ثم طلب ابنُ قاسِم المصالَحَةَ على مال .

وفي يوم الأحد ، منتصف ذي الحجة ، قامت عند أبي حامِد القُدُسي ، أحد نوّاب الشافِعية بيّنةٌ بأنَّ الشمس محمد بن الأُسيوطي ، الشهير بابن خَيرةٍ ، الفاسِخ لنكاح برُدْبَك التاجي عن بنت السِّبْرْبَاي رجع عن حكْمه بالفسخ المذكور ، بمقتضى رِيْبَة قويَّة ظهرت له في الشهود بِقادِحٍ ظهر فيهم ، وثبت كَوْنهم كانوا مُتَلَبِّسين به عِند الشهادَة عنده بمقتضى الفَسْخ ، وثبت ذلك عند أبي حامِد ، وحكم بموجبه ، وكان قد جرى في هذا الأمر فصولٌ تطول وتعصَّب بعضُ من يُنْسب إلى العِلم للصَّلاح مع غَيْبَتِهِ ، وأفتوا بأنه لا يحلّ التعرُّض لعقده ، والحال أنه لم يخف عن أحد أنَّه لمَّا كان بُرِدْبَك التّاجِي غائِباً بمكَّةَ أَحْضَر الصلاحُ زوجَتَه وكانت ليِّنة الجانِب ، فأقامت عِنْده ليلةً أو أكثر ، ثم شرع في تعاطي أمْرَ الفَسْخ إلى أنّ فعل وعقد عليها ، فكيف يسعُ مسلماً السكوتُ عن هذا ، فضلاً عن نصره .

واجتهد القاضِي الشافِعي في أنَّ كلاً مِن صلاح الدين ، وبُرِدْبَك يُشهد عليه بطلاقِها ، ثم تصير الخيرة لها في نفسها تختار من شاءت، ومن المقطوع به أنها لاتختار إلا الصلاح، لأنه شابٌ ، وبُرِدْبَك شيخٌ ، وكانت في طول هذه المدَّة تقول : إن رجعتموني إلى بُرِدْبَك قتلتُ نَفْسِي ، فلمّا لم يوصل إلى هذا ، وقامَت البيِّنَةُ بما قامت عِند أبي حامد هـذا ، وهـو غريبٌ من البلد ، وماله بها كبيرُ تَعَلُّق يخشى عليه ، وهو مع ذلك جاهِلُ

---

(١) قَافَة : جمع (قائف) ، وهو من يُحسن معرفة الأثر وتتبعه .
« المعجم الوسيط » (٢ / ٧٦٦)

الذِّكْرِ ، سخيفُ العَقْل ، يريد الشهرَة بشىء مِن الأشياء ، اجترأ على ذلك مع إحْجام جميع النّوّاب عنه ، حتى أعْداء البلاقِنَة .

وكان السراج العبادي الشافعي قد أَفْتى بأنَّ هذا الفَسْخ لا يُتَعرّض إليه ، عِلْمَاً منه بأنَّ هذه المجازَفَة تمشي له ، لكثرة المتعرِّضين ، فإنّ الحنفيَّة بأسرهم كانوا على المناوي ، ومع العلَمَ بعد أَنْ كانوا أشدَّ النّاسِ تشنيعاً عليه ، إذ كان مُتَوَلِّياً ، فَعُلِم أنّ ذلك إنما بغضٌ لأهْلِ هذا المذهَب ، وإرادَة للغَضّ منهم ، فهم يتوصَّلون إلى أذاهم بإعانَة بعضهم على بعض. وستعلم الحقَّ في هذه المسألة إنْ شاء الله تعالى .

وفي هذا الحد ، تواصل قدومُ المماليك الذين كانوا في البحَيْرَة ، ثم وَصَل الأمراءُ إلى برّ الجِيْزَة ثامِن عشر الشهر ، وعَدوا إلى مِصر القديمة بكرة يوم الأربعاء ثامِن عشر الشهر ، وَسَلَّموا على السلطان ، وَلَبِسوا ما جرت لهم العادَةُ به ، مِن الخِلَع ونزلوا إلى مَحَالِّهم .

وفي هذا الشهر ، أو الذي قَبْله وُلِّي الشرف موسى بن مفلح الغزّي ، قضاءَ الشافعية بغزَّة عن أبي الوفاء شمس الدين بن الحمصي .

وفي هذا الحد ، وَصَل الجلالُ محمد بن الحُسَام محمد بن العماد الغزّي ، الشهير بابن بُرَيْطع (بالتصغير) يَسْعى في المدرستين اللتين أخذهما العلاءُ بن قاضي عجلون [منه] [١] .

[٢٩٨] وفي يوم الخميس تاسع عشر ذي الحجّة هذا وُلِّي الأمير محمد بن مبارك عدّاد الغنم ، حجِابَة الحجاب بدمشق عن جانِبَك الذي فرّ مِن النائب .

---

(١) في الأصل (منهما) ، والتصحيح من مفهوم السياق .

وفي هذا اليوم (١) ، مات أفضلُ الدين (٢) القْرمي ، أحد النوّاب الحنفيَّة بالقاهِرة ، وعلى يده كان أكْثَر حلّ الأوْقاف بالاستبدال ، وتوسّع في هذا الباب إلى أنْ خرج عن الحدّ ، وفسد الأمرُ ، وكان يُنْسب إلى التساهل في الأحكام ، وكان كثير الحج والمجاورَةِ ، فَلَعل ذلك يكفّر عنه وكان مِن أبناء الستين فيما أظن ، وكان مِن أهل الفضل في الفقه وله مشاركة في غَيْره رحمه الله .

وكان لمَّا حكم أبو حامِد القُدُسي في أمْرِ امرأة بُردْبَك التاجِي بما تقدَّم، بلغت النِّكايَةُ مِن العَلَم صالح بن امرأتِه الصلاح الذي كان أغار عليها بفسخ النِّكاح ، والزَّواج ، فأرسل العَلَمُ إلى صهره أميرَ المؤمنين ، فأرسل إلى السلطان يطلبُ أن يُعْقَد لذلك مجلسٌ بالقضاة الأرْبع ، ومشائخ العِلْم ، وكان السراج عمر العبادي قد أَفْتى بأَنَّ نكاح الصَّلاَح لا يُتعرَّض إليه ، فرسم السلطانُ بذلك ، وأن يَحْضروا يومَ الأربعاء في الصّالحيَّة ، ثم تكلَّم الأميرُ يَشْبُك الفقيه شادّ المؤيَّديه في أَنْ يدفَع الصَّلاحُ بنُ بركوت مالاً لبُرْدْبَك ويعذر له ، وسأل السلطانَ في تأخير عقد المجلس إلى يوم الخميس هذا إنْ لم يجيبوا إلى الصُّلْح ، فأمر بذلك ، وكان الذي سأل فيه ألف دينار ، ثم تَنَزَّل إلى خمسمائِة ، وكان السفيرُ في ذلك كاتِبُ السر فإنه كان ميلُه إلى البلاقِنَةِ ، فتكلَّم في ذلك ، فلم يجيبوا إلاّ إلى ثلاثمائة، بعد

---

(١) في « النجوم الزاهرة » (١٦ / ٣١٤) ، و «الضوء اللامع » (١٠ / ١٤٢) ، مات ليلة الثلاثاء ١٧ ذي الحجَّة .

(٢) هو : محمود بن عمر بن منصور ، أفضل الدين أبو الفضل بن السراج القرْمي الأصل القاهري الحنفي ، نشأ في القاهرة ، ولازم عدداً من علمائها في عدة فنون ، وناب في القضاء .

له ترجمة في « النجوم الزاهرة » (١٦ / ٣١٤) ، و«الضوء اللامع » (١٠/ ١٤٢ رقم ٥٧٠) .

أمور ، فأُرسل إلى القضاة أنّ المجلس أُخِّرَ إلى يوم السَّبْتِ ، وكأنّه لم يُرسَل إلى الشافِعي ، فحَضَر ، فانتظر ساعةً ، ثم ذهب ، ثم طلع بُرْدْبَك ومعه جماعَةٌ مِن أَعْيان الأمراء ، فتظلّم إلى السلطان بِأنَّه أُخِذت زوجَتُه قَهْراً ، وهي مَنْ عَلِم كلُّ مَن يَعْرِفه إحسانه إليها وكَلَفه عليها ، ثم خانت بعد ذلك وأحضرها الصلاح إليه للفساد ، فأقامت عِنده أيّاماً ، فوقع له عندها ، فَفَسخ عقدها ، ثم فعل ما فعل ، فإنْ لم يحصل لي نِصْفَةٌ انْتَصرت لِنَفْسي ، ولم أترك قَتْلاً ، ولا مادونه ، وأهلكت نَفْسِي وغَيْري ، وكان الذين معه يتعمَّمون له .

وقال : إني ذهبت اليوم في خِدمة القاضِي الشافِعي ، لما رَسَم به السلطان مِن عَقْد المجلس فلم يحضر أحدٌ ؛ فَرَقَّ له السلطانُ ، فقال كاتِبُ السر : ما تُرِك الحضورُ إلاّ بسؤال الأمير يَشْبُك على لِسانِك التأخِيرَ إلى أنْ يتحرَّر أمرُ المال ، فقال : أَنَا لا أَرْضى بخمسمائة . فقال السلطانُ : أنا أعْرِف أنّه أنْفَق على هذه المرأة أموالاً كثيرةً ، دَعْهم يعطونه سبعمائة دينار . قال : كاتِبُ السر : فقلت : إنهم لم يصلوا إلى ثلاثمائة إلا بعد الجهد . فقال : لابُدَّ مِن سبعمائة ، وليفرضوا أنهم أَعْطَوا ما وَعَدوا به رِشْوَةً ، أنا وعدوني على نصرة بألف دينار ، وأَحْضروا إلي شخصٍ مِن أرْكان الدولة خمسمائة دينار ، وأودعوها عِند شخصٍ ووعدوه عِند تمام الأمر بخمسمائة أخرى . فدعهم يبذلون لبُرْدْبَك مِن ذلك سبعمائة ، فأظهر بُرْدْبَك عَدَمَ الرِّضى بذلك ، فقال له السلطانُ : خُذْ هذا ، وإذا ظهر صلاحُ الدين قَبَضْتُ عليه ، وشفيتُ خاطِرَك فيه ، ثم دعاه فسارَّه بأمْرٍ أظهر الرِّضى به ، ثم نزلوا على ذلك .

وفي هذا الحدِّ جاءت مكاتباتُ المغارِبة مِن القُدُس ، بأنَّ ناصِر الدين بن التَّاج بن الدَّيْرِي القُدُسي ، قاضِيَ الحنفَّية بها عاد إلى ماكان عليه مِن

المجاهَرَة بالفِسقْ ، وتصدَّى لِلْحكْم ، فقام عليه المغارِبَةُ ، وحصلت كائِنةُ فاحِشَةٌ ، وأُوصِلَتِ القضيَّةُ بالأمير الكبير شَرِبَاش ، فأُرسل إلى السَّعد الدَّيْرِي قاضِي الحنفيَّة بالقاهِرة من بَشِع عليه ما يفعله ابنُ ابنه ، وأَنَّه لا يحل له إقرار مثل ذلك ، فحصل له مِن ذلك ذِلٌّ ، بَعْد أنْ كان أَظْهر مساعَدَة ابن ابنه ونَصره على مَن يُنَاوِئه .

[٢٩٩] وفي أواخِر يوم السبت حادِي عشري ذي الحجَّة هذا ، ماتت بنت[١] الأمير الكبير شِربَاش على حالة هائِلة ؛ وذلك أنّه كان زوَّج ابْنَةً من بعض بناتِه بالأمير خَيرِبَك[٢] البهلوان ، وعملت جَدَّتُها خَونْد شقراء بنت الناصِر للفرح مِن الأمور : الأطعمة والأشربة والشموع وغيرها ما نُسبوا فيه إلي الإسْراف والافتراق ، فلما كانت ليلة الزَّفَاف حُملت إلى زوجها ، فلمّا فَرَغ الجلاءُ ، ولم يبق إلا إخلاؤه بها نَفَست هذه وهي خالتها، فاشتغلوا بها فولدت ، ثم ماتت ، فانقَلب سرورهُهم حزناً ، وهناؤهم عزاءً ، ثم نقلوها إلى بيتهم وعملوا في الحزن مِن النَّوْح واللطم وغيرهما مِن أنواع التَّعدِّي نظير ما كان في الفرح مِن التَّعَدِّي ، ودفنوها في تُرْبَة جدِّها الملك الظاهِر في الصحْراء ، وأقاموا هناك أيَّاماً .

وفي يوم الثلاثاء رابع عشري ذي الحجة هذا ، عُقِد مجلسٌ بسبب بنت السِّبرِبَاي التي يتنازعها الصَّلاحُ بنُ بركوت ، وبيتُ العَلَم صالح ،

---

(١) وهي خديجة ، أمها خَوَند شقراء ابنة الناصر ، تزوجها خير بك من حتيت الأشرفي بَرْسْباي . لها ترجمة في « الضوء اللامع » (١٢/ ٢٧ رقم ١٥٠) .

(٢) خيربك الأشرفي برْسْباي البهلوان ، تأمر عشرة في دولة إينال ، ثم نفاه الظاهر خُشْقَدم إلى البلاد الشامية ، ثم صار من مقدّمي دمشق ، ومات في وقعة سوار في شوال سنة ٨٧٣هـ وهو في عشر الستين . له ترجمة في : « حوادث الدهور » (٧٢٨) ، و«الضوء اللامع» (٣/ ٢٠٨ رقم ٧٧٩) .

وبُرْدْبَك التّاجِي بعد أن استمالوا السلطانَ ، والدُّوَيْدَارَ الكبير جانَبك ناظِر جُدَّة ، وكاتِب السر المحب بن الشِّحْنَة ، وأَنْظارِهم ، بالمال ، وكان السراج العبادِي الشافِعي قائماً في معارضة الشرف يحيى المناوي قاضِي الشافعية ؛ لإظهار نفسه ومال معه الحنفيَّةُ بِأسْرِهم بُغْضاً في الشَّافِعيَّة ، وحَسَداً لهم في أنْ يكون لهم رأس هو أهْل للرئاسة ، فحضر القضاةُ والعبادِي والأمين الأَقصرائي ، والبدر محمود بن عبيد الله الحنَفِيَّان وغيرهم، فكان من أوَّل ما وَقع أن أُظهر الحكمُ بالفَسْخ لنكاح بُردْبَك ، فأُعْطِيَ للشمس محمد بن [أحمد [1] بن حسن بن إسماعيل بن يعقوب بن إسماعيل] العنتابي الأصل ، المصري ، الشهير بالأَمْشَاطِي ، فأخذه ونظر فيه ، فإذا هو مُنَفَّذٌ على القضاة الأَربعة ، فقال : هذا مُسْتَنَدٌ مُجْمَعٌ عليه . يَعْنِي لتنفيذ مَن نَفَّذه ، ثم شرع كلٌّ منهم يتكلّم بنحو هذا مِن الكلام الذي لا يَحِلّ سماعُه ، فقال الشافِعيُّ : هذا أمرٌ التعصبُ فيه ظاهِرٌ ، فإن أُريد أنّي أتكلَّم في هذه القضية ، فأنا لا أَتكلّم إلاَّ مما يظهر لي مِن مذهَبي ، وإنْ كان يُرَادُ مِنّي شيء غَيْرَ هذا فأنا قد دفعتُ هذه القضيَّة عَنِّي ، فيأمر السلطان مَن أراد بالكلام فيها . فاغتنمها كاتِبُ السرّ ، وكان مائِلاً مع البلاقِنَة بوجهين : أحدهما أنهم كانوا صادَقُوه حالَ ولايَتهِم ، والثاني أنّ المناوِي كان حَكَم عليه أيَّام الظاهِر جَقْمَق بثلاثين ألف دِينار، أثبت القاضِي..[2]، الدين النّويري أَنَّ تَغْري [3] وَرْمُش نائب

(١) ما بين الحاصرتين بياض في الأصل ، والتصحيح من « هامش ٥ » من (ص ٢٨٥) من القسم الأول .

(٢) بياض فى الأصل بمقدار كلمة .

(٢) هو : تَغْري وَرْمَش ، أو تَغْري بَرْمش بن أحمد ، واسمه حسين ، وكان يُدعى بابن المصري ، ولد ببَهَسنا قبل سنة ٨٠٠ هـ ، وكان له ملك بها فخربت أملاكُه وافتقر ، خدم الأمير طوخ ، وحضر معه إلى حلب ولما قُتل طوخ خدم جَقْمَق دَوَادَار المؤيَّد ، وعمل دَوَادَاره وعندما استقر فى السلطة =

حَلَب أوْ دَعها عِنْدَه ، فادَّعى الظاهِرُ أنَّه يستحق أخْذَها مِنه ، والحال أنَّ لتغري وَرْمُش وارثاً ، وأنّ النُّوَيْرِي مع [كونه] [1] فاسقاً متهوِّراً هو عَدُوٌّ لابن الشِّحْنَة ، فقدح ابنُ الشحنة في ذلك ، فلم يَلْتَفِتُ إليه المناوِي ؛ لأنّ الظاهِرَ كان عليه ، وناظِرَ الخاص الجمال يوسف ، وغالِب أهْل الدّوْلَةِ تبعاً لهما ، فلمّا كان مغرضاً لهذا ، ودفع المناوي القضِيَّة على هذا الوجْه حَسَّن له كاتبُ السرّ فِعْلَه ، وسأل السلطانَ أنْ يجعل ذلك إلى الحنَفِي ، فأجاب ، فقال الحنفيُّ : قَدْ استخرتُ الله تعالى ، وحكمتُ بتقرير نكاح صلاح الدين هذا مِن غَيْر أَنْ تكون دَعْوى ولا سائِل في ذلك ، ولا الحكم مما يمشي على مَذْهبه ، فإنه حكُم على غائب .

نعم نُقِل عنهم أَنَّ الحاكِمَ منهم إذا أقْدَم على الحُكْم بِهِ لم يكن له ذلك، ولكنه يُنَفّذ حُكْمَه به ، فأقَلّ مافي ذلك أَنَّ الحاكِمَ الحنفيَّ به مُقْدِم على مالا يجوز ؛ لأَنّه حاكم علي غائب ، فإنّ صورَة المسألة ، أن بُرِدْبَك كان غائباً في الحجاز ، فأرسل زوْجَتَه إلى مِصْرَ ، فاجتمعت بالصّلاح بن بركوت المكيني [٣٠٠] فأعجبته ، وكان يُنْقل أنّ بزوجها بُرِدْبَك بَرَصاً ، وكانت مُطَّلِعَةً عليه ساكِتةً عنه ، فحسَّن لها الفَسْخُ عليه ليتزوَّجها ، وأَرْغبها بالمالِ ، وهو شابٌّ ، فمالت إلى ذلك ، وكان العَلَم زوْج أمّه قاضِي الشّافِعَّية ، وهو المتصرِّف عنه ، ليس له معه كلمة أصْلاً ، وكان له مَكْرٌ ودهاءٌ وصَوْلةٌ على جميع من لـه تعلُّق عِنْدَهم ، وكـان الشمس بـن خَيرةِ

= رقّاه فصار أحد المقدَّمين ، ثم أمير آخوره ، ثم نائباً لحَلَب سنة ٨٣٩ هـ ، وقتله الظاهِر جَقْمق بعد خروجه عن طاعته يوم الأحد ١٧ ذي الحجة سنة ٨٤٢ هـ .

له ترجمة فب «إنباء الغُمر (٩/ ٨٠) ، « والمنهل الصافي » (٤/ ٥٨ رقم ٧٦٧) ، و« الدليل الشافي» (١ / ٢١٨ رقم ٧٦٥) ، و«النجوم الزاهرة » (١٥ / ٤٧٢ ـ ٤٧٣) ، و« الضوء اللامع » (٣/ ٣٥ رقم ١٤٧) .

(١) ما بين الحاصرتين غير واضح الرسم في الأصل ، والتصحيح من مفهوم السياق .

الأُسيوطي منسوباً إلى الجُرْأة في الأَحْكام والإقْدَام على مالا يُقْدِم عليه غَيْرُه ، وكانت عِنْدَه فضيلةٌ ، فنَدَبَه لهذا الأمْر ، واستشهد باثنين ممن في مجالِس الفِسْق ، أحدهما تَبعٌ لشرف الدين الفيَّومي ، المعروف بالشُّرَيفْ (مصغراً مخففاً) وَفِسْقه بالخمر وغيْره ، والتَّزْوير أشهر مِن الشَّمْس ، فخافه ابنُ خَيره ، فلم تسعه مخالفَتُه ، ففسخَ نِكاح بُرْدبَك بشهادة ذَيْنك الفاسِقين بأنّه أبْرصٌ ، وأنها اختارت الفَسْخَ .

ثم جاء بُرْدبَك هذا مِن الحجاز ، والعَلَمُ صالحُ البُلْقِيني مُتَوَلٍّ ، وطلب الكَلامَ غَيْر مَرَّة على أيَّام الأَشْرف إينْال ، فلم يُجَب ، فلمّا انقضت أيَّامُه وأيام ابنه وعُزِل العلمُ ، تكلَّم ، فكان ما مَضَى ، فقد عُلِم بهذا أَنّ هذا حكمٌ على غائبٍ ، فَمن أين للحنفي الدّخول في إمْضائه ، ثم على تقدير أَنَّ ذلك شائعٌ عِنْده ولا خِلاف في أنَّ الغائبَ باقٍ على حُجَّته ومن حُجته أَن يقول : احضروا لى الشهودَ الذين شهدوا عليَّ بما شهدوا حَتَّى انظر فيهم ، وما مستندهم في شهادَتِهم ، فلم يُلْتَفَتَ إلى قوْله هذا ؛ على تقدير أَنَّ الحُكْم بالفَسْخ باقٍ ، وأمّا بَعْدَ الغاءِ الحاكِم لِه فلا شكَّ في لغوه ؛ لإنَّ مذهب الشافعي ، أنَّه إذا قَضى القاضي بشهادة شاهِدَيْن ، ثم تبَيَّن أنهما كانا فاسقين عند الحُكْمِ ، نُقِض الحكمُ على الصحيح مِن القولين ؛ لأنه إذا نُقِض فيما إذا تبيَّن أنَّ الشاهِدَ عَبْدٌ ، مع جواز روايَة العَبْدِ ، ولا نص في ردِّ شهادَته ، ففى الفاسِق أوْلى ؛ لأن ردَّ شهادَته ثابتٌ بالنَّص : ﴿إِنْ جَآءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ (١) ، ﴿مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ﴾ (٢) ، ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ (٣) .

---

(١) الحجرات / ٦

(٢) البقرة / ٢٨٢

(٣) الطلاق / ٢

وروايته مردودة ، بل أنكر جمهورُ الشافعيّةِ على ما حكاه الماوَرْدِي (١) الخِلافَ في هذه المسألة ، ثم إذا سَلَّمْنا الخِلافَ ، فمحله على ما قال الإمامُ فيما إذا كان المحكوم عليه حاضِراً قادِراً على النُّطق بحجَّته ، أمَّا الصَّبِيُّ والمجنون والغائب فيُنْقض الحكم عليهم ببيان فِسْق الشهود قطعاً.

فقد ظهر بهذا أن تقريرها مع ابن بركوت بهذا الفَسْخ لايقوله أَحَدٌ مِن أهل المذاهب ، ولا يَقْدِم عليه عالِمٌ يخافُ الله ، هذا مع مواقِع أُخَر ، لو ذُكِرت ، لأبْكَت مَنْ له غِيْرَةٌ على الدِّيْن ومَيْلٌ إلى المهتدين ، وخيّل المعارضون بأن القاضي ليس له الرجوع عن حكمه ، لأن الحق انتقل إلى غيره ، وأخْرَجوا النُّقولَ بذلك ، وليس النِّزاع فِيه ، وقالوا محلّ الإلغاءِ بالفِسْق ما إذا كان ظاهِراً أو لا يحتاج في دَرْكِه إلى اجتهاد ، فإنْ كان الفِسْقُ مُجْتَهداً فيه لم ينقض بلا خلاف .

قلنا أولاً ، ومَن قال إنَّ هذا الفسق ليس مُجْمعاً عليه ؛ أليس يمكن ذلك ؟ فأقَلُّ ما يوجِب لكم التوقُّف خوفاً من الله . وثانياً ، أنَّه ليس منكم أَحَدٌ إلاَّ وهو يَعْرِف أن الشاهِدَيْن المحَدَّث عنهما ملازِمان [١٠٣] لابن بركوت فِي مجالِسه الفاجِرَة ، مع شريف والمرأة المذكورة ، وهما مِن جملة مَن يُغَنِّي ويَمْجُن ، فإن لم يكونا شارِبَيْن ، فهما حاضِران محسِّنان . وثالِثاً ، أَنّ مسألة الاجتهاد المذكورَة إنّما هي على تقدير أنْ يكون القاضِي مِن أهل الاجتهاد ، كما هـو أصْلَ الباب ، فـإنَّ الشافِعي شَرَط في القاضِي

(١) هو : أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري البغدادي الماوردي ، كان من وجوه الفقهاء الشافعيين ، وله عدة تصانيف ؛ في أصول الفقه وفروعه ، من مؤلَّفاته : « أدب الدنيا والدين » و«الأحكام السلطانية » و «قانون الوزارة وسياسة المُلك » ، مات في يوم الثلاثاء سلخ شهر ربيع الأول من سنة ٤٥٠ هـ.

له ترجمة في : « تاريخ بغداد » (١٢ / ١٠٢ رقم ٦٥٣٩) ، و«سير أعلام النبلاء» (١٨/ ٦٤ رقم ٢٩) ، و«طبقات السبكي » (٥/ ٢٦٧_٢٨٥) ، و«طبقات الأسنوي» (٢/ ٣٨٧_٣٨٨) .

الاجتهاد وَتَبِعه الأصحابُ على ذلك ، وتجويزهم لمن دونه إنما هو للضرورة، فغالِبُ مسائل القضاء مبنيّةٌ على ماهو أصل الباب ، وأمّا إذا كان مقلداً ، فإذا كان ما ارتكبه الشاهِدُ مُفْسِقاً عند مقلده كفاه ذلك .

وغايته أنَّ الحُكمْ إذا ضاع به على المحكوم عليه مالٌ ، لا يغرمه الشهودُ وعليه ينزل ما نقله الزَّرْكَشي [١] عن الإمام ، مِن أنَّه قال في باب حد الخمر : « متى كان الفِسْق مُجْتَهداً فيه ، فلا رجوع للحاكِم بَعْد النَّقْضِ على الشهود ، فقد أثبت النقضَ ونَفَى الرجوعَ بالمال ، وذلك لأنَّ نص مقلده في حَقِّه ، كنص الشارع ، وذلك كافٍ في نقض ما وَقع به الإلزامُ ، وأمّا الرجوع بالمال ، فأمْر آخر ينفيه أنَّ الأصْل براءة ذِمتهم منه » . ورابعاً ، أنَّ هذا الحاكم كان في صورَة المُكْرَه ممن له عليه سلطان ، وأيّ سلطانٍ وهو مُوَلِّيه ، وقد قال الغزالي : « ولو قال : أَكرهني السلطان على الحُكم بقبولها ، وكنت أعرف فِسْقَها ، قُبل قولهُ مِن غير بيِّنَة بالإكراه » .

ولما انفصل المجلس سُئل السلطانُ في ردِّ المرأةِ إلى بيت ابنِ بَرَكُوت ، فأجابَ فَنُقِل إليَّ أَنَّ بُردْبَك أخذَ مَنْ أطَاعَه ، وجَلَسوا على الباب الذي كان موكَلاً بها فيه ، ومعهم أَطْبَار [٢]، فلم يجسر أحَدٌعلى نَقْلها .

فالويلُ لإهل الأَغراضِ مِن يوم الحَشْر ، يوم تُظهر المخبَّآت ، وتُكْشَفُ

---

(١) هو : محمد بن بهادر بن عبد الله المصري الزَّركشي الشافعي ، بدر الدين أبو عبد الله ، ولد سنة ٧٤٥ هـ ، وبرع في عدة فنون : الفقه ، والأصول ، والحديث والأدب ، ومات في سنة ٧٩٤ هـ ، من مصنّفاته : «البحر المحيط » في أصول الفقه ، و«الديباج في توضيح المنهاج » في الفقه ، و«شرح جمع الجوامع ـ للسبكي » .

له ترجمة في : « شذرات الذهب » (٦/ ٣٣٥) ، و«الأعلام » (٦/ ٢٨٦) ، و«معجم المؤلفين» (٩/ ١٢١ ـ ١٢٢) .

(٢) أَطْبَار : جمع طَبَر ، وهو نوع قديم من السلاح ، يشبه الفأس .

« محيط المحيط » (٢/ ٥٤٩) .

السرائرُ ، وتُبْرَز الضمائر ﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوٓا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾[1] وإنّي والله لأخشى مِن عموم العذاب لهذه الفعلة التى أُبيح فيها الزّنا على رؤوس الأشهاد ، وقد قال تعالى : ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيها ، فَحقَّ عَلَيْهَا القَوْلُ فَدَمَّرناها تَدْميراً »[2] .

وفي ليلة الخميس سادِس عشري ذي الحجة هذا ، اجتمعتُ بكاتِب السرّ ، المحب بن الشِّحْنَة وسألْته عن المجلِس ، فأخْبَرني بنحو ما تقدَّم . فقلت : كيف يكون هذا المجلس بحضوركم ؟ كيف يُقَال في شيء حُكِمَ به ونَفَّذَه القضاةُ الثلاثةُ ، هذا مُجْمَعٌ عليه ؟! أَيَحِلُّ السكوتُ على هذا ؟! وهل صار الإجماعُ عِبارةً عن اجتماع أربعة أَنْفُسٍ على شيءٍ مع مُخَالَفَةِ مَن لا يُحْصى لهم ؟ ودار بَيْني وبَيْنَه في ذلك كلامٌ كثير ، ودفعتُ الشُّبَه التي أبداها بعضُ المعترضين مِن الشَّافعية ، ففهمتُ منه أنّه عالِمٌ بجميع ما ذكرْته ، غير أنه شديدَ الحُنْقِ على المناوي بخصوصِه ، مع ما يَنْضَمُّ إلى ذلك مِن محبَّة انتصارِ أهلِ مذهبه ، وعلوِّ أمْرِهم ، فآخِرُ ما اعتذر به أنْ قال : لولا انفصل المجلسُ على هذا الأمر جرت أمور [٣٠٢] فقلت : بِّينوها ؛ ليزول ما عِنْدي . فقال : كان العامَّةُ وغيرهم يقولون : إنَّ الفقهاءَ لا دِيْنَ لهم ؛ لأنهم حكموا بنكاحٍ باطِلٍ ، واستمرَّوا ساكتين عليه بِضْع سنين . فقلت أهذا فقط ؟! فِحيْنَئِذٍ نظرَتم إلي جَانِبِ النَّاس ، وتركتم ماهو الأقْربُ إلى رِضي الله ، فلم يُجب عن ذلك بجوابٍ شافٍ ، فقلت : والله إنِّي لأخْشى أن يقول الناس هذا ؛ لتقرير هذا الأمر ، ووالله إنِّي لأخشى غائلةَ هذه القَضِيَّة على النّاسِ عموماً .

وَبُتُّ مهموماً لذلك ، شديدَ الذُّعْرِ ، فلما أصْبَح صُبْحُ الخميسِ

---

(١) الشعراء / ٢٢٧ .

(٢) الإسراء / ١٦

المذكور وثب الظاهِريَّةُ الجَقْمقِّيَةَ على أَشْرَفِيَّةِ بَرْسْباي ، فقبضوا على أعيانِهم : قَرْقَماش أمير سِلاح ، وجانبك المشد وجانِبَك الظَّرَيِّف وهو الدُّوَيْدار الثاني ، وبَرْسْباي خال العزيز وهو رأس نَوْبَة النُّوب ، وقَانَم طاز وهو الخَزَندار الثاني وغيرهم ، ثم أمرهم السلطانُ بإطلاق أمير سِلاح فأطلقوه فَفَرَّ الباقون واستلأموا ، وذهبوا إلى الأمير الكبير شَرِباش وهو مقيمٌ في تربَة الملك الظاهِر بَرْقُوق لأجل ابْنَة ابنته، فلما أحسّ بالأمْرِ اختبأ، وأمر بإغْلاق أبواب التُّـرْبَة وهي حصينة، فلم يزالوا حتّى فتحوها، وأزْهبوا مَن هناك ، فدلُّوا عليه ، فأرْكبوه هو وابنه ، ودخلوا بهما مِن باب النَّصْرِ وهم يقولون للناس : ادْعوا للملك النّاصِر [1] بالنَّصْرِ . وكان منهم : قانصوه صهر نائب الشام ، وتِمْرَاز الساقِي تلميذ عيسى الغندور ، وسُنْقُرقَرق شَبق الزَّرَ دْكاش ، وذَهبوا به إلى البيت الذي اعتادوا الرّكُوبَ مِنْه ، وهو الذي كان له بابٌ يُفْتح إلى الرُّمَيْلَة فَسَدّه الأشرفُ إيْنال ، وأحْدَقوا به ، ليجعلوه رأساً لهم ، يقاتِلون به ، فبينما هم على ذلك ، ذهب معظمُهم إلى بيت ناظِر جُدَّة لينهبوه أو إلى غَيْره ، فذهبتْ عيونُ الظاهِريَّة فأخبروهم ، فنزل منهم فريقٌ ، فتسَوَّروا مِن العمارة التي بناها الأشرف في بابه الذي كان يُفتح إلى الرُّمَيْلة ، ثم رَمَوا على مَنْ داخِل الحوْش ، فكشفوهم ، فلما انحازوا منهم إلى الجنب دَخَل فريقٌ آخر مِن الباب ، فناوَشوهم ، فهزموهم ، ثم أخَذَوه وابنه وطلعوا بهم إلى القَلْعة وقتلوا جماعته فانْفَضَّ ذلك الجمع ، وهَرَب كلٌّ منهم إلى جهة ، وكان يُظَنُّ بِشَرِبَاش الكراهَة لما فُعِل بـه ، فتبين مـا يـدل على خِلافِـه ؛ وذلـك أنَّ

---

(١) يقصدون الأمير الكبير شَرِباش ، وهو لقب استاذه الناصر فرج بَرْقُوق .

« النجوم الزاهرة » (١٦ / ٢٦١) .

أصْهَاره كلّهم أشرفية وليس منهم مِن الظاهِرِيَّة إلاّ بُرُدْبَك البَشْمَقدار ، وكان عِنْده في التُّرْبَة، فلّما بلغهم الخَبَرُ قال له : قُمْ بِنَا إلى القلعة . فقال : فِي رِجْلي وَجَعٌ يَمْنعني مِن الرّكوب . فقال له : أَنَا أُعِيْنَك ولو أنّي أحملك على عنقي . وكان بُرُدْبَك شديدَ الأسر ، قويَّ البَدَنِ ، طويلَ القامَة ، قادِراً على أكثر مِمّا قال له ، مع أن بُرُدْبَك أيْضاً كان برجله وَجَع ، فلم يُطعه ، فَرَكِب بُرُدْبَك ، وطلع إلى القلعة ، فلمّا وَقَع ما وَقَع . قال له : لو وافقتني لاسترحت [٣٠٣] من هذه الفضيْحَة .

ولم يُظهر له السلطان شيئاً ، بل قال : أنا أَعْرِف أَنَّ هذا ما فُعِل إلاّ وأنت كارِهٌ له ، ثم بات الأمراءُ والمباشرون في القَلْعة ، فلما أَصْبح يومُ الجمعة سابع عشرى الشهر قُيِّد رؤساء المقبُوض عليهم ، وهم : جانِبَك المِشَدُّ ، وجانَبِك الظَّرِّيف ، وَبيبَرس ، وَقَانَم طاز وهو الخَزْنْدار الثاني وكُرْتَباس ، وَبيبَرس ، أحد رؤوس النُّوب ، وأَبْرَك ، وأنزلوهم على الهيْئة المعتادَة لِمَنَ يُسْجن في إسْكندريّة ، وأما قانْصُوه ، صِهْر نائب الشّام فاستجار بقَانَم التَّاجِر أمير مجلس ، فشفع له عِنْد السلطان ، وأمّا تِمْرَاز وَقَرَق شَبَق ، وخَيربَك البَهْلوان صِهر شَرباش وغيرهم ، فإنهم اسْتَخْفَوا .

بُرُدْبَك التاجي

وأما بُرُدْبَك التاجي ، فكان موكلاً بالبيت الذي فيه امرأته المخلوعة يحفظها مِن أنْ تذهب إلى صلاح الدين ، فلما وقعت هذه الحركةُ أَمَر غِلْمَانَه بحفظها ، واسْتَلأم وذَهَب إلى القلعة ، ولمّا سِمَعت المرأةُ الأَخْبَارَ تزيَّت بِزيِّ القَوَابلِ [1] وخرجت مُسْتَعْجِلة ، فقال لها غلمانُه : مالَكِ ؟ فقالت إنها توجعت للنِّفاس وأنا ذاهِبةٌ أُحْضِر لها ما يُصْلحها ؛ فمكّنوها

---

(١) القَوَابِل : جمع قابِلة ، وهي المرأةُ التي تساعد الوالدة ، تتلقى الولَدَ عند الولادة .

« المعجم الوسيط » (٢/ ٧١٢) .

فذهبت إلى المجالِس التي هي معروفة بها عِند الخاص والعام ، حَتّى لقد أنشدني كاتِبُ السرّ ، المحب بن الشحنة المذكور قال : أنشدنِي ناظِرُ الجيش الزَّيْن أبو بكر بن مُزْهِر لبَعْضِ بنات العَلَم صالِح البُلْقِيني زوج أُمِّه على لِسان بنت السِّبْرباي هذه ، تُخاطِب الشَّرَفِ الفيَّومي المذكور :

يــا حبيبَ القَلْــبِ يــا سيِّدي شُريْف
قــم بنــا نَســْكَرُ ونضــربُ بــالــدُّفيْف
وإنْ تكــلَّم ذا الهُنَيــْدي ذا الخــرَا
قــم بنــا نَصْفــَعُ عُنَيْقــَهُ بالكـُفَيْف

أو قال : بالخُفَيف . وهي تعني بالهنيدِي زوجها الصَلاَح المذكور ؛ إمّا لأنَّ وجهه يُشبه وُجُوه الهنود ، وإمّا لأن أباه بركوت عبدٌ معتوقُ المكين هِندي .

وأمَّا الزَّرَدْكاش فكانوا شديدي الحنْق عليه ، فذهبوا إلى بيته ، فناوشهم عنه مماليكُه فَحَرقُوهُ ونَهَبوا ما قَدِروا عَلَيْهِ مِنْه ، ثم تَتَبَّعوه إلى أنْ قَبَضُوا عليه مِن القَرَافَةِ ، وقَبضَوا على جماعةٍ مستكثرة مِن الأَشْرَفِيّة غَيْر مَن تقدَّم[1] .

ونزل المباشِرون بَعْد عصر يوم الجمعة المذكور ، بعد أن كُتِب إلى الأمراء بِسائِر البلاد ، مِن الحجاز وَينْبُع والشام ، يخبرونهم بهذا الأمر ، ومنهم نائِب الشّام ، كتبوا إليه : « أنّ جماعةً مِن أَشْرفَّيةِ إِيْنَال انْضمُّوا إلى

(١) راجع تفصيلات أخرى عن هذه الحوادث في : « حوادث الدهور » (٤١٠ ـ ٤١١) ، و«النجوم الزاهرة » (١٦/ ٢٦١ ـ٢٦٢) ، و«بدائع الزهور» (صفحات لم تنشر) (١٠٥ ـ ١٠٦) .

بَعْضِ أشَرَفيَّة بَرْسْباى ، وحسّنوا لهم الفِتْنَةَ فأطاعوهم فيها فَتَثَبَّتنا في الأَمْرِ وأَحْسَنَّا في تتبعه ، فلما صَحَّ عِندنا قَبَضْنا على رؤوسِ أَهْلِ الفتنةِ ، فلان وفلان ، فَلْتُحط العلومُ الكريمةُ بذلك » . ونحو هذا مِن الكلام .

وقيل : إنَّهم أرسلوا إلى النّوّاب والأمراء بالقَبْض على جَانَم نائب الشَّام وتِمْراز نائب صَفَد .

ثم إنّهم شفعوا في خَيربَك البَهْلَوان ، فأُعْطي خبراً في طرابُلُس ، ونُفِي إليها ، ثم بلغني أنه لمَّا وَصَل إلى غَزَّة قُيِّد وذُهِبَ به إلى قَلْعة الصُّبَيْبَة ، فسُجن بها .

وأمَّا تِمْرَاز ، وهو صِهْر قَرْقَماش أمير سِلاح ، فاستمر مختفياً ، وكذا بيْبَرس الطويل وغيرهما .

واستمروا عِدة أيَّام في القَبْض على من يَعْرفون عنه شَرَّاً مِن طائِفَتَي الأشْرَفيَّة ومن والاهم ، فنَفوا بَعْضاً ، وسَجَنُوا بعْضاً ، وغَرَّقُوا [1] كثيراً ، وكنت في شَكٍّ مِن التَّغْرِيق إلى أنْ أَخْبَرني مَن لم أشكّ في صِدقه مِن المسافرين في البحر أنَّه رأى على الشطّوُطِ أرْبعةً مُقَرَّنين في حَبْلٍ غَرْقي وثلاثة وغير ذلك ، وأخبره غيرَه أنهم رأوا كثيراً .

وأخبرني كـاتِبُ السرّ أَنــَّه نُفِيَ منهم جماعــةٌ إلى الغَرْب ، وجماعــةٌ إلى الواح[1] ، هذا ما وَقع في ثالث ذلك اليوم .

---

(١) الواح : مفرد (الواحات) وهي خطّة في غربي بلاد مصر ، بين مصر والإسكندرية والصعيد والنوبة والحبشة ، بعضها داخلُ بعض ، وهي على قسمين ، واحات داخلة وواحات خارجة ، وجملتها أربع واحات ، كثيرة التمر والنخل ، وفيها أراضٍ شبيه وزاجية ، وعيون حامضة تُستعمل كاستعمال الخل ، وعيون مختلفة بين مرّ وحامض وحريف وملح ، ولكل منها منفعة وخاصية .

راجع « معجم البلدان » (٥/ ٣٤١ ـ ٣٤٢) ، و«خطط المقريزي » (١/ ٢٣٤) ، و«الخطط التوفيقية » (١٧/ ٢٩) .

ثم لم تمض السَّنةُ وأَحَدٌ مِن رؤوس المتغرِّضِين بخير ، أمّا ابنُ الدَّيْري فَعُزل مِن القضاءِ ، وأما كاتِبُ السرّ فَعُزِل عن كِتابَة السِّرِّ وأُخِذ منه مالٌ كثيرٌ ظلماً ، وزُلْزِل زلزالاً شديداً ، وأمَّا الشيخ أَمِين الدين ، فإنّه طلع إلى السلطان في أمْر ابن القاياتي فأغلظَ له السلطانُ ، ثم رُجِم وهو خارِجٌ مِن باب القَلْعَة ، فَلَم يَفْلَت إلاَّ بالجَهْد ، وسيأتي كلُّ ذلك مُفَصَّلاً في مَجَالِهِ والله الموفّق .

جعل تمربغا رأس نوبة

وفي يوم الاثنين ، سلْخ ذي الحجة سنة خمس وستين وثمانمائة ، خُلِعَ على الأمير تَمُرْبُغا الظاهِري ، بأَنّه رأس نَوْبَةِ النُّوب ، وعلى جانِبَك كُوهِيَّة، المؤيَّدي بأنه الدُّوَيْدَار الثاني مِن غير زيادَة في إقْطاعِه[1] .

وفي هذا الحد ، أُعِيْدَ إلى الحُسَام بن بُرَيْطِع الحنَفَي المدرستانِ اللتان كان أَخَذَ العلاءُ بنُ قاضِي عجلون ، قاضِي الحنَفِيَّة بدمشق نظَرَهما وَتَدْرِيْسَهما عنه .

يليه القسم الرابع
إن شاء الله تعالى

(١) راجع الخبر في : « النجوم الزاهرة » (١٦ / ٢٦٣) ، و«بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر ، ١٠٦-١٠٧) .

الفهـارس العـامة

١ - فهرس الآيات القرآنية

٢ ـ فهرس الأحاديث النبوية

٣ ـ فهرس القوافى

٤ ـ فهرس الأعلام

(أ)

(ب)

(ت)

(ث)

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

(ص)

(ض)

(ط)

(ظ)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

(و)

(ى)

٥ ـ فهرس الفرق والطوائف والأمم والقبائل

(أ)

(ب)

(ت)

(ج)

(ح)

(خ)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

(ص)

(ط)

(ظ)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

(هـ)

(و)

(ى)

٦ ـ فهرس الأماكن والمواضع والبلدان

(أ)

(ب)

(ت)

(ح)

(خ)

(د)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

(ص)

(ض)

(ط)

(ظ)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ن)

(هـ)

(و)

(ى)

٧ - فهرس المصطلحات الأدارية والعسكرية والوظائف

(أ)

(ب)

(ت)

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

(ذ)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

(ص)

(ط)

(ع)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

(هـ)

(و)

(ى)

٨ ـ فهرس المصطلحات الفنية

(أ)

(ب)

(ت)

(ث)

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

دنانير (دينار) : ٥ ، ٧ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٧ ، ١٨ ، ٣٠ ، ٣٢ ، ٤١ ، ٤٧ ، ٥٢ ، ٥٨ ، ٦٥ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٥ ، ٨٧ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٦ ، ١٠٥ ، ١٢٢ ، ١٢٦ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣٢ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٤٥ ، ١٤٧ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٨ ، ١٦٩ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٧٨ ، ١٨٦ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩٣ ، ١٩٩ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٥ ، ٢٠٧ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢٢٠ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٨ ، ٢٣٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٣ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ٢٦٨ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٢٩٥ ، ٢٩٧ ، ٣٠٠ ، ٣٠١ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ٣١١ ، ٣١٢ ، ٣١٤ ، ٣١٥ ، ٣١٦ ، ٣١٧ ، ٣١٨ ، ٣١٩ ، ٣٢٠ ، ٣٢٢ ، ٣٢٣ ، ٣٢٤ ، ٣٢٨ ، ٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٣٣٢ ، ٣٣٣ ، ٣٣٤ ، ٣٣٥ ، ٣٣٨ ، ٣٤٢ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤ ، ٣٤٧ ، ٣٤٩ ، ٣٥٠ ، ٣٥٨ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠ ، ٣٦٥ ، ٣٦٩ ، ٣٧٠ ، ٣٧٢

دنانير البنادقة : ١٥٠

دنانير الفرنج : ١٥٠

(ذ)

ذراع : ٧٣ ، ٧٩ ، ٨٨ ، ٩٠ ، ٩٧ ، ١٠٩ ، ١٢٠ ، ١٢٥ ، ١٤٣ ، ١٤٨ ، ١٥٢ ، ١٦٢ ، ٢٧٤ ، ٣٤٦ ، ٣٥٤ ، ٣٦١

ذهب : ٧١ ، ٧٢ ، ١٦٦ ، ١٦٥ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٣٠٥ ، ٣٤٩ ، ٣٦٠

(ر)

رسم : ١٦ ، ٥٢ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٢٢٧ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٥١ ،

(ز)

(س)

(ش)

(ص)

(ض)

(ط)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

(هـ)

(ى)

٩ ـ فهرس الغـــزوات

١٠ ـ فهرس أسماء الكتب

١١ ـ فهرس مصادر ومراجع التحقيق

ابن الأثير : علي بن أبي الكرم محمد بن محمد (ت ٦٣٠ هـ)
الكامل في التاريخ
بيروت : صادر ، ودار بيروت ١٣٨٥ هـ
الأسنوي : جمال الدين عبد الرحيم (ت ٧٧٢ هـ)
طبقات الشافعية
تحقيق : عبد الله الجبوري
الرياض : دار العلوم ، ١٤٠١ هـ
ابن إياس : محمد بن أحمد الحنفي (ت ٩٣٠ هـ)
ـ بدائع الزهور في وقائع الدهور (تاريخ مصر) ط ١ ،
القاهرة : المطبعة الأميرية ببولاق ، ١٣١١ هـ
بدائع الزهور في وقائع الدهور (صفحات لم تنشر)
تحقيق : د/ محمد مصطفى
مصر : دار المعارف ، ١٩٥١ م
البخاري : أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة الجعفي
(ت ٢٥٦ هـ)
صحيحه
تركيا ، استانبول : المكتبة الإسلامية ، ١٩٧٩ م
البستاني : المعلم بطرس
محيط المحيط
بيروت : مكتبة لبنان ، ١٩٨٧ م

ابن بطوطة : أبو عبد الله محمد بن إبراهيم اللواتي (ت ٧٧٩هـ)
تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار (رحلة ابن بطوطة)
بيروت : دار بيروت للطباعة والنشر ، ١٤٠٠هـ
البغدادي : أبو بكر أحمد بن علي الخطيب (ت ٤٦٣ هـ)
تاريخ بغداد ، أو مدينة السلام
بيروت : دار الكتاب العربي
البقاعي : برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر (ت ٨٨٥هـ)
عنوان الزمان بتراجم الشيوخ والأقران
مخطوط ، بجامعة أم القرى ، بمكة المكرمة
بـــك : أحمد عيسى (الدكتور)
تاريخ البيمارستانات في الإسلام
ط ٢ ، بيروت : دار الرائد العربي ١٤٠١هـ
ابن البيطار : ضياء الدين عبد الله بن أحمد الأندلسي المالقي (ت٦٤٦هـ)
الجامع لمفردات الأدوية والأغذية .
بغداد : مكتبة المثنى ، طبعة معادة بالأوفست
ابن تغري بردي : جمال الدين أبو المحاسن يوسف (ت ٨٧٤هـ)
ـ المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي
القاهرة : : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ٨٤ ، ٨٥ ، ١٩٨٦م
ـ الدليل الشافي على المنهل الصافي
تحقيق : فهيم محمد شلتوت
القاهرة : مطبعة الخانجي
ـ حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور (منتخبات منه)

حرَّرها ، وليام ببَّر
أمريكا ، كاليفورنيا : ١٩٣٠م
- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة
القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب
الجزيري : عبد القادر بن محمد بن عبد القادر الأنصاري (ت ٩٧٧هـ)
درر الفوائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة
القاهرة : المطبعة السلفية ومكتبتها ، ١٣٨٤هـ
ابن الجوزي : أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي بن الجوزي (ت ٥٩٧هـ)
المنتظم في تاريخ الملوك والأمم
ط ١ ، حيدر آباد الدكن : مطبعة دائرة المعارف العثمانية ١٣٧٥هـ
ابن الجيعان : شرف الدين يحيى بن شاكر بن الجيعان (ت ٨٨٥هـ)
كتاب التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية
القاهرة : مكتبة الكليات الأزهرية ، ١٩٧٤م
حاجي خليفة : مصطفى بن عبد الله القسطنطي الرومي الحنفي ملا كاتب الجلبي (ت ١٠٦٧هـ)
كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون
دار الفكر ، ١٤٠٢هـ
الحاكم : محمد بن عبد الله بن محمد النيسابوري (ت ٤٠٥هـ)
المستدرك
ط دار الكتاب العربي
ابن حَجَر : شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي العسقلاني (ت ٨٥٢هـ)
- تهذيب التهذيب

ط ١ ، حيدر آباد : مطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية
- إنباء الغُمر بأبناء العمر في التاريخ
ط ٢ ، بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤٠٦هـ
الحربي : إبراهيم بن إسحاق بن إبراهيم بن بشير (ت ٢٨٥هـ)
كتاب المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة
تحقيق : حمد الجاسر
الرياض : ١٣٨٩هـ
الحموي : شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله (ت ٦٢٦هـ)
معجم البلدان
بيروت : دار صادر ، ودار بيروت
الحميري : محمد بن عبد المنعم (ت ٧٢٧هـ تقريباً)
كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار
تحقيق : د/ إحسان عبّاس
بيروت : دار القلم ، ١٩٧٥م
الحنبلي : أبو الفلاح عبد الحي بن العماد (ت ١٠٨٩هـ)
شذرات الذهب في أخبار من ذهب
بيروت : المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع
ابن حوقل : أبو القاسم محمد بن علي النصيبي (ت ٣٦٧هـ)
كتاب صورة الأرض
بيروت : دار مكتبة الحياة
خسرو : ناصر (ت ٤٤٤هـ)
سَفَرْنامَة
تعريب يحيى الخشاب
ط ٢ ، بيروت : دار الكتاب الجديد ١٩٧٠م
ابن خلدون : عبد الرحمن بن محمد الحضرمي المغربي (ت ٨٠٨هـ)

تاريخه
بيروت : مؤسسة الأعلمي للمطبوعات
ابن خلكان : أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر (٦٨١هـ)
وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان
تحقيق : إحسان عباس
بيروت : دار الثقافة
ابن دقماق : إبراهيم بن أيدمر العلائي (ت ٨٠٩)
الانتصار لواسطة عقد الأمصار في تاريخ مصر وجغرافيتها
بيروت : المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر
الذهبي : شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨هـ)
- سير أعلام النبلاء
ط ١ ، بيروت : مؤسسة الرسالة
- العبر في خبر من غبر
تحقيق : أبوهاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول
بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤٠٥هـ
الرصافي : معروف
الآلة والأداة ، وما يتبعها من الملابس والمرافق والهنات
تحقيق : عبد الحميد الرشودي
بغداد : دار الرشيد ١٩٨٠م
الزركلي : خير الدين
الأعلام
ط ٣
السبكي : تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي

(ت ٧٧١هـ)
طبقات الشافعية الكبرى
تحقيق : محمود محمد الطنامي وعبد الفتاح محمد الحلو
القاهرة : دار إحياء الكتب العربية
السخاوي : شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي (ت ٩٠٢هـ)
ـ الضوء اللامع لِأهل القرن التاسع
بيروت : دار مكتبة الحياة
ـ التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة
القاهرة : دار نشر الثقافة ، ١٣٩٩هـ
ابن سلام : أبو عبيد القاسم (ت ٢٢٤)
كتاب السلاح
تحقيق : د/ حاتم صالح الضامن
ط ٢ ، بيروت : مؤسسة الرسالة ، ١٤٠٥هـ
السيوطي : الحافظ جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١هـ)
ـ حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة
تحقيق : أبو الفضل إبراهيم
ط ١ ، القاهرة : دار إحياء الكتب العربية ، ١٣٨٧هـ
ـ نظم العقيان في أعيان الأعيان
حرره : فيليب حتي
نيويورك : المكتبة السورية ، ١٩٧٧م
ابن سِيْدَة : أبو الحسن علي بن إسماعيل النحوي الأندلسي (ت٤٥٨هـ)
المخصص
بيروت : دار الفكر
أبو شامة : شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي (ت ٦٦٥هـ)
كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية

تحقيق : محمد حلمي محمد أحمد
القاهرة : المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر، ١٩٦٢م
ابن شداد : بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم (٦٣٢هـ)
النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (سيرة صلاح الدين)
تحقيق : د/ جمال الدين الشيال
ط ١ ، القاهرة : الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٤م
الصفدي : صلاح الدين خليل بن أيبك (ت ٧٤٩هـ)
كتاب الوافي بالوفيات
نشر ، دار نشر فرانز شتاينر بقسبادن
الصيرفي : علي بن داود الجوهري (ت ٨٨٩هـ)
إنباء الهصر بأبناء العصر
تحقيق : د/ حسن حبشي
القاهرة : دار الفكر العربي ، ١٩٧٠م
الظاهري : غرس الدين خليل بن شاهين (ت ٨٧٣هـ)
كتاب زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك
صححه : بولس راويس
باريس : المطبعة الجمهورية ١٩٨٤م
عاشور : سعيد عبد الفتاح (الدكتور)
العصر المماليكي في مصر والشام
ط ١ ، القاهرة : دار النهضة العربية ١٩٦٥م
العصامي : عبد الملك بن حسين بن عبد الملك (ت ١١١١هـ)
سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي
القاهرة : المطبعة السلفية ومكتبتها

علـــي : محمد كرد
خطط الشام
ط ٢ ، بيروت : ١٣٩١هـ
العمـري : شهاب الدين أحمد بن يحيي (ت ٧٤٩هـ)
ـ التعريف بالمصطلح الشريف
تحقيق : محمد حسين شمس الدين
ط ١ ، بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤٠٨هـ
ـ مسالك الأبصار في ممالك الأمصار (دولة المماليك الأولى)
دراسة وتحقيق : دَورُويتا كرافولسكي
ط ١ ، بيروت : المركز الإسلامي ، ١٤٠٧هـ
ـ مسالك الأبصار في ممالك الأمصار (قبائل العرب في القرنين السابع والثامِن الهجريين)
دراسة وتحقيق : دورُويتا كرافولسكي
ط ١ ، بيروت : المركز الإسلامي للبحوث ، ١٤٠٦هـ
الفيروز آبادي : مجد الدين محمد بن يعقوب (ت ٨١٧هـ)
القاموس المحيط
بيروت : المؤسسة العربية للطباعة والنشر
الفيومي : أحمد بن محمد بن علي المقري (ت ٧٧٠هـ)
المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي
تصحيح مصطفى السقا
مصر : مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده
القلقشندي : أبو العباس أحمد بن علي (ت ٨٢١هـ)
ـ صبح الأعشى في صناعة الإنشاء
نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية بالقاهرة
ـ قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان
تحقيق : إبراهيم الأبياري

ط ١ ، القاهرة : مطبعة السعادة ، ١٣٨٣ هـ
- نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب
بيروت : دار الكتب العلمية
ابن كثير : إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوء بن كثير (ت ٧٧٤هـ)
البداية والنهاية
ط ١ ، بيروت : مكتبة المعارف ، ١٩٦٦م
كحالة : عمر رضا
- معجم المؤلف (تراجم مصنِّفي الكتب العربية)
بيروت : دار إحياء التراث العربي ، ومكتبة المثنى
- معجم قبائل العرب القديمة والحديثة
ط ٢ ، بيروت : دار العلم للملايين ، ١٣٨٨ هـ
لسترنج : كـــي
بلدان الخلافة الشرقية
ترجمة : بشير فرنسيس ، وكوركيس عواد
ط ٢ ، بيروت : مؤسسة الرسالة ، ١٤٠٥ هـ
ماجد : عبد المنعم (الدكتور)
نُظُم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر
القاهرة : الأنجلو المصرية ، ١٩٦٧م
ابن ماجة : الحافظ أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني (ت ٢٧٥ هـ)
سننه
تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي
ط دار إحياء الكتب العربية
مـــايـر : ل . أ
الملابس المملوكية
ترجمة : صالح الشيتي
القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب

مبــارك : علي باشا (ت ١٣١١ هـ)
الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة
ط ١ ، القاهرة : المطبعة الأميرية ببولاق ، ١٣٠٥ هـ
مجموعة من الأساتذة
أطلس العالم
بيروت : مكتبة لبنان
المحامي : محمد فريد بك
تاريخ الدولة العلية العثمانية
تحقيق : د/ إحسان حقي
ط ٥ ، بيروت : دار النفائس ، ١٤٠٦ هـ
مفتاح : رمزي (الدكتور)
إحياء التذكرة في النباتات الطبية والمفردات العطارية
ط ١ ، القاهرة : مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ، ١٣٧٢ هـ
المقريزي : تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي المقريزي (ت ٨٤٥ هـ)
ـ المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (الخطط المقريزية)
بيروت : دار صادر
المعجم الوسيط :
ط ٢ ، القاهرة : دار المعارف ، ١٣٩٣ هـ .
ابن منظور : جمال الدين محمد بن مُكَرَّم الأنصاري (ت ٧١١ هـ)
لسان العرب
طبعة مصورة عن طبعة بولاق بالقاهرة .
الموسوعة العربية الميسرة :
صورة عن طبعة ١٩٦٥م
القاهرة : دار الشعب ومؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر

مؤنس : حسين (الدكتور)
أطلس تاريخ الإسلام
ط ١ ، القاهرة : الزهراء للاعلام العربي ، ١٤٠٧هـ
الميداني : أبو الفضل أحمد بن محمد بن أحمد النيسابوري (ت ٥١٨هـ)
مجمع الأمثال
تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد
ط ٣ ، دار الفكر ، ١٣٩٣هـ
نصر : محمد سيد (وآخرون)
أطلس العالم
لبنان : بيروت ، مكتبة لبنان
النعيمي : عبد القادر بن محمد الدمشقي (ت ٩٢٧هـ)
الدارس في تاريخ المدارس
تحقيق : جعفر الحسيني
القاهرة : مكتبة الثقافة الدينية ، ١٩٨٨م
النويري : شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت ٧٢٣هـ)
نهاية الأرب في فنون الأدب
نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب
الوزّان : جان ليون الأفريقي (الحسن بن محمد الزياتي)
وصف إفريقيا
ترجمة من الإيطالية إلى الفرنسية : آ . إيبولار وترجمة من الفرنسية إلى العربية : د/ عبد الرحمن حميدة .
الرياض : جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية .
هازارد : هاري ، و
أطلس التاريخ الإسلامى
ط جامعة برنستون : ١٩٥٤م
ترجمة مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر

١٢ ـ فهرس الموضوعات

رقم الإيداع

٩٣/٥٣٢٥

عربية للطباعة والنشر

١٠٠٧ شارع السلام ـ أرض اللواء المهندسين
ت: ٣٠٣٦٠٩٨